النويري وكتابه

نهاية الأرب في فنون الأدب

مصادره الأدبية وآراؤه النقدية

تأليف

الدكتورة أمينة محمد جمال الدين



الباب الأول

النويرى عصره وحياته

الفصل الأول : الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية فى عصر النويرى

الفصل الثانى : حياة النويرى .

الفصل الثالث : شيوخه وثقافته .

الفصل الأول

الحالة السياسية والاجتماعية والفكرية فى عصر النويرى

أولا : الحياة السياسية

كان الملك الصالح نجم الدين الأيوبى هو آخر ملوك الدولة الأيوبية ، انتهت تلك الدولة بموته فى سنة ٦٤٨ ، وحين تولت جاريته ثم زوجته « شجر الدر » ملك البلاد ، قامت دولة أخرى عرفت فى التاريخ باسم « دولة المماليك البحرية » .

كانت الأمم التركية التى عاشت بمنطقة تركستان وبلاد ما وراء النهر قد شتتها الإعصار المغولى الهائل ، الذى قاد موجته الأولى إلى تلك المناطق جنكيز خان منذ سنة ٦١٦ هـ ، ففر سكان تلك البلاد وغيرها مذعورين من وجه المغول المتوحشين ، وكان من عادة هؤلاء الفارين أن يبيعوا أولادهم وبناتهم لتجار الرقيق . فيأتى أولئك التجار بأقواهم وأجملهم لبيعهم فى أسواق القاهرة ودمشق وغيرهما من الحواضر الإسلامية (١) . وقد أقبل السلاطين على شراء المماليك من تلك المناطق وغيرها للاستعانة بالذكور منهم فى الجيش أو الخدمة بالقصور . أما الإناث فكان يتم ضمهن إلى الحريم .

---

(١) عن المماليك وأصولهم والأسواق التى كان يجرى بيعهم فيها راجع : ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . طبع بيروت سنة ١٣٩١ ، ٥ : ٣٦٩ . وانظر أيضاً ، الدكتور على إبراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب هو أول من توسع فى الاستعانة بالمماليك ، فقد كان لهم فضل عليه ، يقول المقريزى عن الملك الصالح : « وذلك أنه لما مر به ما مر ذكره فى الليلة التى زال عنه ملكه بتفريق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه ، رعى لهم ذلك ، فلما استولى على ملك مصر أكثر من المماليك ، وجعلهم معظم عسكره ... وسماهم البحرية لسكناهم معه فى قلعه الروضة على بحر النيل » (١) .

كان هؤلاء المماليك يجرى تدريبهم على فنون القتال والفروسية ، فبرعوا فيها وصاروا مقاتلين من الطراز الأول ، وتشكلت منهم — فيما بعد — القوة الضاربة للجيش المصرى ، الذى ظل يذود ببسالة وشجاعة منقطعة النظير عن حياض الإسلام ضد المغول والصليبيين ، وأحرز أعظم الانتصارات فى هذا المجـــال (٢) .

ولم يلبث الحكم فى الديار المصرية والشامية أن استقر — بعد سنوات من التقلب بين كبار أمراء المماليك — للسلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى سنة ٦٥٨ هـ. ولقد حرص بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر على أن يكون الحكم فيها وراثيا لأبنائه من بعده ، فبعد وفاة بيبرس تولى الحكم ابنه «الملك السعيد بركة خان» سنة ٦٧٦ هـ ، غير أن الملك السعيد تحيز للمماليك من خاصته وأطلق أيديهم فى تسيير دفة الأمور فى البلاد ، وتعيين نواب السلطنة وعزلهم ، مما أدى إلى استياء الأمراء الصالحية (٣) وخاصة الأمير سيف الدين قلاوون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر وغيرهم فطلبوا من الملك السعيد إقصاء المماليك وإبعادهم عن كل نفوذ فى الدولة ، فرفض الملك طلبهم ، فما كان من الأمراء إلا أن اجتمعوا بقيادة « الأمير سيف الدين قلاوون » وحاصروه بالقلعة ، وقطعوا عنها الماء . (٤)

(١) تقى الدين أحمد بن على المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، طبع القاهرة ١٣٢٦ ، ١ : ٣١٩ .

(٢) انظر : ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، الترجمة العربية ، الجزء الثالث ، ص ٥٢٨ ، طبع بيروت سنة ١٩٦٩ م .

(٣) نسبة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين .

(٤) راجع المقريزى : السلوك ، ١ : ٦٥٢ وما بعدها .

ولما اشتد حصار الأمراء للقلعة ، أرسل السلطان إلى الأمير سيف الدين قلاوون ، والأمير بدر الدين بيسرى يعلن أنه يخلع نفسه من السلطنة ، على أن يعطوه « الكرك » فأجاباه إلى ذلك ، وأجلس المماليك أخاه « بدر الدين سلامش بن بيبرس» على العرش فى سنة ٦٥٨ هـ (١)، ولم يكن عمره يزيد عن سبع سنوات ، وتم تعيين الأمير قلاوون « أتابكا » له (٢) .

غير أن الأمير قلاوون سرعان ما استغل صغر سن سلامش ، الذى لقب بالملك العادل ، فقبض على زمام الأمور فى البلاد ، وأخذ يتطلع إلى سلطنة مصر ، ومن ثم عمل على إزاحة مناوئيه ، والتقرب إلى أمراء المماليك الصالحية ، بإغداق الإقطاعات عليهم حتى اتفقوا على خلع « سلامش » وإنفاذه إلى الكرك ، وتولية قلاوون بدلا منه (٣) .

وهكذا استطاع قلاوون إزالة الملك من بيت بيبرس وتأسيس أسرة حاكمة حكمت مصر زهاء قرن من الزمان (٤) ، وعرفت فى التاريخ باسم « بنى قلاوون » . وهى الأسرة التى عاش النويرى معظم حياته فى ظلها (من ٦٦٧ إلى ٧٣٣ هـ) .

المنصور قلاوون :

تولى قلاوون الحكم فى سنة ٦٧٨ هـ ، فتلقب بالملك المنصور ، ولم يكد يستقر له الأمر حتى خرج عليه شمس الدين سنقر الأشقر ، نائب الشام ، ورفض مبايعته ، ثم دعا سنقر الأشقر أهل دمشق إلى طاعته ، وتلقب بالملك الكامل (٥) .

---

(١) انظر النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٨ ، ورقة ١٢٦ من النسخة المصورة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) انظر المقريزى ١ : ٦٥٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٥٨ .

(٤) انظر ، الدكتور محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، الحالة السياسية والاقتصادية فى عهدها بوجه خاص ، طبع مصر ١٩٤٧ م ، ص ٢٢ .

(٥) المقريزى ، السلوك جـ ١ ، ص ٦٧٢ وما بعدها .

وكان من شأن هذا الخلاف أن يسيل لعاب المغول الطامعين فى السيطرة على الشام ، لا سيما وأن سنقر الأشقر كاتب « أباقا بن هولاكو » إيلخان المغول فى فارس يحسن له الإغارة على بلاد الشام (١) .

ولما وصلت الأنباء إلى سمع الملك المنصور قلاوون بأن المغول قد جردوا جيشا للهجوم على الشام ، كون جيشا عسكر بحماه سنة ٦٧٩ هـ. ولقد اتجهت جحافل المغول نحو حلب — التى أخلاها أهلها — فدخلها المغول وأحرقوا ما بها من الجوامع والمدارس ، ودور الأمراء ، وارتكبوا فيها وفى المنطقة المحيطة بها من صنوف الوحشية والعنف ما اضطر الأهالى إلى الفرار نحو الجنوب . أما المغول فقد رحلوا عنها عائدين إلى بلادهم بما أخذوه من الأسلاب والمغانم (٢) .

وسرعان ما عاود المغول الكرة ، فهاجموا بلاد الشام من جديد سنة ٦٨٠ ، وأقام ملكهم « أباقا خان » بقلعة الرحبة ، وتقدم أخوه « منكوتمر بن هولاكو » بالجيوش المغولية حتى وصل حماه . وهناك دار قتال بينهم وبين المماليك قرب حمص ، فحمل المماليك على المغول حملة صادقة انتهت بهزيمتهم وقتل كثير منهم (٣) ، فكانت هذه هى الهزيمة الرابعة التى لحقت بالمغول على يد المماليك بعد وقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ) والبيرة (٦٧١ هـ) وأبلستين (٦٧٥ هـ) (٤) .

وبقدر ما استبد الحزن بالمغول نتيجة هذه المعركة بقدر ما كان لهذه النتيجة من رنة فرح وسرور فى سائر الديار الشامية والمصرية ، واحتفل

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٢٧٠ .

(٢) المقريزى ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٠ .

(٣) النويرى ، نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٨ — ٩ .

(٤) انظر : عباس إقبال ، تاريخ مغول (بالفارسية) طبع طهران ١٤٣٧ هـ . ش . ص ٢١٦ .

أهالى القاهرة باستقبال الملك المنصور قلاوون بعد عودته مظفرا من بلاد الشام (١) .

ولما توفى أباقا فى سنة ٦٨١ هـ ، خلفه على عرش الإيلخانيين فى فارس أخوه « تكودار » ، الذى كان قد اعتنق الإسلام قبل توليه السلطة ، واتخذ لنفسه اسم « أحمد » . فاستهل هذا السلطان عهده بإظهار تمسكه بالدين الإسلامى ، ووحدة المسلمين ، وأرسل كتاباً (٢) إلى الملك المنصور قلاوون أعلن فيه رغبته فى حماية الإسلام ، وأعرب عن ميله إلى أن يسود السلام والوئام بينه وبين جيرانه المسلمين . ولقد كان رد الملك المنصور قلاوون على هذا الكتاب رداً إيجابياً للغاية ، حيث رحب فى ذلك الرد بدخول أحمد تكودار الإسلام ، وزوال الأحقاد التى كانت بين إيلخانات فارس والمماليك فى مصر (٣) . وكان من أثر هذه المكاتبات أن تحسنت العلاقات بين الدولتين المملوكية والإيلخانية .

لكن أمراء المغول لم يلبثوا أن خلعوا طاعة السلطان أحمد خشية سيطرة المسلمين على مقدرات الأمور فى الدولة بعد إسلام السلطان فى سنة ٦٨٣ هـ ، وأجلسوا مكانه ابن أخيه « أرغون بن أباقا » الذى كان شديد التعصب ضد الإسلام والمسلمين ، فبالغ فى اضطهادهم ، مما كان له أسوأ الأثر فى مصر ، فعادت العلاقة بين دولتى المماليك والمغول فى فارس سيرتها الأولى . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذ المماليك يتطلعون فى عهد السلطان الملك الأشرف خليل إلى إجلاء المغول عن العراق وضم هذا القطر إلى مصر (٤) .

لم يكن السلطان قلاوون يدافع عن البلاد التى فى حوزته ضد خطر

---

(١) أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبع مصر سنة ١٩٤٠ م، ج ٧ ، ص ٣٠٤ - ٣٠٦ .

(٢) نقل القلقشندى فى صبح الأعشى نص هذا الكتاب ، انظر ، أبا العباس أحمد القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، طبع مصر سنة ١٣٣٣ هـ ، ج ٨ ، ٦٥ - ٦٨ .

(٣) انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ٧ : ٢٣٧ - ٢٣٤ .

(٤) الدكتور محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ١٧٢ .

خارجى واحد ، هو خطر الإيلخانيين المغول ، بل كان هناك خطر دأهم آخر يترصد دولته ، وهو خطر الصليبيين .

كان الخطر الصليبى قد تقلص إلى أقصى درجة فى عهد الظاهر بيبرس (٦٢٥ — ٦٧٦) ، وانزوى الصليبيون فى بضع نقاط على سواحل الشام ، وخاصة طرابلس وعكا . فلما تولى قلاوون عرش مصر عوّل على مهادنة الصليبيين كى لا يفاجأ بخروجهم عليه وهو يحارب المغول . فجدد الهدنة التى كان بيبرس قد عقدها مع فرسان الإسبتارية بعكا ، وعقد معاهدة مع فرسان عكا ، كما أبرم معاهدة أخرى مع « بوهمند السابع » أمير طرابلس . وكانت مدة هذه المعاهدات عشر سنوات ونيف (١) .

ولما اطمأن السلطان قلاوون من ناحية المغول ، عمل على إخضاع المدن الصليبية بساحل الشام ، ففاجأ حصن الإسبتارية بالمرقب بهجوم كاسح سنة ٦٨٤ ﻫ ، وذلك لأنهم اعترضوا قافلة من التجار المسلمين ،وانتهى الأمر بفتح الحصن بعد حصار دام ثمانية وثلاثين يوماً (٢) .

ولم تمض بضع سنوات أخرى حتى هاجم قلاوون طرابلس فى سنة ٦٨٨ ﻫ ، واستولى عليها (٣) ، ففر الصليبيون منها ، وكان من أثر ذلك أن أصبحت المدن الصليبية ببلاد الشام تحت رحمة السلطان قلاوون (٤) .

وكان من الطبيعى أن ينتهى سقوط طرابلس بسقوط « عكا » ، أمنع حصون الصليبين فى الشام ، فعلى أثر انتهاك سكان « عكا » من الصليبيين لحرمة المسلمين شرع السلطان قلاوون فى إعداد المعدات للاستيلاء على هذا الحصن ، لكنه ما لبث أن توفى فى ذى العقدة سنة ٦٨٩ ﻫ .

---

(١) جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) ابن الدوادارى ، كنز الدرر ، وجامع الغرر ، الجزء الثامن ، تحقيق أولرخ هارمان ، ص ٢٦٨ — ٢٧١ ، طبع مصر سنة ١٩٧١ م .

(٣) أيضاً ، ٨ : ٢٨٤ وما بعدها .

(٤) انظر : الدكتور جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٢٣٩ .

الملك الأشرف :

كان على السلطان الجديد الملك الأشرف خليل بن قلاوون أن يواصل ما بدأه أبوه تجاه الصليبيين ، فواصل استعداداته لغزو عكا ، وسار بنفسه على رأس جيشه إلى هناك سنة ٦٩٠ ﻫ ، وفى النهاية تم فتحها بعد أن استمر حصارها أربعة وأربعين يوماً ، فهرب معظم أهلها إلى جزيرة قبرص ، وأسر باقى أهلها من الصليبيين ، وأمر السلطان بهدم أسوارها ، ثم عاد إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٩٠ ﻫ فزينت له أبهى زينة .

ولم يمض أكثر من عامين وبضعة أشهر على هذا الانتصار الباهر الذى حققه السلطان الملك الأشرف ، حتى دبر بعض كبار أمراء المماليك — وعلى رأسهم بيدرا — مؤامرة قتلوه على أثرها فى شهر المحرم سنة ٦٩٣ ﻫ .

الملك الناصر محمد بن قلاوون :

ولم يكد الأمير « زين الدين كتبغا » يعلم بما حدث للسلطان الملك الأشرف حتى سار بمن معه من المماليك ، فداهموا الجناة على حين غرة ، وأحاطوا ببيدرا وقتلوه ، وتتبعوا أثر الفارين من أتباعه . وعاد كتبغا إلى القاهرة واتفق وباقى أمراء المماليك على مبايعة الملك الناصر محمد بن قلاوون بالسلطنة ، وكان حينذاك فى التاسعة من عمره (٦٩٣ ﻫ) .

ولقد استقر الرأى ، بعد استتباب الأمر للملك الناصر فى كل من مصر والشام ، على البحث عن قتلة الملك الأشرف ، فتم العثور على بعضهم ، وفر الآخرون ، وكان من بينهم حسام الدين لاجين ، وقراسنقر الأشقر ، وكلاهما ظل مختفياً حتى هدأت الأحوال ثم اتصلا بالأمير كتبغا — الذى أصبح نائباً للسلطنة — وحصلا منه على أمان من الملك الناصر (١) .

كان نفوذ أمراء المماليك ، وحرص كل منهم على الاستئثار بالسلطة سبباً فى معظم حوادث الاضطهاد والقتل التى توالت قبل ولاية السلطان الملك

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٨ : ٢٢ .

الناصر وبعدها(١)، وأخذ بعض هؤلاء يحسن للأمير كتبغا السلطة ، ويحرضه على خلع الملك الناصر ، فدعا كتبغا الخليفة العباسى — الذى كان يعيش فى مصر بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ — والقضاة والأمراء وبين لهم عدم أهلية الملك الناصر محمد للسلطنة ومهامها الجسام بسبب صغر سنه ، فاستقر رأيهم على خلع الملك الناصر بعد أن لبث فى السلطنة سنة إلا ثلاثة أيام (٢) .

زين الدين كتبغـا :

ولقد تولى زين الدين كتبغاً عرش مصر سنة ٦٩٤ هـ ، ولقب نفسه بالملك العادل وولى حسام الدين لاجين نيابة السلطنة ، وفوض إليه جميع أمور الدولة ؛ غير أن قلوب أمراء المماليك لم تلبث أن تغيرت على كتبغا بسبب إثارة مماليكه عليهم ، وإحلالهم محلهم فى مناصب الدولة فضلا عن بغضهم له لما ظهر منه من ميل إلى التتار من بنى جنسه حيث كان تترى الأصل (٣) . فتآمر أولئك الأمراء عليه ، واتفقوا مع حسام الدين لاجين على التخلص منه ، فعلم كتبغا بهذه المؤامرة فهرب إلى دمشق ، وكان ذلك فى سنة ٦٩٦ هـ (٤) .

حسام الدين لاجين :

اتفقت كلمة الأمراء المماليك على أن يلى العرش حسام الدين لاجين ، فأغلظ لهم الأيمان بأن يكون معهم كأحدهم ، وألا يستقل برأى دونهم ، ثم تلقب بالملك المنصور ، واتخذ من الأمير شمس الدين قراسنقر نائباً له . غير أن السلطان لاجين ما لبث أن نكث العهد ، فقبض على قراسنقر وعين مملوكه سيف الدين منكوتمر نائباً للسلطنة (٥) . لكن إسناد هذا المنصب إلى

---

(١) انظر : جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٣٥ .
(٢) انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٨ : ٤٨ .
(٣) راجع : ابن الدوادارى ، ٨ : ٣٦١ .
(٤) أيضاً ، ٨ : ٣٦٧ .
(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ٨ : ٨٨ .

منكوتمر كان شراً مستطيرا ، ليس على الدولة فحسب ، بل على شخص لاجين نفسه ، إذ استبد منكوتمر بالأمر دونه (١) ، وأوغر صدره على معظم الأمراء ، فاتبع السلطان سياسة اتسمت بالتشدد معهم والتضييق عليهم ، مما دعا هؤلاء الأمراء إلى التآمر ضد كل من السلطان لاجين ومنكوتمر ، فقتلوهما فى سنة ٦٩٨ هـ ، واتفق رأيهم فى النهاية على إعادة الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى العرش من جديد ، بعد أن كان قد تم إبعاده إلى « الكرك » فبقى فيها إلى ذلك الوقت .

الملك الناصر محمد (السلطنة الثانية) :

عاد السلطان الملك الناصر إلى سلطنته ثانية فى الخامس من جمادى الأولى سنة ٦٩٨ ، واتخذ من الأمير سيف الدين سلار نائباً له ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا (٢) . فلم يمض وقت طويل حتى استبد هذان الأميران بالأمر دون السلطان ، وأخذا فى التضييق عليه ، والتخفيض من نفقته ، ولما عيل صبر الناصر محمد رأى أن ينزل عن العرش ، فأظهر رغبته فى السفر لأداء فريضة الحج ، حتى لا يحال بينه وبين الخروج من مصر (٣) ، ثم ركب بصحبة أمرائه متظاهراً بالسفر إلى الحجاز ، وعندما وصل قلعة الكرك ، أعلن خلع نفسه واتخاذ الكرك محلا لإقامته (٤) ، وكتب بذلك لكل من سلار وبيبرس .

بيبرس الجاشنكير :

ولقد وقع اختيار الأمراء على « بيبرس الجاشنكير » ليتولى العرش محل السلطان الناصر فى شوال سنة ٧٠٨ هـ .

ولقد تمكن الناصر محمد وهو بالكرك من أن يستميل إليه نواب الشام

---

(١) انظر : جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٣٨ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ٨ : ١١٥ وما بعدها .

(٣) انظر جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٤٣ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

من أمراء المماليك ، وانحاز إليه كثير من المماليك والأمراء ، وخرجوا من مصر للانضمام إليه . ولم يلبث الأمراء أن انصرفوا عن بيبرس الجاشنكير الذى أعلن تنازله عن العرش للناصر محمد مقابل أن يؤمنه الناصر على حياته (١) .

الملك الناصر محمد (السلطنة الثالثة) :

تبوأ السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرش الديار المصرية والشامية للمرة الثالثة فى أواخر رمضان سنة ٧٠٩ هـ ، وظل يحكم إلى أن توفى سنة ٧٤١ ، « كان السلطان الناصر كما يقول ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » ... «أعظم ملوك الترك (يعنى المماليك) بلا مدافعة » (٢)، ويقول عنه أيضاً «وكل مافعله الملك الناصر . . دليل على حسن اعتقاده وغزير عقله وجودة تدبيره وتصرفه . . فلله دره من ملك عمر البلاد ، وغمر بالإحسان العباد ، وهذا بخلاف من ولى بعده من السلاطين ، فإنهم لقصر باعهم عن إدراك المصلحة . : . الخ » (٣) .

كان أول ما فعله الناصر محمد عندما استرد عرشه من جديد للمرة الأخيرة أن عمل على الانتقام من الأمراء الذين سلبوه كل سلطته ، فقتل بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٩ هـ، ثم قبض على الأمير سلار ،وزج به فى السجن. وأضمر شراً للأمير قراسنقر الذى حاول تأليب الأمراء على السلطان ثم ما لبث — حين فشل — أن لجأ إلى التتار فى سنة ٧١٢ هـ كما سنرى ، واستتب الأمر للسلطان الناصر محمد بعد أن قضى على نفوذ الأمراء ، ونعمت البلاد بالاستقرار المعنوى والمادى طيلة عهده الطويل الذى انتهى بوفاته سنة ٧٤١ هـ .

وفى عهد الناصر محمد كان المغول الإيلخانيون فى فارس لا يزالون يشكلون خطراً كبيراً على الدولة المملوكية ، لا سيا بعد أن تولى حكم

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ٨ : ٢٧٠ وما بعدها .
(٢) النجوم الزاهرة ، ٧ : ٣١٧ .
(٣) نفس المصدر ، ٩ : ٤٩ .

الإيلخانيين فى إيران « السلطان محمود غازان » الذى سار رغم اعتناقه للإسلام وتمسكه بأهدابه — على سياسة من سبقه من إيلخانات المغول فى بسط نفوذ دولته على ما جاورها من البلاد ، وأخذ يتطلع إلى السيطرة على الشام بوجه خاص . فأعد جيشاً كثيفاً للاستيلاء على تلك البلاد وسار بنفسه على رأس هذا الجيش فى سنة ٦٩٩ ﻫ .

وعندما علم السلطان الناصر (خلال فترة سلطنته الثانية) بالأمر ، توجه هو الآخر بجيشه ، والتقى الفريقان بمجمع المروج بالقرب من دمشق ، فانتصرت جيوش غازان ولحقت الهزيمة بجيوش السلطان الناصر . وما لبث غازان أن دخل دمشق بعد أن أعطى أهلها الأمان ، ثم أقام عليها والياً من قبله هو الأمير « قبجق » . ثم عاد هو إلى بلاده فى جمادى الأولى سنة ٦٩٩ ﻫ.

ولقد وقعت بين المماليك والمغول فى السنوات التالية سنة ٧٠٠ وسنة ٧٠٢ ﻫ أحداث ووقائع كان « النويرى » طرفاً فى بعضها ، وسنذكرها عندما نتحدث عن حياة النويرى إن شاء الله ، على أن أهم الوقائع التى حدثت فى عهد السلطان الناصر هى وقعة « مرج الصفر » ، والتى اشترك فيها مصنفنا النويرى .

وبعد وفاة غازان تولى الحكم فى دولة الإيلخانيين « أولجايتو خدابنده » الذى كان قد فر إلى بلاطه اثنان من أمراء المماليك هما : قراسنقر ، وآقوش الأفرم فى أوائل سنة ٧١٢ ﻫ، وحسنا له غزو الشام لاضطراب الأمور فيها . فأعد أولجايتو جيشاً وتوجه إلى شاطئ الفرات . وفى السادس من رمضان سنة ٧١٢ ﻫ بدأ بمحاصرة « قلعة الرحبة » التى كانت أولى القلاع المتقدمة للدفاع عن حدود بلاد الشام ، وكان فى رفقة أولجايتو فى هذه الحملة كل من قراسنقر والأفرم . لكن هذه القلعة استعصت على أولجايتو ، ولم يستسلم من فيها من الجنود الذين دافعوا عنها ببسالة منقطعة النظير ، فاستبد الضجر بأولجايتو من طول الحصار وقلة الزاد وعنف القتال ، وانتهى الأمر بمغادرته بجيوشه المنطقة وعودته إلى إيران (١) .

---

(١) انظر : عباس إقبال ، تاريخ مغول ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

ولما توفى أولجايتو فى سنة ٧١٦ ﻫ خلفه ابنه « أبو سعيد » ، فرأى أن من الحكمة أن يعقد صلحاً مع المماليك ، فعقد هذا الصلح سنة ٧٢٣ ﻫ ، واستمر مدة حكم أبى سعيد إلى أن توفى سنة ٧٣٦ ﻫ (١) .

أما من ناحية الصليبيين ، فلا شك أن سقوط عكا فى أيدى المسلمين فى عهد السلطان الملك الأشرف خليل قد قضى على آمال الصليبيين لمدة طويلة فى الحصول على موضع قدم لهم فى بلاد الشام وفلسطين ، ولذلك ارتاح الناس طوال فترة حكم السلطان الناصر محمد من الصليبيين . غير أن فرقة ممن فروا من عكا كانت قد استحوذت على جزيرة فى البحر الأبيض المتوسط تسمى جزيرة « أرواد » (٢) . وكان هؤلاء يغيرون من حين لآخر على ساحل طرابلس ، فأرسل السلطان الناصر حملة لمحاربتهم سنة ٧٠٣ ﻫ ، كما أبحر إليها الأمير « سيف الدين اسندمر الكرجى » نائب السلطنة بطرابلس على رأس فريق من الجند ، فتمكن من الاستيلاء على الجزيرة وقضى على بعض أهلها وأسر الباقين (٣) .

والواقع أنه لم يحدث أن قام الصليبيون بعمل ينطوى على خطورة ما خلال فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

---

(١) انظر ، عباس إقبال ، أيضا ، ص ٣٤٥ .

(٢) تقع فى الجهة الشمالية من طرابلس الشام على بعد ٥٠ كيلو مترا ، وفى الجنوب الغربى من انطرطوس على بعد ثلاثة كيلومترات ، انظر هوامش النجوم الزاهرة جـ ٨ : حاشية ١ ص ١١ ، ص ١٥٤ .

(٣) انظر : محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون ، ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، نقلا عن النويرى فى نهاية الأرب (النسخة الخطية ، جـ ٣٠ ورقة ٤) .

ثانيا : الحياة الاجتماعية

قسم المقريزى المجتمع المصرى فى عصر المماليك سبع طبقات . يقول : « الناس بإقليم مصر فى الجملة على سبعة أقسام :

القسم الأول أهل الدولة ، والقسم الثانى أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهية ، والقسم الثالث الباعة ، وهم متوسطو الحال من التجار ، ويقال لهم أصحاب البر ، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة . والقسم الرابع أهل الفلح ، وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف . والقسم الخامس الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم ، والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن . والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة ، وهم السؤال الذين يتلففون الناس ويعيشون منهم » (١) .

كان النويرى ينتمى — حسب هذا التقسيم الاجتماعى — إلى القسم الأول ، وهم أهل الدولة ، وكان هذا القسم يضم سلاطين المماليك وأمراءهم وجنودهم ، ثم الوزراء والكتاب والقضاة .

ولئن بدا من الغريب أن يجعل المقريزى كلا من الفقهاء وطلاب العلم فى الطبقة الخامسة من التنظيم الطبقى الاجتماعى للعصر المملوكى ، لكان هذا فى واقعه أمر طبيعى فى دولة يقوم نظامها على العسكرية ، والإعداد للقتال ، والاهتمام بالفروسية وتقديم ذلك على العلم والكتاب (٢) .

ورغم انتماء النويرى للطبقة الأولى ، وهى الطبقة التى تحصل على كل الامتيازات فى المجتمع ، وتتملك القصور والدور والضياع والبقاع ، وتتوسع فى الترف والرفاهية ، فإن النويرى كان يعد نفسه — كما سنرى — منتمياً إلى تلك الطبقة الخامسة — طبقة الفقهاء وطلاب العلم — ملحقاً بها فى كل حال من أحوالها ، فقد عاش وسط هذه الطبقة ، وظل يقيم بين ظهرانيها ، وكان معظم أصدقائه وخلانه من أفرادها .

---

(١) تقى الدين المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة .

(٢) انظر الدكتور محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر المملوكى . طبع مصر ١٩٧١ ج ١ ، ٤٧ :

وإذا كانت الطبقة الأولى من المجتمع — حسب تقسيم المقريزى — تضم المماليك من السلاطين والأمراء ، كما تضم الوزراء والكتاب والقضاة من أهل البلاد ، ممن استعان بهم المماليك فى تسيير دفة الأمور بالدولة ، فإن كل واحد من هاتين الطائفتين كانت تعرف حدودها ولا تتعداها : فلم يكن هؤلاء الوزراء والكتاب والقضاة من أهل البلاد يتطلعون إلى تولى السلطنة والإمرة بدلا من المماليك (١) .

ولم ير المماليك أنفسهم أهلا لأن يتولوا الوزارة والكتابة بأنواعها والقضاء، فتركوا هذه الوظائف لأهل البلاد .

وهكذا يبدو أن الطبقة الأولى من تقسيم المقريزى إنما تنقسم فى الواقع إلى قسمين : أصحاب السلطة والإمرة من المماليك ، وأصحاب الوظائف ورجال القلم من أهل البلاد .

ويقسم القلقشندى فى صبح الأعشى (٢) الوظائف التى يشغلها رجال القلم قسمين : دينية وديوانية ، فالأولى مثل القضاء ، ووكالة بيت المال ، ونقابة الأشراف ، والحسبة ، ومشيخة الشيوخ فى الخانقاه، ونظر الأحباس المبرورة، ونظر البيمارستان ، والخطابة ، والتدريس ، والديوانية مثل الوزارة ، ونظر الدولة ، ونظر الخاص، ونظر الجيش ، ونظر بيت المال ، ونظر الإصطبلات ، واستيفاء الصحبة ، ونظر الأسواق ، ونظر الخزائن ، والأملاك السلطانية والمواريث .

وأرفع الوظائف الديوانية منزلة كتاب الديوان . ويرأسهم صاحب ديوان الإنشاء المختص بالرسائل الديوانية .

وقد اتهم « السبكى » فى كتابه المملوء بالهجوم على النظام الاجتماعى فى

---

(١) أراد السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٨ — ٧٦٢) ترقية المصريين إلى أمراء ومقدمين بدلا من المماليك ، فثار الحرس الخاص (الخاصكية) على السلطان وقتلوه . راجع ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ١٠ : ٣١٠ .

(٢) انظر : ج ١١ ، ص ٣١٦ وما بعدها .

العصر المملوكى ، وهو الكتاب المعروف باسم « معيد النعم ومبيد النقم »(١)، اتهم بعض كتاب الديوان بالسرقة وقال : « سمعت بعضهم يقول فقد قرأ منقوشاً على بعض دوى الكتاب :

دواتُنَا سَعيدةٌ ليسَ لها من متربهْ
عروسُ حسنٍ جُليت منقوشةٌ مكتّبهْ
قد انطلت جلوتُها على الكرامِ الكتبهْ

قال السبكى : لم تنطل إلا على اللصوص الكتبة فى المكوس . وقال : فإذا رأيت صاحب ديوان من وزير أو غيره يخرج من بيته بعد أن امتلأ باطنه بالحرام، وهو لابس الحرام، وجالس على الحرام، وفتح الدواة الحرام، وأخذ يمد الأقلام الحرام ، ثم عاقب للحرام ، أفليس هذا حقاً إذا رأيته بعد زمن يسير مضروباً بالمقارع ، يطاف به فى الأسواق ويجنى عليه » .

كان الوزراء والكتاب يتقاضون رواتبهم مشاهرة ، وقد بلغ راتب الوزير نحو مائتين وخمسين ديناراً شهرياً . وبجانب الرواتب كان أكابر الكتاب والموظفين يحصلون على مخصصات عينية من لحم وخبز ، وعليق ، وسكر وشمع ، وزيت ، وكسوة . وكانت هذه المخصصات تقدم لهم فى كل سنة، وكانوا يأخذون نصيباً من الأوقاف ، وكان لبعضهم إقطاعات .

ومن الواضح أن الرواتب والمخصصات العينية التى كان يتقاضاها الكتاب والموظفون كانت تكفيهم ، بل وتزيد عن حاجاتهم ، ولم يكونوا يحتاجون معها إلى ممارسة أعمال إضافية أخرى أو القيام بمشروعات تدر عليهم دخلا إضافياً ، إذ لم يكونوا بحاجة أصلا إلى ذلك . فالنويرى يتنقص أحد معاصريه من الكتاب المعروفين وهو « القاضى عز الدين أحمد بن جمال الدين ابن ميسر المصرى» (توفى سنة ٧١٦ هـ)، فيقول عنه : « تولى النظارة بضع مرات ، وكان سىء التدبير . ردئ التصرف فى حق نفسه ، لا يزال يزرع

(١) تحقيق محمد على النجار وآخرين ، طبع مصر ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م ص ٢٩ — ٣٠.

الأقصاب لنفسه بالديار المصرية ، ويدولب المعاصر ، وهو يغرم ولا يستفيد ، ويقترض الأموال ويعيد الدولبة ويغرم ، ولم يزل على ذلك إلى أن مات وعليه جملة كثيرة من الديون الشرعية ، أصلها من التاجر والدواليب » ثم يعقب النويرى على ذلك بقوله : « ولو اقتصر على معلوم مباشراته كان يزيد على كفايته » (١) .

على أن بعض هؤلاء الوزراء والكتاب من المنتمين إلى الطبقة الأولى — وفقاً لتقسيم المقريزى لطبقات المجتمع فى العصر المملوكى — قد بلغ حداً بعيداً من الغنى والثروة والجاه ، كعلاء الدين بن الأثير (توفى سنة ٧٣٠ هـ) الذى كان كاتب سر السلطان الناصر محمد ، فقد اتخذ ابن الأثير هذا الغلمان والمماليك ، وكان يركب فى ستة عشر مملوكاً من الأتراك مشترى كل واحد منهم أكثر من خمسمائة دينار ، وكانت لابن الأثير حرمة ووجاهة ، وأموال وثروة (٢) .

ولكن برغم هذا كله نجد النويرى قد عزف عن الاندماج فى هذه الطبقة ، وأعرض عن تقاليدها ، وضرب صفحاً عن شعارها ودثارها ، وإن ظل منتمياً إليها فترة طويلة من حياته ، حتى استجمع شجاعته فى النهاية ، وقرر أن يكون فرداً عادياً لا ينتمى إلى الطبقة العليا من المجتمع ، كما سنرى إن شاء الله .

ثالثا : الحياة الفكرية

عاش النويرى فى وقت شهد تفوق مصر الفكرى فى سائر أنماط الإنتاج العلمى والأدبى ، فنحن نلتقى بأدب حافل قل أن نجد له مثيلا فى أى بلد من بلدان الشرق الأخرى (٣) . ولقد كان هذا الأدب فى واقعه نتاجاً للحياة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٩٩ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) انظر ، الحافظ ابن كثير ، البداية والنهاية . طبعة القاهرة ١٤ : ١٤٩ .

(٣) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ١ : ٤٠٥ .

الفكرية الزاهرة المتنوعة التى تجلت فى ذلك الحين . وقدمت مصر للعالم نموذجاً حياً رائعاً من الحضارة الإسلامية الأصيلة ، ساهمت فى صنعها أجناس شتى على أرض مصر فى عهد المماليك حتى شهد بذلك المؤرخ النابه ابن خلدون فى القرن التاسع . فقال فى مقدمته : « واختص العلم بالأمصار الموفورة الحضارة ، ولا أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع » (١) .

زعامة سياسية وروحية :

وبعد أن تمكنت الجيوش المصرية من صد الغزو المغولى فى عين جالوت سنة ٦٥٧ ، ولقنت أولئك المغول درساً قاسياً ، وأقامت من مصر قلعة حصينة فى وجه الغزاة من المغول والصليبيين ، تحولت هذه البلاد منذ ذلك الحين إلى موئل للثقافة الإسلامية بعد سقوط بغداد ، عاصمة الخلافة العباسية ، فجاء إليها العلماء من كل مكان ، وقد حملوا معهم ما استطاعوا من كتب ليلجأوا إليها ، فلقوا فيها كل تشجيع من أهلها وحكامها على السواء ، ورأوا بأعينهم كيف يقدس أبناء هذا البلد ذلك التراث الأصيل ، وكيف يحافظون عليه ، ويعضون عليه بالنواجذ . وهنا تهيأت لهؤلاء العلماء السبل لأداء الواجب المقدس المنوط بهم ، ألا وهو إنقاذ الثقافة الإسلامية من براثن الجهل والوحشية . (٢) .

ولقد زادت مكانة القاهرة فى نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لانتقال الخلافة العباسية إليها بعد أن أصبحت بغداد — منذ سقوطها — فى قبضة الدولة الإيلخانية فى إيران . وعندئذ ورثت مصر العراق فى الزعامتين السياسية والروحية ، وفتحت أبوابها على مصاريعها لاستقبال العلماء والأدباء من سائر أرجاء العالم الإسلامى(٣) ، فأضحت منبراً حراً

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، ص ٥١٢ ، طبعة دار الشعب .

(٢) انظر ، الدكتور محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى ، طبع مصر ١٩٧١ م ١ ، ١٠٦ ، والدكتور عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، طبع مصر ١٩٦٨ ، ص ٣١٥ .

(٣) راجع العرض الذى كتبه محمد زغلول سلام فى كتاب الأدب فى العصر المملوكى ١ : ١٠٧ — ١٠٨ لهؤلاء العلماء الذين وفدوا إلى مصر وهاجروا إليها فى ذلك القرن .

متفتحاً لكل رأى، وصارت بوتقة انصهرت فيها أفكار وتجارب شتى ، وتعددت فيها المؤسسات التعليمية والمدارس العالية ، وأتيحت الفرصة فى ربوعها لكل ذى كفاءة لكى يبرهن على كفاءته ومقدرته ، وأنجبت هذه البلاد فى تلك الفترة عدداً وفيراً من العلماء والأدباء الأفذاذ ، قل أن يجود الزمان بمثلهم فى وقت واحد .

ولم يكن حكم الوطنية قائماً بين هؤلاء العلماء والأدباء ، وإنما كان الحكم هنا « للأخوة الإسلامية » ، فلم يكن هؤلاء العلماء والأدباء ينظرون إلى مصر إلا على أنها بلادهم ووطنهم ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم على أنهم ليسوا غرباء ، وإنما هم فى ديارهم . وربما أخطأ البعض فى تفسير التاريخ فى ذلك العصر من منطلق النظرة الوطنية الضيقة ، فقلبوا بتفسيرهم كل الأشياء رأساً على عقب ، ونظروا إلى المماليك أنفسهم على أنهم غزاة ، وأنهم حكموا البلاد بالحديد والنار ، وقهروا أهلها ، وظلموا من فيها من العباد ، واستمتعوا بكل لذائذ الحياة ، وغالوا فى الترف ، وتركوا الشعب يعانى الفقر والجوع والحرمان . . . الخ ، وهذه نظرة نصادفها كثيراً عند قراءتنا لما كتب عن مصر فى عصر المماليك ، لكنها على كل حال لا تمثل الواقع التاريخى السائد فى كل من مصر والشام فى ذلك الحين ، ذلك الواقع الذى احتكم إلى مبدأ من أهم مبادئ الإسلام ، مبدأ الأخوة الإسلامية ، ولم يكن قد شابته تلك الاتجاهات القومية والوطنية ، والتى لم يشعر بها العالم الإسلامى كله إلا فى عصر الاستعمار .

المكتبات :

كانت القاهرة قد عرفت المكتبات الضخمة الهائلة منذ عهد الفاطميين الذين أسسوا مكتبتهم الشهيرة « دار العلم » على غرار « دار الحكمة » التى أسسها الرشيد فى بغداد ، وقد ضمت « دار العلم » نحواً من مليون و ٦٠٠ ألف كتاب(١). ولم يأل المماليك جهداً فى العناية بالمكتبات ، فأضافوا إلى كل

---

(١) انظر ، أنور الجندى ، أضواء على الفكر العربى الإسلامى ، طبع مصر ١٩٦٦ ، ص ٧.

مدرسة أنشأوها — سواء فى مصر أو الشام — مكتبة عامرة بالكتب والمؤلفات فى شتى العلوم ، وكان من أضخم المكتبات الملحقة بالمدارس مكتبة القاضى الفاضل التى ألحقها بالمدرسة الفاضلية ، وقد أخذت تلك المكتبة نحو مائة ألف كتاب من مكتبة القصر الفاطمى (١) .

المـــدارس :

ولقد انتشرت المدارس انتشاراً واسعا فى سائر عواصم مصر والشام ، وكان طلاب العلم يؤمون هذه المدارس بالمجان . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كان هؤلاء الطلاب يتقاضون الرواتب وتصرف لهم الملابس ، وتقام لهم دور داخل المدرسة يقيمون فيها على نفقة الواقفين الذين أوقفوا على هذه المدارس الأموال الجزيلة (٢) خدمة للعلم وأهله .

ولقد حرص بعض الواقفين من المماليك وغيرهم على أن تقتصر الدراسة فى المدارس التى أنشأوها على العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه ، وعلوم القرآن ، على أن يدرس الفقه على مذاهب أهل السنة الأربعة ، وكان يرتب لطلاب كل مذهب شيخ بارز يتولى التدريس لهم ، ويكتب الواقف هذه الشروط ، التى ينبغى على وكيله فى الوقف التزامها ، فى وثيقة رسمية يوقعها فى النهاية بخطه ، ويشهد على ذلك شهود (٣) .

وكان يساعد الشيخ فى التدريس مدرس ، ومعيد ، وعلى المعيد أن يعيد دروس الشيخ لتفهم الطلاب ، الذين يتحلقون حول حلقة ينقسمون فيها إلى مراتب هى : المبتدىء ، والمقيد ، ثم المنتهى (٤) .

---

(١) انظر ، المقريزى : الخطط : ٢ : ٢٥٥ .

(٢) راجع : النويرى : نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ١٢ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة ، وانظر فيما يلى ص ٣٨ وما بعدها .

(٣) راجع نفس المصدر والورقة ، حيث نقل النويرى شروط الواقف على هذه المدرسة كلها فى نحو سبع ورقات من نهاية الأرب ، وانظر فيما يلى ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٤) السبكى ، معيد النعم ، ص ١٠٨ .

ونحن إذا رحنا نستعرض كتاب الخطط للمقريزى لنتعرف على المدارس التى كانت موجودة بالقاهرة فى العصر المملوكى ، نجد كثرة هائلة من هذه المدارس ، كان من أبرزها المدرسة الناصرية ، التى أسسها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والتى أقام النويرى بالمساكن الملحقة بها ، وأفاد من مكتبتها العامرة فائدة جليلة فى تصنيف موسوعته « نهاية الأرب »، كما سيأتى .

البيئات العلميـــة فى مصر والشام :

على أن هذه الحركة العلمية الزاهرة لم تقتصر على القاهرة وحدها ، بل امتدت إلى سائر أرجاء مصر والشام ، كالإسكندرية ودمياط ، ودمشق وغيرها (١) . وكان فى الصعيد مركزان من أهم المراكز العلمية ، هما قوص وأسيوط . وكانت قوص أوسع شهرة من أسيوط ، لكثرة مدارسها ، ووفرة علمائها البارزين .

ولقد نشأ مصنفنا النويرى فى قوص، وخطا فيها أولى خطواته التعليمية. وحدثنا صاحبه الإدفوى فى كتابه « الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » عن البيئة العلمية فى قوص ، فلقد كانت قوص إقليماً واسع الغنى ، كثير الخيرات ، اشتهرت فيه بالعلم والفقه والأدب مدن عديدة أهمها : إدفو، وإسنا ، وقنا . ولقد أحصى الإدفوى مدارس قوص فى القرن الثامن الهجرى فبلغ عددها ست عشرة مدرسة ، كان يدرس فى بعضها واحد ممن تتلمذ مصنفنا على يديه من كبار علماء عصره ، وهو ابن دقيق العيد ، قبل أن ينقل إلى القاهرة .

العلماء ودورهم فى الحياة العامة :

بيد أن العناية فى معظم المدارس المنتشرة فى أرجاء البلاد المصرية والشامية كانت مركزة – فى أغلب الأحوال – على تدريس المواد الدينية . وكان يقوم بتدريس هذه المواد للطلبة نخبة من كبار العلماء الذين كانت السلطة

---

(١) لمزيد من التفصيل ، انظر ، محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى ١ : ١١٦ وما بعدها . عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ، ص ١٥٦ وما بعدها .

المملوكية تخشاهم ، وتخاف بأسهم . فقد كان لهؤلاء وغيرهم من مشايخ الصوفية سلطة روحية على المسلمين من أهل البلاد ، وكان أهل البلاد أطوع للفقهاء والصوفية من الملوك والسلاطين .

ولم يكتف معظم هؤلاء العلماء والفقهاء بأداء دورهم فى تربية الأمة ، ووضع أقدامها على الطريق الصحيح ، وعلى منهج الله عز وجل ، بل اشتركوا بأنفسهم فى الجهاد ضد الصليبيين ، فذهبوا إلى الميدان ، وحملوا السلاح وحمّسوا الجنود للحرب ، وذكروهم بأبطال الإسلام ، وانتصارات المسلمين الباهرة على مر العصور .

وكان هؤلاء العلماء والفقهاء يمثلون « سلطة الأمة بإزاء سلطة الحكومة ، فهم وحدهم زعماء هذه الأمة المصرية ، يذودون عن حقوقها ، ويقفون من أجلها فى وجوه الملوك والحكام . . » (١) ، وإلى هؤلاء الفقهاء والعلماء يرجع معظم الفضل فى دفع الناس فى ذلك العصر دفعاً قوياً إلى المثل الأعلى ، وكثيراً ما كانوا أسبق منهم إلى احتذاء هذا المثل (٢) . مجمل القول أن هؤلاء العلماء كانوا ضمير الأمة وقادة المجتمع ، يرتضى الناس ما يرتضون ، ويعرضون عما أعرضوا هم عنه .

التصـــوف :

وبرغم النفوذ الذى كان يتمتع به الفقهاء ، ظهرت فى عصر المماليك

---

(١) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية . . ص ٦٩ ، ويمكن الإشارة هنا إلى ما ذكره السبكى فى الطبقات الكبرى ٥ : ٨٢ من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (توفى ٦٦٠ هـ) نظر فى أمر المماليك ، فوجد أنهم ليسوا أحراراً ، وأن الرق ينسحب عليهم ويشملهم، وإذن فمن حق المسلمين ألا يصحوا لهم بيعاً أوشراء ولا زواجاً حتى يصبحوا أحراراً . ونادى الشيخ بهذا الرأى ، فكبر ذلك على المماليك ، فأرسلوا إليه يقولون : ماذا تريد منا ؟ فقال لهم : نعقد لكم مجلساً وينادى عليكم فى الأسواق ، ويحصل عتقكم بطريقة شرعية . وأذهل المماليك هذا الأمر ، لكنهم فى النهاية صدقوا به ، ونادى عليهم الشيخ بالأسواق وغالى فى ثمنهم ، وقبضه كله ، وصرفه فى وجوه الخير .

(٢) انظر ، عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية ، ص ٦٨ .

الكثير من طرق المتصوفة، وهم الخصوم القدماء للفقهاء (١)، وأنشئت العديد من الخانقاهات والرباطات التي يتعبد فيها الصوفية بالقاهرة وغيرها .

ومن اعتقاد السلاطين في الصوفية (٢) — كما أورد ابن حجر العسقلاني في « الدرر الكامنة » — أن السلطان حسام الدين لاجين كان يعتقد في رجل يسمى محمد بن مسعود الغزنى الصوفى ، شيخ الصوفية فى رباط خانقاه سعيد السعداء ، وكان يعظمه (٣) .

وقد اهتم سلاطين المماليك ببناء الخوانق ، ووضعت شروط لمن يدخلها ويقيم بها ، وجعل على كل خانقاه شيخ يسمى شيخ الشيوخ . وكان من أهم وأشهر هذه الخوانق فى العصر المملوكى خانقاه « سعيد السعداء » التى بناها السلطان صلاح الدين الأيوبى بالقاهرة ليقيم بها الفقراء الصوفية الواردون من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم سنة ٥٦٩ ، وأوقف عليها أموالا وضياعاً جزيلة ، فكانت أول خانقاه عملت بمصر (٤) .

وقد بنى السلطان الناصر محمد بن قلاوون خانقاها آخر للصوفية سمى بخانقاه سرياقوس . وقد جعل فيها الناصر مائة خلوة لمائة صوفى ، وبنى بجانبها مسجداً تقام فيه الجمعة ، وبنى حماماً ومطبخاً ، وتم بناؤها سنة ٧٢٥ هـ ، فخرج إليها بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ، ومشايخ الخوانق ، ومدت هناك أسمطة عظيمة (٥) .

وإذا كان هذا هو موقف الحكام أنفسهم من الصوفية ، فما بالك بموقف عوام الناس منهم ، فلقد اعتقدوا فيهم اعتقاداً جازماً ، وصدقوا ما قيل

---

(١) انظر : قاسم غنى (دكتور) تاريخ تصوف در إسلام (تاريخ التصوف فى الإسلام) بالفارسية ، طبع طهران ١٣٦٢ هـ . ص ٤٣ .

(٢) المقريزى ، السلوك ، ١ : ٧٤٥ .

(٣) ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ٤ : ٢٥٧ .

(٤) انظر المقريزى : الخطط ٢ : ٢٧٣ .

(٥) نفس المصدر ، ٢ : ٤٢٢ .

بأنهم أصحاب كشف، وأن ألسنتهم إنما تنطق بلسان الحال لا بلسان القال، وأيقن الناس بأنهم أصحاب كرامات.

لكن الفقهاء وقفوا من الصوفية موقفاً معارضاً، فقد شن شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرب على ما يدعيه الصوفية من كرامات، وشدد النكير فى ذلك، «وكان ابن دقيق العيد يستنكر أقوال بعض رجالهم وخاصة ما يقررونه من أن يكون الشخص فى مكان وجسده فى مكان آخر ويقول: ذا مجنون» (١).

وكان الإدفوى، صاحب مصنفنا، ومؤلف كتاب الطالع السعيد، لا يؤمن بادعاءات الصوفية فى أمور الكرامات الخارقة والكشف، يقول: «... نعم لا ارتياب فى حصول الكرامة لمن خصه الله بعنايته، ووفقه لطاعته، ولكن الكرامة جنس تحته أنواع، منها ما نثبته إذا ثبت لنا بمشاهدة أو نقل من يعتمد عليه، كإجابة دعوة وظهور بركة ونحوها، ومنها ما ننفيه كرؤية الخالق البارى فى الدنيا وإن ثبت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم» (٢).

وربما كان هذا هو نفس رأى النويرى، الذى كان على صلة وثيقة بعدد من هؤلاء الصوفية، وكان يعهد لبعضهم كرامة وكشفاً من النوع الذى أشار إليه صديقه الإدفوى (٣).

وإذا كان الفقه قد قدم للناس فى هذه الحقبة نخبة من أبرز أعلامه وعلمائه كالشيخ عز الدين بن عبد السلام، وابن دقيق العيد، وابن جماعة، فقد قدم التصوف — فى نفس الحقبة — عدداً وفيراً من مشاهير الصوفية، عاش

---

(١) الإدفوى: الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد، ص ٦٥٠ طبع مصر ١٩٢٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) سنعود، فيما بعد، لعرض صلة النويرى بالتصوف أثناء حديثنا عن ثقافته، انظر ص ٨٩ فيما يلى.

معظمهم إلى اليوم فى ذاكرة أهل البلاد المصرية على وجه الخصوص ، ونذكر منهم على سبيل المثال : السيد أحمد البدوى ، وأبا الحسن الشاذلى ، وأبا العباس المرسى ، وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم .

وهكذا كانت الحياة الفكرية التى عايشها النويرى : حياة زاهية ، زاخرة ، تتسم بالشمول والتنوع ، مما كان له أكبر الأثر على نفسية مصنفنا وشخصيته ، تلك الشخصية التى انعكست بوضوح على موسوعته « نهاية الأرب فى فنون الأدب » .

* * *

الفصل الثانى

حياة النويرى

نتناول فى هذا الفصل حياة النويرى وثقافته، معتمدين أساساً على ما كتبه هو عن نفسه ، وعن البيئة التى أحاطت به ، وعن شيوخه الذين تعلم على أيديهم ، وعن أصحابه الذين عاملهم وعاملوه، وقامت بينه وبين بعضهم مودة وألفة . ويبدو لأول وهلة أن مصنفا كان زاهداً فى الكتابة عن نفسه ، ضنيناً فى تعريف القارئ بشخصيته، ربما كان يخشى أن يتهم عند قارئه بأنه مزهو بنفسه معجب بها ، ومن ثم لم يشأ أن يتحدث عن نفسه إلا من خلال الآخرين ، بل ومن خلال مشاهداته الخاصة وتجاربه الشخصية فى الفن الخاص بالحيوان ، والفن الخاص بالنبات فى كتابه نهاية الأرب .

وعندما تصفحت المادة العلمية التى جمعتها عن حياة المصنف من خلال قراءتى للأجزاء من الأول إلى الحادى والعشرين — وهى الأجزاء التى طبعت حتى الآن من الكتاب — لم أجد أننى جمعت شيئاً يمكن أن يكون صورة واضحة لحياة هذا المؤلف النابه والأديب الكبير ، والناقد القدير ، ولذلك رحت أراجع كل ما كتبه كتاب التراجم والمؤرخون عن حياة مصنفنا (١) ، فلم أظفر إلا بمعلومات ضئيلة للغاية، ومكررة فى معظم الأحيان، فضلا عن الأخطاء الفاحشة التى وقع فيها بعض هؤلاء الكتاب فى هذا الشأن .

---

(١) وبعض هؤلاء الكتاب قد صاحب المصنف كالإدفوى (كمال الدين أبو الفضل) الذى تحدث عن النويرى فى كتابه : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، طبع القاهرة ١٩٢٤ م ، فقال فى ص٤٦ : « وكان صاحبنا رحمه الله » ، كما كان بعضهم معاصراً له كالحافظ ابن كثير صاحب كتاب « البداية والنهاية » والمتوفى ٧٧٤ هـ .

ومن ثم لم يكن هناك بد من الرجوع إلى الأجزاء الأخيرة — التى ما زالت مخطوطة من الكتاب — وهى الأجزاء التى استكمل المصنف بها الكتابة فى فن التاريخ حتى سنة ٧٣٠ ﻫ ، أى قبل وفاته بنحو ثلاثة أعوام . فترددت على دار الكتب المصرية ، لقراءة تلك الأجزاء من النسخ المخطوطة هناك . ولقد صدق حدسى عندما وجدت المصنف قد بدأ منذ الجزء الثامن والعشرين ، وفى حوادث سنة ٦٦٧ ﻫ (وهى سنة مولده) ، يورد بعض المعلومات عن نفسه ، وعن مشاركته فى الأحداث العامة التى يذكرها ، وعن تتلمذه على بعض المشايخ الذين يذكر وفاتهم فى الأعوام التالية ، وعن بعض المعارك التى خاضها مع الجيش ضد التتار ، ومشاركته فى إحباط تآمر على السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، حاول بعض أمرائه القيام به ، وغير ذلك من المعلومات والإشارات الهامة للغاية ، والتى بدونها — وبمحض اعتمادنا على ما كتبه كتاب التراجم والمؤرخون — ما كان يتسنى لنا أن نتفهم المعالم البارزة لهذه الشخصية الفذة التى نهضت بتأليف موسوعة يفخر بها الأدب العربى كنهاية الأرب .

ورغم الإشارات الكثيرة المتفرقة فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب عن حياة المصنف ، فإننا نلاحظ أنه حرص على ألا يجعل من نفسه محورا للأحداث ، فلم يشأ أن يتحدث عن نفسه إلا من خلال تلك الأحداث التى مرت به ومر بها ، وشارك فى بعضها ، أو من خلال أساتذته وأصحابه ومن اتصل بهم وعاشرهم . فأعطانا عن بعض فترات حياته صورة زاهية واضحة إلى حد كبير ، بينما أهمل الفترات الأخرى من حياته إهمالا يكاد يكون تاما . وبدا أن النويرى قد أنكر نفسه إلى حد كبير فى كتابه ، ولم يذكر من حياته إلا ما اقتضى سياق الأحداث ذكره ، بل لم يشأ أن يأتى بشعر له فى كتابه (١) ، وهو الذى عرف بين معاصريه بأنه شاعر مجيد (٢) . ولذلك

---

(١) انظر نهاية الأرب ، الجزء الثلاثين ، ورقة ١١٥ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) انظر مثلا : الإدفوى : الطالع السعيد ، ص ٤٦ .

لن نجد مناصا من الاعتماد على ما كتبه كتّاب التراجم والمؤرخون عن النويرى فى تفسير بعض الفترات الغامضة التى أهمل هو الكتابة عنها .

نسبه :

يشير النويرى إلى أنه ينتسب إلى أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — « صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن صاحبه وأبى أصحابه وجد صاحبه والخليفة من بعده ، وهو ثانى اثنين ، ابن أبى قحافة عثمان ، رضوان الله عليهم »(١) ، ولذلك لقبه كتاب التراجم بالبكرى (٢) .

ولقد كان النويرى فخورا بهذه النسبة ، حريصا على إثباتها عندما تحدث عن مولده هو فى أحداث سنة ٦٦٧ هـ ، فساق نسبه حتى وصل به إلى أبى بكر الصديق — رضى الله عنه . ثم عاد المصنف وأكد هذه النسبة مرة أخرى عندما تحدث عن وفاة أبيه فى حوادث سنة ٦٩٩ هـ .

لقد عد النويرى انتسابه إلى الصديق نقطة مضيئة فى حياته ، جديرة بأن تملأه اعتزازا وفخارا ، حريّة بأن تجعله يشع خيرا ونورا ، ولا غرو ، فقد اقتبس من تلك الأرومة الطاهرة التى ساندت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآزرته وناصرته ، وتمتعت بصحبته جدا وأبا وولدا وحفيدا . فمن المعروف عن أبى بكر — رضى الله عنه — أن أبويه أسلما ، « وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسلم بنوه كلهم ، وصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأبوه أبو قحافة ، وابنه عبد الرحمن بن أبى بكر ، وابن ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وليست هذه المنقبة لأحد من الصحابة غيره » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٢٨ ، ورقة ١٢٨ ، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) انظر مثلا : ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر) ، درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ح ٦١٧٣ ورقة ٤٢ ، وابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، (تيمور ، تاريخ ١٢٠٩) فى ترجمة النويرى المؤرخ .

(٣) نهاية الأرب ١٩ : ١٤ .

ومع أن مصنفنا ذكر نسبه غير مرة كما ذكرنا ، ومع أنه أهمل إهمالا يكاد يكون تاما أن يحدث قارئه عن فترات كثيرة من حياته ، فإننا نجده يعود من جديد فى آخر أجزاء الكتاب(١) — ليذكر رؤيا رآها فى المنام « أحببت إثباتها لدلالتها على صحة نسبي »،فهو يحدثنا أنه « فى ليلة الجمعة ثالث عشر ذى القعدة (سنة ٧٢٩ هـ) رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو جالس بالإيوان البحرى من المدرسة الناصرية التى [أسكن] (٢) بها بين القصرين من الجهة اليمنى لمن يقصد صدر الإيوان ، فى ذيل الإيوان بينه وبين الحائط نحو ذراعين أو أقل من ذلك ، وأنا جالس بين يديه الكريمتين ، وهو يذكر عائشة أم المؤمنين — رضى الله عنها — بخير. فقلت له : يا رسول الله هى عمتى ، ثم قلت ثانيا : يا رسول الله عائشة أم المؤمنين عمتى ، لأننى أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم بن منجا بن على ابن طراد بن خطاب بن نصر بن إسماعيل بن إبراهيم ، فلما انتهيت فى سير نسبي إلى إبراهيم قال النبي صلى الله عليه وسلم : ابن جعفر؟ قلت : نعم يارسول الله ، ابن جعفر بن هلال بن الحسن بن ليث بن طلحة بن عبدالله بن عبدالرحمن ابن أبي بكر الصديق ، فعائشة أم المؤمنين يا رسول الله عمتى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . واستيقظت من النوم وسررت بهذه الرؤيا وأثبتها ، ولله الحمد » .

أبــوه :

لا يحدثنا النويرى بشىء عن أسرته ، ربما استغنى بعلو نسبه عن أن يورد منقبة لأحد من أجداده ، فأى منقبة أعلى من أن يكون المرء من أحفاد الصديق ، رضى الله عنه .

فهو يشير فى حوادث سنة ٦٩٩ هـ إلى وفاة والده تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب البكرى التيمى القرشي المعروف بالنويرى ، ويقول :

---

(٤) الجزء ٣١ ورقة ٩٧ ، من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) كلمة ساقطة فى الأصل ، والسياق يقتضيها ، وانظر فيما يلى ص ٣٦ وما بعدها .

« وكانت وفاته رحمه الله بالمدرسة الصالحية النجمية (١) بقاعة التدريس المالكية . . ومولده بمصر بالمدرسة المعروفة بمنازل العز (٢) فى سنة ثمانى عشرة وستمائة . ومات رحمه الله تعالى ، ولم تفته صلاة ، ولقد توضأ لصلاة العصر من يوم وفاته أربع مرات ، وكان به درب ، ثم صلى صلاة العصر جالسا ، ومات قبل أذان المغرب من يومه. وكان آخر كلامه ، بعد أن دعا الله تعالى لى بخير ، التلفظ بالشهادتين . ثم قبض رحمه الله تعالى ، ودفن من الغد فى يوم الجمعة الثالثة من النهار بتربة قاضى القضاة زين الدين المالكى بالقرافة — رحمه الله تعالى وإيانا » (٣) .

ويشير إلى أبيه مرة أخرى إشارة عابرة ، لا تقدم لنا جديدا ، فى حوادث سنة ٧١٢ هـ عندما يتحدث عن وفاة الشيخ تاج الدين عبد الرحيم بن السنهورى أحد نظار النظار بالديار المصرية ، ويذكر أن هذا الشيخ مات وقد تجاوز عمره المائة سنة ثم يقول : « أخبرنى والدى — رحمه الله — غير مرة أنه أسن منه بخمس عشرة سنة وكان مولد والدى فى سنة ثمانى عشرة وستمائة ، فعلى هذا يكون عمره مائة سنة وتسع سنين تقريبا » .

---

(١) المدرسة الصالحية النجمية ، تقع بخط بين القصرين من القاهرة . كان موضعها من القصر الكبير الشرقى ، بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ٦٣٩ ورتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة ٦٤١ » ثم إن الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس وقف الصاغة التى تجاهها ، وأماكن بالقاهرة . . على مدرسين أربعة ، عند كل مدرس معيدان وعدة طلبة ، وما يحتاج إليه من أئمة ومؤذنين وقومة . وغير ذلك ، وذلك فى سنة سبع وسبعين وستمائة ، وهى جارية فى وقفها إلى اليوم » (تقى الدين أحمد ابن على بن عبد القادر المعروف بالمقريزى ، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ ٣ ص ٣٣٣ ، طبع القاهرة ١٩٦٧ . ١٩٦٨ م) .

(٢) مدرسة منازل العز ، كانت من دور الخلفاء الفاطميين ، بنتها أم الخليفة العزيز بالله ابن المعز ، وعرف بمنازل العز ، وكانت تشرف على النيل ، فلما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وأراد أن يخرج من مصر إلى الشام وقف منازل العز على فقهاء الشافعية ، ويشير المقريزى إلى أن هذه المدرسة كانت عامرة فى أيامه (راجع خطط المقريزى ٣٠ : ٣١٦) .

(٣) نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ورقة ١٩ — ٢٠ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

هذه — فيما نعرف — كل الإشارات والمعلومات التى أوردها مصنفنا عن أبيه ولم يشأ أن يزودنا بأية معلومات أخرى عن عمله ، أو عن مركزه الاجتماعى ، أو عن أبنائه الذين هم أخوة المصنف نفسه . غير أننا نستطيع أن نستخلص من هذه الإشارات ما يلى :

١ — أن الأب كان معروفا بالنويرى ، وربما انتقل هذا اللقب إلى ابنه شهاب الدين أحمد — مصنفنا — من بعده (١) .

٢ — أن الأب ولد بالقاهرة ، ومات بالقاهرة ، وليست له أية علاقة ظاهرة بنويرة ، التى هى قرية من قرى بنى سويف ، بصعيد مصر ، كما توهم محقق الجزء الأول من الكتاب (٢) .

٣ — أن الأب ولد بمدرسة من مدارس القاهرة ، ومات بمدرسة أخرى (بقاعة التدريس المالكية) (٣) ، وربما كان هذا يعنى أنه كانت له صلة بهذه المدارس ، لكن المصنف لم يبين لنا هذه الصلة .

٤ — أن الأب كان يكنى بأبى محمد ، وليس بأبى أحمد ، وهذا يدل على أن مصنفنا لم يكن ولده البكر ، فيما يبدو ، فلم يكن به .

غير أن المستشرق « كراتشكوفسكى » أشار فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » إلى أن النويرى الأب قد اكتسب « الشهرة ككاتب فى

---

(١) ولعل هذا هو الذى دفع مؤرخاً معاصر للمصنف ، وهو ابن الدواداري إلى أن يسمى شهاب الدين أحمد — مصنفاً — بابن النويرى ، لا بالنويرى . فقد انتقلت هذه النسبة إليه من أبيه فيما يبدو . (انظر : أبا بكر عبد الله بن أيبك الدواداري كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء الثامن ، تحقيق أولرخ هارمان ، ص ٣٩١ وربما وصلت إليه هذه النسبة من أحد أجداده ، يستفاد هذا من قول الإدفوى فى « الطالع السعيد » عن المصنف بقوله : « ينعت بالشهاب ، النويرى المحتد القوصى المولد والمنشأ » . (الطالع السعيد ، ص ٤٦) .

(٢) نهاية الأرب ، ١ : ٢ من المقدمة ، تصوير المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر ١٩٦٣ م .

(٣) كانت مدارس القاهرة فى ذلك الوقت تشتمل على أربع قاعات مستقلة للتدريس ، يتم فى كل منها التدريس على واحد من مذاهب أهل السنة الأربعة .

مختلف دواوين الحكومة » (١)، ويبدو أن المستشرق المذكور قد اعتمد فى إشارته تلك على مصادر لا نعرفها .

مولده ونشأته :

يحدثنا النويرى بنفسه عن مولده فى حوادث سنة ٦٦٧ هـ، فيقول : « وفى هذه السنة فى ليلة يسفر صباحها عن يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى القعدة ، وهى سنة سبع وستين وستمائة (٢) ، ولد مؤلف هذا الكتاب وجامعه الشيخ الفاضل الأديب (٣) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد بن عبد الدايم بن منجا بن على . . بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق . . عرف مؤلفه بالنويرى ، عفا الله عنه ولطف به ، وكان مولده بمدينة أخميم (٤) من صعيد مصر فى التاريخ المذكور » (٥) .

ويمسك النويرى عن أن يزودنا بشىء عن نشأته وتعلمه فى المرحلة الأولى من حياته غير أنه يبدو مما ذكره الإدفوى ، فى كتابه « الطالع السعيد » ، أن النويرى نشأ وتربى فى الصعيد ، الذى عرف فى ذلك الوقت — كما قدمنا — بقوص ، والذى كان حينذاك يزخر بحركة علمية وثقافية هائلة (٦) . يشير الإدفوى إلى النويرى بقوله : « القوصىّ المولد والنشأة»(٧).

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١ : ٤٠٨ ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، طبع مصر ١٩٦٣ م .

(٢) هذا يخالف ما جاء بغلا ف الأجزاء التى تم طبعها من نهاية الأرب للنويرى بدار الكتب المصرية، فقد ورد على هذا الغلا ف أن النويرى ولد سنة ٦٧٧ هـ وليس ٦٦٧، ولا شك أن ما كتبه النويرى عن نفسه هو الأصح (٦٦٧) .

(٣) يلاحظ هنا أن النويرى لا يمتدح نفسه بوصفه لنفسه بالفاضل الأديب . وإنما كانت هذه ألقاب تطلق فى ذلك العصر على من يشتغل بالأدب .

(٤) أخميم : بلدة مصرية قديمة تقع على الشاطىء الشرقى للنيل تجاه مدينة سوهاج وكانت أخميم فى العهد العربى قاعدة كورة الأخميمية ، واستمرت كذلك إلى آخر حكم المماليك .

(٥) نهاية الأرب جـ ٢٨ ، ورقة ١٢٨ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية، برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٦) انظر فيما سبق ، ص ٢٢ .

(٧) الإدفوى ، ص ٤٦ .

وهذا يعنى أنه اغترف من هذا المعين الذى لا ينضب ، والذى قدمته له البيئة المحيطة به من العلوم والآداب والفنون ، ورسخت فى وجدانه تلك التقاليد الإسلامية العريقة التى عايشها هناك ، ونمت لديه ملكة الملاحظة والقدرة على تسجيلها . فلقد سجل فى كتابه بضع ملاحظات شهدها بنفسه عندما كان فى قوص ، ففى أثناء حديثه عن الفيلة ، فى الفن الخاص بالحيوان يقول : « ورأيت أنا من أنياب الفيلة ما طوله يزيد على أربعة أذرع ونصف ، وهو معقف ، شاهدت ذلك بمدينة قوص فى سنة سبع وتسعين وستمائة» (١).. « ورأيت فيها نابين — أظنهما أخوين — بهذه الصفة ، وهما معقفان، وغلظهما مناسب لطولهما » (٢) .

وفى الفن الخاص بالنبات يسجل ملاحظة أخرى شاهدها هناك — — وإن لم يذكر زمنها — بشأن بعض أصناف البطيخ ، فيقول : « وأكثر ما رأيت هذا الصنف (البطيخ) بإسنى من عمل مدينة قوص » (٣) .

ولقد كانت إقامة النويرى بالصعيد وسط مزارع قصب السكر ومعاصره فرصة اغتنمها لتكوين صورة تكاد تكون كاملة عن صناعة عسل القصب والقند والسكر ، والإلمام بمصطلحات هذه الصناعة الهامة فى تلك المناطق : وهو ما نشهده فى الجزء الثامن من الكتاب وهو يتحدث عن أبواب الخراجى فى الديار المصرية ، ويقول فى نهاية حديثه فى هذا الموضوع « وهذا الذى ذكرناه من الوضع المتحصل والتسمية اصطلاح بلاد قوص من الصعيد الأعلى بالديار المصرية ، وهو وإن اختلف فى غيرها من البلاد ، فلا يبعد عن هذا الترتيب » (٤) .

كل هذا يدلنا على أن النويرى قد تكونت لديه ملكة الملاحظة فى فترة وجوده بالصعيد .

---

(١) كان عمره حينذاك ثلاثين عاماً .
(٢) نهاية الأرب ٩ : ٣٠٤ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٣١ .
(٤) أيضاً ٨ : ٢٧١ .

انتقاله إلى القاهرة :

ولسنا نعلم كم أقام النويرى بقوص (أى الصعيد) ؟ ومتى غادرها ؟ وهل غادر الصعيد للإقامة بالقاهرة مباشرة ، أم أنه أقام فى مكان آخر (من الديار المصرية بالطبع) قبل أن ينتقل إلى القاهرة ؟ الواقع أننا لا نستطيع الإجابة على أى سؤال من هذه الأسئلة إجابة مباشرة واضحة ، ذلك أن هذه الفترة من حياة المصنف — رحمه الله — لا تقل غموضاً عن سابقتها .

لقد كان آخر تاريخ ذكر المصنف أنه كان فيه فى مدينة قوص هو سنة ٦٩٧ هـ عندما شاهد تلك الأنياب الكبيرة للفيلة ، كما ذكرنا (١) . غير أنه يشير إلى أنه كان قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات — أى فى سنة ٦٩٤ — فى بلد قريب من دمياط بشمال مصر يسمى « أشموم طناح »(٢)، وهذا يعنى أنه غادر الصعيد فى تلك الفترة ، أو قبلها إلى تلك المنطقة .

على أن المصنف لم يحدد تاريخ قدومه للقاهرة على وجه الدقة، ولكنه يشير إلى أحداث سنة ٦٩٨ ، ويقول : « واتفق فى غضون ذلك أن باشرت ديوان الخاص السلطانى بالأبواب الشريفة (بالقاهرة) وغيرها (٣) . وسكنت بالمدرسة الناصرية (التى أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون بافتتاح

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٣٤ .

(٢) يقول المصنف فى الفن الخاص بالنبات عن نبات الفلفل : « فقد رأيته أنا وقد زرع بأرض « أشموم طناح » من الديار المصرية فى سنة أربع وتسعين وستمائة (نهاية الأرب ١١ : ٩) وقد ذكر محقق الجزء الحادى عشر من الكتاب بأن : أشموم طناح بلد قرب دمياط ، ولعل هذه المنطقة كانت تابعة فى عهد المماليك لإقليم « الدقهلية والمرتاحية » التى باشر النويرى ناظر الديوان فيه فيما بعد ، كما سيأتى .

(٣) مثل مباشرته لوقف البيمارستان المنصورى أيضاً إلى جانب عمله الأصلى ، راجع ما يلى ، ص ٥٦ وما بعدها .

التدريس بها فى السنة المذكورة ٦٩٨) . . .واطلعت على متحصل جهات الوقف بالقاهرة وغيرها . . . الخ » (١)

ولا شك أن النويرى تبوأ هذا المنصب بعد عودة السلطان الناصر ليتولى الحكم فى المرة الثانية فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٩٨ هـ . ومنذ ذلك الحين وهو يجعل من القاهرة قاعدة له ، فكان يغادرها لفترات طويلة أو قصيرة — ثم لا يلبث أن يعود إليها ، وظل على هذا الحال إلى أن توفاه الله تعالى فى سنة ٧٣٣ هـ .

مباشرته الأولى بالقاهرة :

باشر النويرى عمله بالقاهرة وهو يقيم فى « المدرسة الناصرية » التى افتتح التدريس فيها فى سنة ٦٩٨ هـ . والتى أنفق السلطان الناصر عليها أموالا طائلة ، وأوقف عليها أوقافاً جليلة من صلب ماله ، وأمر بتجديدها وتوسيعها حتى اكتملت عمارتها فى سنة ٧٠٣ (٢) .

وكانت هذه المدرسة أنشأها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى فى أيام سلطنته « وعمل بوابتها من أنقاض مدينة عكا ، وهى بوابة كنيسة بها ، ثم خلع كتبغاً »(٣) فلما عاد الملك الناصر إلى السلطنة ثانياً سنة ٦٩٨ حسن له قاضى القضاة زين الدين المالكى (٤) ، ابتياعها » فاشتراها الملك الناصر وأوقف عليها جملة من الأوقاف الجليلة فى مصر والشام .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ١٢ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم ٨ : ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) المصدر السابق ٨ : ٢٠٨ .

(٤) هو قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف بن ناهض مسلم النويرى المالكى ، ولد على أرجح الأقوال فى سنة ٦٣٢هـ ، وكان فقيهاً خيراً ، حسن الأخلاق ، ولى القضاء بالديار المصرية سنة سنة ٦٨٥ هـ ، وظل قاضياً للمالكية إلى أن توفى سنة ٧١٨ هـ ، فكانت مدة ولايته ٣٣ سنة تقريباً (انظر النجوم الزاهرة ، حوادث سنة ٧١٨) هذا وقد كان قاضى القضاة زين الدين المالكي من أصحاب المصنف وأصدقائه ، وكان يسكن معه بنفس المدرسة الناصرية .

وقد وصف المقريزى المدرسة الناصرية فى كتابه « وأول من رتب فى تدريس المدرسة الناصرية من المدرسين قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف المالكى ليدرس فقه المالكية بالإيوان الكبير القبلى ، وقاضى القضاة شرف الدين عبد الغنى الحرانى ليدرس فقه الحنابلة بالإيوان الغربى ، وقاضى القضاة أحمد بن السروجى الحنفى ليدرس فقه الحنفية بالإيوان الشرقى ، والشيخ صدر الدين محمد بن المرحل — المعروف بابن الوكيل — الشافعى ليدرس فقه الشافعية بالإيوان البحرى . وقرر عند كل مدرس منهم عدة من الطلبة وأجرى عليهم المعاليم . ورتب بها إماماً يؤم الناس فى الصلوات الخمس ، وجعل بها خزانة كتب جليلة » . ويبدو أن هذه المدرسة بلغت مكانة جليلة فى عهد المقريزى ، فهو يقول : « وأدركت هذه المدرسة وهى محترمة إلى الغاية . . . ولا يمكن غريب أن يصعد إليها ، وهى اليوم عامرة من أجل المدارس » (١) . وما زالت المدرسة الناصرية قائمة إلى اليوم بالقاهرة بين جامعى السلطان قلاوون ، وبرقوق فى شارع المعز لدين الله (بين القصرين سابقاً) . وتعرف المدرسة بجامع الناصر . « ومما يلفت النظر فى هذه المدرسة من الوجهة المعمارية ، والوجهة المزينة بالزخارف والكتابات ، وطراز بوابتها الجوتيكى من الرخام المضلع ، والمئذنة القائمة على الباب المغشاة بالزخارف الجصية ، وهى من أدق وأحسن ما وجد من نوعها » (٢) .

وكان النويرى قد وصف هذه المدرسة التى أقام فيها ردحاً من الزمن ، وصفاً دقيقاً للغاية من خلال نقله لشروط الواقف عليها ، وهو السلطان الناصر (٣) . وبين أن المدرسة تشتمل على أربعة أواوين يتم التدريس فى كل

---

(١) المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٣٠ : ٣٤٦ — ٤٣٧ ، طبع مصر سنة ١٩٦٧ — ١٩٦٨ م .

(٢) هذا ما ذكره الدكتور محمد مصطفى زيادة فى هامش رقم (١) جـ ٨ : ٢٠٨ ، النجوم الزاهرة .

(٣) وقد استغرق إيراد النويرى لهذه الشروط نحو سبع صفحات من القطع الكبير جـ ٣٠ ، ١٢ من النسخة المصورة المذكورة .

واحد منها وفقاً لواحد من مذاهب أهل السنة الأربعة . غير أنه لم يبق من هذه الأواوين الأربعة الآن — كما أشار الدكتور محمد مصطفى زيادة فى تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة (١) — غير الإيوان الشرقى بمحرابه الجصى النادر ، والإيوان الغربى ، الذى ركبت على نافذته شباك غاية فى الدقة .

ويبدو أن المدرسة الناصرية كانت تشتمل على عدد من المساكن الملحقة بها والخاصة بفقهائها وطلابها ، وكان النويرى يقيم بمسكن خاص من بين تلك المساكن ، فهو يشير إلى ذلك عرضاً فى قوله : « . . . وهو أن بعض الطلبة . . سكن بالمدرسة الناصرية التى تقدم ذكرها بالقاهرة ، وكنت بها وبها قاضى القضاة زين الدين المالكى وغيره . فاتفق اجتماعى أنا والقاضى شمس الدين محمد بن . . . . الكنانى القرشى الشافعى بمنزلى بالمدرسة المذكورة فى بعض الليالى ، وهو أيضاً ساكن بالمدرسة ومقيد بها . . . الخ » (٢) .

وعندما أقام النويرى فى المساكن الملحقة بهذه المدرسة فى سنة ٦٩٨ هـ ، لاحظ بنظرته الثاقبة ، وللوهلة الأولى أن ناظر الوقف المعين لها يسرق أموالها لا محالة ، فقد اطلع على إيرادات الوقف ، وقارن بينه وبين ما يصرف على المدرسة ، فهاله الفائض الكبير الذى يتبقى ، وأيقن أن ناظر الوقف المذكور لابد وأنه يحتجن هذه الأموال لنفسه ، لا سيما وأنه أخفى شروط الواقف ، ومنع المستحقين من الاطلاع عليه ، كان ناظر الوقف فى ذلك الوقت هو « الطواشى شجاع الدين » ، الذى يصفه النويرى بقوله : « كان سيء الخلق ، كثير الحمق شحيحاً ، يستقل لنفسه الكثير ، ويستكثر لغيره القليل ... ولما ولى نظر المدرسة الناصرية حجب كتاب وقفها أن يطلع عليه أحد من مستحقى الوقف (٣) ، ولم يسلك فيها شروط واقفها ، وصرف للفقهاء

---

(١) انظر هامش رقم (١) جـ ٨ : ٢٠٨ من النجوم الزاهرة .

(٢) نهاية الأرب ، جـ ٤ (يقابل جـ ٣٠ من تقسيم المصنف) ورقة ٣ من النسخة المصورة بدار الكتب رقم ٥٩٢ معارف عامة .

(٣) هو الكتاب الذى ذكره النويرى بأكمله مبيناً فيه هذه الحقوق ومستحقيها .

والمعيدين نصف ما شرط لهم فى كتاب الوقف ، واقتطع مما صرفه أولا فى كل سنة ثلاثة شهور . . الخ » (١) .

الواقع أن النويرى لم يسكت على هذا ، وإنما أرغم الطواشى على صرف بعض مستحقات المستحقين : يقول « ... وسكنت بالمدرسة الناصرية ، واطلعت على متحصل جهات الوقف بالقاهرة وغيرها ، فرأيته يفيض على المعروف فى كل سنة جملة كثيرة ، فقمت فى ذلك قياماً مما أدى إلى أن صرف لهم ذلك مكملا من غير اقتطاع ثلاثة شهور ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن توفى « الطواشى شجاع الدين » ناظر الوقف فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة . وفوض الأمر إلى الأمير سيف الدين أرغون الناصرى نائب السلطنة الشريفة ، فأظهر كتاب الوقف وأذاعه » (٢) . وتتبع الأمير سيف الدين شروط السلطان الواقف ، وصرف للمستحقين بمقتضاه ، « وزاد عدة الفقهاء ، وضاعف معلومهم » (٣) .

ولا شك أن هذه الشجاعة التى أبداها النويرى فى الدفاع عن حقوق مستحقى الوقف من الفقهاء والمعيدين والقراء ، والطلبة وغيرهم قد حببته إلى هؤلاء جميعاً ، وقربته إلى قلوبهم ، لدرجة أنه وهو فى تلك الفترة المبكرة من حياته ، وخلال توليه للمنصب الديوانى المرموق فى ديوان الخاص السلطانى ، كان أقرب إلى كونه من أهل العلم والدرس ، لا من أهل الخدمة الديوانية . وظل اقترابه من فلك أهل العلم والدرس يتزايد بمضى الوقت حتى انتهى به الأمر إلى اعتزال المباشرة والعكوف على صناعة الآداب ، كما سنرى .

ويحدثنا النويرى أنه فى سنة ٦٩٩ هـ حضر بالقاهرة جنازة أحد الفقهاء المعروفين والمدرسين البارزين ، وهو القاضى « علاء الدين أحمد بن قاضى

---

(١) نهاية الأرب جـ ٣١ ورقة ٢٠ — ٢١ من النسخة المصورة المذكورة .

(٢) نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ١٢ من النسخة المذكورة .

(٣) أيضاً ٣١ ورقة ٢١ من النسخة المذكورة .

القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلائى ، المعروف بابن بنت الأعز . وكان كما يقول السبكى : « فقيهاً أديباً رئيساً درس فى القاهرة ... وبدمشق . . . وله شعر كثير » (١) يقول النويرى : « وصليت عليه فيمن صلى ، وكانت جنازته مشهودة » (٢) .

وفى أواخر تلك السنة نفسها — أى سنة ٦٩٩ — وعلى وجه التحديد فى يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر ذى الحجة مرض والد المصنف تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن محمد ، ولم يطل به المرض أكثر من ثمانية أيام ، فى يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر المذكور لفظ أنفاسه الأخيرة بحضور المصنف بقاعة التدريس المالكية بالمدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة ، وتم دفنه من الغد — الجمعة — بتربة قاضى القضاة زين الدين المالكى بالقرافة (٣) .

ويشير المصنف إلى أنه كان بالقاهرة فى سنة ٧٠٠ هـ وأنه اجتمع عند ذاك برجل من فقهاء المالكية عرف بالزهد والتقشف ، وهو الشيخ كمال الدين الغمارى المغربى ، ويقول عنه : « وكان رجلا منقطعاً لا يتردد إلى أحد ، حسن اللباس والمأكل ، يأكل غالباً خبز الشعير ، ويطعم أهله ما يختاروه من الأطعمة ، وكان من فقهاء المالكية . وكنت أعهد له كشفاً ، اجتمعت به فى سنة سبعمائة ، وهو يومذاك بالمدرسة الشريفة بالقاهرة ، وكاشفنى فى قضية تتعلق بى ، فاتفق بعضها كما قال . ثم ذكر لى بعد ذلك قضية أخرى تتعلق بى فاتفق بعضها كما قال ، وتأخر بعضها . . . الخ » (٤) .

هذا هو كل ما نعرفه عن حياة المصنف — رحمه الله — فى فترة

---

(١) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ : ١٠ ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) نهاية الأرب ٢٩ ورقة ١١٩ من النسخة المصورة المذكورة .

(٣) نهاية الأرب ٢٩ : ورقة ١١٩ — ١٢٠ من النسخة المصورة المذكورة . وعن القاضى زين الدين المذكور ، انظر هامش رقم (٤) ص ٣٦ فيما سبق .

(٤) نهاية الأرب ، ٣١ ورقة ٩٢ من النسخة المصورة المذكورة .

مباشرته الأولى بالقاهرة . وإذا كان هناك مايطبع هذه الفترة من حياة المصنف بطابع مميز ، فهو اندماجه الوجدانى فى الحياة العلمية والفكرية لعصره ومخالطته للفقهاء والقضاة وأهل العلم ، بينما لم تستطع مباشرته الديوانية — على خطرها — أن تصرفه عن اندماجه هذا ومخالطته تلك .

مباشرته بالشام :

كان التقسيم الإدارى للشام قد استقر فى عهد السلطان المنصور قلاوون على خمس نيابات :

(١) نيابة دمشق .

(٢) نيابة حلب .

(٣) نيابة الكرك .

(٤) نيابة صفد .

(٥) نيابة طرابلس .

واستمرت هذه النيابات الخمس على حالها طيلة عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (١) .

على أن أجلّ هذه النيابات مقداراً إنما كانت « نيابة الشام أو دمشق ، وكان نائبها يحاكى السلطان فى الأبهة ، وكانت تتبع هذه النيابة عدة نيابات صغرى تنقسم إلى أقسام إدارية صغرى أو ولايات » (٢) .

وفى سنة ٧٠١ وقع اختيار السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مصنفنا للسفر إلى دمشق لمباشرة أملاك السلطان (أو ما يعرف بديوان الخاص) بمنطقة الشام، فصدر الأمر السلطانى بذلك . وقد سجل المصنف هذه الحادثة فى حوادث سنة ٧٠١ ، يقول : « وفى هذه السنة رسم بتوجيهى إلى دمشق المحروسة

---

(١) انظر : الدكتور السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، طبع مصر سنة ١٩٦٧ ، ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) أيضاً : ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

لمباشرة الأملاك السلطانية بالشام ، وكتب توقيعى بذلك فى ثانى عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ، وهو من إنشاء المولى الفاضل العابد الصالح بهاء الدين بن سلامة ، كاتب الدرج الشريف وخطه . وشمل الخط السلطانى الملكى الناصرى ، وتوجهت إلى دمشق فى جمادى الآخرة،وفيه وصلت إلى دمشق وباشرت ما رسم لى بها ، وهو أول دخولى إليها » (١) .

وربما كانت هذه الفترة التى عاش المصنف فيها بدمشق هى أخصب فترات حياته على الإطلاق من حيث تنوع نشاطه ، وتشعب علاقاته الاجتماعية وحرصه على الاندماج فى الحياة العامة المحيطة به ، بل والمشاركة فى توجيه الأحداث .

والواقع أن دمشق كانت تعيش فى ذلك الوقت فترة حرجة للغاية فلم يكن قد مضى بعد عامان على استيلاء المغول الإيلخانيين على دمشق (سنة ٦٩٩) ، بعد أن ألحقوا — بقيادة غازان خان — بجيش مصر والشام فى منطقة « مجمع المروج » شرقى حمص الهزيمة ، فولت العساكر المصرية الشامية وجهها نحو مصر ، وتمكن غازان من بسط سيطرته على دمشق والكرك والقدس وغزة وغيرها (٢) .

وبعد أن أقام غازان بدمشق فترة من الوقت وهم بالعودة إلى إيران ، قرر فى دمشق واحداً من أمرائه يسمى : « قبجق » وترك معه عدداً من أمراء المغول فى حامية كبيرة ثم انصرف . وبعد انصراف غازان بادر قبجق وطائفة من الأمراء المغول بالكتابة إلى المصريين واستحثوهم على القدوم إلى دمشق ، وعندما اقتربت العساكر المصرية من دمشق ، هرب قبجق ومن معه وفارقوا المغول إلى جهة مصر ، وعندئذ لم يجد المغول الباقون بدمشق بدأ من تركها قاصدين جهة الشرق .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٢ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) انظر فيما سبق ص ١٣ .

وهكذا عادت دمشق إلى حوزة المماليك من جديد دون جهد يذكر من جانبهم . غير أن المغول لم يهدأ لهم بال فعادوا فى سنة ٧٠٠ لمهاجمة الشام ، ولكن الظروف الجوية السيئة كانت لهم هذه المرة بالمرصاد فقد « اشتدت الأمطار والوحل حتى انقطعت الطرقات ، وتعذرت الأقوات ، وعجزت العساكر عن المقام على تلك الحال ، فعاد السلطان (الناصر محمد ابن قلاوون) إلى الديار المصرية . . . ورد الله التتر على أعقابهم بقدرته إلى بلادهم » (١) . لكن هاجس العودة إلى بلاد الشام ، وربما مصر أيضاً، ظل يراودهم ، فقد عجموا عود المماليك الذين كانوا يخشونهم منذهزموا أسلافهم فى «عين جالوت»، ووجدوا أن بالإمكان إلحاق الهزيمة بهم ، مثلما فعلوا فى مجمع المروج سنة ٦٩٩ ، ومن ثم واتتهم الجرأة على معاودة الهجوم لدحر المماليك والاستيلاء على البلاد الواسعة التى يسيطرون عليها ، وأخذوا يتحينون الفرصة لذلك .

كان النويرى قد وصل إلى دمشق ، كما ذكرنا ، فى جمادى الثانية سنة ٧٠١ هـ وباشر عمله المنوط به على الفور . لكن لم يمض عام على ذلك التاريخ حتى تحرك السلطان غازان خان بجيوشه من إيران قاصداً الشام ، وتوقف فى طريقه بالعراق بعض الوقت ، ثم عاد إلى إيران تاركا مهمة فتح سورية إلى قائده قتلغ شاه (٢) .

اندفع قتلغ شاه نحو « حماه » التى تجمعت فيها العساكر المصرية الشامية بقيادة « كتبغا » نائب حماه ، الذى كان قد أصابه مرض أدى إلى استرخاء أعضائه فحملوه فى محفّة، وأمرهم بالانطلاق نحو دمشق مخلفين وراءهم

---

(١) زين الدين عمر بن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ، المعروف بتاريخ ابن الوردى ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، ٣٥٥ : ٣٥٦ ، طبع بيروت ١٣٨٩ هـ (١٩٧٠ م) .

(٢) انظر ، فؤاد عبد المعطى الصياد ، مؤرخ المغول الكبير : رشيد الدين فضل الله ، الهمدانى ، طبع مصر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) ، ص ١٣٥ .

حلب ، التى وصل إليها التتار فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٠٢ هـ (١) .

ويشرح مصنفنا ما حدث بالتفصيل ، فقد كان شاهد عيان لهذا الحادث ، وشارك بنفسه فى مجرياته ، يقول : « فأقبل قطلو شاه (٢) بعسكر التتار ، فتأخرت الجيوش التى بحماه ونزلوا بالمرج بدمشق » (٣) وكان السلطان الناصر قد أرسل من القاهرة فرقة من العساكر المصرية ، تمثل طليعة للجيش الكبير الذى أقبل يقوده بنفسه ، فوصلت هذه الفرقة إلى دمشق فى نفس الوقت الذى وصلت فيه العساكر الشامية المنسحبة من حماه . فاجتمع أمراء الجيشين« واتفقوا على أن يتأخروا عن دمشق إلى نهر الصفر وتضمّوا به إلى أن يصل السلطان بعساكر الديار المصرية ، بعد أن كانوا اتفقوا على لقاء العدو » (٤) .

ويبدو أن هؤلاء الأمراء قد استبدت بهم الحيرة فى أول الأمر ، هل يبادرون إلى لقاء المغول ، أم ينتظرون مقدم السلطان بالعساكر المصرية ، وانعكست هذه الحيرة على عامة أهل دمشق ، فلم يدر الناس ماذا يفعلون ، يقول النويرى : « واختبط الناس بدمشق . . . وخرج أكابر أهل دمشق وأعيانها فى هذا اليوم منها ، فمنهم من التحق بالحصون ، ومنهم من توجه نحو الديار المصرية » (٥)، ولقد كان على النويرى — الذى كان بدمشق فى ذلك الوقت — أن يقرر ما يتعين عليه أن يفعله .

كان المصنف قد بلغ أشده فى تلك السنة ، فقد ناهز عمره الخامسة والثلاثين ، ولم تكن تنقصه الشجاعة ، لا سيا بعد أن دعا داعى الجهاد ، فقرر أن يشترك فى الحرب ضد المغول ولبس عدة الحرب ، وانطلق

---

(١) انظر تاريخ ابن الوردى ، ٢ : ٣٥٨ — ٣٥٩ .

(٢) يكتب المؤرخون العرب اسم قتلغ شاه بهذا الرسم : قطلو شاه .

(٣) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٦ من النسخة المصورة ٥٤٩ معارف عامة .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

متجهاً إلى ميدان المعركة دون إبطاء ، يقول : « وكنت يوم ذاك بدمشق ، فخرجت منها بعد أن أعددت لأمة الحرب والتحقت بالعسكر ، ووجدت الجفال قد ازدحموا بالأبواب زحاماً شديداً ، وذهلوا عن أموالهم وأولادهم ، ووصلت بعد المغرب إلى منزلة العسكر بميدان الحمى ، فوجدتهم قد توجهوا إلى مرج الصفر ، فلحقت الجيوش فى يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر (يعنى شهر شعبان) ، وهو سلخه » (١) .

كان لابد من الانتظار حتى تصل جيوش السلطان القادمة من مصر ، غير أنه يبدو أن أمراء القوات التى اجتمعت بمرج الصفر ، قد أيقنوا أن جيش العدو يتحرك نحوهم بسرعة كبيرة ، وأنهم ينبغى أن يكونوا على أهبة الاستعداد للتراجع إلى مكان محدد ريثما يصل السلطان بالعساكر المصرية ، يقول النويرى : « وأقمنا بالمرج يوم الخميس والجمعة ، فلما كان فى ليلة السبت المسفرة عن ثانى شهر رمضان دارت النقبا على العساكر وأخبروهم أن العدو قد قرب منهم ، وأن يكونوا على أهبة واستعداد فى تلك الليلة ، وأنه متى دهمهم العدو يركبون خيولهم ، ويكون الاجتماع عند قرية الهجة بقرب خربة اللصوص . فبتنا فى تلك الليلة ، وليس منا إلا من لبس لأمة الحرب ، وأمسك عنان فرسه فى يده ، وتساوى فى ذلك الأمير والمأمور ، وكنت قد رافقت « الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى أحد أمراء الطبلخانات بدمشق لصحبة كانت بينى وبينه » (٢) .

لم يكن النويرى يتحرك إذن وحده فى هذا الوقت الحرج ، وإنما كان يرافق أحد الأمراء الأعيان من المماليك . فلقد كان علاء الدين مغلطاى « من أشجع الأمراء وأعرفهم بالحروب والوقائع وترتيب الجيوش »(٣)، وكان وجود المصنف إلى جانبه فى تلك اللحظات الحساسة المروعة يبعث فى

---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٢) نهاية الأرب ٣٠ ، ورقة ٧ — ٨ من النسخة المصورة المذكورة .

(٣) أيضاً ، ٢٨ ، ورقة ٢٧ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

نفسه — فيما يبدو — بعض الأمان والارتياح ، وهو يخوض هذه التجربة الجديدة بالنسبة له .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظلت هذه القوات — وبينها النويرى — واقفة فى تمام استعدادها ، وهى تمسك أعنة خيلها بأيديها « حتى طلع الفجر ، فصلينا ، وركبنا واصطفت العساكر إلى أن طلعت الشمس وارتفع النهار فى يوم السبت المذكور » (١) . غير أن المغول لم يصلوا إلا عند الزوال . وكان من حسن الحظ ويمن الطالع أن السلطان وصل بالعساكر المصرية فى نفس الساعة .

ويصف المصنف هذه المعركة التى اشترك فيها بنفسه وصفاً تفصيلياً دقيقاً ، واستمرت بقية يوم السبت إلى أن حجز الليل بين الفريقين ، وكان من الواضح لأول وهلة أن المغول قد انكسرت شوكتهم ، فقد تحطمت ميسرتهم بإزاء الضغط المتواصل للميمنة المصرية الشامية عليهم ، وهرب منهم نحو عشرين ألفاً فى اليوم الأول . وأخطأ المغول عندما لجأوا إلى الجبل فى الليل وأشعلوا النيران ، فتحددت مواقعهم ولم يشعروا عندما أسفر الصبح ، إلا وقد أحاطت بهم العساكر المصرية والشامية من كل جانب فضايقوهم أشد المضايقة ، وكان هذا اليوم أشبه بالحصار منه بالمصاف . واستمر الحال على ذلك إلى وقت الظهر ، ففرج لهم أحد أمراء المماليك فرجة من رأس الميسرة ، فلما رأوها بادروا بالفرار ، وعندئذ حملت عليهم العساكر وأبادوهم قتلا وأسراً .

والواقع أن هذه المعركة كانت فاصلة فى العلاقات بين الدولتين : المملوكية والإيلخانية ، فلم يعد المغول بعدها إلى مهاجمة الشام ، لا سيما بعد أن توفى غازان محزوناً على الهزيمة القاسية التى حلت بجيشه (٢) . أما السلطان الناصر ، فقد عاد إلى مصر فرحاً مسروراً ، فاستقبل بها استقبال

---

(١) نهاية الأرب ٣٠ ورقة ٨ ، من النسخة المصورة المذكورة .

(٢) راجع : المقريزى ، السلوك ، ١ ، ص ٩٣٧ .

الأبطال الفاتحين ، وجعل الشعراء والأدباء ينظمون القصائد ويرصفون القطع الأدبية الرائعة فى وصف المعركة وتسجيل النصر الذى كان من نصيب « العساكر الإسلامية ، حتى أنتجوا الشيء الكثير فى هذا الغرض»، وقد أورد المصنف جانباً منه (١) .

لم يمض أكثر من شهر على مشاركة النويرى فى معركة « مرج الصفر » حتى فوض السلطان الناصر فى شوال من السنة نفسها (٧٠٢ هـ) واحداً من أعيان أمرائه لشد أملاكه بالشام ، ونعنى به « الأمير سيف الدين بلبان الجوكان دار المنصورى » الذى كان يشغل منصب نائب السلطنة بقلعة دمشق ، فأصبح هذا الأمير بهذه المثابة رئيساً للنويرى ، الذى كان يعمل يومئذ « مباشراً لأملاك السلطان بالشام » . ولم يمض وقت طويل حتى تأكدت الصحبة بين الأمير ومرؤوسه النويرى ، الذى حظى بثقة الأمير وحسن ظنه ، بنفس القدر الذى حظى الأمير بإعجاب النويرى . فقد رأى النويرى فى الأمير سيف الدين بلبان « رجلا جيداً أمينا ثقة ، ما رأيت فى أبناء جنسه ممن اختبرته فى الأمانة والعفة مثله » (٢) .

كان النويرى قد اكتسب ثقة الأمير سيف الدين فأصبح لا يبرم أمراً إلا برأى النويرى ، ولا يعقد عقداً ، ولا يحل حلا من غير مشورته ، رغم أنه لم يكن ملزما — من الوجهة الرسمية والإدارية — بأخذ رأيه ؛ يقول المصنف عن الأمير المذكور : « كان رحمه الله — حسن الرفقة ، لا ينفرد برأى ولا يستقل بأمر قبل أن يعرضه على رفقته ، ولقد كانت تأتيه كتب السلطان له (كذا ؟) فيما يتعلق بديوان الخاص ، فلا يفتحها حتى أحضر ، ويخرجها إلىّ مختومة فأقرأها عليه ، وكان يحسن القراءة ، ثم أتفق معه على

---

(١) راجع : نهاية الأرب ٣٠ ورقة ٩ من النسخة المصورة المذكورة . ولقد أورد المصنف الجزء الذى صنفه الأمير علاء الدين على بن عبد الظاهر فى وصف هذه المعركة وهو الجزء الذى سماه « الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر » وانظر ورقة ٩ ، ١٠ من جـ ٣٠ المذكور .

(٢) نهاية الأرب ، ٣ (يعادل جـ ٣٠) ورقة ٢٣ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٩٢ معارف عامة .

الجواب عنها وأكتبه عنه ، ويكتب عليه . وكان يخصنى بذلك دون بقية الرفقة ، هذا إذا كنت بدمشق ، وأما إذا توجهت لكشف جهة أو قسمتها ، فإنه يكتب الجواب إلى من يراه » (١) .

ويبدو أن النويرى لم يكن مقيماً بدمشق بصورة دائمة ، بل كان ينتقل بحكم عمله فى المناطق المجاورة التى كانت تخضع لديوان الخاص بدمشق ، لكشف منطقة من المناطق أو قسمتها كما أشار هو بنفسه .

ويبدو أن المصنف توجه فى مهمة تتعلق بعمله إلى منطقة الأغوار بنو حى الأردن فى شوال سنة ٧٠٢ هـ ، وهناك مر بتجربة شخصية ، استدل بها على ما تتصف به الأسود من شجاعة منقطعة النظير ، يقول : « وأما ما فى الآساد من الجراءة والجبن فجرأته معروفة مشهورة غير منكورة ، فمنها أنه يقبل على الجمع الكثير من غير فزع ولا اكتراث بأحد لا مهابة له ، وقد شاهدت أنا ذلك عياناً ، وهو أننى ركبت ليلة فى شوال سنة اثنتين وسبعمائة من « بيسان الغور » (٢) إلى « قراوى » (٣) فى نحو خمسة عشر فارساً ، وجماعة من الرجال بالقسى والتراكيش (٤) . وكانت ليلة مقمرة . فعارضنا أسد ، ثم بارانا وسايرنا على يمنة طريقنا عن غير بعد ، بل أقرب من رشقة حجر لا أقول من كف قوى ، فكان ذلك مقدار ربع ليلة ، فلما أيس من الظفر بأحد منا لتيقظنا قصّر عنا ، ثم تركنا إلى جهة أخرى » (٥) .

والواقع أن هذه الرحلات المتتابعة المتكررة ، التى قام بها المصنف بحكم عمله فى منطقة الشام وغيرها ، قد انعكست بما فيها من تجارب شخصية ومشاهدات ، ومعاينات للأماكن والبلدان على كتابه « نهاية الأرب » ،

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٢٣ .
(٢) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامى .
(٣) قراوى : قرية بالغور من أرض الأردن .
(٤) التراكيش : جمع تركش ، ومعناها : جعبة السهام ، وهى كلمة فارسية الأصل .
(٥) نهاية الأرب ، ٩ : ٢٣٠ .

فهو لا يتعرض لمكان من الأمكنة فى الشام ورد ذكره فى قصيدة من قصائد الشعر ، أو خبر من أخبار التاريخ القريب والمعاصر له ، أو لنظام من الأنظمة المعمول بها فى الزراعة أو الرى ، أو الحساب وأعمال الديوان إلا ونلمس معرفته وإحاطته بتلك المنطقة وأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . ولا غرو فلقد كانت كل من الشام ومصر — فى نظر المصنف ، بلداً واحداً برغم وجود بعض التفاوت فى الأنظمة والعادات والتقاليد . لكن عمله أتاح له فرصة لم تتح لكثير من غيره من الكتاب والمصنفين . لا سيما من أقام منهم فى مصر وكتب عن الشام دون أن يراها معتمداً على النقل من مصادر مختلفة ، أو أقام فى الشام وكتب عن مصر دون زيارتها . لكن المصنف عاش فى كلا البلدين ، وتجول فيهما بحكم عمله ، وأصبحت الأماكن والتقاليد المرعية بين الناس ، والنظم الإدارية المعمول بها فى كل منطقة ، والمصطلحات المتداولة فى مختلف شئون الحياة . أصبحت معلومة لدية ، معروفة عنده ، لأنه إنما عاينها بنفسه وعايشها بشخصه ، وليس الخبر كالعيان .

على أن حياته بالشام لم تكن كلها كد ونصب ، وتنقل مستمر بحكم العمل ، وإنما كان حريصاً أيضاً على الترويح عن نفسه ، والتفرج على المناظر التى تبعث البهجة والسرور فى النفس ، فقد انتهز المصنف فرصة وجوده بدمشق وزار « غوطة دمشق » (١) تلك الغوطة التى وصفها المصنف نفسه وصفاً دقيقاً جاء فيه : « هى شرك العقول وقيد الخواطر ، وعقال النفوس ، ونزهة النواظر ،خلخلت الأنهار أسؤق أشجارها ، وجاست المياه خلال ديارها ، وصافحت أيدى النسيم أكفّ غدرانها ، ومثلت فى باطنها

---

(١) الغوطة فى الكورة التى منها دمشق ، استدارتها ثمانية عشر ميلا ، تحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ، ولا سيما شمالها ، فإن جبالها عالية جداً ومياهها خارجة من تلك الجبال ، وتمد فى الغوطة عدة أنهر فتسقى بساتينها وزروعها ويصب ما فيها فى أجمة هناك وبحيرة (ياقوت الحموى : معجم البلدان) .

موائس أغصانها ، يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع أن يقبضها ببنان ، ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربه قد وقفت بغير أوان فى كل أوان . . . » (١) .

ويبدو أن الراتب الذى كان يتقاضاه المصنف خلال وجوده بالشام كان يكفيه ، بل ويفيض عن كفايته بقدر كبير ، لدرجة أنه كان يملك فى وقت من الأوقات بضعة عشر رأساً من الخيل الجياد ، لكنها نفقت جميعها ، فهو يشير فى حوادث سنة ٧٠٣ هـ إلى أنه وقع فناء عظيم فى الخيول بالشام حتى كاد يأتى عليها ، ونفقت أكثر خيول الناس ، ويقول : « وكنت يومئذ بدمشق ، وكنت أملك عشرة أرؤس من الخيل الجياد أو أكثر فنفقت بجملتها واحتجت إلى ابتياع ما أركبه . . . الخ » (٢) .

على أن أكبر كسب جناه المؤلف خلال وجوده بالشام قد تمثل فى تلك الصداقات الحميمة التى ربطت بينه وبين عدد من الشخصيات التى كانت تقيم بالشام عامة ، ودمشق خاصة فى تلك الفترة الخصبة من حياة النويرى .

ولم تقتصر هذه الصداقات على صنف واحد من الناس . أو طبقة واحدة من طبقات المجتمع ، بل شملت أكثر من صنف وأكثر من طبقة ، وذلك أن النويرى حرص — فيما يبدو — على أن يوسع نطاق علاقاته وصداقاته خلال وجوده بالشام ، ولم يجعل هذه العلاقة مقصورة على الفقهاء والقضاة وأهل العلم — مثلما فعل خلال إقامته الأولى بالقاهرة (٣) ، بل شملت صداقاته فى دمشق عدداً من الأمراء الكبار من المماليك ، الذين عمل النويرى معهم فى « الديوان الخاص » بالإضافة إلى صداقاته الوطيدة مع العديد من الأدباء والعلماء والفقهاء والأعيان من أهل الشام .

---

(١) نهاية الأرب ، ١١ : ٢٦١ ؛ وانظر أيضاً نفس الجزء ، ص ٢٥٦ .

(٢) نهاية الأرب جـ ٤ (يعادل جـ ٢٨) ورقة ٣ من نسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٩٢ معارف عامة .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٤٠ .

وقد أشار النويرى فى كتابه إلى العلاقة الطيبة التى قامت بينه وبين ثلاثة من أمراء المماليك الكبار خلال تواجده بالشام ، كما أشار فى الوقت نفسه إلى صداقته لثلاثة من أعيان أهل الشام وأهل الفضل فيها .

فأما الأمراء فكان على رأسهم « الأمير علاء الدين مغلطاى البيسرى .. أحد الأمراء الأعيان » (١) ، الذى توفى بقاسيون فى سنة ٧٠٧ هـ ، كان هذا الأمير « من أحسن الناس عشرة ، وأكملهم مروءة ، وأوفاهم بحقوق أصحابه ، كان لا يدخر عن صاحبه أو قاصده مالا ولا جاها ، صحبته مدة فلم أر أحسن من صحبته ولا مودته » (٢) .

ويبدو أن النويرى كان على علاقة ـ أثناء تواجده بالقاهرة ـ بالبيت البيسرى الذى ينتمى إليه هذا الأمير (٣) ، « وكان لنا بهذا البيت البيسرى خدمة قديمة ثم صحبة أكيدة ، وتجددت بعد ذلك بينى وبينه بدمشق عند مقدمى إليها » (٤) .

كان أهم ما يميز هذا الأمير ـ فى نظر النويرى ـ هو الشجاعة والخبرة الكاملة بترتيب الجيوش ، والدراية الوافرة بالحروب والمعارك (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٢٧ ، من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) نفس المصدر والورقة .

(٣) يتحدث النويرى بتوسع عن هذا الأمير فيقول : « وكان أصله من مماليك زين الدين الحافظى وزير الملك الناصر صاحب الشام ، اشتراه الأمير «بدر الدين بيسرى» بعد هروب الزين الحافظى بما ينيف عن أربعين ألف درهم ويقارب الخمسين ألفا . فلما اعتقل مخدومه الأمير بدر الدين بيسرى فى أوائل الدولة المنصورية ضبط موجوده وخدم أولاده ، ورباهم وحفظهم وكانوا ستة ، وأنفق عليهم أمواله ولازم باب أستاذه فى مدة اعتقاله ، ورغب السلطان الملك المنصور فى استخدامه ، ورتبه فى جمداريته ووعده بالإمرة ، وأسكنه بالقلعة ، ولم يزل يتنصل من الخدمة حتى أعفى منها » (نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٢٨ من النسخة المذكورة) .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ٢٧ .

(٥) نفس المصدر والورقة .

وربما كان هذا هو السبب الذى جعل النويرى يحرص خلال اشتراكه فى معركة « مرج الصفر » أن يكون إلى جانبه أثناء القتال كما ذكرنا (١) .

على أن هذا الأمير كان يتمتع — إلى جانب ذلك — بخبرة فريدة من النوع الذى يشتد ولوع مصنفنا به « فقد انفرد فى معرفة الطير الجارح وتدريبه والاصطياد به ، وجيده ورديه ، ومداواة سقيمة ، وغير ذلك من أحواله » (٢) .

ويبدو أن الأمير علاء الدين قد أصيب بضائقة مالية خلال تواجده بالشام ، وكان الأمير قد تعود على البذل والعطاء منذ وقت طويل ، وكان إقطاعه فى الجندية يفى بمتطلباته ، لكن إقطاعه الآن — برغم كونه أميرا — لم يعد يفى بهذه المتطلبات ، ولم يعد ينهض بما اعتاده الأمير من بذل وكرم ، وسخاء وجود . ولقد أسر الأمير بهذا الأمر لصاحبه النويرى ، الذى يقول : « قال لى يوما بدمشق — وهو أمير تسعة وستين فارسا — وددت أن إقطاعى الآن وإقطاع أصحابى نظير إقطاعى فى الجندية . فسألته عن متحصل إقطاع جنديته فأخبرنى أنه كان يحصل له منه لخاصته ولأربعة أتباع فى كل سنة مائة ألف درهم ، وخمسة آلاف أردب غلة . ومات — رحمه الله تعالى — (فى سنة ٧٠٧ ﻫ) وعليه جملة من الديون صرفها فى المكارم »(٣) وظل هذا السر حبيسا فى صدر النويرى حتى أفضى به حين كتب حادث وفاة هذا الرجل فى الجزء الثلاثين من الكتاب .

وممن أقام النويرى علاقة طيبة معهم من أمراء المماليك ، « الأمير سيف الدين بلبان الجوكان دار المنصورى » ، الذى توفى سنة ٧٠٦ ﻫ ، ولقد نشأت هذه العلاقة الطيبة من خلال الثقة المتبادلة بين الرجلين ، أثناء عملهما فى ديوان الخاص بدمشق كما أشرنا فيما سبق (٤) .

---

(١) راجع فيما سبق ، ٤٤ — ٤٥ .

(٢) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٥٨ من النسخة المذكورة آنفا .

(٣) نفس المصدر والورقة .

(٤) انظر ما سبق ، ص ٤١-٤٢ .

كما رافق النويرى أميرا آخر بدمشق ، هو الأمير « ظهير الدين مختار المنصورى المعروف بالبلبيسى » ، وكان يعمل معه فى ديوان الخاص . كان هذا الأمير – إلى جانب شهامته وشجاعته ومهارته فى الرمى بالرمح ، « كريما حسن الشكل واللباس ، يتلو القرآن بصوت حسن » (١) وعندما أحس بدنو أجله « فرق أمواله وجواريه وخيوله على عتقائه قبل وفاته »(٢). وقد توفى فى سنة ٧١٦ هـ . يقول النويرى : « وقد رافقته بدمشق فى ديوان الخاص ، فكان حسن الرفقة » (٣) .

وكانت قد توفرت فى هؤلاء الأمراء الثلاثة صفات الشجاعة والنبل ، والتواضع والكرم ، وهى صفات يقدرها النويرى حق قدرها ، ويقيم لها وزنها اللائق بها ، لكن الصداقة الحقة والمودة الطيبة قد تمثلت فى رجل من كبار أعيان دمشق هو « الصدر الرئيس شرف الدين محمد بن القاضى جمال الدين إبراهيم بن صصبرى البعلى الدمشقى» فلقد أبدى هذا الرجل تجاه النويرى من صنوف الود ، وضروب الأدب ما جعله يثنى عليه ثناء عاطرا ويسجل له فى كتابه مكارمه وأفضاله ، يقول : « . . وكنت إذا قدمت دمشق أستحى من كثرة تفضله وخدمته ، وأتجنب النزول عنده ، فيحضر إلىّ ، ويحلف على ، وينقلنى إلى داره ، ولا يزال يعاملنى بأنواع البر والإكرام والأدب والخدمة حتى أنفصل عن دمشق ، فإذا فارقتها وتوجهت، ركب معى وودعنى إلى ظاهر البلد حتى يبعد ، وأرده وهو يأبى ذلك حتى أحلف عليه فيرجع » (٤) . كان هذا الخلق الرفيع ، والمبالغة فى التكريم من الأمور التى تثلج صدر النويرى ، وترضى تلك المثل العالية التى يتمسك بها ويحرص على تحقيقها ، ويجب أن يراها حية فى أخلاق بعض الناس ،

---

(١) نهاية الأرب ٣٠ ورقة ٩٩ ، من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) نفس المصدر والورقة .

(٣) نفسه .

(٤) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ١١٦ من النسخة الخطية رقم ٥٤٩ معارف عامة .

لا سيما إذا كان هذا البعض لا يبغى من وراء هذا التكريم مصلحة ، ولا ينظر إلى تحقيق منفعة .

ولقد سجل النويرى تاريخ وفاة هذا الرجل الكريم فى حوادث سنة ٧١٧ هـ ، ففى موسم حج ذلك العام ، وأثناء وجوده بمكة المكرمة ، بعد أن أدى الفريضة ، توفى ذلك الرجل ، « وختم الله له بخير كثير بوفاته فى هذا المكان الشريف على هذا الحال » (١) .

وممن رافقه المصنف فى ديوان الخاص بدمشق من الأعيان بل ومن أكابر الأعيان : الصدر الرئيس شرف الدين أبا عبد الله محمد بن العدل الرئيس جمال الدين أبى الفضل . . التميمى الدمشقى ، المعروف بابن القلانسى ، « رافقته مدة تزيد على سنتين ونصف فى ديوان الخاص الناصرى بدمشق ، وكان حسن العشرة والرفقة ، كثير الاحتمال والإغضاء والحياء والسكون ، ولما انفصلت عن المباشرة وعدت إلى الديار المصرية ما زالت كتبه ترد علىّ تدل على استمرار مودته وجميل تعهده ، وتصل إلىّ هداياه »(٢) . ويبدو أن الأمر ظل على هذا المنوال إلى أن توفى الصدر الرئيس المذكور فى سنة ٧١٥ هـ .

وإذا كان ابن القلانسى قد مات ، فإن علاقة النويرى بأسرته لم تنقطع ، وظل حبل الود قائما بينه وبين ابنه « الصدر محب الدين محمود » الذى يبدو أنه كان وثيق الصلة به منذ وجوده بدمشق ، إلى أن توفى الابن أيضا بدمشق فى سنة ٧٣٠« وصلى عليه عقب صلاة الجمعة . . وكان — رحمه الله تعالى — رجلا حسنا جيدا عاملا متواضعا » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ وقة ١١٦ من النسخة سالفة الذكر .

(٢) أيضا ، ورقة ٩٢ .

(٣) نهاية الأرب ٣١ ، ورقة ١٠٧ من النسخة المذكورة ، وانظر أيضا مزيدا من الأصدقاء الذين عاشرهم ، وتوطدت علاقته بهم فى دمشق ورقة ١٠١ من الجزء المذكور .

لقد ظل النويرى يباشر عمله بديوان الخاص بدمشق منذ جمادى الأولى سنة ٧٠١ إلى أن عاد إلى الديار المصرية فى شهر رمضان سنة ٧٠٣ (١) ، فكانت مدة مباشرته لعمله بدمشق سنتين ونحو أربعة أشهر .

كانت هذه الفترة على قصرها حافلة بالأحداث التى شاهدها المصنف ، بل وشارك فى بعضها بنفسه ، ولقد أضاف عمله فى تلك الفترة بالشام — الذى كان يعد الجناح الشرقى للدولة المملوكية — مزيدا من الخبرات إلى خبرته ، وهو ما ظهر جليا واضحا فى كتابه نهاية الأرب ، كما ساهمت هذه الفترة فى تنويع علاقاته الاجتماعية وتوسيع دائرة صداقاته ومعارفه ، وهى الصداقات التى ظل المصنف حريصا على توطيدها ما أمكن . ومهما يكن من أمر فقد تركت هذه الفترة لدى النويرى انطباعات جميلة رائعة ، وذكريات عطرة ساطعة ، سجل بعضها فى كتابه ؛ مما جعل هذه الفترة أزهى فترات حياته وأوضحها على الإطلاق ، وأبعدها عن الغموض والإغضاء الذى شاب إشاراته عن نفسه فى كتابه .

عودته إلى القاهرة :

لم يلبث النويرى بدمشق والشام — بعد انتهاء مهمته به — إلا يسيرا ، فلقد كان فى عجلة من أمره ، وكان لابد له من العودة بسرعة إلى القاهرة لكى يتسلم مهام منصبه هناك ، ولم تكن هذه المهام تختلف كثيرا عن مثيلتها بدمشق ، فلقد رجع للمباشرة بديوان الخاص بالقاهرة ، يقول : « وفيها — يعنى فى سنة ثلاث وسبعمائة — فى شهر رمضان ، توجهت من دمشق إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية مفارقاً لمباشرة أملاك الخاص الشريف ، وكان وصولى إلى القاهرة فى يوم الأحد السابع والعشرين من شهر رمضان بعد الظهر » (٢) .

---

(١) انظر نهاية الأرب ٣٠ ، ورقة ٢٧ من النسخة المذكورة .

(٢) نهاية الأرب ٤ ، ورقة ٣ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية رقم ٥٩٢ معارف عامة .

ولقد توجه النويرى مباشرة إلى عمله فى نفس اليوم الذى وصل فيه للقاهرة ، مع أن الوقت كان رمضان ، والناس صائمون ، يقول : « وباشرت الديوان الخاص ، البيمارستان المنصورى وما معه من الأوقاف المنصورية فى بقية اليوم الذى وصلت فيه ، ورفع إلىّ حساب المياومة قبل غروب الشمس من اليوم المذكور » (١) .

وهكذا أضيف إلى أعباء النويرى الوظيفية عبء آخر ، عندما عهد إليه بالإشراف على مؤسسة خيرية كبيرة هى « البيمارستان المنصورى » كان هذا المارستان يقع « بين القصرين » بالقاهرة ، وكانت مساحته ضخمة جدا ، بلغت ستة عشر ألفا وستمائة ذراع وقد بناه الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ ، وأوقف عليه مبلغا هائلا من المال كل سنة يصل إلى نحو ألف ألف درهم . ولم يكن هذا المبلغ ينفق على المارستان وحده ، وإنما كانت هناك جملة من المؤسسات الخيرية ملحقة به ، وينفق عليها من المال المذكور ، فقد كان ملحقا بالمارستان المذكور « قبة » يتلى فيها القرآن ليل نهار ، ومدرسة يدرس فيها كبار العلماء . ويلقى فيها رئيس أطباء المارستان درسا فى الطب ، هذا بالإضافة إلى « مكتب للأيتام » .

ولقد كان المستشفى نفسه منشأة طبية متكاملة ، فكان فيه الأطباء لمعالجة المرضى ، كما كانت تقدم العقاقير وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض ، وكان فيه فراشون من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، واشتمل على قسم داخلى نصبت فيه الأسرّة للمرضى .

مجمل القول أن هذا المارستان الذى تولى النويرى مباشرة وقفه ، كان مؤسسة خيرية عامة ضخمة للغاية ، متعددة الأغراض ، متنوعة المناشط (٢) .

---

(١) نهاية الأرب ، ٤ ورقة ٣ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٩٢ معارف عامة .

(٢) لمزيد من التفصيل ، راجع : خطط المقريزى ، طبع القاهرة ١٩٦٨ ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ .

ويبدو أن حسابات هذا المارستان قد انتظمت إلى حد كبير بعد أن أمسكها النويرى ، وظلت منتظمة فترة طويلة بعد أن ترك مباشرتها وسافر إلى طرابلس ، كما سنرى . إذ يحدثنا المقريزى أن السلطان الناصر محمد ابن قلاوون اشترى فى سنة ٧١١ من تجار الفرنجة بمصر جواهر وغيرها من الحاجيات ، فبلغ ثمنها ستة عشر ألف دينار ، وأحالهم بها على « كريم الدين أكرم عبد الكريم ناظر الخاص، وحلفه السلطان ألا يؤخرهم عن ثلاثة أيام لاضطرارهم إلى السفر ، غير أن كريم الدين لما رأى أنه ليس لديه شىء من هذا المبلغ ، استشار الأمير علاء الدين بن هلال الدولة ، والصلاح الشرابيشى فحسنا له أن يستعين بإيرادات المارستان المنصورى»(١). والواقع أن هذه المشورة إن دلت على شىء ، فإنما تدل على مدى الثقة التى تمتعت بها حسابات هذه المؤسسة الخيرية الكبيرة ، بعد أن أمسكها النويرى ، الذى كان مؤهلا بدقته المعروفة ، ودرايته الواسعة لأن يؤسس مثل هذه الثقة فى الأعمال التى يباشرها ، أو التى ترك بصماته عليها .

ويبدو أن النويرى قد عاد — بعد رجوعه للقاهرة — إلى الإقامة بالمدرسة الناصرية ، تلك المدرسة التى كان يقيم بها عدد من كبار القضاة والأساتذة العاملين بالمدرسة نفسها . وفى أثناء تواجده بالمدرسة الناصرية سنة ٧٠٥ شهد النويرى بنفسه بداية الحادثة التى اعتقل فيها شيخ الإسلام تقى الدين أحمد ابن تيمية — رحمه الله — ولقد بدأت هذه الحادثة فى السنة المذكورة وانتهت فى أواخر سنة ٧٠٩ ، يقول المصنف « والمحرك لهذه الواقعة ، فقد أطلعت عليه من ابتدائه ، وهو أن بعض الطلبة واسمه عبد الرحمن العنبوسى ، سكن بالمدرسة الناصرية التى تقدم ذكرها بالقاهرة ، وكنت بها ، وبها قاضى القضاة زين الدين المالكى وغيره ، فاتفق اجتماعى أنا والقاضى شمس الدين محمد بن عدلان الكنانى القرشى الشافعى بمنزلى بالمدرسة المذكورة فى بعض الليالى ، وهو أيضاً ساكن بالمدرسة ومقيد بها ، فحضر

---

(١) انظر خطط المقريزى ١ : ١١٠ ، وانظر أيضا الدكتور محمد جمال الدين سرور ، دولة بنى قلاوون فى مصر ، طبع مصر ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) ص ٣٣٢-٣٣٣ .

عبد الرحمن المذكور إلينا ، ومعه فتيا ، وقد أجاب الشيخ تقى الدين عنها . . . الخ » (١) . وكانت هذه الفتيا تتعلق بمسائل الأسماء والصفات ، بما يخالف « عقيدة الشافعية التى يعتقدها القاضى شرف الدين بن عدلان » (٢) . الأمر الذى أدى إلى غضبه ومطالبته هو وجماعة آخرين من العلماء باستدعاء ابن تيمية إلى القاهرة لمناظرته . وتم بالفعل استدعاء ابن تيمية إلى مصر وعقد له مجلس من العلماء كان القاضى شمس الدين محمد بن عدلان طرفاً فيه ، وانتهى المجلس بسجن ابن تيمية فى أحد أبراج القلعة .

ولقد أطال المصنف فى الحديث عن هذه القضية التى شغلت أذهان الناس فى ذلك الحين ، واسترعت انتباه السلطان نفسه (٣) .

ويشير النويرى إلى أنه فى سنة ٧٠٦ ، التقى بصديقه « الشيخ كمال الدين الغمارى المغربى » الفقيه المالكى ، والذى كان يعهد له كشفاً (٤) ، وعندما اجتمع به هذه المرة « سألته عن حاله وما كنت أعهده فيه من الكشف ، فقال : زال ما كنت تعهده منذ استقليت (اشتغلت ؟) بهذه النميلة ، يشير إلى ابنته فاطمة ، وكان رزقها ، وكانت من الذكاء على أمر عظيم لم يشاهد مثله من سرعة الحفظ وجودة الإتقان مع صغر السن » (٥) . وكانت فاطمة هذه قد أبهرت الشيخ المحدث شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى بذكائها عندما كانت فى الرابعة من عمرها ، وكانت تحضر بعض مجالس الشيخ ، فتحفظ الحديث ، وتسرد سنده من الشيخ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعجب الشيخ لذلك (٦) .

---

(١) نهاية الأرب ٤ ، ورقة ١١ من النسخة المذكورة آنفا (٥٩٢) .

(٢) راجع : ابن الدوادارى : كنز الدرر ، ٩ : ١٣٧ ، تحقيق هانس روبرت رويمر ، طبع مصر ١٣٧٩ هـ — ١٩٦٠ م .

(٣) انظر ، نهاية الأرب ٤ ، ورقة ١١ من النسخة المذكورة ، وابن الدوادارى ، جـ ٩ ، ص ١٣٣—١٤٥ .

(٤) انظر فيما سبق ص ٤٠ .

(٥) نهاية الأرب ٣١ ، ورقة ٩٢—٩٣ .

(٦) أيضا ، ورقة ٩٣ .

ثم اشتغلت بعد ذلك بقراءة القرآن الكريم بالسبع ، وأتقنت قراءته ، وكتبت الخط الجيد ، « واشتغل والدها بأشغالها اشتغالا كثيراً فلذلك قال لى ما قال » (١) .

ولقد سجل النويرى فى الجزء العاشر من كتابه ، فى القسم الخاص بالحيوان ، أنه رأى سنة ٧٠٧ بالقاهرة « سلحفاة تحمل الرجل ، وتمشى به وهو قائم على ظهرها » (٢) .

ورغم مشاغله الكثيرة فى ديوان الخاص ، وفى البيمارستان المنصورى والأوقاف التابعة له ، وجد المصنف متسعاً من الوقت لدراسة مستفيضة فى الحديث النبوى الشريف ، وحضر مجالس عدد من كبار رجال الحديث فى عصره ، كان على رأسهم الشيخ « شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى » ، والشيخ الإمام جمال الدين أحمد ، المعروف بابن الصابونى ، وست الملك وزيرة بنت المنجّا ، وغيرهم .

ويبدو أن المصنف كان يحضر هذه المجالس خلال تواجده بالقاهرة فقد كان متوائماً مع الجو العلمى الذى وجد نفسه محاطاً به منذ سكناه بالمدرسة الناصرية . وكان — فيما يبدو — حريصاً على حضور المجالس العلمية التى كانت تزخز بها مدارس القاهرة فى ذلك الحين . وإذا كانت فترة مباشرته بدمشق (تلك الفترة التى لم تطل لأكثر من سنتين وأربعة أشهر) قد حرمته من مواصلة حضور هذه المجالس فإنه قد عاد إلى القاهرة وهو مشوق إلى حضورها . وكان يعنى خاصة بحضور مجالس السماع على كبار المحدثين .

كان أول تاريخ سجله المصنف لحضوره تلك المجالس هو ١٢ شعبان سنة ٧٠٨ ، فقد ذكر أنه سمع على « ابن الصابونى » كتاب السنن لأبى داود بالمدرسة الناصرية كما سمع على ابن الصابونى وعلى الشيخ « زين الدين أبى

---

(١) نهاية الأرب ٣١ ، ورقة ٩٣ ، (للنسخة الخطية ٥٤٩) .

(٢) نفس المصدر ، ١٠ : ٣١٦ .

محمد عبد الحق بن فتيان بن عبد المجيد القرشي » جمعاً كتاب « الشفا بتعريف حقوق المصطفى — صلى الله عليه وسلم » بسندها إلى مؤلفه القاضي عياض ابن موسى بن عياض اليحصبي ، وذلك بالمدرسة الناصرية بقراءة الشيخ أحمد بن أحمد بن الحسين الهكاري ، فى مجالس ثمانية ، آخرها فى اليوم الثانى عشر من شعبان عام ثمانية وسبعمائة » (١) .

ولا شك أن النويرى ، قد حضر كثيراً من المجالس المماثلة قبل هذا التاريخ بمدة طويلة ، وقبل وفاة شيخه الإمام المحدّث شرف الدين الدمياطى بمدة كافية . ومعلوم أن الشيخ شرف الدين قد توفى فى الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٧٠٥ هـ (٢) ، فلا يمكن أن تكون سنة ٧٠٨ هـ هى أول سنة بدأ فيها حضور مجالس السماع على كبار المحدّثين فى عصره ، وإنما حضر هذه المجالس قبل هذا التاريخ بسنوات .

توجهه إلى « الكرك » :

كان نفوذ الأمراء الكبار من المماليك يتزايد يوماً بعد يوم حتى لم يعد للسلطان الناصر محمد بن قلاوون نفوذ يذكر ، ولم يعد بمقدوره أن يبرم بنفسه أمراً أو يحل حلا ويعقد عقداً . ويبدو أن نفوذ هؤلاء الأمراء قد بلغ أشده فى سنة ٧٠٨ هـ ، الأمر الذى دفع السلطان الناصر إلى التحرك بحذر . فنى أواخر تلك السنة ، وفى شهر رمضان ، أظهر السلطان أنه متوجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعندما وصل إلى « الكرك » استقر رأيه على البقاء بها ، وأخبر الأمراء الذين رافقوه فى رحلته بأنه عدل عن أداء فريضة الحج ، وصمم على اعتزال الحكم ، واتخاذ الكرك محلا لإقامته (٣) .

وفى القاهرة ، بعد أن ثبت أن السلطان الناصر قد خلع نفسه ، بايع أمراء المماليك ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، الذى استبد بالحكم ،

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ١٤٢ .
(٢) انظر ، نهاية الأرب ٣٠ ، ورقة ٢١ .
(٣) انظر فيما سبق ، ص ١١ .

فانصرف عنه كثـير من المماليك ، ولحق بعضهم بالسلطـان الناصر فى الكرك .

ويبدو أن مصنفنا، قرّ رأيه فى النهاية ، على أن واجب الوفاء للسلطان يقتضيه أن يلحق به فى الكرك ، ولا يتخلى عنه فى محنته . ولقد غادر المصنف القاهرة فى أوائل ربيع الثانى سنة ٧٠٩ متوجها إلى « الكرك » أى بعد نحو خمسة أشهر من إعلان تنازل السلطان عن العرش (١) ، يقول : « وفيها — (يعنى فى سنة تسع وسبعمائة) — فى أوائل شهر ربيع الآخر توجهت من القاهرة إلى الكرك (٢) ، والتحقت بالأبواب السلطانية إلى أن عاد الركاب الشريف الملكى الناصرى ، وعدت إلى القاهرة فى سلخ رمضان » (٣) .

كان السلطان يبدو فى ظاهر الأمر أنه قد رغب عن الملك ، فلقد تنازل بمحض إرادته عن العرش، غير أنه فى الحقيقة يعمل على العودة إلى هذا العرش . وكان مما ساعده على تحقيق أغراضه دخول نواب الشام فى طاعته ، وانضمام كثير من الأمراء إليه(٤). وتطورت الأحداث فى صالح السلطان الناصر حتى تنازل بيبرس الجاشنكير عن العرش فى مقابل حصوله على أمان من السلطان .

ولما رأى السلطان الناصر أن الأمور فى مصر قد أصبحت ممهدة له ، ركب فى الثالث من شهر رمضان سنة ٧٠٩ متوجهاً إلى الديار المصرية ، « وكان فى صحبته القاضى نجم الدين بن صصبرى و ... مع الموقعين وكتاب الجيش » (٥) الذين يبدو أن النويرى كان واحدا منهم ، وقد وصل الركب السلطانى إلى القاهرة فى سلخ رمضان كما ذكر المصنف ، فقوبل بالحفاوة والتكريم من الخاص والعام .

---

(١) راجع ، ابن الدوادارى : ٩ : ١٥٥ وما بعدها .

(٢) يبدو أن عددا من الناس قد توجه من القاهرة إلى الكرك فى تلك الفترة ليلحق بالسلطان الناصر ، راجع ، ابن الدوادارى ٩ : ١٧١—١٧٩ .

(٣) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٣١ من النسخة المذكورة (٥٤٩) .

(٤) انظر ، الدكتور محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص ٤٠ .

(٥) ابن الدوادارى : ٩ : ١٧٧ .

ضائقة النويرى :

عاد المصنف للإقامة بالقاهرة بعد رجوعه فى صحبة السلطان الناصر من الكرك ويبدو أنه استأنف مباشرة أعماله السابقة فى ديوان الخاص ، والبيمارستان المنصورى وسائر الأوقاف الملحقة به ، كما يبدو أنه اقترب من السلطان أكثر ، وظن أن منزلته قد زادت عنده ، إلا أنه ما لبث أن تعرض للطمة كادت تودى بمكانته ومناصبه كلها .

ولم يحدثنا النويرى فى كتابه عما حدث فى هذا الشأن ، وإنما أشار إلى محنته تلك صديقه « الإدفوى » فى كتابه « الطالع السعيد » ، والمقريزى فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، فقد حدث أن أحد وكلاء السلطان الناصر محمد ، واسمه « أحمد بن عبادة » قد ضربه بالمقارع سنة ٧١٠ هـ ، لأنه كان استنابه بالمدرسة الناصرية والمنصورية وغيرهما وجعله يدخل على السلطان ويطالعه بالأمور ، فاغتر بذلك ، وبسط القول فى ابن عباده ، فلم يعجب السلطان تلك الوقيعة من النويرى ، فعرّف ابن عباده ما قاله فى حقه ، وسلمه إليه ، ومكنه منه ، فضربه بالمقارع ضرباً مبرحاً : هذه رواية المقريزى فى السلوك (١) . ويتحدث الإدفوى عن النويرى مشيرا إلى هذه الواقعة ويقول : « وحصل له قرب من السلطان الناصر ، ووكله فى بعض أموره وعمل عليه حتى رافع ابن عبادة ، وهو الذى قربه من السلطان ، فضربه بالمقارع » (٢) .

وليست لدينا معلومات وافيه عن ابن عبادة هذا ، الذى يبدو أنه كان يرأس النويرى فى العمل ، فهو الذى استنابه للعمل فى المدرسة الناصرية والأوقاف المنصورية وهو الذى فتح أمامه الباب لكى يدخل على السلطان ويعرض عليه الأمور . وهو الذى عفا عنه فى النهاية كما تشير المصادر .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ٢ : ٩١ .
(٢) الأدفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٦ .

وقد ورد اسم ابن عبادة فى إشارة عابرة عند كل من « ابن الداوادای »(١) و« ابن تغری بردی »(٢)، وهی إشارات تدل علی أن نجم بن عبادة قد سطع فى الفترة التى أعقبت قدوم الناصر من الكرك ، لكننا لا ندری من أمر وقيعة النويری فى ابن عبادة لدى السلطان شيئاً . وربما لم تكن هناك وقيعة أصلا ، إنما كل ما فى الأمر أن ابن عبادة خشی علی مركزه وخاف من منافسة النويری له . فانتهز الفرصة للنيل من النويری ، والحط من شأنه أمام الجميع وضربه بالمقارع .

ويبدو أن ابن عبادة لم يكتف بضرب النويری بالمقارع ، بل عمل على إبعاده من مناصبه التى يتولاها فى القاهرة . وكان من الطبيعی — وهو يخشی منافسته له — أن يسارع بإبعاده من الميدان ، وإزاحته من منطقة نفوذه بالقاهرة ، فنقل النويری للعمل بطرابلس ، أقصى نيابات الشام ، وأبعده عن القاهرة

وقد نقل النويری إلى طرابلس بمقتضى مرسوم وقعه السلطان الناصر فى نفس الشهر الذی تعرض النويری خلاله لمحنته ، وهو شهر محرم ، أول شهور سنة ٧١٠ ه، التى حدد المقريزی وقوع المحنة فيها . ويبدو أن ابن عبادة لم يمهل النويری حتى يلتقط أنفاسه فاستصدر هذا المرسوم السلطانی لإقصائه فى أدنى الأرض .

مباشرته بطرابلس :

منذ أن تمكن السلطان المنصور قلاوون من استرداد طرابلس من قبضة الصليبيين فى سنة ٦٨٨ ه ، وهی تعد من أهم الثغور التى ينبغی المحافظة عليها

---

(١) يقول ابن الدواداری مشيرا إلى بعض الناس : « فتوصل حتى خدم القاضی شهاب الدين بن عباده ، وكيل الخاص الشريف فى أول حلول الركاب الشريف السلطانی من الكرك المحروس » ، كنز الدرر : ٩ : ٣٥ .

(٢) يقول ابن تغری بردی : « ثم رسم السلطان لشهاب الدين بن عبادة بتجهيز الخلع والتشاريف لسائر أمراء الشام ومصر ، فجهزت ، وخلع عليهم كلهم فى يوم الاثنين السادس من شوال (سنة ٧٠٩ ه) » . النجوم الزاهرة ، ٩ : ١٢ .

والدفاع عنها ، وللذلك أصبحت طرابلس — كما مر — واحدة من النيابات الخمس التى ينقسم إليها الشام من الناحية الإدارية (١) ، غير أن طرابلس كانت أقل مرتبة ، من حيث الأهمية — من نيابة دمشق وحلب ، فلم يكن لهذه النيابة وزير ، كالشأن فى دمشق وحلب ، وإنما كان لها « ناظر المملكة » ، وهى وظيفة من الوظائف الديوانية أقل مرتبة من الوزارة . كما كان لنيابة طرابلس من أرباب الوظائف الديوانية « ناظر الجيش » وكاتب السر (أو صاحب ديوان المكاتبات) . ويتولى السلطان تقليدهم هذه المناصب ، ثم يليهم كتاب دست ، وكتاب درج ، ويتولى نائب طرابلس أمر توليهم هذه المناصب » (٢) .

يقول النويرى : « وفى هذه السنة (يعنى سنة ٧١٠ هـ) رسم لى أن أتوجه إلى المملكة الطرابلسية « صاحب الديوان » بها ، وكتب توقيعى بذلك ، وهو من إنشاء المولى الفاضل شهاب الدين محمود الحلبى . وبخط ولده القاضى جمال الدين إبراهيم . وهو مؤرخ فى الخامس عشر من المحرم ، وتوجهت فى مستهل صفر ، ووصلت طرابلس وباشرت الوظيفة » (٣) .

لقد تغيرت الآن طبيعة عمل النويرى ، فقد أصبح مشرفاً على كتابة السر ، والمراسلات الرسمية ، بعد أن كان مسئولا فى ديوان الخاص الناصرى والأوقاف المنصورية عن أعمال المحاسبات والدخل والخرج . وشروط كل وظيفة من هاتين الوظيفتين تختلف بطبيعة الحال ، كما ذكر هو فى الجزء السابع من « نهاية الأرب » .

وبالإضافة إلى هذه الشروط فإن المصنف كان يعلم أنه سيباشر هذه الوظيفة الجديدة بأعبائها الجسيمة عوضاً عن رجل من مشاهير الكتّاب ،

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٤١ .

(٢) انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ٢٠ ، ص ٢٣٤ ، والسيد عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى ، ص ٣٠٦ .

(٣) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٤١ .

وهو تاج الدين عبد الرحمن المعروف بالطويل (١) . « أحد مستوفين الدولة من مسالمة القبط ، ممن يشار إليه فى معرفة صناعة الكتابة ، ويعتمد على قوله ، ويرجع إليه » (٢) . « وكان علم صناعة الكتاب الديوانية انتهى إليه فى زمانه » (٣) على حد قول المصنف نفسه .

كان النويرى سيحتل نفس المنصب الذى احتله لفترة من الوقت تاج الطويل هذا وهو صاحب ديوان الإنشاء . ويبدو أن مصنفنا كان يجد فى نفسه الكفاءة للنهوض بأعباء وظيفته الجديدة ، ولخلافة واحد من كبار الكتاب فى عصره .

ويبدو أن الأمور فى المملكة الطرابلسية اقتضت تحقيق أقصى قدر من الإفادة بإمكانات النويرى،فنقل للعمل ناظراً للجيش بنفس المملكة،وهى وظيفة أعظم شأناً وأجل خطراً من وظيفة صاحب الديوان بلا شك ، نظرا للصبغة العسكرية التى اصطبغت بها المملكة الطرابلسية خاصة ، والدولة المملوكية عامة ، وهى الطبيعة التى كانت تعطى كل ما يتعلق بأمور الجيش والأسطول الأولوية الأولى على ما عداه .

يقول « . . . ثم تنقلت إلى نظر الجيش بها (يعنى طرابلس) فى مستهل شوال من السنة عوضاً عن نجم الدين القصير ، واتفقت وفاته فى سابع شوال قبل وصول توقيعى بذلك ، فباشرت فى أول هذه السنة عوضاً عن التاج الطويل ، وفى أواخرها عوضاً عن النجم القصير » (٤) . وهذا يعنى أن المصنف بقى فى وظيفة « صاحب ديوان الإنشاء» ثمانية أشهر قبل أن ينتقل إلى وظيفته الجديدة : ناظر الجيش بطرابلس .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ٤١ ، النسخة ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) نهاية الأرب ، ٢٩ ، ورقة ١٠٠ ، وانظر أيضا ٢٩ ق ١٠٦ ، النسخة ٥٤٩ معارف عامة ، وانظر أيضا : ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق سيد جاد الحق ، طبع مصر ١٣٨٥ هـ (١٩٦١ م) جـ ٢ ص ٥٠ .

(٣) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٥٤ من النسخة المذكورة .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ٤١ .

لم تمر على المصنف سوى بضعة أشهر حتى وجد نفسه — مرة أخرى — فى غمرة الأحداث الكبرى فى الدولة المملوكية ، ولقد لعب هذه المرة دوراً موجهاً لهذه الأحداث حتى ساعد على دفعها نحو الاتجاه الذى تتمثل فيه مصالح السلطان الناصر .

ذلك أن الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى ، الذى كان نائباً للسلطان بالشام ودمشق خلع طاعة السلطان ، وأظهر العصيان وتجاهر به ، ولم يكتف بذلك بل أرسل إلى نواب الشام يخوفهم من غدر السلطان بهم ويؤلبهم عليه .

كان نائب طرابلس فى ذلك الوقت هو الأمير جمال الدين أقوش الأفرم . فراسله قراسنقر واستماله إليه ، وبذل له المال ، وظل جمال الدين متردداً أيبقى على طاعته للسلطان أم يميل إلى قراسنقر ،وبقى جمال الدين « فى ذلك يسرّ حسواً فى ارتغاء(١)واستمر الأمير جمال الدين يدافع الأيام، ويقدم رجلا ويؤخر أخرى ، ويكاتب السلطان ويرد عليه الأجوبة »(٢) .

ورغم أن الأمير جمال الدين كان يخفى قصده من اللحاق بقراسنقر . فقد أحس النويرى من قرائن الأحوال ، واضطراب الأمور بمراد الأمير ، وبدا للنويرى — الذى كان على علاقة طيبة بالأمير — أن يكاشفه فى الأمر ويبذل له النصح . وكان النويرى لا يشك أن الأمير سيقبل نصحه لا محالة ، لما له عليه من دالة ، يقول : « فدخلت عليه (يعنى الأمير جمال الدين) فى أثناء ذى الحجة (سنة ٧١١ هـ) بطرابلس ، وكاشفته وتحدثت معه ، وحذرته عاقبة الأمر ، وبذلت له النصيحة ، فكاد يكشف لى عن باطنه ويخبرنى بما أضمره وعزم عليه ، فلحظت بعض أكابر مماليكه وهو يغمز ، ويشير إليه أن لا يفعل ، فعدل عما أراد أن يخبرنى به . ثم قال : أنا أتحقق محبتك ونصحك وأنه ما حملك على أن ذكرت ما ذكرت إلا الشفقة علىّ ، وجزانى خيراً » (٣) .

---

(١) مثل يضرب لمن يريد أمرا ويظهر أنه يريد غيره . انظر الأمثال للميدانى .

(٢) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٥٠ ، نسخة ٥٤٩ ، معارف عامة .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ٥١ .

وربما كان الأمير جمال الدين يخشى أن يفضح النويرى أمره ، فتفوه بكذبة انطلت على النويرى وظنها حقاً ، فقال له : « هذا الأمر الذى لحظته وظننته قد طالعت فيه السلطان مما دفع فيه ، وأرسلت إليه ما ورد على كتب قراسنقر . . . وهذا الذى يظهر لك أننى أفعله هو من أمر السلطان ، وسوف يظهر لك . فما شككت فى قوله . واستكتمنى هذا الأمر فكتمته ، ثم ظهر أن الأمر فى باطنه بخلاف ما أظهر لى » (١) .

وعندما تحقق للسلطان الناصر محمد عصيان الأمير جمال الدين الأفرم ، أرسل إليه كتاباً ، وطلب إليه التعجيل بالمثول بين يديه ، وحذره من التأخير أو الاعتذار حيث لا ينفعه العذر . وقبل أن يصل كتاب السلطان إلى الأمير تحرك تاركاً طرابلس متوجهاً إلى « مرج جبل » ، وأرسل إلى النويرى يطلب إليه أن يترك طرابلس بدوره ويوافيه بمرج جبل ، يقول النويرى : « فاعتذرت ولم أتوجه إليه لطفاً من الله بى » (٢) .

ولم يكن النويرى وحده هو الذى وصل إليه استدعاء الأمير ، بل أرسل أيضاً إلى أعيان الأمراء بطرابلس يستدعيهم على عجل، وهنا بدا للنويرى أنه يتعين عليه أن يؤدى دوراً بارزاً فى سبيل إحباط هذه المؤامرة ، يقول : « فقمت حين وصلت كتبه (يعنى كتب الأمير إلى الأمراء) واجتمعت بأعيان الأمراء ، ونهيتهم عن الدخول فى الأمر ، وعرفتهم سوء عاقبة الخروج عن الطاعة ، ومفارقة الجماعة ، وجددت على أكثرهم الأيمان للسلطان الملك الناصر فحلفوا ، واجتمع جماعة منهم عند الأمير شمس الدين سنقر النورى ، فتأخروا عن اللحاق » (٣) .

ويبدو أن النويرى كان حريصاً على الاتصال بكل أمراء المماليك فى طرابلس كى يحذرهم من الخروج عن الطاعة ، ويجدد بيعتهم للسلطان الناصر فلم يترك واحداً منهم إلا واتصل به ، فلم يتوجه من الأمراء أحد إلى الأمير

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ٥١ .

(٢) نفسه ، ورقة ٥٣ .

(٣) نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ٥٣ .

جمال الدين إلا واحد فقط هو « علاء الدين ايدغدى الأنقوى » أحد أمراء العشرات ، فإنه هرب إليه ولم يشعر به « وكنت قد حذّرته هذا الأمر قبل ذلك بيوم أو يومين وحلّفته فحلف ، وتوثقت منه ألا يفارق الطاعة ، فلذلك أهملته عند وصول المكاتبات إلى الأمراء » (١) .

ويبدو أن الأمير جمال الدين كان لا يشك فى وصول الأمراء بجنودهم إليه ، غير أنه شعر بالإحباط عندما انتظر « وصول العسكر الطرابلسى إليه وهو بمرج الأسل ليكبس بهم العسكر المصرى الذى بحمص ، فلم يلتحق به غير ايدغدى الأنقوى المذكور ، فلما أيس منهم ركب من مرج الأسل . . . وقصد جهة البرية » (٢) وتوجه مع قراسنقر إلى « خد ابنده » ملك المغول فى فارس ، فاحتفى بهم ، وخلع عليهم ، وأقطعهم الإقطاعات الحسنة نكاية فى عدوه السلطان الناصر .

وهكذا نجح النويرى فى القضاء على المؤامرة ، ولقد أبدى قدرا كبيراً من المهارة فى إقناع هؤلاء الأمراء بالتخلى عن واحد منهم ، وهو فى الواقع قائدهم ، فضربوا صفحاً عنه ، ولم يستجيبوا لطلبه ، واستمعوا لنصح واحد من موظفى الديوان — هو النويرى — الذى استند فى نصحه لهم إلى أحكام الشريعة وحضهم على عدم مفارقة الجماعة ، ولزوم الطاعة للسلطان .

ولو لم يكن النويرى نموذجا صالحاً لما دعاهم إليه من أخلاق فاضلة والتزام بأحكام الدين ، لما سمع الأمراء كلامه أو اقتنعوا بمنطقه ، لكنه ألزمهم الحجة فى نفسه أولا ، ودعاهم إلى تجديد بيعتهم للسلطان ، فأجابوا .

وإذا كان النويرى قد اكتسب ثقة أمراء المماليك فى طرابلس وودهم . فقد حظى أيضاً بصداقة عدد من كبار العاملين بالوظائف الديوانية ، وقد ذكر المصنف اثنين من هؤلاء العاملين ، أولهما القاضى شرف الدين يعقوب بن مجد الدين مظفر بن زهر « الذى تنقل فى الأنظار الكبار ، فلم

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ : ورقة ٥٣ .

(٢) نفسه .

تبق مملكة بالشام إلا باشرها وعاد إليها ، رافقته بطرابلس مدة . وكان من أرباب المروات ، وكان أجود ما يكون إذا باشر، وإذا عطل عن المباشرة أكثر القول فى المباشر والأكابر » (١) .

وثانيهما : القاضى نور الدين أحمد بن الشيخ شهاب الدين عبد الرحيم ابن عز الدين عبد الله بن رواحة الحموى الأنصارى ، الذى كان رئيساً لكتاب الدرج فى طرابلس، يقول النويرى عنه: « رافقته مدة فى السفر والحضر ، فلم أر منه إلا خيراً وعفة وأمانة ونزاهة » (٢) .

عودته إلى القاهرة :

لا نعرف على وجه التحديد موعد ترك المصنف مباشرته بطرابلس ولا الأسباب التى دعته إلى ذلك . غير أنه أشار بصورة عابرة إلى أنه ترك طرابلس فى سنة ٧١٢ هـ، دون أن يحدد — كعادته — التاريخ الدقيق لانفصاله عن المباشرة بها . يقول ، وهو يتحدث عن الرئيس الصاحب عز الدين أبو يعلى حمزة الدمشقى ، المعروف بابن القلانسى (٣) الذى ولى وزارة الشام ثم انفصل عنها ، وتوفى سنة ٧٢٩ هـ « وكان — رحمه الله تعالى — حسن المودة ، قدمت إلى دمشق فى سنة عشرة وسبعمائة عند عودتى من طرابلس بعد وزارته . فجاءنى للسلام على وكنت نزلت عند قاضى القضاة نجم الدين ابن صصرى (٤) بدار ابن عمه شرف الدين — رحمهم الله — وأظهر الألم كونى لم أنزل عنده . . . الخ » (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ٨٦ .

(٢) نفسه ، ورقة ٥٩ .

(٣) وهو واحد من الشخصيات الهامة فى أسرة « ابن القلانسى » التى ربطت الصداقة بين المصنف وبين عدد من أفرادها ، راجع فيما سبق ، ص ٥٧ .

(٤) كان نجم الدين بن صصرى ، قاضى القضاة بالشام فى سنة ٧١٢ هـ ، وظل يتولى هذا المنصب إلى أن توفى سنة ٧٢٣ هـ .

(٥) نهاية الأرب ، جـ ٣١ ق ٦٠ من النسخة الخطية المذكورة .

إذن ، فقد عاد المصنف إلى القاهرة فى نفس السنة المذكورة وهى سنة ٧١٢ هـ .

ومنذ تلك السنة تبدأ من جديد فترة الغموض فى حياة المصنف ، ويعود مرة أخرى إلى التزام الصمت عن كل ما يتعلق بشخصه . لكنه أورد إشارات متفرقة أثناء ترجمته لبعض الشخصيات فى الأجزاء التاريخية الأخيرة من كتابه ، يمكننا من خلالها أن نتبين بعض جوانب حياته ، خاصة فى الفترة الأخيرة منها .

ومن إشارة ذكرها صديقه الإدفوى نستدل على أن المصنف باشر — بعد عوته إلى مصر — نظر الديوان فى منطقة « الدقهلية والمرتاحية »(١) . فلقد كانت المناطق التى يشملها إقليم الدقهلية الحالى تعرف فى عهد المماليك باسم « الدقهلية والمرتاحية وكان هذا الإقليم قبل عصر المماليك ينقسم إلى إقليمين : المرتاحية ، ويقع فى المنطقة التى تشمل اليوم بلاد مركزى المنصورة وأجا ، والثانى الدقهلية ، ويقع إلى الشمال منه . وكان إقليم الدقهلية فى ذلك الوقت يقع بالمنطقة التى تشمل اليوم مراكز فارسكور ، ودكرنس والمنزلة . حتى إذا جاءت دولة المماليك جعلت هذين الإقليمين إقليما واحداً باسم « الدقهلية والمرتاحية » (٢) .

ووفقاً لما ذكره الإدفوى ، فقد تولى النويرى وظيفة « صاحب الديوان » لهذا الإقليم ، فما هو هذا الديوان الذى تولاه النويرى ؟ يبدو أن النويرى كان يتولى الإشراف على هذا الإقليم من الناحيتين المالية والإدارية .

ومما يدلنا على أنه كان يعنى بالناحيتين : المالية والإدارية لهذا الإقليم ما ذكره عرضاً فى ترجمته لحياة القاضى معين الدين أبى المواهب هبة الله

---

(١) الإدفوى ، الطالع السعيد ، ص ٤٦ .

(٢) ولقد اختصرت هذه التسمية فى العهد العثمانى إلى « الدقهلية » وظلت المراكز المذكورة كلها تابعة لها إلى أن ضمت بعض البلاد القريبة من دمياط إلى محافظة دمياط فى وقت قريب . راجع التعليقات والهوامش المستفيضة التى كتبها المرحوم الدكتور مصطفى زيادة على كتاب : النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، جـ ٥ : ٣١٢ ، هامش رقم (١) .

ابن معين الدين أبى الفضائل (أو المفضل) حشيش، صاحب ديوان الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية ، يقول النويرى عن هذا الرجل : « كان كاتباً ، أتقن صناعة كتابة التصرف ما رأيت أجود من ذهنه وإتقانه وضبطه : سألته فى سنة ست عشرة وسبعمائة (٧١٦) عن بلدة تسمى « بدوية » من أعمال الدقهلية والمرتاحية ، لمن أقطعت فى الروك الناصرى ، فذكر لى أنها كانت قبل الروك لسبعة من رجال الحلقة المنصورة ، وسمى بعضهم ، ثم ذكر من أقطعت باسمه فى الروك الناصرى من غير أن يكشف حسابه ، فقلت له : أرنى الحساب الذى يدل على هذا ، وقصدت بذلك تحقيق نقله ، فأخرج حسابه فتأملته فما وجدته أخل بشىء حتى كأنه يشاهده ، فعجبت من ذلك . . . الخ » (١) .

وهذا يدلنا على أن النويرى ظل مهتماً بشئون هذا الإقليم حتى سنة ٧١٦ هـ .

ورغم أن النويرى كان مسئولا عن الإشراف المالى والإدارى على إقليم الدقهلية والمرتاحية ، فإنه كان – فيما يبدو – مقيما بالقاهرة، أو لعله كان يقضى أغلب أوقاته فيها . فنى شهر صفر سنة ٧١٣ أنشده الفقيه الشافعى والشاعر المعروف الشيخ صدر الدين محمد بن الوكيل (٢) بعض أبيات فى الصد والهجران (٣) . وأغلب الظن أن هذا اللقاء تم بالقاهرة .

وكان المصنف فى جمادى الأولى فى سنة ٧١٥ يسمع صحيح البخارى على شيخته « أم محمد وزيرة ابنة الشيخ عمر بن أسعد محمد بن منجّا التنوخية » (٤)

---

(١) نهاية الأرب ، ٣١ ، ورقة ١٠١ .

(٢) هو محمد بن عمر بن مكى ، ولد بدمشق سنة ٦٦٥ ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧١٦ هـ. وقد درس آخر عمره بالقاهرة بزاوية الشافعى ، والمشهد الحسينى ، وهو أول من درس بالمدرسة الناصرية التى كان يقيم فيها النويرى . انظر « تاج الدين السبكى » : طبقات الشافعية الكبرى ، طبع مصر ١٣٢٤ هـ ، ٦ : ٢٣ وما بعدها ، وانظر أيضا : شذرات الذهب للعماد الكاتب ، طبع بيروت ، ٦ : ٤٠–٤١ .

(٣) انظر نهاية الأرب ، ٢ : ٢٥٠–٢٥١ .

(٤) نهاية الأرب ٣٠ ، ورقة ١٠٠ ، النسخة ٥٤٩ .

وكانت الشيخة قد عقدت ، هي والشيخ على الحجّار ، خمس مجالس لسماع البخارى فى تلك السنة ، بعضها بداخل القاهرة ، وبعضها بالقلعة ، وبعضها الآخر بظاهر القاهرة . وقد حضر المصنف واحداً من هذه المجالس (١) .

هذه هي كل الإشارات التى تدلنا على مسار حياة النويرى فى تلك الفترة . ولعل السبب فى هذا الصمت الذى التزمه عن مباشراته الديوانية فى تلك الفترة ، إنما يرجع إلى زهده فى تلك الوظائف ، وميله إلى دنيا الأدب ، وعزوفه بالكلية عن حياة الدواوين ، وتدوين حسابات الدخل والمنصرف ، ولعل هذا هو ما عبر عنه فى مقدمة كتابه يقول :

« وكنت ممن عدل فى مباديه عن الإلمام بناديه (يعنى نادى الأدب) ، وجعل صناعة الكتابة فننه الذى يستظل بوارفه ، وفنه الذى جمع له فيه بين تليده وطارفه ، فعرفت جليها ، وكشفت خفيها . . ثم نبذتها وراء ظهرى ، وعزمت على تركها فى سرى دون جهرى . . . ورغبت فى صناعة الآداب ، وتعلقت بأهدابها ، وانتظمت فى سلك أربابها » (٢) .

ولا نستبعد أن يكون هذا التحول قد تم فى تلك الفترة (٣) ، أى منذ سنة ٧١٢ بعد عودة النويرى من طرابلس ، واستقراره — نسبياً — بالقاهرة . لأن المصنف بعد أن كان يحدثنا عن مباشراته ، وعن جهوده ومغامراته فى خدمة الدولة ، كف عن هذا الحديث ، وبدأ يوجه اهتماماته إلى مجالات الأدب والعلم ، وربما شرع منذ ذلك الحين فى كتابة « صحيح البخارى » ، وفى تأليف موسوعته الكبيرة « نهاية الأرب » كما سنرى إن شاء الله .

---

(١) انظر نهاية الأرب ٣٠ ، ورقة ١٠٠ .

(٢) نهاية الأرب . مقدمة المؤلف .

(٣) ولا غرو ، فقد رأينا بذور تغليب الاهتمامات العلمية على الشئون الوظيفية واضحة جلية منذ مباشرته الأولى بالقاهرة ، وإقامته وسط الجو العلمى بالمدرسة الناصرية ، راجع فيما سبق ص ٤٣ .

انشغاله بالعلم والأدب :

ورغم أن المصنف لم يشر إلى أنه ترك الوظائف الديوانية ، فإن القرائن والإشارات التى أوردها فى كتابه ، والتى ذكرها بعض كتاب التراجم تدل على أنه قد انفصل فى وقت ما عن المباشرة ليتفرغ للأدب .

على أن المصنف إذا كان قد ترك المباشرة ، فلعله لم يتركها قبل سنة ٧١٦ ، وهى السنة التى كان يبدى فيها اهتماماً بأعمال إقليم الدقهلية والمرتاحية ، كما ذكرنا .

وربما كان يكسب قوته — بعد تركه المباشرة — باستخدام موهبته الفذة فى كتابة « الخط المنسوب » ، فلقد كان ناسخاً من الدرجة الأولى، لكنه لم يستخدم هذه الموهبة إلا فى نسخ صحيح البخارى ، ثم نسخ كتابه «نهاية الأرب » . ولقد نسخ « صحيح البخارى » سبع نسخ أو ثمان كان يبيع النسخة منها بخطه بألف درهم (١) ، وهو مبلغ كبير بمقاييس ذلك الزمان .

ومما يرجح أن النويرى تفرغ للعلم ، وانفصل عن مباشرة الوظائف الديوانية ، أنه نشط للكتابة والنسخ نشاطاً استولى على كل وقته ، ولم يدع له فراغاً لمباشرة أعمال أخرى ، يقول صاحب « المنهل الصافى » عن النويرى:

« وكتب الخط المنسوب ، قيل إنه كتب صحيح البخارى ثمانى مرات ، وكان يبيع كل نسخة من البخارى بخطه بألف درهم ، وكان يكتب فى كل يوم ثلاث كراريس » (٢) . ويصف ابن كثير فى « البداية والنهاية » النويرى بقوله : « كان ناسخاً مطيقاً وأنه كان — بعد أن يتم نسخ صحيح البخارى — يقابله ويجلده » (٣) ثم يبيعه .

---

(١) انظر شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تحقيق سيد جاد الحق ، طبع مصر ١٣٦٥ هـ (١٩٦٦ م) جـ ١ : ٢٠٩ .

(٢) أبو المحاسن بن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور ، ورقة ٢١٣-٢١٤ ، وانظر أيضا النجوم الزاهرة ، ٩ : ٢٩٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، تصوير بيروت ١٤ : ١٦٤ .

ولا ندرى هل كان المصنف يشتغل بنسخ صحيح البخارى فى الوقت الذى كان فيه معنياً بتأليف موسوعته « نهاية الأرب » ، أم أنه توقف عن نسخ الصحيح عندما شرع فى تأليف الموسوعة . غير أن الأمر الذى نكاد نرجحه هو أنه عندما بدأ تأليف موسوعته كان قد ابتعد كلية عن ميدان الوظائف الحكومية وتفرغ للتأليف والأدب — حتى لقب بـ « الشيخ الفاضل الأديب . شهاب الدين أحمد . . . الخ » (١) ، وهو لقب كان يطلق فى ذلك العصر على المشتغلين بالأدب والمبرزين فيه .

ومهما يكن من أمر فإن النويرى أتم كتابه فى ثلاثين جزءاً « باعه بخطه بألفى درهم » كما يذكر السخاوى (٢) . وهذا يعنى أنه كان ينسخ كتابه بخطه ثم يبيعه .

الفترة الأخيرة من حياته :

ولا ريب أن النويرى ، ظل — فى الفترة الأخيرة من حياته — مقيما بالقاهرة ، ولكن أين كان يسكن ؟ هناك إشارة تدل على أنه ظل يسكن بالمدرسة الناصرية — التى أقام بها منذ زمن طويل — حتى أواخر سنة ٧٢٩ هـ . فقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فى ليلة الجمعة ثالث عشر ذى القعدة سنة ٧٢٩ هـ « وهو جالس بالإيوان البحرى من المدرسة الناصرية التى [أسكن] بها بين القصرين . . . » (٣) وربما ظل النويرى مقيما بتلك المدرسة إلى أن توفى .

ولا ريب فى أن مواصلته الإقامة بتلك المدرسة مكنته من الإفادة بالجو العلمى السائد فيها ، والاتصال المستمر بأساتذتها الذين كان بعضهم يقيم فى سكن خاص بداخلها شأن النويرى نفسه (٤) . كما أتيحت له الفرصة

---

(١) نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ورقة ١٢٨ وانظر فيما سبق ص ٣٣ .

(٢) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، طبع دار الكتاب العربى — بيروت ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م. ص ٥٤ .

(٣) نهاية الأرب ، ٣١ : ورقة ٩٧ ، وانظر فيما سبق ص ٣٨ .

(٤) راجع فيما سبق ، ص ٣٨ .

للإفادة بمكتبتها العامرة ، مما كان له أوضح الأثر فى كتابه ، كما سنرى إن شاء الله .

وكان النويرى — على ما يبدو — يحتفظ بعلاقة طيبة بأسرة طاهرة الأصل كريمة الأرومة ، وهى أسرة شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، فقد أشار فى حوادث سنة ٧٢٦ إلى وفاة صديقه الشيخ المحدث عز الدين ابن زكريا حفيد شيخ الإسلام العز بن عبد السلام الدمشقى ، وقال « وكانت وفاته بالقاهرة ، ودفن بالقرافة بتربة جده ، وتوليت تجهيزه ودفنه بوصية منه إلىّ . وكان قد أوصانى أن لا أدفنه إلا خارج باب التربة ، فدفنته هناك حيث أوصى ، وكانت قد طالت مرضته . . الخ » (١) .

كان النويرى قد انفصل — كما رجحنا — عن المباشرات الديوانية ، وانشغل بشواغل التأليف والتصنيف ، وانخرط فى سلك الأدباء والمؤرخين المعروفين ، لكنه رغم ذلك ، ظل على علاقة وطيدة برجل من كبار أمراء المماليك المقربين إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ونعنى به « الأمير الكبير سيف الدين بكتمر الحسامى الحاجب » ، وكان هذا الأمير قد تقلب فى الأمور العظام إلى أن ولى الوزارة ، كما كان قريباً جداً من السلطان لا يفارقه ، ولا يطيق السلطان مفارقته . وكان هذا الرجل — على عظم منزلته — كريم الخلق ، متفقداً لأصحابه ، جواداً لا يبخل بما عنده على أحد ممن يقصده . ويبدو أن النويرى قد انقطع مدة — بسبب شواغلة — عن التردد عليه ، لكنه عندما عاد للاتصال به فى سنة ٧٢٩ هـ ، قابله بترحاب كبير ، ولم يعاتبه على انقطاعه عنه ، يقول وكأنه يومئ بذلك إلى نفسه : « . . . وإذا طالت غيبة [أحد] أصحابه عنه ، ثم جاء إليه ، لا يجد مودته قد تغيرت عليه عما يعهد ، بل يسأله عن حاله ، ويظهر له البشاشة والبشر ... الخ » (٢)

اجتمع به النويرى يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٧٢٩ هـ ، وكان قد حصل للأمير نهج إذا مشى فى الخدمة السلطانية ، فعولج منه

---

(١) نهاية الأرب ، ٣١ ، ورقة ٧٢ (النسخة ٥٤٩ معارف عامة) .

(٢) المصدر السابق ، ورقة ٧٢ .

ثم عاوده مرة أخرى . كان هذا الأمير « قد نقبت خزانته التى بداره من ظاهرها ، وسرق منها ما يزيد على تسعين ألف درهم ، وظهر ذلك فى يوم السبت تاسع المحرم ، فانزعج لذلك ، واتهم جماعة بالمال فطلبوا ، وعاقبهم متولى القاهرة ، فأقر بعضهم على بعض مماليكه أنه عاملهم على ذلك ، فحصل له من ذلك نكد كثير » (١) .

ويبدو أن النويرى ذهب إلى الأمير — بحكم علاقته الوطيدة به — لكى يتوسط لديه لإطلاق سراح مماليكه ، إذ ليس لهم ناقة ولا جمل فى هذا الأمر ، يقول : « فاجتمعت به فى يوم الجمعة المذكورة بهذا السبب ، وكان لى عليه دالة كثيرة ، فتحدثت معه فيما حصل له ، وهونته عليه ، وذكرته بما ضاع له من الأموال الكثيرة قبل ذلك عند اعتقاله ، وما له من البواقى الكثيرة عند من داينه ومات أو عجز عن القيام به ، ولم أزل به إلى أن هونت عليه » (٢) .

وكان أهم المتهمين فى هذه القضية هو الخزندار « بخشى » ، مملوك الأمير ، وهو الشخص الذى كان النويرى ينافح عنه فيما يبدو ، وكان السلطان قد وافق على معاقبة بخشى الخزندار بعد أن أقر عليه الذين اتهموا وعوقبوا . يقول النويرى : « فسألته عنه وقلت له : هل تتهمه بالمواطأة على مالك أو تتهم غيره من مماليكه ؟ فقال : لا والله هم برايا من مالى ، ولا أتهمهم بخيانة أو مواطأة . قلت لهم (صح : له) فإذاً لا يجوز لك أن تعاقبهم ، وإن فعلت أثمت . ولم أزل به إلى أن أشهد على نفسه أنه ترك الحديث من المال الذى عدم له ، وأنه لا يطالب به ، وأنه إن وجد يكون صدقة للفقراء أو لبيت المال» (٣). وقد طلب إليه النويرى أن يطلب إلى السلطان الإفراج عن المعتقلين بسبب ماله ، ففعل الرجل ، وتم الإفراج عنهم فى اليوم التالى مباشرة ، وتوفى الأمير بعد ثلاثة أيام من خروجهم من السجن .

---

(١) نهاية الأرب ، ٣١ ، ورقة ٧٢ .
(٢) أيضـا .
(٣) المصدر السابق ، ورقة ٧٢ .

لقد تمكن النويرى من أن يسدى معروفا إلى الأمير ، بقدر ما قدم من خير لذلك المملوك البرىء الذى كان أمينا لخزانته ، فلقد مات الأمير قرير العين بأنه لم يأثم أو يظلم أحدا ، وأفرج فى النهاية عن ذلك المتهم البرىء ومن معه .

ولو لم يكن النويرى ناصحا أمينا ، ولو لم يكن قد عرف عنه الصلاح والتقوى وإرادة الخير ، لكانت نصائحه تلك قد وقعت على أذن صماء ، ولما استجاب لها هذا الأمير الكبير . لكن النويرى أثبت بهذه الوساطة الخيرة قدرته على فعل المعروف وإقناع الناس بفعله .

وفـــاته :

يقول صاحبه الإدفوى : « توفى يوم الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة ثلاثة وثلاثين وسبعمائة » (١) . وإذا كان هذا صحيحا . فقد مات النويرى — رحمه الله تعالى — عن خمسة وستين سنة وعشرة أشهر (٢) .

ولقد ذكر الإدفوى حادثة وفاة النويرى على هذا النحو : « . . وصام رمضان سنة وفاته ، وحصل أنه واظب على القراءة ، فكان كل يوم بعد العصر يستفتح قراءة القرآن إلى قريب المغرب ، ثم حصل له وجع فى أصابع يديه كان سبب وفاته »(٣) .

---

(١) الإدفوى : الطالع السعيد ، ص ٤٦ .

(٢) أخطأ عدد من كتاب التراجم ، وذكروا أنه مات وهو من أبناء الخمسين ، انظر مثلا : أبا المحاسن بن تغرى بردى : المنهل الصافى ، النسخة الخطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور ، ورقة ٢١٤ . والنجوم الزاهرة للمؤلف نفسه : جـ ٩ : ٢٩٩ ، وابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، النسخة الخطية بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧٣ تاريخ ، ورقة ٤٤ . ويبدو أن محققى الأجزاء التى تم طبعها من كتاب نهاية الأرب ، بدار الكتب المصرية قد تابعوا كتاب التراجم فى خطئهم هذا ، فكتبوا على غلاف كل جزء من الأجزاء التى طبعت تاريخ ولادة النويرى ووفاته على هذا النحو : ٦٧٧–٧٣٣ ، أى أنه عاش ستا وخمسين سنة ، فى حين أنه ولد — كما ذكر هو بنفسه — سنة ٦٦٧ وليس ٦٧٧ .

(٣) الطالع السعيد ، ص ٤٦ .

أخلاقه وصفـــاته :

يجدر بنا — قبل أن ننتقل إلى موضع آخر ، أن نعرض هنا للسمات الأخلاقية الرفيعة التى كان يتحلى بها النويرى ، والتى ذكرها كتاب التراجم عنه ، ممن عاصروه أو أتوا بعده .

يصفه صديقه الإدفوى بقوله : « وكان زكى الفطرة ، حسن الشكل ، وفيه مكرمة وأريحية ، وود لأصحابه » (١) . كما وصفه معاصره أبو بكر ابن أيبك الدواداري بقوله : « فاق بفصاحته العرب » (٢) . أما معاصره الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر ، المعروف بابن حبيب (توفى ٧٧٩) فيقول عنه : « أديب تضاعف أدبه ، وظهر سعيه ودأبه ، وارتفعت منازله ورتبته ، واشتهرت مؤلفاته وكتبه . كان لطيف الذات ، حسن الصفاء والصفات ، جميل المحاضرة ، بديع المذاكرة ، حصّل وجمع ، وأفاد ونفع . . الخ » (٣) .

أما أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى (المتوفى ٧٨٤ هـ) ، فقد وصفه فى كتابيه : « النجوم الزاهرة » و « المنهل الصافى » يقول : « كان فقيها فاضلا ، مؤرخا بارعا ، وله مشاركة جيدة فى علوم كثيرة . . الخ » (٤) .

ويتحدث عنه معاصر آخر من الشام ، عرف بالدقة فى تمييز الرجال ، وهو الحافظ المؤرخ عماد الدين أبو الفداء بن كثير (توفى ٧٧٤ هـ) فيصف النويرى بقوله : « . . كان لطيف المعانى . . وبالجملة كان نادرا فى وقته » (٥) .

---

(١) الطالع السعيد : ص ٤٦ .

(٢) كنز الدرر وجامع الغرر : ٨ : ٣٩١ .

(٣) ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، النسخة الخطية بدار الكتب المصرية برقم ٦١٧٣ ، ورقة ٤٤ .

(٤) النجوم الزاهرة ، ٩ : ٢٩٩ ، المنهل الصافى (النسخة الخطية بدار الكتب المصرية رقم ١٢٠٩ تاريخ تيمور ، ورقة ٢١٣-٢١٤) .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ : ١٦٤ .

ويصفه ابن حجر العسقلانى فى « الدرر الكامنة » بأنه « كان حسن الشكل ظريفا متوددا » (١) .

هذه هى الصفات والأخلاق التى أثبتها للنويرى المؤرخون وكتاب التراجم من المعاصرين واللاحقين ، وهى صفات أخلاقية رفيعة نلمسها من خلال صداقته لعدد من الشخصيات التى ترجم لها فى كتابه ، وهى شخصيات كانت تتمتع بسمو خلق فريد ، وبمثالية فاضلة ، وجد فيها النويرى انعكاسا للمثل الأعلى عنده ، فارتبط بها ، وحافظ على تودده لها ، ولا عجب فإن « المرء على دين خليله » ، كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم .

على أن أبرز الصفات الأخلاقية التى تجلت بوضوح فى كتابه ، هى صفة التواضع عنده ، وهى صفة عامة سائدة وملموسة ، ويمكننا أن نذكر لها مثلا واحداً فهو يشير فى مقدمة حديثه عن « الحيوان » إلى قصوره «عن أن يكتب فى هذا الموضوع شيئاً يرقى إلى مستوى ما كتبه السابقون ، يقول :

« ولولا خشية الإطالة لوصفت كل حيوان منها برسالة ، لكنى استغنيت بما ألفته من منقولى ، عما أصفه من مقولى ، وعلمت أننى أقصر عن حق هذه الرتبة فأحجمت ، وأقف دون بلوغ هذه الحلبة فأمسكت . وقد تقدمنى من بالغ فى هذا وأطنب ، ووجد المقال فبسط القول وأسهب ، وحاز المعانى فما ترك لسواه مذهب . . . الخ » (٢) .

* * *

---

(١) الدرر الكامنة : ١ : ٢١٠ .

(٢) نهاية الأرب : ٩ : ٢٢٤ .

الفصل الثالث

شيوخه وثقافته

سبق أن ذكرنا أن النويرى لم يصرح فى كتابه باسم أى من شيوخه الذين تلقى العلم على أيديهم فى فترة الصبا والشباب عندما كان يعيش فى « قوص » ذلك الإقليم المزدهر بالعلم والعلماء ، الزاخر بالمدارس ودور التعليم (١) . لكن الأمر كان على النقيض تماماً عندما انتقل إلى القاهرة للعمل بها فى ديوان الخاص السلطانى ، وأقام بالمدرسة الناصرية التى كان قد أنشأها حديثاً السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون واتصل بالعلماء والفقهاء والمحدثين ، وأفاد من ثلاثة من أئمة زمانهم ، وهم ، كما يصرح هو نفسه فى كتابه :

١ ـ الشيخ الحافظ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى الشافعى (٢) .

٢ ـ شيخ الإسلام تقى الدين أبى الفتح محمد بن على بن وهب القشيرى المنفلوطى الشافعى المالكى المصرى المعروف بابن دقيق العيد ، الفقيه والمحدّث المعروف (٣) .

٣ ـ قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة (٤) .

كان هؤلاء هم شيوخه فى فترة تحصيله الثانية بالقاهرة ، عندما أكب

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٣٣-٣٤ .

(٢) انظر مثلا ، نهاية الأرب ١٦ : ٢٢٩ .

(٣) انظر مثلا ، نهاية الأرب ٨ : ٥١ .

(٤) انظر مثلا ، نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ١٠٠ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

على دراسة الفقه والحديث ، قبل أن يكلف بالسفر إلى الشام لمباشرة وظائفه الديوانية سنة ٧٠٢ .

ويبدو من مطالعتنا لنهاية الأرب أن الشيخ شرف الدين الدمياطى ، هو أكثر أساتذته تأثيراً فيه . وتحديداً للوجهة التى سلكها فيا بعد . فلقد كان ذلك الرجل موسوعياً بحق، كان علامة زمانه وحافظ وقته فى الحديث ، وكان مؤرخاً طويل الباع فى علم التاريخ ، كما كان فقيهاً مبرزاً ، وأديباً بارعاً .

كان الشيخ شرف الدين قد ولد بدمياط فى أواخر سنة ٦١٣ ، وتفقه ببلده ، وسمع من كبار شيوخ الحديث فى عصره كالحافظ عبد العظيم المنذرى ، حتى رحل إليه الطلاب ودرسوا الحديث على يديه ، قال عنه الذهبى فى معجمه : « العلامة الحافظ الحجة ، أحد الأئمة ، وبقية نقاد الحديث ، رحل وسمع الكثير ، ومعجمه (١) نحو ألف ومائتين وخمسين شيخاً ، وله تصانيف فى : الحديث ، والغوالى ، والفقه ، واللغة وغير ذلك . ومحاسنه جمة . . . وله مصنفات نفيسة منها : السيرة النبوية فى مجلد ، وكتاب فى الصلاة الوسطى ، وكتاب « الخيل » . وكتاب التسلى والاغتباط بفوات ما تقدم من الإفراط » (٢) .

ولقد أفاد النويرى فائدة كبيرة من مصنفات الشيخ ، ومن منهجه وطريقته ، وكان من أهم الكتب التى اعتمد عليها النويرى فى تصنيف نهاية الأرب « الخيل » الذى تردد اسمه كثيراً فى مصادره لدراسة الحيوان وغيره (٣) .

وقد توفى الشيخ شرف الدين الدمياطى فى خامس عشر ذى العقدة سنة خمس وسبعمائة (٤) .

---

(١) معجمه : أى الكتاب الذى ألفه فى تراجم شيوخه ، وكان هذا تقليدا معمولا به عند أهل الحديث .

(٢) أبوالفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، طبع بيروت ٦ :١٢-١٣ .

(٣) انظر فيما يلى ، الفصل الخاص بمصادر نهاية الأرب .

(٤) النويرى، نهاية الأرب ، ٣٠، ق ٢١ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية .

وإذا كان النويرى قد تأثر بالطريقة الموسوعية التى اتصف بها شيخه شرف الدين الدمياطى ، فقد تأثر بنفس القدر بتلك الأخلاق العملية الرفيعة ، والتحرى المثابر للصواب ، والورع والمراقبة الذى كان يتحلى به شيخه الكبير « قاضى القضاة تقى الدين بقية المجتهدين أبو الفتح محمد ، المعروف بابن دقيق العيد . وكان أجل ما رأينا ديانة وعلماً ، وورعاً وتقشفاً .. الخ » (١)

كان الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد قد ولد سنة ٦٢٥ هـ بقوص فى بيت علم ، فلقد كان والده فقيهاً معروفاً بقوص ، وكان مالكى المذهب ، فتفقه ابن دقيق العيد على أبيه ، ثم درس الفقه الشافعى على الشيخ عز الدين ابن عبد السلام ، وحقق المذهبين وأفتى فيهما ، ثم اتجه لدراسة الحديث ، وسمع من جماعة من المحدثين ، وولى قضاء الديار المصرية ، ونصب نفسه للتدريس والفتوى ، يقول عنه النويرى : « وولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وكانت تلك الدار عبارة عن مدرسة متخصصة لتدريس الحديث النبوى الشريف » (٢) . ولعل النويرى نفسه قد حضر دروس ابن دقيق العيد فى هذه الدار .

ولقد تركزت تصانيف ابن دقيق العيد فى علوم الحديث ، وأصول الدين والفقه ، وتوفى رحمه الله سنة ٧٠٢ .

ولقد صرح النويرى بأنه تتلمذ على قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن إبراهيم سعد الله بن جماعة الحموى الشافعى . وكان ابن جماعة قد ولد بحماة سنة ٦٣٩ هـ وتلقى العلم بها ، وولى قضاء القدس ثم نقل إلى قضاء الديار المصرية سنة ٦٩٠ ، ثم نقل إلى دمشق . وأعيد مرة أخرى إلى قضاء الديار المصرية بعد وفاة ابن دقيق العيد . ولما عاد الملك الناصر من « الكرك »

---

(١) نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ٤٠ .

(٢) أنشأها الملك الكامل محمد (الأيوبى) سنة ٦٢١ هـ « وهى ثانى دار عملت للحديث فإن أول من بنى دارا للحديث على وجه الأرض هو الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، ثم بنى الكامل هذه الدار ، وكملت عمارتها سنة اثنتين وعشرين وستمائة » . السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة طبع مصر سنة ١٣٨٧ هـ ، ٢ : ١٤٢ .

سنة ٧٠٩ عزله مدة سنة ثم أعيد ، وكف بصره فى أثناء سنة ٧٢٦ . فصرف عن القضاء واستمر بالتدريس ، ثم انقطع بمنزله بمصر قريباً من ست سنين يسمع الناس عليه ويتبركون به . وقال عنه الذهبى فى معجم شيوخه : « إن له تعاليق فى الفقة والحديث والأصول والتواريخ ، وغير ذلك ، وله مشاركة حسنة فى علوم الإسلام مع دين وتعبد وتصوف وأوصاف حميدة . . . . الخ ، ولقد توفى — رحمه الله — فى سنة ٧٣٣ هـ » ، أى فى نفس السنة التى توفى فيها النويرى .

وربما حضر مصنفنا النويرى دروس ابن جماعة بعد أن عاد النويرى من مباشرته فى الشام سنة ٧٠٣هـ ، إذ يستبعد أن يكون قد حضر عليه قبل ذلك ، حيث كان ابن جماعة مقيماً خارج الديار المصرية حتى نقل — كما ذكرنا — ليتولى القضاء بعد وفاة ابن دقيق العيد سنة ٧٠٢ هـ ، وكان النويرى فى ذلك الوقت بالشام ، وعاد إلى القاهرة فى شهر رمضان سنة ٧٠٣ هـ ومكث فيها ، وربما اتصل فى تلك الفترة بابن جماعة وحضر دروساً عليه لكن تأثير ابن جماعة فى فكر النويرى كان — فيما يبدو — محدوداً للغاية ، ولا يمكن أن يرقى لمستوى تأثير شيخيه الآخرين : شرف الدين الدمياطى ، وابن دقيق العيد .

الحديث :

راجت دراسة الحديث النبوى فى عصر الأيوبيين والمماليك فى كل من مصر والشام رواجاً كبيراً ، وبرز فى علوم الحديث ، وتراجم الرجال ، وعلم الجرح والتعديل علماء كانت لهم اليد الطولى فى خدمة هذا الميدان الشريف ، ويكفى أن نذكر منهم على سبيل المثال : الحافظ عبد العظيم المنذرى ، والحافظ شرف الدين الدمياطى ، والإمام شمس الدين الذهبى ، وابن حجر العسقلانى :

ولم يسهم هؤلاء وغيرهم بنشاط موفور ، وبهمة لا تعرف الكلل فى خدمة الحديث الشريف فحسب ، بل ساهموا أيضاً — بما عرف عن علم الحديث وأهل هذه الصناعة من دقة متناهية ، وتحرج كامل — فى إيجاد

المناخ العلمى الصحيح الذى شهد إنجازات شتى لا فى علم الحديث فقط ، بل فى سائر العلوم والآداب . وعاد علماء الحديث فى ذلك العصر ، إلى إرساء تلك التقاليد العلمية والأصيلة فى تحرى الدقة الكاملة والتزام جانب التثبت على جانب الشك ؛ تلك التقاليد العلمية التى كان قد أرساها علماء أعلام فى علم الحديث الشريف كالبخارى ومسلم . فأحيا علماء الحديث فى عصر المماليك هذه التقاليد العلمية الرصينة من جديد ، وألزموا أنفسهم بها ، وتقيدوا بمناهجها ، فكانوا فى منهجهم هذا أئمة لغيرهم فى سائر نواحى المعرفة ، وكان على كل من يريد أن يتحرى وجه الحق والدقة أن يدرس هذا العلم الشريف ، ويتعرف على مناهجه .

كان النويرى من بين من أدركوا أهمية هذا العلم ومنهجه المتقن لكل من أراد أن يتصدى للكتابة والتأليف ، وكان النويرى قد أدرك تلك الأهمية منذ وقت مبكر ، عندما لفته إلى أهمية هذا العلم وفضله شيخاه الجليلان : الحافظ شرف الدين الدمياطى (توفى ٧٠٥ هـ) ، وابن دقيق العيد (توفى ٧٠٢ هـ) ، كما مر .

غير أن النويرى واصل اهتمامه بالحديث بعد وفاة أستاذيه المذكورين ، وعكف منذ أن عاد من مباشرته بالشام إلى دراسة الحديث (١) ، وإلى سماعه من الشيوخ الأعلام الذين لم يضنوا بعقد مجالس السماع — لسماع البخارى وغيره حسب القواعد المعروفة للسماع — فى القاهرة وسائر مصر والشام . وكان بعض الشيوخ يعقد فى السنة الواحدة خمسة مجالس للسماع . كما يروى مصنفنا عن الشيخة « أم محمد وزيرة بنت منجا » والشيخ « على الحجار » أن الناس فى سنة ٧١٥ هـ قد سمعوا « عليها وعلى « الحجار » فى هذه السنة بقلعة الجبل والقاهرة وظاهرها ومصر خمس مرات ، أولها بقلعة الجبل بدار النيابة بالطبقة الحسابية فى السادس والعشرين من صفر ، وآخرها بالقلعة فى أواخر جمادى الآخرة وأوائل رجب . . . » (٢) .

---

(١) انظر النويرى : نهاية الأرب ، ٣٠ ورقة ١٤٢ (حوادث سنة ٧٢٠) من النسخة المصورة بدار الكتب .

(٢) أيضا ، ورقة ١٠٠ (حوادث سنة ٧١٦) .

وأشار النويرى إلى أنه حضر بنفسه بعض مجالس السماع هذه التى عقدت فى سنة ٧١٥ هـ .

على أن المصنف أشار إلى عدد من الشيوخ الذين سمع عليهم ، وهم :

١ — الشيخ المحدث الفاضل الأعلى(١) يعقوب بن الشيخ الإمام المقرى جمال الدين أحمد ، المعروف بابن الصابونى ، المتوفى سنة ٧٢٠ هـ . يقول النويرى عن شيخه ابن الصابونى : « سمعت عليه — رحمه الله تعالى — كتاب السنن لأبى داوود سليمان بن الأشعث السختيانى بالقاهرة بالمدرسة الناصرية (٢) بقراءة ولده . . . » (٣) .

٢ — الشيخ زين الدين أبو محمد عبدالحق بن فتيان بن عبدالمجيد القرشى ، وقد أشار النويرى إلى أنه سمع عليه وعلى ابن الصابونى معاً كتاب : « الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم » بسندهما إلى مؤلف الكتاب القاضى عياض ابن موسى بن عياض اليحصبى بالمدرسة الناصرية أيضاً ، فى مجالس ثمانية ، آخرها اليوم الثامن من شعبان عام ثمانية وسبعمائة »(٤) .

٣ — الشيخة أم محمد وزيرة ابنة الشيخ عمر بن أسعد بن منجا التنوخية ، المولودة سنة ٦٢٤ أو ٦٢٣ هـ ، والتى توفيت بدمشق سنة ٧١٦ هـ (٥). يقول النويرى : « روت صحيح البخارى عن ابن الزبيرى ، وسمعته عليها بالقاهرة سنة خمس عشرة وسبعمائة » (٦) .

٤ — شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى نعمة الصالحى الحجار ،

---

(١) كذا ورد لقبه فى نهاية الأرب ٣٠ : ق ١٤٢ من النسخة المصورة بدار الكتب .
(٢) حيث كان يقيم النويرى نفسه .
(٣) نهاية الأرب ، ٣٠ : ق ١٤٢ من النسخة المصورة المذكورة .
(٤) نفس المصدر والورقة .
(٥) نهاية الأرب ٣٠ ، ق ١٠٠ من النسخة المصورة .
(٦) نفس المصدر والورقة .

المولود سنة ٦٢٣ هـ ، والمتوفى سنة ٧٣٠ هـ (١) . ولقد أشار النويرى إلى أنه سمع منه ومن أم محمد وزيرة صحيح البخارى بسندها إلى الإمام البخارى سنة ٧١٥ هـ ،يقول وهو يعرض لخبر الثلاثة الذين خلّفوا فى «غزوة تبوك»(٢) « . . . وكان من خبرهم ما حدثنا به الشيخان المعمران المسندان شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى طالب نعمة الصالحى الحجار ، وست الوزراء أم محمد وزيرة بنت القاضى شمس الدين . . . التنوخية الدمشقيان قراءة عليهما ، وأنا أسمع فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وسبعمائة بالمدرسة المنصورية بالقاهرة المعزية . . . الخ » (٣) .

ولقد أضاف الإدفوى فى « الطالع السعيد » إلى أسماء الشيوخ — الذين سمع عليهم النويرى الحديث الشريف — اسم شيخ آخر ، وهو الشريف موسى ابن على بن أبى طالب (٤) . وربما كان النويرى قد أشار إلى هذا الاسم فى كتابه ولم نلتفت إليه خلال قراءتنا للأجزاء المخطوطة من كتابه . وعلى أية حال فقد كان الشريف موسى بن على بن أبى طالب الدمشقى واحداً من أعلام الحديث فى عصره ، شد طلاب العلم الرحال إليه ووفدوا عليه ، وواصل خدمته هذا العلم الجليل حتى توفى بمصر بعد أن بلغ السابعة والثمانين من العمر فى سنة ٧١٥ هـ .

كان هؤلاء هم شيوخ النويرى فى السماع ، وهم إلى جانب كثرتهم نالوا فى هذا العلم شهرة واسعة ، وبلغوا — من بين أهل عصرهم — أعلى مراتبه ، وأرقى درجاته ، ولذلك تأثر النويرى بهذا العلم تأثراً بالغاً ، وبدا هذا التأثير واضحاً فى اتجاهات ثلاثة :

---

(١) راجع ترجمته فى شذرات الذهب ٦ : ٩٣ .

(٢) انظر : صحيح البخارى ، باب المغازى ، وابن القيم ، زاد المعاد ٢ : ٣ وما بعدها وابن هشام : سيرة النبى ق ٢ ص ٥٢٢ .

(٣) نهاية الأرب ، ١٦ : ٤٠٦–٤٠٧ ، وانظر أيضا إشارة إلى جلسة أخرى سمعها النويرى من نفس الشيخين بنفس المكان فى موضوع « حديث الإفك » فى جمادى الأولى من نفس السنة ١٦ : ٣٥٠ .

(٤) الإدفوى : الطالع السعيد ، ص ٤٦ .

الأول : استعانته المستمرة بالحديث الشريف فى كل الفنون التى عرض لها فى موسوعته ، وفى الفن الخاص بالإنسان ، وفن التاريخ بوجه خاص (١) .

الثانى : دقته وتحرجه فى الاقتباس من مصادره ، فلم يكن يقتبس اقتباساً علمياً أو تاريخياً أو أدبياً إلا من مصادر موثوقة وكتب ألفها علماء أعلام ، ولا يتطرق إلى عدالتهم شك .

الثالث : استفادته بمنهج أهل صناعة الحديث فى النقد الداخلى للنصوص التاريخية خاصة . كما سنرى فى الفصل الخاص بالتاريخ والأسطورة عند النويرى .

ولأن النويرى كان يستعين بالأحاديث النبوية الشريفة أثناء تأليفه لموسوعته ، ولما كان النويرى معروفاً بأنه على درجة من الإتقان لعلم الحديث فقد رأى أنه لا بأس من أن يحذف الإسناد فى الأحاديث الشريفة التى أوردها ، فهو يعرف أنه ثقة عند قارئة فى هذا الصدد ، يقول : « وسنذكر . . . ونحذف أسانيد الأحاديث الواردة فيه رغبة فى الاختصار » (٢). وهو يعرف — بلا شك — أن حذف الإسناد غلط كبير عند أهل هذه الصناعة ، لكن ماذا عساه أن يصنع وهو يؤلف موسوعة كبيرة متنوعة المقاصد ، متعددة الأغراض . لا ضير عليه إذن إن هو قدم متن الحديث صحيحاً وتغاضى عن الإسناد ، فهو لا يكتب لأهل الحديث وحدهم ، بل يكتب فى كل فن ويصنف فى كل باب .

وقد يتمثل النويرى بحديث شريف واحد للدلالة على غرضه ولا يستشهد إلا به مع تعدد الأحاديث الصحيحة الواردة فى نفس الغرض ، فهو حريص على الاختصار ، كما سبق أن ذكرنا . يقول فى ذكر ما يكون بعد وفاة عيسى إلى أن ينفخ فى الصور : « والأحاديث الصحيحة فى هذا الباب

---

(١) انظر مثلا ، نهاية الأرب ٢ : ١٩٨ ، ٦ : ١٨٩ ، ١٣ : ٢٧٦ ، ١٥ : ١٠٤ .

(٢) نهاية الأرب ١ : ٣٢٨ .

كثيرة جداً ، ولو استقصيناها لطال الكلام وانبسط القول ، وخرج التأليف عن شرطه الذى قدمناه » (١) .

كان النويرى — من ناحية حفظه للحديث النبوى الشريف واستيعابه له واستشهاده المتكرر به فى شتى المواضع — يتميز على غيره من أدباء عصره ومؤرخيه . والحق أن شواهده من الحديث النبوى جاءت فى موضعها تماماً . فلم يبالغ فيها ويكثر منها — كما شرحنا — فلا يقال إذن بأنه يبرز معرفته بالحديث فى تأليفه ويتظاهر بذلك ويتجمل به . لكن النويرى لم يكن بحاجة أصلا إلى أن يتظاهر فى هذا الجانب بالذات ، فهو قد درس على أشهر المحدثين والمسندين فى عصره ، ليس هذا فحسب ، بل نسخ البخارى سبع مرات — كما صرح هو — عن نسخة محررة تحريراً صحيحاً شافياً على يد أحد الأئمة الأعلام فى زمانه ، وهو ابن اليونينى الحنبلى (المتوفى سنة ٤٧٨ ببعلبك) . وكان ابن اليونينى « قد اعتنى بصحيح البخارى من ساير طرقه ، وحرر نسخته تحريراً شافياً ، وجعل لكل طريق إشارة ، وكتب عليه حواشى صحيحة ، وقد نقلت صحيح البخارى من أصله مراراً سبعة ، وحررته كما حرره ، وقابلته بأصله ». ويبدو أن هذه النسخة التى حررها ابن اليونينى قد لقيت الكثير من الشهرة والذيوع حتى اعتمدها المحدثون الكبار فى ذلك العصر كأم محمد وزيرة ، وأحمد الحجار ، إذ يشير النويرى إلى أن نسخة ابن اليونينى كانت أصل سماعه فى سنة ٧١٥ هـ على كل من الحجار وأم محمد وزيرة بنت منجا .

هذا بالإضافة إلى أن مصنفنا نفسه نال إجازة عالية تجيز له الرواية عن الحافظ عز الدين الفاروثى . وكان الفاروثى قد أعطى أحد أصدقاء المصنف ، وهو قوام الدين عبد المجيد الشيرازى إجازة بخطه شاهدها النويرى ، وقد أجاز الفاروثى « لكل من جعل خطه تحت خطه فيها أن يروى عن الشيخ عزّ الدين المذكور ما يجوز له روايته ، وكتب خطى تحت تلك الإجازة ،

---

(١) نهاية الأرب ٣٠ ورقة ٣ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

فصار لى بهذا الاعتبار أن أروى عن الشيخ عز الدين الفاروثى بالإجازة ». (١)

كل هذا يؤدى بنا إلى القول بأن الحديث النبوى الشريف كان هو العمود الفقرى لثقافته كلها ، وربما كانت دراسته للحديث وتعرفه على منهج المحدثين الصارم الدقيق قد أورثته هذه العناية الفائقة بما تخط يمينه ، والدقة المتناهية فيما يقتبس ، ولقد كللت على هذه العناية والدقة فى النهاية مسحة من الذوق الأدبى الرفيع الذى تحلى به مصنفنا .

الفقـــه :

تتلمذ النويرى – كما ذكرنا – على أفضل فقهاء عصره ، كابن دقيق العيد ، وابن جماعة ، وكان لابد أن تنعكس دراسته للفقه على ثقافته ، وبالتالى على موسوعته نهاية الأرب . ولئن كان الحديث الشريف قد غلب على ثقافة النويرى ، فإننا نجده لا يفتأ بين الحين والحين يأتى بأحكام فقهية ، ويناقش بعضها ؛ ويذكر أوجه الخلاف فيها ، وربما انتهى إلى اجتهاد خاص بشأنها ، أو ينقل رأى أحد شيوخه فى هذه الأحكام ، مثلما فعل عندما أورد اعتراض شيخه الحافظ شرف الدين الدمياطى على الحنفية فى قولهم بتحريم أكل لحوم الخيل (٢) .

ولقد أبدى مصنفنا رأيه الفقهى فى أن بعض أنواع التعامل الزراعى التى كانت سائدة فى مصر فى عهده إنما هى ربا محض .

ومهما يكن من أمر ، فإن أثر انفعاله الوجدانى بالحديث الشريف والفقه قد ظهر جلياً فى الكثير من مواضع موسوعته ، وبدت حساسيته الدينية البالغة تجاه ما يمس هذه العقيدة الإيمانية الراسخة بين جوانحه ، وعف

---

(١) نهاية الأرب ٣١ ورقة ٩٢ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية .

(٢) انظر ، نهاية الأرب ٩ : ٣٥٩ ، وانظر أيضا نهاية الأرب ٦ : ١٦٠ ، فصل فيما يلزم المجاهدين معه من حقوق الجهاد ، ٩ : ٧ وما بعدهما فى ما ينبغى أن يصدر عن الكاتب من جميع المكاتيب الشرعية .

فى كتابه عن أن يأتى ببيت فيه تعريض بامرأة أو ينطوى على غزل حسى ، أو أن يأتى بنص فيه قول فاضح . هذا فضلا عن أنه كان يفتتح كل تقسيم من تقسيمات كتابه — فناً كان أم باباً ، أو فصلا ، بذكر آيات من القرآن الكريم ، ثم ببعض الأحاديث النبوية الشريفة الداخلة فى نفس الغرض . ولقد جعل من عقيدته معياراً يزن به كل ما يورد فى كتابه ، وإن اضطر أن يورد — على سبيل العبرة — بعض الحكايات الدالة على الغرض ، أعقبها على الفور بتعليق نابع من تلك العقيدة الراسخة المتمكنة من نفسه ، فهو يورد بعض الحكايات على سبيل العظة والاعتبار بعنوان : فى عقوبة اللائط فى الآخرة . ثم يعلق عليها قائلا : « . . . ولا يبعد أن يعاقب من تجاهر بمعاصى الله وانتسب لمن كفر بالله وعصاه ، وكذب رسوله أن يعاقبه الله بما عاقبهم به ، ويلحقه بهم ، وفى بعض هذا عبرة لمن اعتبر » (١) .

التصـــوف :

سبق أن ذكرنا أن التصوف قد راج رواجاً كبيراً فى العصر المملوكى ، وتعددت طرقه ، وتأثر به الناس والحكام جميعاً . وكان لابد للنويرى أن يتصل بأهل هذا الطريق، فكيف كانت صلته بهم وهو الذى تربى فى أحضان الفقه، والفقهاء — كما قلنا — يشعرون — بالخصومة تجاه التصوف . هل كانت صلة النويرى بهم صلة خصومة وعداء أم صلة محبة ووفاء ؟ .

يبدو أن النويرى لم ينحرف مع أى من التيارين المتطرفين اللذين راجا — كما قدمنا — فى عهده بشأن التصوف ، ونعنى بهما تيار الاعتقاد الجازم فى الصوفية وفى قدرتهم على الإتيان بالمعجزات والخوارق والكرامات ، وتيار البغض لهم والحط من شأنهم واعتبارهم مجرد أفاقين يعيشون عالة على المجتمع ، خارجين عن الملة . إنما اتخذ النويرى موقفاً وسطا ، ولم تكن علاقته بالتصوف كفكرة أو فلسفة ، لكن كانت بمجموعة من الصوفين المستنيرين الصالحين ، الذين سلكوا فى حياتهم مسلكاً ينطوى على التقشف

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ٢٠٩ .

والزهد والاستغناء ، ولم يعش أحدهم فى خوانق الصوفية وإنما عاشوا فى زوايا وخلاوى خاصة بهم .

والعجيب أن عدداً ممن اتصل بهم من الصوفية فى عصره بحبل الوداد كان فقيها متصوفاً ، أو محدثاً متصوفاً ، فلم ينشأ عنده ذلك التعارض الذى طرحناه ، بين الشريعة والطريقة ، ولم يجد حرجاً — وهو ربيب علوم الشريعة — فى أن يتعرف إلى أهل الطريق .

وكان من بين هؤلاء الشيخ الصالح العابد العلامة أبو الفضل المنبجى (متوفى سنة ٧١٩ هـ) الذى« كان فقيهاً تصوف ، وسأل الله أن يمنع عنه تردد الأكابر وزيارة الناس إليه حتى يخلو للعبادة وانقطع عنه الناس فى آخر عمره ثمانية أشهر من السنة ، لا يشافه بكلامه غير خادمه وابن أخته الشيخ قطب الدين عبد الكريم . وكنت اجتمع فى بعض الأحيان بزاويته (١) وأخلو به ، فيتحدث معى ، ويدعو لى ، وتظهر لى منه دلائل المحبة والميل إلىّ . وكنت أقصد رؤيته فى زمن انقطاعه عن الاجتماع بالناس فأحضر إلى الجامع الحاكمى فى يوم الجمعة قبل حضوره ، فإذا جاء قمت إليه وتلقيته وسلمت عليه وصافحته ، فيرد علىّ السلام الشرعى لا يزيدنى ولا غيرى عن ذلك ، وأما فى غير زمن انقطاعه فيسألنى عن حالى وما تجدد لى » (٢) .

ومنهم الشيخ كمال الدين الغمارى المغربى (توفى سنة ٧٢٨ هـ) كان بين فقهاء المالكية ، وكان رجلا منقطعاً لا يتردد إلى أحد ، حسن اللباس والمأكل ، يأكل غالباً خبز الشعير ، ويطعم أهله ما يختارونه من الأكل ، وكان النويرى يعهد له كشفاً (٣) .

ومنهم الشيخ الصالح قوام الدين عبد المجيد بن أسعد بن الشيرازى ، من علماء الحديث ، سمع من الشيخ عز الدين الفاروثى ، ونال منه إجازة

---

(١) يشير العماد الكاتب فى شذرات الذهب ٦ : ٥٢ إلى أنه كان له زاوية فى الحسينية بمصر .

(٢) نهاية الأرب ٣٠ ورقة ١٢٩—١٣٠ من النسخة الخطية المصورة بدار الكتب المصرية .

(٣) راجع فيما سبق ص ٤٠ ، وانظر نهاية الأرب ٣١ ورقة ٩٢—٩٣ من النسخة المصورة بدار الكتب المصرية .

برواية ما يجوز له روايته(١) ، لكن الشيخ الشيرازى لم يكن كأصحاب النويرى الآخرين من الصوفية يعيشون فى خانقاهاتهم وخلواتهم ، وإنما كان شيخا للخانقاه الملحقة بالجامع الناصرى بساحل مصر المحروسة (٢) .

وكان للمصنف صداقة قديمة ببيت مشهور من بيوت التصوف فى العراق والشام وهو بيت الخياط ، فقد أشار إلى صلته بالشيخ العدل « شرف الدين أبى حفص عمر بن الجزرى الشافعى » (توفى سنة ٧٢٨ هـ أيضاً) وكان من أعيان الصوفية حيث حل بدمشق والقاهرة والقدس . ويقول عنه النويرى : « صحبته وصحبت (٣) ولده الشيخ أمين الدين محمد، من سنة تسع وسبعمائة. وتأكدت الصحبة بيننا، فكانا من خيار من صحبت ، وكان لى بهما اجتماع قبل ذلك » (٤) .

وبرغم هذه الصلة العميقة الواسعة المستنيرة بأهل الطريق ، لم يكن النويرى يعترف بالخوارق الصوفية ، ويستنكر تحققها ، وقد ورد ذلك فى قصته التى حكاها فى أحداث سنة ٧١٨ هـ عن الفقيه زين الدين عبد الرحمن عبيدان البعلبكى الحنبلى، الذى زعم أنه رأى الحق سبحانه ، وشاهد الملكوت ، ورأى الفردوس ، ورفع إلى فوق العرش ، وسمع الخطاب . . . فأنكر عليه ، فبادر وجدد إسلامه .

* * *

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٩٥ .

(٢) نهاية الأرب ٣١ ، ورقة ٩٢ من النسخة الخطية المصورة المذكورة .

(٣) فى الأصل « وصحبه » وهو تصحيف .

(٤) نهاية الأرب ٣١ ، ورقة ٩٣ من النسخة المصورة المذكورة .

الباب الثانى

كتاب نهاية الأرب

أهميته ومميزاته ، منهجه ، مصادره الأدبية

الفصل الأول

الموسوعات فى العصر المملوكى

يعد كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى خير ممثل للاتجاه إلى التأليف الموسوعى ، وهو الاتجاه الذى ساد العصر المملوكى بعد ذلك ، وكان النويرى هو الذى اقتحم هذا المجال ، وسن هذه السنة للمبرزين من كتاب عصره ، فظهرت فى عهد النويرى عدة موسوعات نذكر منها :

١ ــ مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمرى (٧٠٠ ــ ٧٤٩) (وهى عبارة عن موسوعة تاريخية جغرافية) .

٢ ــ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، لأبى العباس محمد بن عبد الله القلقشندى (٧٥٦ ــ ٨٢١) . (وهى موسوعة فى الصناعة اللفظية والأدبية).

(٣) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى (٨١٣ ــ ٨٧٤) وهى موسوعة تاريخية .

ولسنا نعنى بهذا أن النويرى كان أول كتاب الموسوعات العربية على الإطلاق ، فلقد عرف العقل الإسلامى العربى الموسوعات منذ زمن يسبق النويرى بكثير ، بل ربما عرف هذا العقل الموسوعات « على أول عهده بالتأليف ، وربما كانت الموسوعات الأولى مثل الحيوان للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة أقرب منهجاً إلى الموسوعات المملوكية ولعل عيون الأخبار أكثر قرباً إليها من غيرها ... وكتاب الأغانى دون أدنى شك أكبر وأغنى الموسوعات الأدبية والتاريخية والاجتماعية والموسيقية الغنائية والجغرافية والفكاهية . إن الموسوعات ظهرت متتابعة متسلسلة ، يلاحق بعضها بعضاً ، وتتابع

مؤلفوها على مسرى الزمان تتابعاً متصل الحلقات ، قصير الفواصل الزمنية»(١) إلى أن جاء العصر المملوكى الذى تتابعت فيه الموسوعات تتابعاً سريع الخطو ، فظهرت فى مدة زمنية محددة عدة موسوعات تفاخر المكتبة العربية بوجودها فيها . ولعل السبب فى وفرة الموسوعات فى ذلك العصر يرجع إلى أنها « نشأت فى بيئة خصبة مستنيرة غير جامدة ولا متخلفة ، وأن فترة تأليفها كانت فترة ازدهار عقلى وتألق حضارى فى مختلف فروع الآداب وجوانب المعرفة الإنسانية . . . » (٢) .

أسباب ظهور الموسوعات :

ويرجع الباحثون العرب السبب فى ظهور الموسوعات فى العصر المملوكى إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ فى أيدى التتار . الذين حولوا بغداد العامرة إلى منطقة خربة لا يسكنها إلا البوم والغربان ، وقضوا على مكتباتها الزاخرة بالكتب والمؤلفات ، فألقوها فى نهر دجلة ، وأحرقوا ما بقى منها . وعندئذ فتحت مصر أبوابها للاجئين إليها من العلماء والأدباء ، فكثرت الرحلة إلى مصر ، واتجهوا — بعد أن شعروا بالأمان فى هذه الديار — إلى جمع المواد التى تتألف منها هذه الثقافة فى كتب كثيرة على شكل موسوعات ، لحفظها من الضياع والاندثار (٣) .

وإذا كان الباحثون المحدثون العرب يرجعون السبب فى ظهور الموسوعات إلى ندرة الكتب والخوف من ضياعها ، فإن من بين المستشرقين — وهو فرانتز روزنتال — من يرى أن ابن خلدون كان على حق عندما لاحظ أن النشاط الهائل على مدى عدة قرون فى كل حقل من الحقول الأدبية والعلمية

---

(١) دكتور مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف عند العلماء العرب (قسم الأدب) بيروت سنة ١٩٧٤ ، ص ٧٥٧ ، ٨٥٨ . وعبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية ص ٣١٦ .

(٢) الدكتور مصطفى الشكعة ، مناهج التأليف ، ص ٧٦٠ .

(٣) هذا هو رأى جمهرة الباحثين العرب ، انظر مثلا : عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية ص ٣١٥ ، مصطفى الشكعة : مناهج التأليف ، ص ٧٦٠ ، وشوقى ضيف ، الفن ومذاهبه ، طبع مصر ١٩١٩ ، ص ٣٧٩ .

أسفر عن تأليف عدد ضخم من الكتب ، فلم يكن عمر العالم المختص يكفى لقراءة كل ما كتب فى ميدان اختصاصه ، فكيف بدراستها . « ومن هنا كان ازدياد الطلب على الكتب الموسوعية المختصرة » (١) . فروزنتال يرى من الأمر عكس ما رآه الباحثون العرب ، فالسبب فى كثرة الموسوعات يرجع عنده إلى وفرة الكتب لا إلى ندرتها والخوف من ضياعها .

وإذا كان الباحثون المحدثون من العرب يرون أن التأليف الموسوعى جاء نتيجة لعوامل عامة شملت المنطقة كلها ، أهمها القضاء على الخلافة العباسية ، وإغراق الكتب فى نهر دجلة ، فإن المستشرق الروسى كراتشكوفسكى يرى أن السبب فى نشأة هذه الموسوعات وانتشارها ، يرجع إلى ظروف البيئة المصرية ، ولا يرجع إلى ظروف خارجة عن نطاق هذه البيئة ، فهو يقول : « من وجهة نظر التاريخ الأدبى فإن الموسوعات تنتمى إلى طراز مصرى صرف من المؤلفات الوصفية التى وضعها عمال وعلماء حكومة عصر المماليك . . . وكنمط أدبى فإن هذه الموسوعات وليدة تاريخ طويل معقد . . . وعلى الرغم من أنها عملت أساساً من أجل كتبة الدواوين الذين كانوا زينة الجهاز الكتابى والإدارى لمصر آنذاك إلا أن جميع المثقفين قد اهتموا بمطالعتها ، مما جعل مؤلفيها يولون اهتماماً كبيراً للأسلوب الأدبى »(٢)

وعلى النقيض من ابن خلدون — الذى تابعه روزنتال كما لاحظنا — الذى رأى فى هذه الموسوعات نقيصة لذلك العصر ، نجد كراتشكوفسكى يرى أنها تعد خير ما أنتجته ذلك العصر (٣) .

وإذا راجعنا آراء النقاد فى نشأة الموسوعات فلاحظ أن الرأى الذى قال به الباحثون العرب من أن سبب نشأة الموسوعات يرجع إلى خوف

---

(١) فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة ، طبع بيروت ١٩٨٠ م ، ومن المعروف أن ابن خلدون هاجم فى مقدمته الكتب المختصرة ، وعدها مضرة بالعلم والتعليم .

(٢) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى ١ : ٤٠٥ .

(٣) انظر ، نفس المصدر والصفحة .

المسلمين من ضياع تراثهم بعد انهيار الخلافة العباسية فى بغداد ، ومن ثم أقبل العلماء على التأليف الموسوعى ، هذا الرأى يميل إلى المثالية والتجريد ولا يراعى الواقع الحى للتاريخ الأدبى ، فلقد بدأ النويرى فى تأليف موسوعته فى سنة ٧١٢ (كما رجحنا من قبل) أى بعد نحو قرن من الزمان على غزو المغول للعالم الإسلامى ، وأكثر من نصف قرن على سقوط بغداد . ولم يجد النويرى — بعد هذه المدة الطويلة — أى عناء فى العثور على كتب التراث ، بل كانت المكتبة العربية برمتها فى متناوله — كما سنلاحظ عند دراستنا للمصادر . ولم يشك النويرى ، وربما لم يشك من جاء بعده من كتاب الموسوعات ، من ندرة المصادر التى يتعين عليهم الرجوع إليها لاستخلاص أهم ما فيها وصيانته عن الضياع — كما يذهب جمهور الباحثين العرب . ولم يقل واحد من كتاب الموسوعات فى العصر المملوكى — لا تصريحاً ولا تلميحاً — بأنه إنما يؤلف موسوعته خوفاً من ضياع العلم واندثاره ، فلم تطرأ هذه الفكرة لأحد منهم على بال ، ولم تحدث أن استغنى أحد بهذه الموسوعات عن المصادر الأصلية التى نقلت تلك الموسوعات عنها .

أما ما قاله كراتشكوفسكى من أن السبب فى انتشار هذه الموسوعات فى عصر المماليك إنما يرجع إلى ظروف البيئة المصرية وحدها دون غيرها . فهذا قول صحيح إذا نحن أخذنا فى الاعتبار الشخصيات الفذة البارزة التى اضطلعت بتصنيف هذه الموسوعات كالنويرى والقلقشندى ، والمقريزى وابن فضل الله العمرى ، وأبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى . فالعبقرية الذاتية الفذة أمر لا يمكن إغفاله فى هذا المجال ، ولو ظلت ظروف البيئة المصرية تعمل عملها دون أن تصادف هذه الشخصيات الفذة لاستخدام العوامل الفعالة والإيجابية فى هذه الظروف لما قيض لهذه الموسوعات أن تظهر أصلا .

فنحن لا ننساق وراء نظرية الحتمية التاريخية التطورية للأشياء التى يؤمن بها كراتشكوفسكى ، وإنما نعتقد أن المسألة ذاتية قبل أن تكون منسوبة إلى ظروف البيئة والحتمية التاريخية . فلقد لبث النويرى — الذى قدم لنا باكورة الموسوعات الناضجة فى ذلك العصر — عمراً يعمل موظفاً حكومياً

ويحتل سركزاً مرموقاً إلى جانب السلطان نفسه ، وما كان أحد يظن — ولا حتى النويرى نفسه — أنه سيطرأ عليه هذا التحول وذلك الانقلاب الذى حوله إلى مصنف لموسوعة كانت سبباً فى تخليد ذكره بين الناس .

وإذا كانت الموسوعات قد تعددت فى ذلك العصر وتتابعت بعد نهاية الأرب فما ذلك إلا لوجود طائفة من الشخصيات الأدبية والعلمية الفذة استطاعت أن تستغل الوسط العلمى السائد فى ذلك الوقت فى مصر ، بعد أن هجر إليها العلماء فى كل فن من كل حدب وصوب واستقروا بها ، وبعد أن تعددت المعارف الإنسانية وتنوعت وتشعبت ، ووجد المثقفون عامة والكتاب خاصة أنهم بحاجة إلى أن يلموا من كل فن من هذه الفنون والعلوم بطرف ، وقبل أن يبزغ فجر عصر التخصص الدقيق ، فأفادت هذه الطائفة بالجو العلمى ذى الطابع الموسوعى فى مصر ، وأدركت حاجة الناس إلى نوع من التأليف يقابل طبيعة العصر الذى يعيشون فيه ، فقدمت لهم هذه الموسوعات التى كانت بحق شاهدة على عبقريتهم هم بقدر ما كانت شاهدة على عبقرية البيئة التى عاشوا فيها والظروف التى أحاطت بهم .

موسوعة « نهاية الأرب » وموقعها من موسوعات العصر المملوكى :

يرى كراتشكوفسكى أن وحدة الوسط الذى نشأت فيه الموسوعات فى العصر المملوكى هى التى أدت إلى تشابهها فى الترتيب ، فلقد كان مؤلفو هذه الموسوعات جميعاً من موظفى الحكومة المملوكية ، وعندما أخرج هؤلاء المؤلفون موسوعاتهم جاءت متشابهة تقريباً فى الترتيب ، « وهو ترتيب يعكس بوضوح تام أثر التدريب الصارم فى الشئون الكتابية »(١) .

كما يرى كراتشكوفسكى أن أصل نمط الموسوعات فى ذلك العصر هو كتاب « مباهج الفكر ومناهج العبر » لمحمد بن إبراهيم الوطواط الكتبى الوارق المتوفى عام ٧١٨ . فالكتاب المذكور موسوعة فى العلوم الطبيعية

---

(١) كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى ١ : ٤٠٦ .

والجغرافيا ، ولكنه معروض فى أسلوب المصنفات الأدبية ، وموضح بالشواهد من شعر ونثر . وينقسم كتاب مباهج الفكر إلى أربعة فنون :

الأول : فى الفلك والأجرام السماوية .

الثانى : فى الجغرافيا .

الثالث : فى الحيوان .

الرابع : فى النبات .

وكل فن من هذه الفنون ينقسم بدوره إلى تسعة أبواب ، والكتاب يغلب فيه الطابع الأدبى على الميل العلمى ، وهو يصدر مواضع بحثه بالقول النقلى من آيات قرآنية وأحاديث نبوية . ومذاهب فى التفسير ثم يعقب على ذلك بآراء العلماء من اليونان والعرب ويستشهد بالنوادر والأمثال والشعر (١) .

ويرى كراتشكوفسكى أن ذلك الكتاب « قد لعب بلا شك دوراً كبيراً فى تطوير هذا النمط (يعنى نمط الموسوعات) ويرتبط ارتباطاً مباشراً بموسوعة النويرى . وبرهان ذلك ليس فقط فى أن هذا الأخير (يعنى النويرى) ينقل عنه مراراً ، بل لأنه من المحتمل أن يكون النويرى قد استعار عنه طريقة التبويب إلى « فنون » محتفظاً أحياناً بمحتويات الكتاب نفسها . فنى القسم الخاص بالنبات مثلا يعيد النويرى تصنيف النبات كما دوّنه الوطواط ، ومن هذا نجد أن التفاصيل من ناحية ، والتبويب من ناحية أخرى يشيران إلى ارتباط وثيق بين الكتابين » (٢) .

وربما كان هذا الاستنتاج صحيحاً إلى حد بعيد ، فالنويرى لا ينكر أنه أفاد بكتاب الوطواط « مباهج الفكر ومناهج العبر » فى العديد من المواضع ، ونقل عنه كثيراً وصرح فى كل مرة بأنه ينقل عنه كما ينقل عن غيره ولعله أخذ منه أيضاً طريقة التبويب والتقسيم لموسوعته .

---

(١) كراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى : ٤٠٦–٤٠٧ .

(٢) نفسه ، ١ : ٤٠٧–٤٠٨ .

وبرغم ذلك ، فإن النويرى كان — بلا شك — صاحب الفضل فى فى إعطاء الموسوعات فى العصر المملوكى طابعها المميز وشكلها الناضج ؛ ولا غرو فهو صاحب أول موسوعة فى ذلك العصر ، احتذاه واقتدى به من جاء بعده كابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ، وغيره من كتاب الموسوعات فى تلك الحقبة .

* * *

الفصل الثانى

نهاية الأرب فى فنون الأدب :

سبب تأليفه وتاريخ هذا التأليف

ألف النويرى كتابه فى واحد وثلاثين جزءاً ، وقسمه إلى أقسام خمسة ، أو فنون خمسة كما سماها . وكل فن من هذه الفنون يحتوى على خمسة أقسام أيضاً .

ومقدمة الكتاب تقع فى ست وعشرين صفحة ، يبدأها بحمد الله سبحانه وتعالى والثناء عليه ، ثم الصلاة على نبيه محمد — صلى الله عليه وسلم — والإشارة إلى علو شأن الصحابة الكرام — رضى الله عنهم أجمعين . ثم بعد ذلك يشيد بفن الأدب ويعده من أول ما ينبغى على ذوى الأذهان السليمة ، والأنساب الكريمة أن يجعلوه وسيلة وذريعة يتوصلون بها إلى بلوغ مقاصدهم ، فهو الفن الذى « ما حل الكاتب بواديه إلا وعمرت بواديه ، ولا ورد مشارعه إلا واستعذب شرائعه ، ولا نزل بساحته إلا واتسعت له رحابها ، ولا تأمل مشكلاته إلا وتبينت له أسبابها » (١) .

سبب تأليفه للكتاب :

ويبين أنه لم يكن — فى بادئ أمره — مهتما بفن الأدب ، وإنما جعل صناعة الكتابة هى كل همه فبرع فيها ، وأحرز فيها قصب السبق ، وأتقن مواد هذه الصناعة وتاجر فيها بأنفس بضاعة — كما يقول ، ثم ما لبث أن غير رأيه فيها ، وسأل ربه أن يبدله عنها ما هو خير منها .

---

(١) نهاية الأرب ، جـ ١ ، المقـــدمة .

ولعل النويرى يقصد بالأدب هنا الثقافة العامة بمفهومها الواسع الذى يضم الآداب والعلوم والفنون ، وتشمل الإلمام بالأقسام الخمسة التى قسم إليها كتابه ، ونعنى بها :

(١) المعلومات والمعارف المتعلقة بالسماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية .

(٢) الإنسان وما يتعلق به .

(٣) الحيوان .

(٤) النبات .

(٥) التاريخ البشرى .

فهذه هى فروع الأدب عنده ، وهى فروع واسعة متشعبة تنبسط تحت عينه انبساطاً واسعاً يتجاوب مع مقومات شخصيته ، وهى بذلك تختلف اختلافاً بيناً عن صنعة الكتابة ، تلك الصنعة التى يبدو أن النويرى لم يجد فيها متنفساً لإمكاناته ، ومتسعاً لقدراته . فهو لم يلبث إلا مدة يسيرة حتى زهد فيها وفى مصطلحاتها . فلقد أتقنها تمام الإتقان وبرع فيها ، وبز أقرانه ، لكنه ضاق بها لضيق نطاقها — فيما يبدو ، ولأنها نكصت به عن أن ينطلق إلى آفاق أرحب ومجالات أوسع نطاقاً ، يقول : « وكنت ممن . . . جعل صناعة الكتابة فننه الذى يستظل بوارفه ، وفنه الذى جمع فيه تليده وطارفه ، فعرضت جليها وكشفت خفيها ، وبسطت الجرائد (١) ونظمت منها الارتفاع ، وكنت منها كموقد نار على يفاع ، واسترفعت القوانين ، ووضعت الموازين ، وعاينت المقترحات واعتمدت على المقايسات ، وأجبت عن المخرج والمردود ، فأعجزت المناظر والمفاضل ، وأتقنت مواد هذه الصناعة وتاجرت فيها بأنفس بضاعة » (٢) .

---

(١) لعلها الجرائد أى جرائد الحسابات التى يستخرج منها مقدار الإيراد ، وجرائد الإقطاع وغيرها التى شرحها النويرى فيما يحتاج إليه كاتب الجيش ، انظر نهاية الأرب ٨ : ٢٠٠ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ١ : ٣ .

على أن النويرى لم يكن يعنى بالكتابة هنا هذا الاصطلاح على إطلاقه ، وإنما كان يعنى بها « كتابة التصرف والديوان » ، وهو قسم من الأقسام التى اعتمدها عندما تكلم عن صنعة الكتابة وقسمها فى السفر السابع فقال :

« ثم الكتابة بحسب من يحترفون بها على أقسام : وهى كتابة الإنشاء ، وكتابة الديوان والتصرف ، وكتابة الحكم والشروط ، وكتابة النسخ ، وكتابة التعليم . . » (١) .

ويبدو أن المصنف لم يكن يقيم وزناً كبيراً لهذه الصناعة التى باشرها عندما تولى الوظائف الحكومية ، فأتقنها وفاق فيها الأقران ، ونعنى بها كتابة الديوان والتصرف ، فلم يرد عندما تناول موضوع « الكتابة » فى السفر السابع أن يتناول من أقسام الكتابة إلا « كتابة الإنشاء » فحسب ، فيضرب صفحاً عن ذكر كتابة « الديوان والتصرف » ولا يتعرض بالإشارة إليها ، غير أن بعض إخوانه حثه على ذكرها ، ولو بصورة مختصرة لكى يقدم خلاصة خبرته وعصارة تجربته فى هذا النوع من أنواع الكتابة الذى لم يسبق لأحد أن كتب فيه ، فيستفيد بهذه التجربة الناجحة الكتاب والمباشرون فى الدواوين المختلفة ؛ يقول : « ولما انتهيت فى كتابى هذا إلى باب الكتابة ، أردت أن أضرب عن ذكر كتابة التصرف صفحاً ، ولا أعيرها من النظر لمحاً ، وأقتصر على كتابة الإنشاء جرياً على عادة من صنف ، وقاعدة من ألف ، فسألنى بعض إخوانى أن أضع فى ذلك ملخصاً يعلم منه المباشر كيف المباشرة . . . فأوردت هذه النبذة إزالة لسؤاله ، وتحقيقاً لآماله »(٢) . وهكذا ألف المصنف فصلا من أمتع فصول الكتاب وأنفعها ، وهو فصل تبينت منه جسامة المسئوليات الملقاة على عاتق كاتب الديوان والتصرف ، وكثرة الأعمال الديوانية المنوطة به ، وهى أعمال ما كانت لتدع للمصنف — عندما كان مسئولا عن نظارة الجيش — وقتاً لكى يمارس هوايته المفضلة فى القراءة والاطلاع ، أو يترجم إمكاناته المبدعة فى صورة إنتاج عملاق فى مجال الأدب على أوسع نطاق .

---

(١) نهاية الأرب : ٧ : ٤

(٢) نفس المصدر : ٨ : ١٩٣ .

ومن ثم نراه يعزف عن الكتابة وأعبائها ، ويبدى ما يشبه الندم على أنه لم يوقف كل جهده منذ البداية على الإلمام بالأدب ، يقول : « وكنت ممن عدل فى مباديه عن الإلمام بناديه » (١) .

غير أن المصنف — فيما يبدو — لم يترك صناعة الكتابة دفعة واحدة ، وإنما بدأ ينسحب من ميدانها بالتدريج . ولعل الخاطر الذى ألح عليه بتركها قد راوده فى الوقت الذى كان يتخذ فيه صناعة الكتابة مهنة له ، لكنه لم يشأ أن يفاتح فى هذا الخاطر أحداً ، وحرص على كتمانه سراً من الأسرار الكثيرة التى تعود على كتمانها(٢)؛ لكنه — بفطرته السليمة وعقيدته الإسلامية الراسخة — اتجه إلى الله سبحانه وتعالى ، وسأله أن يغنيه عن هذه الصناعة التى برم بها وإن كانت مصدر رزقه وسبب قربه من السلاطين وأولى الأمر . وأن ييسر له طريقاً إلى ما هو خير من هذه الصناعة . يقول وهو يتحدث عن صناعة الكتابة : « ثم نبذتها وراء ظهرى ، وعزمت على تركها فى سرى دون جهرى ، وسألت الله تعالى الغنية عنها ، وتضرعت إليه فيما هو خير منها » (٣) .

وعندئذ حدث هذا التحول الذى طالما كان السبب فى ذيوع شهرة الأدباء والعلماء (٤) ، وهو تحول ينقل المرء من عالم النسيان إلى عالم الخلود ؛ فلو قيض للنويرى أن يظل كاتباً أو ناظراً للجيش لكان قد بقى شخصاً مغموراً لا يعرف أحد عنه شيئاً ، ولا ينتفع منه شيئاً ، ولما قيض للمكتبة العربية أن تضم هذه الموسوعة الضخمة النافعة التى عكف النويرى بكل جد على تأليفها . ومن ثم كان هذا التحول خيراً وبركة لا سيما أنه اتجه الاتجاه الذى يتناسب مع تكوين المصنف وإمكاناته ، فقد اتجه إلى الأدب ، وشغف به ، وخالط أهله وأصحابه ، وانتظم فى سلكهم ، وبدا وكأنه يريد أن

---

(١) نهاية الأرب : ١ : ٢ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٥٢ .

(٣) نهاية الأرب ، ١ : ٣ .

(٤) حدث هذا التحول مثلا للإمام أبى حامد محمد الغزالى (٤٥٠—٥٠٥) راجع كتابه : المنقذ من الضلال .

يعوض ما فاته من زمن . يقول : « ورغبت فى صناعة الآداب وتعلقت بأهدابها ، وانتظمت فى سلك أربابها ، فرأيت غرضى لا يتم بتلقيها من أفواه الفضلاء شفاها ، ومواردى منها لا يصفو ما لم أجرّد العزم سفاها » (١) .

فلقد تبين له بحق أنه لا يمكن الاعتماد فى تحصيل هذه الصناعة على السماع والمشافهة ، وعلى مجالسة أهل الأدب والفضلاء وحضور منتدياتهم ومجالسهم فإن ذلك وإن كان ضروريا ، لا يفى بالغرض ، ولا يؤدى إلى إتقان هذا الفن ، وهو الذى لا يحب أن يدخل فى أمر إلا ويتقنه إتقاناً كاملا ، ويلم به إلماماً شاملا . فكان عليه إذن العودة إلى الكتب ومطالعتها بل ومراجعتها ، يقول : « فامتطيت جواد المطالعة ، وركضت فى ميدان المراجعة » (٢) .

أجل ، لقد احتاج هذا التحول إلى عناء كبير من النويرى الذى لم يكن يرضى لنفسه بأقل من أن يبرز فى كل ميدان يقتحمه ، وكل صناعة يتخذها . وصناعة الآداب ليست كغيرها من الصناعات سهلة المركب ، قريبة المدخل والمخرج ، بل هى صناعة لابد من معالجتها معالجة خاصة ، فيها كثير من التعب والعناء ، حتى يذل مركبها ، ويصفو مشربها ، وتسلم للمرء قيادها .

والواقع أن المصنف صادق كل الصدق فيما قال ، فلا شك أننا ندرك مدى الجهد الذى بذل فى سبيل إتقان صناعته الجديدة والمحببة إلى نفسه . فنحن إذا رحنا نعد المصادر التى طالعها ، والمراجع التى قرأها ، فسوف نجد أنفسنا أمام كم هائل من هذه المصادر والمراجع التى بدا المصنف وقد استوعب ما فيها من معلومات وتمثلها ، ثم دبجها بقلمه فى موسوعته ، فجاءت هذه المعلومات — رغم تعدد مصادرها — متناسقة إلى حد بعيد لا نبو فيها ولا نشاز .

والآن ، وبعد أن عانى المصنف هذا العناء الكبير ، وبذل الجهد المضاعف لكى يمسك بزمام صناعة الآداب ، وبعد أن شعر بأنه أمسك بهذا

---

(١) نهاية الأرب ، ١ : ٣ .

(٢) نهاية الأرب ١ : ٣ .

الزمام بالفعل ، وأتقن هذه الصناعة ، وانتظم فى سلك أربابها ، وتمكن من الإلمام بتفاصيلها ، فضلا عن خطوطها العريضة ، رأى أنه يجدر به أن يؤلف موسوعة شاملة تلم بأطراف هذه الصناعة وتشتمل على أركانها . يقول : « وحيث ذل لى مركبها ، وصفا لى مشربها ، آثرت أن أجرد عنها كتابا أستأنس به وأرجع إليه . وأعول فيما يعرض لى من المهمات عليه »(١). فلقد كان الهدف من تأليف الكتاب بادىء ذى بدء — فيما يبدو — أربعة أمـور :

الأول : حصول الأنس والمتعة للمصنف بمطالعة ما أورده فى الكتاب كلما عنّ له ذلك .

الثانى : الاعتماد على ما ورد فى الكتاب من معلومات إذا احتاج المصنف إليها فى حالة تكليفه بمهمة من المهام . ولا شك أن المصنف كان يحسب أنه لو كلف بأية مهمة فستكون فى نطاق هذه الصناعة التى استوعب مادتها فى كتابه ، ويسهل عليه عندئذ أن يعتمد على الكتاب .

الثالث : وقد يبدو لأول وهلة عند مطالعتنا للأمرين السابقين فى تأليف الكتاب أن المصنف إنما ألفه لنفسه فحسب ، لكننا إذا مضينا قليلا فى قراءة مقدمة الكتاب نجده يتحدث عن كتابه بقوله :

« وما أوردت فيه إلا ما غلب على ظنى أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه » (٢) فهو إذن لم يؤلف الكتاب لنفسه فحسب ، بل لكى يقرأه غيره أيضا (٣) فيأنسون به كما يأنس هو به .

الرابع : ثم إن هناك سبباً آخر لتأليف بعض الموضوعات الأصلية فى الكتاب ، كموضوع كتابة الديوان والتصرف ، كما أسلفنا .

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٣ .

(٢) نهاية الأرب ١ : ٢٥ .

(٣) انظر : نقولا زيادة . الجغرافية والرحلات عند العرب ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ٩٠ .

فهذا موضوع ألفه المصنف بنفسه لا لشىء إلا لكى « يعلم منه المباشر كيف المباشرة ، ويستضىء به فيا يسترفعه (١) أو يرفعه(٢) من ضريبة وموافرة » (٣) .

فلقد أراد المصنف أن يفيد الناس بكتابه بقدر ما يأنسون به ويستمتعون بقراءته .

تاريخ تأليف الكتاب :

لم يحدد النويرى فى مقدمة كتابه تاريخ تأليفه ، ففى أثناء تقسيمه لأبواب الكتاب وهو التقسيم الذى أورده فى المقدمة ، ذكر أنه سوف يخصص الباب الثالث عشر والأخير من فن التاريخ للحديث عن : « أخبار ملوك الديار المصرية ، منذ الإسلام . . . إلى حين وضعنا لهذا التأليف فى سنة . . . وسبعمائة ، فى أيام مولانا السلطان السعيد الأجل الملك الناصر »(٤) ، محمد بن قلاوون ، فترك النويرى مكان السنة بياضا .

وربما بدأ مصنفنا ينشط لتأليف موسوعته بعد عوده من طرابلس واستقراره بالقاهرة كما رجحنا فيما سبق ، أى بعد سنة ٧١٢ (٥) .

ويبدو أن النويرى نشط لتأليف أجزاء موسوعته بعد ذلك التاريخ (٧١٢) (٦)، وبدأ يكتب النسخة الأولى من الموسوعة بخطه . وقد بقى — لحسن الحظ — من النسخة الأولى للموسوعة جزء واحد مكتوب بخط النويرى نفسه ، هو الجزء التاسع عشر من كتابه (٧) ، ذكر فيه أنه فرغ

(١) يسترفعه : أى يطلب من غيره أن يرفعه إليه .
(٢) يرفعه : أى يرفعه هو إلى غيره .
(٣) نهاية الأرب ، ٨ : ١٩٣ .
(٤) نهاية الأرب ، ١ : ٢٥ .
(٥) راجع فيما سبق ، ص ٧٢ وما بعدها .
(٦) بعد أن استقر الحكم للسلطان الناصر منذ سنة ٧٠٩ .
(٧) هو الجزء الحادى والعشرون من تقسيم دار الكتب المصرية .

من تأليفه فى ٩ جمادى الثانية ٧١٨ يقول : « كمل الجزء التاسع عشر كاتبه وجامعه ، فقير رحمة ربه أحمد بن عبد الوهاب . . النويرى . . ووافق الفراغ من تأليفه وكتابته فى يوم الاثنين المبارك لتسع خلون من جمادى الآخرة عام (٧١٨) ثمان عشرة وسبعمائة » (١) .

ولقد أخذ « السخاوى » فى كتابه « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» على النويرى أن « له نهاية الأرب فى ثلاثين مجلدة ، ومع ذلك باعه بخطه بألفى درهم »(٢) ، وكأنه يستنكر على النويرى أن يبيع كتابه بهذا المبلغ الزهيد . ويشير ابن حجر العسقلانى إلى أن النويرى بعد أن « جمع تاريخا حافلا باعه بخطه بألفى درهم وهو فى ثلاثين مجلدة» (٣) .

ومهما يكن من أمر فإن النويرى ، كان يؤلف الجزء الثلاثين من كتابه فى سنة ٧٢٥ هـ ، يقول : « ... إلى أن سطرنا هذه الأحرف فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة(٧٢٥)» (٤) ثم إنه استمر فى سياقة التاريخ إلى أن أتم الجزء الحادى والثلاثين بحوادث سنة ٧٣٠هـ ،أى قبل وفاته بثلاثة أعوام .

ولكن النويرى شرع فى كتابة نسخة أخرى من موسوعته فى أواخر سنة ٧٢١ هـ ، أى قبل أن يتم الموسوعة ثلاثين جزءا بنحو أربع سنوات . وهذه النسخة الأخرى هى التى اعتمدت عليها دار الكتب المصرية فى معظم الأجزاء التى طبعتها من الموسوعة . وقد أثبت النويرى فى نهاية أربعة أجزاء منها تواريخ الفراغ من كتابتها ، وهى الأجزاء : الأول، والخامس ، والسابع عشر ، والثامن عشر .

وفيما يلى تواريخ الفراغ من كتابة كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة ، وفق ما أثبت النويرى نفسه فى آخر كل جزء منها ، ونقله النساخ عنه :

---

(١) نهاية الأرب ٢١ : ٥٤٠ .
(٢) السخاوى ، الإعلان بالتوبيخ ، ص ٥٤ .
(٣) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ١ : ٢٠٩ .
(٤) نهاية الأرب ، ٣٠ ، ورقة ٢٠ (النسخة ٥٤٩ معارف عامة) .

الجزء	تاريخ الفراغ من الكتابة			عدد أجزاء التى أنجزت	الفترة التى أنجزت فيها الأجزاء باليوم	معدل تقريبى لعدد الصفحات التى تكتب باليوم(١)
	يوم	شهر	سنة			
الأول	٢٠	١١ ذو القعدة	٧٢١			
				٤	١٢٠	١٣,٥
الخامس	٢٢	٣ جمادى الأولى	٧٢٢			
السابع عشر	٧	٩ رمضان	٧٢٢	١٢	١٦٢	٣٠
الثامن عشر	٢٦	٩ رمضان	٧٢٢	واحد	١٩	٢١(٢)

وهكذا يتبين لنا أن كتّاب التراجم لم يبالغوا حين ذكروا أن النويرى كان ناسخا مطيقا ، وأنه كان يكتب « ثلاثة كراريس كل يوم » (٣) .

وإذا كان النويرى قد شرع فى كتابة نسخة أخرى من موسوعته قبل أن يتم هذه الموسوعة (سنة ٧٢١–٧٢٢) ثلاثين جزءاً ، وإذا كانت الموسوعة لم يتم الجزء الثلاثين فيها إلا فى سنة ٧٢٥ ، فهذا يعنى أنه ربما كان

---

(١) هذا المعدل محسوب على أساس صفحات المطبعة ، وعلى اعتبار أن متوسط عدد صفحات الأجزاء ٤٠٠ صفحة لكل جزء .

(٢) ربما نقص المعدل بسبب صيامه فى شهر رمضان .

(٣) راجع فيما سبق ، ص ٧٣ .

يبيع الموسوعة أو يهديها — كما سنرى — قبل أن تستكمل أجزاؤها (١) ، وأنه لم يكن يرى ضرورة للانتظار حتى يستكمل بقية الأجزاء .

ويبدو إذن أن النويرى قد بدأ فى تأليف كتابه بعد سنة ٧١٢ ، وأنه أتم أجزاءه الثلاثين فى سنة ٧٢٥ هـ ، ثم استكمل سياقة الحوادث التاريخية فى عصره حتى سنة ٧٣٠ هـ ، بعد أن أضاف جزءا جديدا ، هو الجزء الحادى والثلاثين .

اشتهار الموسوعة قبل إتمام تأليفها :

وقد ساعدت هذه الخطة التى التزمها النويرى فى توزيع كتابه على اشتهار هذا الكتاب بين المثقفين ، حتى قبل أن يتم تأليفه . فى حوادث سنة ٧٢١ هـ توفى أحد أصدقاء المصنف ، وهو القاضى الخطيب « مجد الدين أحمد بن معين الدين أبى بكر بن ظاهر الهمدانى المالكى الخطيب والمدرس بمدينة الفيوم »(٢) . وكان هذا الرجل قد أرسل إلى النويرى مرة « يلتمس أن يقف على مقدمة كتابى هذا الذى ألفته ، فأرسلت إليه المجلدة الأولى »(٣). وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المصنف لم يكن يرى بأسا فى أن يطلع أصدقاءه على ما تم واكتمل من أجزاء الكتاب ، ولم يشترط على نفسه ألا يعمد إلى توزيعه إلا بعد استيفاء شكله النهائى باكتمال أجزائه .

وعلى أية حال، فإن القاضى مجد الدين الهمدانى أبدى إعجابه الشديد بكتاب النويرى عندما وقف على المجلدة الأولى منه ، وأعرب عن إعجابه هذا بأن كتب إلى النويرى بيتين من نظمه فى تقريظ الكتاب هما :

كتابٌ جُلَّ أنْ يُحْصيهِ وصْفاً   حوى عِلْماً وآداباً وظُرْفاً

---

(١) يقول ابن كثير فى « البداية والنهاية » ١٤ : ١٦٤ عن نهاية الأرب : « وكان (النويرى) ينسخه ويبيعه أيضا بأزيد من ألف درهم » فدل بذلك على أن النويرى نسخ الكتاب أكثر من مرة .

(٢) انظر ترجمته فى : ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ٦ : ٥٤ .

(٣) نهاية الأرب ، ٣١ ، ورقة ١١ (النسخة ٥٤٩) .

رَأينا (١) منهُ عُنْواناً بَديعاً وعنوانُ المحاسنِ ليسَ يَخْفَى(٢)

ومما يدل على اشتهار الموسوعة منذ زمن تأليفها ما ذكره كتّاب التراجم من معاصرى النويرى عن « نهاية الأرب »، ومن هؤلاء — على سبيل المثال — صديقه الإدفوى ، ومعاصره أبو بكر عبد الله بن أيبك الدوادارى ، والحافظ ابن كثير (٣) .

على أن أكثر معاصريه تأثرا بموسوعته ، كان المؤرخ الأديب ابن حبيب (٤) الذى يقول عن الموسوعة : « وأجرى [النويرى] منه بحرا زاخرا حدّث عنه ولا عجب ، يشتمل على ثلاثين مجلدة ، قيد به من الفنون ما قيده ، وأبان بجمعه عن اطلاع كثير ، ومعرفة معينها وافر ومددها غزير » (٥) .

ولم يقف ابن حبيب عند حد الإعجاب « بنهاية الأرب » بل نقل عنه فى تاريخه وقال : « وقفت عليه ، ونقلت منه ، وانتفعت به وأخذت عنه » (٦) وراقت له بعض أبيات أثبتها النويرى فى موسوعته من شعر كل من أبى البقاء النحوى ، وأبى هلال العسكرى ، وأبى العباس بن المعتز .

وقد أكثر اللاحقون من الأدباء والمؤرخين من الإفادة بهذه الموسوعة ، التى شملت كل فنون الأدب . ومن أبرز من تأثروا بنهاية الأرب ، وأخذوا عنه، ونقلوا منه « أبوالعباس القلقشندى » (ولد ٧٥٦ هـ وتوفى ٨٢١ هـ)

---

(١) فى الأصل : رأينوا ، وهو تصحيف ظاهر .

(٢) نهاية الأرب : ٣١ ، ورقة ١٠ (النسخة ٥٤٩ معارف عامة) .

(٣) انظر : الإدفوى : الطالع السعيد ، ص ٤٦ ، ابن الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر ، جـ ٨ : ٣٩١ . ولم يطلع ابن كثير على « نهاية الأرب » وإنما سمع به ، وأخطأ فى اسمه فسماه « منتهى الأرب فى علم الأدب » انظر : البداية والنهاية ١٤ : ١٦٤ .

(٤) أخطأ ابن حبيب أيضا فى كتابة اسم الموسوعة فسماها : « منتهى الأرب فى علم الأدب »

(٥) ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، النسخة الخطية المحفوظة بدار الكتب المصرية ، رقم ٦١٧٣ ، ورقة ٤٤ .

(٦) نفس المصدر السابق والصفحة .

صاحب الموسوعة الضخمة فى فنون الكتابة وغيرها : « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » . ولقد أشار القلقشندى إلى أنه أفاد بنهاية الأرب للنويرى فى مواضع عديدة من موسوعته ، وفى مواضيع متفرقة شتى (١) .

كما صرح أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى (ولد ٨١٣ وتوفى ٨٧٤) فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » بأنه رأى كتاب « نهاية الأرب » (٢) ونقل منه فى كتابه النجوم ، وفى غيره من مؤلفاته الأخرى ، يقول عن الكتاب : « رأيته وانتقيته ، ونقلت منه بعض شىء فى هذا التاريخ وغيره » (٣) .

ويستطيع قارئ النجوم الزاهرة أن يلحظ أن صاحبه كثيراً ما ينقل عن النويرى، من ذلك مثلا ماكتبه أبو المحاسن فى حوادث سنة ٧١٩ ﻫ ، عن وفاة الشيخ نصر بن سليمان بن عمر المنبجى ، الذى كان صديقاً للنويرى ، كما كان ابن أخت الشيخ المسمى قطب الدين عبد الكريم الذى كان صديقاً للنويرى أيضاً ، ولقد نقل ابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » ما أسرّ به الشيخ قطب الدين لصديقه النويرى عن حال الشيخ يوم وفاته ، دون إشارة إلى النويرى ، يقول ابن تغرى بردى عن الشيخ المنبجى : « ذكر ابن أخيه [صح : ابن أخته] الشيخ قطب الدين قال : سألنى يوماً ، هل قرب وقت العصر ؟ فقلت : لا ، وبقى يسألنى عن ذلك ساعة فساعة،وهو مسرور مستبشر بوقت العصر ، فلما دخل وقت العصر مات رحمه الله » (٤). ولا شك أننا لو تتبعنا كتاب النجوم الزاهرة وغيره من مؤلفات أبى المحاسن لوجدنا نقولا مماثلة عن « نهاية الأرب » .

---

(١) انظر ، صبح الأعشى : ١ : ٤٨ ، ٣ : ٣٦٠ ، ٤٥٦ ، ٤٧٩ ، ٤ : ٣٥ ، ٩ : ٢٣٥ ، ٣٢٩ ، ٣٨٤ .

(٢) كان أبو المحاسن أيضا من بين من أخطأوا فى اسم الكتاب ، فأطلقوا عليه اسم منتهى الأرب فى علم الأدب . وربما اشتهر الكتاب بين الناس بهذا الاسم ، أو لعل النويرى اختاره له فى أول الأمر ثم عدل عنه ، واستقر على اسمه الحالى .

(٣) النجوم الزاهرة ، ٩ : ٢٩٩ .

(٤) النجوم الزاهرة ، ٩ : ٢٤٥ .

هذا ، وقد بدأ نهاية الأرب يلقى عناية المستشرقين من الأوربيين منذ منتصف القرن السابع عشر عندما أشار إليه « دى هربلوت d'Herbelot » (الذى عاش بين سنتى ١٦٢٥ و ١٦٩٥ م) فى كتابه Bibliotheque Orientale . وكانت أولى محاولات دراسة نهاية الأرب تلك التى قام بها هايمان J. Heyman المتوفى سنة ١٧٢٧ م عندما ألف كتاباً ، لا زال مخطوطاً فى ليدن بهولندا ، بعنوان Nowairiana (١) .

ومنذ أن عرف المستشرقون « نهاية الأرب » هالهم هذا الكم الوافر من المعلومات والأخبار والروايات ، كما راعهم تنوع مادته العلمية ، تلك المادة التى تفتح أمامهم آفاقاً لم يكونوا — عند ذاك — على دراية بها . فقد رأى مستشرقو القرن الثامن عشر الميلادى فى القسم الخاص بالتواريخ القديمة السابقة على الإسلام مغنماً ، وبالغوا فى تقدير القيمة العلمية لهذا القسم (٢) ؛ فقد ظل نهاية الأرب مصدراً رئيسياً لهذا التاريخ القديم حتى ذلك الحين . ولكن بمرور الوقت ، عثر على المصادر التى استقى منها النويرى مادته ، وعندئذ ومع نهاية القرن التاسع عشر أصبح كتابه — فى مجال دراسة التاريخ القديم — ذا قيمة ثانوية (٣) .

أما فى مجال دراسة التاريخ الإسلامى ، فقد حظى النص الذى نقله النويرى عن كتاب لرجل يسمى « الشريف أخى محسن » ، فى تاريخ القرامطة والإسماعيلية ، وعن ترتيب الدعوة والدعاة عند الفاطميين من مصادر أخرى باهتمام خاص من جانب المستشرقين عندما ثبت أن هذه المصادر لم يعد لها وجود .

---

(١) راجع مقال كراتشكوفسكى عن النويرى فى دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الإنجليزية) وانظر أيضا :

de Goe je, Catàlouges, Codicum Arabi corum, Vol, 2 PP. 12—18 Lieden 1907.

(٢) انظر ، نفس المصدر ، وقد سجل كراتشكوفسكى اسم اثنين من المستشرقين الذين بالغوا فى تقويم المادة العلمية للتاريخ القديم عند النويرى هما . شوترز ورايسكه .

(٣) نفس المصدر السابق .

فلقد قام المستشرق «سلفستر دى ساسى » بترجمة نص نقله النويرى عن القرامطة إلى الفرنسية ، معتمداً على النسخة الخطية المحفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس من كتاب « نهاية الأرب »(١) ،ونشر « دى ساسى » ترجمة هذا النص فى سنة ١٨٣٨ ،فى كتاب له بعنوان « بحث عن عقيدة الدروز »(٢)

ولم تكن هذه هى الترجمة الفرنسية الوحيدة لنص النويرى ، فقد قام مستشرق فرنسى آخر هو « بول كازانوفا » بنشر ترجمة فرنسية أخرى لنفس النص بالقاهرة سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ فى كتاب بعنوان « المذهب السرى للفاطميين فى مصر » (٣) .

أما المستشرق الهولندى « دى غويه » فقد أفاد فائدة كبيرة بنفس النص الذى أورده النويرى عند تأليف كتابه المعروف « مذكرات عن قرامطة البحرين والفاطميين (٤) » وهو الكتاب الذى نشره بهولندا سنة ١٨٨٦ م .

ومهما يكن من أمر فسوف يظل نهاية الأرب على الدوام « مصدراً ذا أهمية كبرى بالنسبة للفترة التاريخية القريبة من عهد المؤلف سواء كان ذلك عن شمال إفريقيا والأندلس وصقلية أم عن أقطار مثل الأورد والذهبى ، وقد بين أهمية النويرى بالنسبة لتاريخ تلك الدولة أبحاث « تايزنهاوزن Tisenhausen » ، ثم وكدت ذلك الأبحاث الأخيرة التى ظهرت فى الاتحاد السوفيتى » (٥) .

---

(١) رقم هذه النسخة Arabe 1576 . ويقع هذا النص فى نحو ٣٥ ورقة أى ما يعادل ٧٠ صفحة .

(2) Silvestre de Sacy, Exposé de la Religion de Druzes, paris, 1838, vol. 1.

(3) Paul Casanova, La Doctrine Seréte de Fatimides d'Egypte, Le Caire 1920—1921.

(4) J. de Goe je, Mémoire sur Le Carmathes de Bahrain et la fatimides, 2nd edition 1886.

(٥) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١ : ٤٠٩ ، والأوردو الذهبى هى دولة القبيلة الذهبية المغولية ، التى أنشأها أحد أبناء جنكيز خان بعد وفاته سنة ٦٢٤=

وفى الربع الأول من هذا القرن العشرين أفاد بعض المستشرقين الأسبان بنهاية الأرب فائدة كبرى فى كتاباتهم عن تاريخ الفكر الأندلسى ، بل وعن تاريخ الأندلس ، وشمال إفريقيا بصفة عامة ، فقد أصدر « جاسبار روميرو » فى جزءين كتابه عن تاريخ المسلمين فى أسبانيا وإفريقيا ، نص عربى وترجمة أسبانية ، بعنوان :

Hestoria de los Musulmanes de Espana y Africa, Texto Arab Y Traduccion espanola, Granada, 1971—1919.

كما أصدر المستشرق الأسبانى آنخل جونثالس بالنثيا كتابه :

Hotoria de la litrature Arabigo — Espanola, Barcelona 1928. (1)

ولم يقتصر اهتمام المستشرقين على الجوانب الأدبية والتاريخية فحسب ، بل امتد إلى المادة العلمية الخاصة بالنبات والأدوية والأعشاب الطبية الواردة فى الكتاب ، ويشير كراتشكوفسكى إلى أن « تحليل فايدمان Wie demann ، وفيران Ferrand للفصول التى تبحث فى العطور والأدوية والنباتات بوجه عام يبين أن الكتاب لا يخلو من مادة قيمة تهم الجغرافى كما تهم عالم النبات ومؤرخ الحضارة » (٢) :

ويقترن اسم كتاب « نهاية الأرب » فى ذهن المفكرين والمثقفين العرب باسم رجل عالى الهمة ، رفيع القدر ، نذر وقته وجهده لخدمة التراث العربى ، وجمعه من الشتات الذى منى به ، ووضعه فى ديار العرب والإسلام ليستفيد به أبناؤه وأصحابه ، ونعنى به المرحوم أحمد زكى باشا (توفى سنة ١٩٣٤).فقد استطاع أن يجمع العديد من المخطوطات العربية

=فى جنوب الروسيا والقوقاز ، وكان لها علاقات وطيدة مع المماليك فى مصر والشام ، واعتنق أهلها الإسلام ، راجع

Howorth, H.H., History of the Mongols, London 1876, Vol. I. p. 159.

(١) انظر مقال « كراتشكوفسكى » فى دائرة المعارف الإسلامية ، وقد قام الدكتور حسين مؤنس بترجمة كتاب بالنثيا للعربية بعنوان « تاريخ الفكر الأندلسى .

(٢) كراتشكوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ١ : ٤٠٩ .

ويصور بعضها — فى وقت كان التصوير فيه عزيز المنال — ويضعها فى متناول القارئ العربى فى دار الكتب المصرية . والحق أن كتاب « نهاية الأرب » كان هو واسطة العقد بينما جمعه هذا الرجل الفاضل من مخطوطات عربية . فقد استطاع أن يجمع نسخة كاملة من الكتاب فى واحد وثلاثين جزءاً ، البعض منها أصلى ، والبعض الآخر مصور ، بل كان بعضها بخط النويرى نفسه كما لاحظنا فيما سبق . وكابد أحمد زكى باشا — فى سبيل ذلك — الأهوال حتى أقنع المسئولين فى مكتبات استانبول والمكتبات الأوربية بالتنازل عن بعض أجزاء الكتاب أو بالموافقة على تصويرها لإيداع نسخة كاملة من الكتاب دار الكتب المصرية (١) ، فجزاه الله عما قدم للمكتبة العربية خيراً .

وقد قامت دار الكتب المصرية بخطوة حميدة لخدمة هذه الموسوعة الجليلة وتيسير الإفادة بها حين تعهدت بطبع الكتاب كله بعد تحقيقه ، فظهر الجزء الأول فى سنة ١٤٣٢ هـ — ١٩٢٣ م . ومضت الدار فى نشر أجزائه تباعاً حتى أنجزت منه الجزء الثامن عشر فى سنة ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م، ثم آلت مسئولية نشر باقى الأجزاء إلى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، التى شرعت منذ عام ١٣٨٣ هـ (١٩٦٣ م) فى تصوير الأجزاء الثمانية عشر من الكتاب وتوزيعها على أوسع نطاق ، وفى الوقت نفسه أخذت فى إصدار باقى الأجزاء التى لم تنشر بعد . وتتابعت ثلاثة أجزاء فى الصدور على مهل وفى بطء شديد حتى صدر الجزء الحادى والعشرون فى سنة ١٩٧٦ . وبقيت إلى الآن عشرة أجزاء ننتظر صدورها بأمل وترقب لكى تتم بصدورها خطة نشر الكتاب بأكمله بإذن الله . كما نأمل أن تعمل « الهيئة المصرية العامة للكتاب » — الذى آل إليها أمر إخراج هذا الكتاب على إصدار فهارس تفصيلية له تيسيراً للإفادة به .

---

(١) انظــر :

Ahmad Zeky, Memoire sur les moyens propres à determiner en Egypte une reniassance de lettres Arabes, le Caire 1910, pp. 8—10.

ولقد بذل المحققون جهوداً مضنية فى سبيل تحقيق أجزاء الكتاب وتصحيحها ، والرجوع إلى الأصول والمصادر التى أفاد بها النويرى ونقل عنها . وكان يتعين — وفقاً للمنهج العلمى — أن يقرن كل جزء باسم مصححه ، غير أن دار الكتب لم تنهج هذا المنهج إلا فى بعض الأجزاء . ولكن الأجزاء الثلاثة التى أصدرتها مؤخراً الهيئة المصرية العامة للكتاب قد اقترنت بأسماء محققيها . وفيما يلى بيان بالأجزاء التى ورد اسم المحقق على كل منها :

الجزء	المحقق
السابع	الأستاذ / أحمد الزين .
الثامن	الأستاذ / أحمد الزين
التاسع	الأستاذ / أحمد الزين
الحادى عشر	الأستاذ / أحمد الزين
الثانى عشر	الأستاذ / أحمد الزين
الثالث عشر	الأستاذ / أحمد الزين
الخامس عشر	الأستاذ / محمد عبد الجواد الأصمعى
الثامن عشر	الأستاذان / محمد محمد حسنين ، وإبراهيم أطفيش
التاسع عشر	الأستاذ / محمد أبو الفضل إبراهيم
العشرون	الأستاذ / محمد رفعت فتح الله ، وراجعه الأستاذ إبراهيم مصطفى .
الحادى والعشرون	الأستاذ / محمد على البجاوى .

وبقيت الأجزاء الأخرى دون ذكر أسماء محققيها .

* * *

الفصل الثالث

خطة الكتاب وأقسامه

قسم المصنف كتابه – كما ذكرنا – إلى خمسة فنون رئيسية يحتوى كل فن منها بدوره على خمسة أقسام على النحو التالى :

الفن الأول :

فى السماء والآثار العلوية ، والأرض والمعالم السفلية ، وهذا الفن يشتمل على خمسة أقسام :

١ – فى السماء وما فيها .

٢ – فى الآثار العلوية .

٣ – فى الليالى والأيام والشهور والأعوام والفصول .

٤ – فى الأرض والجبال والبحار والجزائر والأنهار .

٥ – فى طبائع البلاد : أخلاق سكانها وخصائصها والمبانى القديمة .

الفن الثانى :

فى الإنسان وما يتعلق به ، ويشتمل أيضا على خمسة أقسام رئيسية :

١ – فى اشتقاقه وتسميته وتنقلاته وطبائعه ووصف أعضائه وتشبيهها .

٢ – فى الأمثال المشهورة .

٣ – فى المدح – الهجو – المجون – الفكاهات والملح : :

٤ — فى الأنساب .

٥ — فى الملك وما يشترط فيه وما يحتاج إليه .

الفن الثالث :

فى الحيوان الصامت (١) ، وهو خمسة أقسام :

١ — السباع وما يتصل بها .

٢ — فى الوحوش والظباء وما يتصل بها .

٣ — فى الخيل والبغال والإبل .

٤ — فى ذوات السموم .

٥ — فى الطير والسمك وآلات صيد البر والبحر .

الفن الرابع :

فى النبات ، ويشتمل على خمسة أبواب :

١ — فى أصل النبات .

٢ — فى الأشجــار .

٣ — فى الفواكه المشمومة .

٤ — فى الرياض والأزهــار .

٥ — فى أصناف الطيب والبخورات .

الفن الخامس :

فى التاريخ ، ويشتمل على خمسة أقسام :

١ — فى مبدأ خلق آدم إلى نهاية خبر أصحاب الرس .

٢ — فى قصة إبراهيم الخليل عليه السلام .

٣ — قصة موسى بن عمران — عليه السلام .

---

(١) تمييزاً له عن الإنسان المعروف فى علم المنطق « بالناطق » .

٤ — فى أخبار ملوك الأصقاع وملوك الأمم والطوائف .

٥ — فى أخبار الملـــة الإسلامية .

فهذا هو ما اشتمل عليه كتاب نهاية الأرب من فنون وأقسام ، ولقد اشتمل كل قسم من هذه الأقسام الخمسة فى كل فن على عدد من الأبواب يختلف باختلاف كل قسم ، فعدد هذه الأبواب وطولها يتوقف على حسب المعلومات والمعانى التى يرى المصنف أنها تفى بالغرض .

ومن الملاحظ أن المصنف عمد فى خطته أن يكون كتابه موسوعيا شاملا لأصول المعرفة الإنسانية وفنونها بحيث تكون « حسنة الترتيب ، بينة التقسيم والتبويب » (١) فقد بدأ كتابه بالمعارف الكونية ، والآثار العلوية (٢) ، والأرض والمعالم السفلية ، فتحدث عن المسالك والممالك ، وتأثير البلاد على طباع أهلها ، فقدم بذلك عرضا وافيا شاملا لهذا الكون الذى أبدعه الله تعالى مكانا لمن خلقه من الأحياء .

ثم انتقل بعد ذلك إلى تناول الأحياء الثلاثة المعروفة ، كل واحد منها فى فن من الفنون ، وعلى رأسها الإنسان ، ذلك المخلوق الذى لقب « بالعالم الصغير » لأنهم مثلوا رأسه بالفلك ووجهه بالشمس ، إذ لا قوام للعالم إلا بها ، كما لا قوام للجسد إلا بالروح ، وعقله بالقمر لأنه يزيد وينقص ويذهب ويعود ، ومثلوا حواسه الخمس ببقية الكواكب السيارة ، وآراءه بالنجوم الثابتة ، ودمعه بالمطر ، وصوته بالرعد ، وضحكه بالبرق . . . » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٢ .

(٢) يرى الأستاذ فؤاد سزكين أن تعبير الآثار العلوية : « هو تعريب اصطلاح Meteorologia بمعنى الأشياء أو التغيرات التى تقع فوق الأرض ، ويعود هذا التعبير إلى القرن الرابع قبل الميلاد . ومن المعروف أن الفلاسفة اليونانيين كانوا يهتمون بإيضاح الحوادث الجوية ، وقد أتوا بتفسيرات مختلفة لها » (انظر فؤاد سزكين : محاضرات فى تاريخ العلوم ، ومكانة المسلمين فى تاريخ الآثار العلوية ، ص ٨٩ وما بعدها ، طبع الرياض ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م) .

(٣) نهاية الأرب ٢ : ٨ .

وبعد أن يستقصى جانب « الإنسان » بحثا ، ويورد فيه كل ما عنّ له أن يورد من معلومات وأخبار وأشعار وأمثال ، ينتقل بعد ذلك إلى تناول « الحيوان الصامت » ثم « النبات » .

كان يمكن بهذا التقسيم أن يتم الكتاب ، فهو كتاب أدب موضوعه الإنسان وعلاقته بما يحيط به من مظاهر الطبيعة وما يتصل به من حيوان ونبات وجماد ، وكيف ينظر الإنسان إلى هذه المظاهر والأشياء ، وما انطباعاته حيالها ، وموقفه إزاءها ، بل وموقفها إزاءه وتأثيرها عليه .

غير أن المصنف رأى أن كتابه لا يتم إلا بإضافة فن آخر من الفنون ، هو الفن الخامس فى العدد عنده ، لكنه استحوذ على أكبر قدر من الأهمية لديه ، واستغرق ثلاثة أخماس أجزاء الكتاب أى استغرق تسعة عشر جزءا من واحد وثلاثين جزءا ، بينما حظيت الفنون الأربعة الأولى باثنى عشر جزءا . ونعنى بهذا الفن « فن التاريخ ».وقد نظر المصنف إلى هذا الفن باعتباره مصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية ، حيث أورد فى مقدمة معالجته لهذا الفن قول الله عز وجل : « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون » (١) . ثم إن التاريخ « مما يحتاج إليه الملك والوزير ، والقائد والأمير ، والكاتب والمشير ، والغنى والفقير ، والبادى والحاضر ، والمقيم والمسافر . . . فقد تبين بهذه المقدمة تعويل الأمر عليه، وميل المرء إليه » (٢)، فالتاريخ عنده يمثل الخبرة الإنسانية المتراكمة عبر القرون ، وهى خبرة متنوعة الجوانب ، متعددة السمات ، ويستطيع الإنسان — مهما كان مركزه الاجتماعى — أن يفيد بها ، ويتعلم منها ، ويميل بطبعه إلى التعرف عليها ؛

والواقع أن قضية ميل القارىء وقبوله لما يكتبه المصنف ، بل وإحساس القارىء بأنه بقراءته لهذا الكتاب قد استغنى عن قراءة العديد من الكتب

---

(١) سورة السجدة ، آية ٢٦ .

(٢) نهاية الأرب ، ١٣ : ١ — ٢ .

ليحصل على نفس الفائدة ، هذه القضية ظلت ماثلة أمام عين النويرى لم تبارح ذهنه على الإطلاق ، وظلت حساسيته تجاه شعور القارىء بما يجمع ويصنف ويؤلف ملحوظة على الدوام . ولا غرو فقد أشار إلى ذلك فى مقدمة كتابه ، فقال : « وما أوردت فيه (يعنى فى الكتاب) إلا ما غلب على ظنى أن النفوس تميل إليه ، وأن الخواطر تشتمل عليه ، ولو علمت أن فيه خطأ لقبضت بنانى ، وغضضت طرفى ، ولو خبرت طريق المعترض لعطفت عنانى ، وثنيت عطفى . . » (١)

وربما كان ترفق النويرى بقارئه هو الذى جعله يبعد هذا القارىء — عند تقسيمه لكتابه هذا التقسيم الواضح البسيط وترتيبه هذا الترتيب الحسن البيّن — عن التقسيمات الفلسفية للعلوم والتصنيفات المعقدة للمعارف ، وهى التقسيمات التى شاعت قبل عصر المصنف وبعده ، واحتذى فيها المصنفون حذو « الفارابى » فى تصنيفه الفلسفى للعلوم (٢) . فلقد حرص النويرى على أن يجعل تقسيمه لكتابه الموسوعى هذا تقسيما بسيطا محددا ، يسوغه القارىء ويستوعبه ، وأن يرتبه ترتيبا حسنا ، فيضع خمسة خطوط رئيسية — هى الفنون الخمسة التى تناولها الكتاب . وينطلق من خلال تناوله لكل واحد منها انطلاقة فى حدود الفن نفسه ، حتى إذا استوفاها ، انتقل إلى فن غيره ، فانتقل بذلك من العام إلى الخاص ، ولم يغرق القارىء فى خضم المعلومات التفصيلية وحرص على أن يوضح المعلومات التفصيلية كل حين أمام قارئه .

على أن النويرى برغم صنيعه لقارىء كتابه كان يعرف أن : « من صنف كتابا فقد استهدف ، وأصمّ الأسماع وإن كان لبعضها قد شنّف »(٣) ، فهو يخشى النقد مع أنه قد استنفد الطاقة ، واستفرغ الجهد « والذى أدى

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٢٥ — ٢٦ .

(٢) للمزيد من التفصيل راجع : الدكتور محمد على أبو ريان : تصنيف العلوم بين الفارابى وابن خلدون . مجلة عالم الفكر ، المجلد التاسع ، العدد الأول ١٩٧٨ ، ص ٩٧ وما بعدها .

(٣) نهاية الأرب ١ : المقدمة .

إليه اجتهادى من تأليف فقد أصبته والذى وقفت عنده غايتى فقد أوردته ، فقد تبلّغت فيه وسعى » (١) ، فهو فى قرارة نفسه لا يشعر بتقصير ، « ولكن ليس من عثرة الكتاب أمان » (٢) . ومن ثم يرجو قارئه : « أن يسد ما يجد به من خلل ، وأن يغفر ما يلمح فيه زلل :

فَأَسْبِلْ سَتْرَ معروفِكَ الَّذِى   سَتَرْتَ به قِدَمًا على عَوارِىَّ » (٣)

لكن المصنف يلجأ إلى الله تعالى فى النهاية يطلب منه العون والتيسير ، ويستمد منه الصواب فى كل ما أورده فى هذا الكتاب ، يقول : « وبالله سبحانه المستعان ، وعليه أتوكل ، وإليه أتضرع فى التيسير وأتوسل ، ومن فضله أستمد الصواب ، وباسمه أستفتح الكتاب » (٤) .

* * *

(١) نهاية الأرب ١ : المقدمة .
(٢) نفس المصدر ، المقدمة .
(٣) أيضـاً .
(٤) أيضـاً .

الفصل الرابع

مميزات الكتاب وقيمته
من النواحى العلمية والأدبية والنقدية

أولا : الطابع الموسوعى :

سبق أن ذكرنا أن من أهم مميزات « نهاية الأرب » أنه موسوعة شاملة للمعارف الإنسانية ، ودائرة معارف احتوت على ما انتهت إليه العلوم حتى عصر المصنف .

ولقد كان النويرى يدرك تمام الإدراك أنه مقبل على كتابة موسوعة ضخمة تضم شتاتا من المعرفة وأنواعا من المعلومات ، ولذلك وضع فى حسبانه عددا من المبادىء تمكن من تطبيقها أثناء الكتابة حرصا على عدم اختلاط المعلومات بعضها ببعض ، وتجنبا لتداخل القضايا أمام القارىء . هذه المبادىء هى :

١ – **وضوح التقسيم والتبويب أمام القارىء** ، فالمصنف يلتزم بهذا المبدأ منذ أول وهلة ، ويذكر هذا الشرط – وضوح التقسيم والتبويب – ويعده من مميزات كتابه ، إذ يقول فى مقدمة الكتاب : « فاستخرت الله سبحانه وتعالى ، وأثبتّ منها خمسة فنون ، حسنة الترتيب ، بيّنة التقسيم والتبويب »(١) . وقد ظل هذا المبدأ ماثلا أمام عين المصنف لا يكاد

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٣ .

يحيد عنه . ويتبين ذلك للقارىء من حسن التقسيم وتتابع الفصول تتابعا منطقيا لا خلل فيه ، فإذا أحس المصنف بأنه حاد عن هذا المبدأ — أو كاد — نبه إلى ذلك ، مثلما فعل عندما تناول أخبار الأكلة والمؤاكلة ، يقول : « والتطفيل من اللؤم . وهو التعرض إلى الطعام ، من غير أن يدعى إليه ، وسنذكر تلو هذا الفصل آداب الأكل والمؤاكلة ، والاقتصاد فى المطاعم ، والعفة عنها ، وما يجرى هذا المجرى ، وإن كان خارجا عنه ، إنما الشىء يذكر بالشىء » (١) .

وكان المصنف إذا اضطر إلى إضافة شىء يرى أنه لا يمت إلى الموضوع الأصلى الذى يبحث فيه بصلة ، ووجد أن هذه الإضافة لازمة لفائدة القارىء ولإمتاعه ، أنشأ « ذيلا » خارجا عن التقسيم الأصلى ، وألحقه بآخر ذلك القسم ، ونبه على ذلك ، كما فعل فى فن التاريخ ، القسم الثالث الخاص بقصة موسى عليه السلام ، يقول : « وذيلت على هذا القسم ذيلا يشتمل على أبواب أربعة ذكرت فيها ما قيل فى الحوادث التى تظهر قبل نزول عيسى — عليه السلام — إلى الأرض ، وأخبار المهدى والدجال ، ونزول عيسى — عليه السلام — ومدة إقامته فى الأرض ووفاته وما يكون بعده ، وشيئاً من أخبار الحشر والمعاد » (٢) ، ويبين المصنف أنه إنما أضاف هذا الذيل لأنه سيصادف قبولا عند القارىء بلا ريب ، فهو يتعلق « بالتنبؤ بالأحداث » ، وهى أمور تتشوف النفوس إلى الاطلاع عليها ومعرفتها ، ويقول : « إنما ذكرت هذا الذيل فى هذا الموضع ، وإن كان غير داخل فى فن التاريخ ، لأن النفوس لما كانت مائلة إلى الاطلاع على أخبار ما مضى من الزمان ، ومن سلف من الأمم ، فميلها إلى الاطلاع على ما يظهر فى مستقبل الزمان أكثر وتشوقها إليه أوفر ، فأوردت ما أذكره لهذا السبب ، ولأن كتابنا هذا ليس مبناه على مجرد التاريخ ، بل هو كتاب أدب ، ولا تخرجه هذه الزيادة عن شرطه » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ٣٢٣ .
(٢) نهاية الأرب ١٣ : ٥ .
(٣) نفسه .

ولقد تقيد المصنف بعناوين الأبواب والفصول والتزم بها التزاما كبيرا . وهو فى هذا لا يشبه غيره من المؤلفين الذين كان دأبهم الخروج عن الموضوعات الرئيسية إلى موضوعات جانبية كثيرة ، حتى كاد الاستطراد يكون سمة من سمات التأليف فى العصور الوسطى .

والواقع أنه لو لم يراع تطبيق هذا المبدأ ، وهو التقسيم الصارم للموضوعات التى تناولها فى موسوعته ، لاختلطت هذه المعلومات ، ولأصبحت أكواما هائلة من المعارف يصعب فصلها وتمييزها عن بعضها ، ولأشكل على القارىء أمر تصنيفها وبالتالى الإفادة بها ، والأنس بمعرفتها .

ونعتقد أن المصنف قد وضع يده على أهم الشروط فى التأليف الموسوعى ألا وهو حسن التنظيم ووضوح التقسيم .

٢ — المبدأ الثانى الذى التزم به المصنف إزاء طابع الموسوعة التى اتسم بها كتابه هو : **البعد عن الحشو والفضول .**

فهو يقتصر على الخطوط العامة ، والمعارف التى يعتقد أنها تفى بالغرض فى الموضوع الذى يتناوله ، وقد صرح بهذا فى أكثر من موضع ؛ يقول فى نهاية باب « ما تختص به أرض دون أرض » : « والباب فى هذا متسع ، وليس فى استقصائه فائدة توجب البحث عنه أو إيراده » (١) ، ومن ذلك أيضا ما ذكره فى نهاية الفصل الخاص بالعشق يقول : « هذا ما أمكن إيراده فى هذا النصل على سبيل الاختصار والإيجاز ، وإلا فالأخبار فى العشق وتوابعه وما يتولد عنه كثيرة جدا ، ووقفنا على كثير ، ولا يحتمل أن يورد فى الكتب الشاملة لفنون مختلفة أكثر مما أوردنا » (٢) . فهذا الكتاب الموسوعى الشامل لا يحتمل الإطناب والتطويل ، ومن ثم وجب الالتزام بالاختصار ، وإلا « لطال الكلام وانبسط القول ، وخرج التأليف عن شرطه الذى قدمناه » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٠ .

(٢) نهاية الأرب ٢ : ٢١٠ .

(٣) نفس المصدر ١٤ : ٢٨٥ .

٣ - المبدأ الثالث هو تجنب التكرار : فالمعارف والفنون على اختلافها تتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا ، ولابد أن تتبدى بين الحين والآخر نقاط التقاء فيما بينها ، رغم هذا الفصل الصارم الذى التزم به المصنف حيالها ؛ فى هذا النقاط نفسها قد يحدث التكرار فى تدوين المعارف ، لكن المصنف - رغم ذلك - ظل حريصا على تجنب التكرار فى موسوعته قدر الإمكان . إنما نبه القارىء إلى أنه تناول هذا الموضوع فيما سبق ، وحدد له الموضع الذى يجد فيه حاجته . ومن أمثلة ذلك قوله : « وقد ذكرنا ما قيل فى حسن الخط وما وصفت به الكتابة عند ذكرنا لكتابة الإنشاء ، فلا فائدة من إعادته هنا » (١) .

« وقد ذكرنا غزال المسك فى الباب الثالث من القسم الثانى من الفن الثالث (الخاص بالحيوان) ، وهو فى السفر التاسع من هذه النسخة ، فلا فائدة فى إعادته » .

ويقول فى أول الفن الخامس والأخير ، وهو الخاص بالتاريخ : « وقد ذكرنا صفة بنائه (يعنى بناء آدم للبيت المعمور) فى الباب الثانى من القسم الخامس من الفن الأول من هذا الكتاب فى خصائص البلاد ، وهو فى السفر الأول ، فلا حاجة إلى إعادته ها هنا » (٢) . وهذه الإشارات كثيرة متكررة فى الكتاب كله .

هذه - فى رأينا - هى المبادىء التى التزم بها النويرى فى كتابته لكى يخرج كتابه واضح التقسيم يتيسر الانتفاع به وإن كان شاملا لفنون الثقافة العامة مستوعبا لفروع المعارف فى عصره .

ثانيا : وفرة المعلومات وتنوعها :

لا حاجة بنا إلى الإطناب فى الحديث عن هذه الميزة ، فهى واضحة جلية.فالقارىء لهذه الموسوعة يعجب لكثرة المعلومات الواردة فيها ووفرتها

---

(١) نهاية الأرب ٩ : ٤٠٣ .

(٢) نفس المصدر ١٣ : ٢٥ .

وتنوعها ولا يمل قراءتها ، كما يعجب لهذا الكم الهائل من المصادر التى اعتمد عليها المصنف فى استقاء معلوماته حتى ظننا أن معظم الكتب العربية التى ألفت منذ العصور الأولى للتدوين كانت فى متناول المصنف ، ينقل عنها ويفيد بها ، ولكن من أسف أن عددا كبيرا من هذه المصادر ضاع فلم يصل إلينا ، مما يؤكد مدى أهمية هذا الكتاب .

والمصنف يذكر غالبا مصادره ، وهى مصادر متنوعة أشد ما يكون التنوع ، تنتمى إلى صنوف من العلوم المختلفة ، وضروب من المعارف المتباينة . يتضح هذا من تصفحنا لأبواب الكتاب وأقسامه ، تلك الأبواب والأقسام التى عرضنا لها من قبل (١) .

وبرغم كثرة مصادرة تبدو شخصية المصنف واضحة كل الوضوح فى كتابه من خلال انتقائه لما يعرضه فى هذا الكتاب وينقله من مختلف المصادر ، وهو انتقاء إن دل على شىء فإنما يدل على وعيه ويقظته ، وإحساسه المرهف ، وذوقه الرفيع .

كان النويرى مسيطرا على مادته العلمية الوفيرة ، ومصادره العديدة الهائلة المتنوعة ، تلك المصادر التى طالما نقل منها أخبارا بعينها فى أكثر من قسم من أقسام موسوعته الكبيرة ، لكنه لم يكن ينسى — على الرغم من التباعد بين هذه الأقسام والتباين فى موضوعاتها — ما سبق له أن نقله وسجله ، وكان يعمد إلى بيان التناقض إذا حدث تناقض بالفعل ، يقول مثلا : « وكانوا (يعنى أصحاب الكهف) فى زمن فترة قبل أن يبعث الله عز وجل عيسى بن مريم عليه السلام ، وهذا القول مخالف لما ذكرناه آنفا . فإن المساق الذى قدمناه من أخبار ملوك الروم يقتضى أن بين عيسى عليه السلام ، وبين ملك دقيوس ما يزيد على مائتى سنة » (٢) . وهذا يدلنا على مدى يقظة النويرى ووعيه فى الوقوف على الأخبار المتناقضة ، وبالتالى فى السيطرة على المادة العلمية والأدبية والتاريخية التى يسوقها .

---

(١) انظر فيما سبق ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) نهاية الأرب ١٥ : ٢٦١ .

والواقع أن المصنف قد أشار فى مقدمة كتابه إلى أنه يستخدم مصادره الاستخدام الأمثل ، فهو الذى يسوق زمام القول ، ويملك قياد الكلام ، ويجعل ما ينقله من المصادر خادما للفكرة التى يعرضها أو القضية التى يشرحها ، يقول عن كتابه « وطوّقته بقلائد من مقولى : ورصّعته بفرائد من مقولى ، فكلامى فيــه كالسارية تلتها السحــائب ، أو السرية ردفتهــا الكتائب ، فما هو إلا مترجم لفنونه ، وحاجب لعيونه » (١) .

وتبدو شخصية المصنف واضحة للغاية عندما يعمد إلى مزج الأدب بالعلم ، وإخراجهما فى باقة واحدة متناسقة الألوان متكاملة المعانى والفنون . على أن هذا المزج لايتم إلا من خلال ثقافة المصنف الدينية وعقيدته الإسلامية الراسخة ، تلك العقيدة التى يراها فى الواقع مهيمنة على الفكر والرأى ، لايندّ عنها رأى ولا يشذ إلا ما كان ضربا من الأساطير ، وصنفا من الأوهام والوساوس ؛ يقول مثلا فى الباب الرابع — من القسم الأول — من الفن الأول : فى الكواكب السبعة المتحيرة : « وقد اختص كل كوكب من هذه الكواكب بقول ، سنذكر من ذلك ما تقوم به الحجة ، وما ينهض به الدليل من الكتاب والسنّة ، وما يتمثل به مما فيه ذكرها ، وما ورد فى ذلك من الأوصاف والتشبيهات نظما ونثرا مما وقفت عليه فى أثناء مطالعتى لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم . وعدلت عن أقوال المنجمين لما فيها من سوء الطوية ، وقبح الاعتقاد ، لأن منهم من يرى أن للنجوم فى الوجود تأثيرات وأفعالا ، أعاذنا الله تعالى من ذلك » (٢) .

ويعطينا المصنف صورة واضحة عن التصور الذى كان سائدا فى عصره لعالم الأحياء من حيوان ونبات ، ولعالم الفلك ، وصورة الأرض والأفلاك .

وإذا كان المصنف قد أجاد ، بل وأبدع ، فى رسم تصور معاصريه — من الوجهتين العلمية والأدبية — لعالم الطبيعة والفلك ، فقد انفعل عندما

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٢٥ .

(٢) نهاية الأرب ١ : ٤٠ .

راح يرسم هذا التصور فيما يختص بالحيوان والنبات ، وأضاف من عنده إضافات اعتمد فيها على المشاهدة تارة ، وعلى السماع تارة أخرى .

وهو يعتمد فى تصويره هذا على المصادر الموثوقة كعجائب المخلوقات لزكريا القزوينى ، وكتاب الحيوان للجاحظ ، ويجمع إلى جانب ذلك الأشعار ، والكلمات المنثورة البليغة التى قيلت فى حق كل حيوان .

والواقع أننا نجد عددا كبيرا من الشعراء اهتموا بهذا اللون من الأدب ، وقالوا كثيرا من الأشعار كأبى الفرج الببغاء ، الذى نقل النويرى عنه كثيرا من الأشعار فى الحيوان على اختلاف أنواعه .

ومن الملاحظ أنه لا يقتصر على نقل الأشعار والمأثورات الأدبية من أدباء المشرق فحسب ، بل إنه ينقل أيضا من الأندلسيين ، كتلك الرسالة التى نقلها فى باب السهر عن أحد الأدباء الأندلسيين المعروفين (١) .

كما اشتمل هذا العرض على مجموعة من الخرافات والأساطير التى تحدث بها الناس ، وقد عرض هذه الخرافات لا لأنه مقتنع بها ، بل على سبيل التشويق والإثارة ، غير أنه ينبه إلى أن هذه إنما هى من خرافات الكتاب.

ولا يكتفى المصنف بهذا فحسب ، بل يضيف بعدا آخر فى حديثه عن الحيوان يتعلق بالطب ، فقد اهتم بنقل ما كتبه ابن سينا فى كتابه « القانون » عن الاستفادة ببعض أجزاء الحيوانات وشحومها ودمها فى معالجة بعض الأمراض المستعصية .

والنويرى لا يسلم بكل الآراء العلمية التى وصلت إليه عن طبائع الحيوان ، بل ينقد بعضها ، ويتشكك فى البعض الآخر ، يقول فى تعليقه على ما وصفت به الضبع من الفسوق والحمق والجبن : « وهذا القول فيما أظن من خرافات العرب » (٢) .

---

(١) انظر نهاية الأرب ٩ : ٢٨٥ - ٢٩١ .

(٢) نهاية الأرب ١ : ٢٧٦ .

وكثيرا ما يتشكك فى أقوال العلماء والحكماء السابقين كأرسطو ، الذى ظلت آراؤه فى حياة الحيوان مسلماً بها حتى عصر المصنف (١) . وكان المصنف إن شك فى رأى من هذه الآراء لأرسطو أو لغيره ، استخدم كلمة « زعم » قبل إيراده الخبر يقول : « وزعم صاحب المنطق (يعنى أرسطو) أن بالحبشة حيات لها أجنحة » (٢) ويقول أيضا : « وزعم أهل البحث عن طبائع الحيوان والاطلاع على أسراره أن النمرة لا تضع ولدها إلا وهو مطوق بأفعى » (٣) .

ورغم احترامه للجاحظ وتقديره له ، لا يتردد النويرى فى نقد بعض الآراء والمعلومات التى أوردها الجاحظ فى كتاب « الحيوان » . فكاتبنا حين يتعرض للحديث عن أنثى الخنزير يقول : « وتضع لمضى ستة أشهر من حملها ، وقال الجاحظ إنها تضع فى أربعة أشهر » (٤)

وهو لا يتخلى عن حسه التاريخى عند كتابته عن الحيوان ، ففى حديثه عن الفيل يشير إلى أن هذا الحيوان كان يعتمد عليه فى بعض الدول الإسلامية اعتمادا كبيرا فى فتح المدن والحصون ، ومن بين هذه الدول ، الدولة الغزنوية (٥) .

ويروق للمؤلف أن يورد فى ثنايا المعلومات ذات الصبغة العلمية أخبارا أدبية ، ربما يكون قد قرأها فى بعض الكتب ووجدها « تناسب ما نحن فيه ، أحببت أن أثبتها فى هذا الباب (يعنى المتعلق بالفيل) » (٦) ، وربما يكون قد سمعها من الآخرين (٧) .

---

(١) وقد اعتمد الجاحظ على أرسطو كثيراً فى كتابه « الحيوان » كما هو معروف .
(٢) نهاية الأرب ١٠ : ١٣٧ ، وانظر أيضاً ٩ : ٣٢٥ .
(٣) نفسه ١٠ : ٢٤٣ .
(٤) نفسه ٩ : ٢٩٩ .
(٥) نفسه ٩ : ٣٠٤ .
(٦) نهاية الأرب ٩ : ٣٧ .
(٧) انظر مثلا ٩ : ٢٣١ ، ٢٤٤ .

ومن خلال حرصه على مزج العلم بالأدب ، يعد المصنف كتابه بأقسامه العلمية والأدبية جزءا واحدا لا يتجزأ ، فقد يذكر الرسالة البليغة يكتبها كاتب مشهور فى باب الرسائل الديوانية ، ثم يعود وينصح قارئه بالعودة إليها فى موضعها للإفادة منها فى موضوع علمى بحت ، كما فعل فى رسالة الشيخ ضياء الدين القرطبى فى وصف الخيل ، يقول : « ومن الكلام الجيد فى وصف الخيل ما أنشأه الشيخ ضياء الدين القرطبى من رسالته التى كتبها إلى الصاحب الوزير شرف الدين الفائزى ، وقد تقدم ذكرها فى باب الكتاب فى الرسائل ، فلا فائدة فى إعادتها ، وإنما أوردنا ذكر الخيل هناك لأن الرسالة تشتمل على أوصاف الخيل والعساكر والسلاح وغير ذلك ، فأردنا إيرادها بجملتها ، ثم أن يكون الكلام فيها سياقة يتلو بعضه بعضا . وهذه الرسالة فى السفر السابع من هذه النسخة » (١) .

والحق أن المؤلف قد أبدع فى الفن الثالث ، وهو الخاص بالحيوان الصامت وقدم نموذجا فريدا لكيفية الجمع بين العلم والأدب والمزج بينهما ، ويبدو أنه كان يبغى الإطالة فى الحديث فى هذا الفن ، فهو موضوع محبب إلى نفسه ، يقول : « ولولا خشية الإطالة لوصفت كل حيوان منها برسالة ، لكنى استغنيت بما ألفته من منقولى ، عما أصنف من مقولى . . . فاختصرت عند ذلك المقال ، واقتصرت على هذه النبذة التى أشبهت طيف الخيال ، ووضعته على أحسن ترتيب ، ورتبته على أجل تقسيم وترتيب .. الخ» (٢)

وإذا كان مؤلفنا لم يصدق فيما ذكره من أن ما كتبه فى الفن الخاص بالحيوان إنما كان مجرد نقل من المصادر ، حيث تبين لنا فيما سبق مدى ما أضافه من إضافات قيمة اعتمد فيها على المشاهدة والسماع ، فإن المصنف قد صدق فيما أشار إليه من أنه التزم حسن الترتيب والتبويب ، وهو الترتيب الذى مزج فيه بين العلم والأدب مزجا قويا فى باقة واحدة متناسقة .

وفى القسم الخاص بخصائص البلدان يتحدث عن البصرة فيقول :

---

(١) نهاية الأرب ١٠ : ٧٠ .

(٢) نفسه ٩ : ٣٠٤ .

« وأهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والعجوة خوفا عليها من الخفاش . ومن عادة الذباب الفرار من الشمس إلى الظل ، فلا يوجد فى تلك الظلال شىء منه البتة ، فيتوهم المتوهم أن هاتين الحالتين من طلسم ، له من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب ، وليس كذلك وإنما هو من حماية الله ووقايته »(١).

على أن المؤلف كان صادقا مع نفسه ، ومع قارئه ، فكان إذا رأى أن الموضوع بعيد عن أن يدلى فيه برأيه أو يعقب عليه أو يضيف إليه اكتفى بذكر الآراء المختلفة فيه . وعقب بقوله : « والله أعلم » (٢) .

وإلى جانب عنايته بالفنون الأخرى ، نجده يولى الفن الخامس ، وهو التاريخ ، أكبر الاهتمام وأعظمه ، فيخصص له نحو ثلثى الكتاب كله ، فيبدأ تاريخه من أول الخليقة إلى عصر السلطان محمد بن قلاوون ، وهو العصر الذى عاش فيه المؤلف وعاين أحداثه . والكتاب بهذا يعد دائرة معارف للتاريخ الإسلامى ، اتبع فى تصنيفه المنهج المعروف فى كتابة التاريخ ، فقد نقل كثيرا من مؤلفات من سبقوه وعاصروه ، ووصف أحداثا تاريخية عاينها بنفسه ، مما سنفصل القول فيه فى الفصل الخاص بالمادة التاريخية فى الكتاب .

ثالثا : اعتماد المصنف على السماع والمشاهدة :

وتبدو القيمة العلمية للكتاب كأوضح ما تكون فى اعتماد المصنف على « السماع » فى إيراد بعض الأخبار والمعارف الهامة كقوله فى « ذكر ما قيل فى القرد » : « وحكى لى بعض المغاربة أنهم أرادوا صيد هذه القرود يتحيلون عليها بأن يصنعوا لها . . . الخ » (٣)،ويقول أيضا: « وتزعم التجار أنه يوجد فى الشجرة الواحدة أصناف من الكافور فيميزون كل صنف على حدة » (٤) .

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٣٦ .

(٢) انظر مثلاج ٩ : فى كتابة الحكم والشروط ص ٥ ، ١١ .

(٣) نهاية الأرب ٩ : ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٤) نفس المصدر ١١ : ٢٩٢ .

ومن خلال اعتماده على السماع يضيف إضافات هامة — كما سبق أن لاحظنا — خاصة فى القسم الخاص بالحيوان ، لم يسبقه إليها أحد ممن عرفوا بالدقة والإحاطة فى هذا المجال ، كالجاحظ مثلا . فقد ذكر النويرى فى الجزء التاسع من كتابه معلومات عن حيوان وحشى يسمى « اللمط » و « يكون ببلاد المغرب الجوانى » (١) وتحدث عن بعض صفاته ، وكيفية صيده ، وخصائص جلده الثمين الذى يؤخذ منه بعد صيده ، وقال « أخبرنى بذلك من أثق بقوله » (٢) .

يقول المرحوم الأستاذ أحمد الزين — محقق الجزء التاسع من نهاية الأرب تعليقا على ما أورده المصنف عن ذلك الحيوان : « . . . ولم نجد كلاما عنه فيما لدينا من الكتب المؤلفة فى الحيوان ، كما أننا لم نجده فيما راجعناه من كتب اللغة . . . فقد ذكر ياقوت فى معجمه فى الكلام على هذه الأرض أنها أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب من البر الأعظم ، وإليهم تنسب الدرق اللمطية » (٣) .

وهكذا يتبين لنا أن السماع قد أضاف إلى القيمة العلمية للكتاب ميزة أخرى وزوده بمعلومات قد لا توجد فى الكتب المتخصصة فى موضوعاتها(٤).

ويتحدث المصنف عن فكرة كانت سائدة فى عصره فى أوساط الأطباء تلقاها منهم عن طريق السماع ، وهى فكرة ما زال تطبيقها يعد فى عصرنا من أهم الطموحات التى يتطلع إليها الأطباء ، ونعنى بها « عمليات نقل الأعضاء » ، فهو يتحدث عما سمعه من أطباء عصره فى فوائد الحيوانات بالنسبة للجسم الإنسانى فيقول : « يقول الأطباء إنه متى فسد من عظام الإنسان عظم ووضع فى مكانه عظم من عظام الخنزير قبلته الطبيعة ، ونبت عليه اللحم » (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ٩ : ٣٣١ .

(٢) نفسه ، وانظر أيضاً ٩ : ٢٣١ — ٢٣٢ ، ٩ : ٢٤٤ ، ١١ : ١٥٤ .

(٣) نفس المصدر السابق ، حاشية (١) ، (٢) .

(٤) انظر أيضاً حديثه عن الخفاش اعتماداً على السماع ١٠ : ٢٨٤ .

(٥) نهاية الأرب ٩ : ٣٠٠ .

والواقع أن النويرى قد علق على السماع أهمية كبيرة فجعله أهم منزلة من المصادر نفسها فى بعض الموارد التى يتناولها فى كتابه ، فهو يضع السماع فى المرتبة الأولى عند محاولته استيفاء معلوماته عن بعض الموضوعات ، ويحرص على أن يجمع من هذا الطريق مادته العلمية ، فإن أعيته الحيلة وتعذر عليه أن يجد ثقة يحدثه فى الموضوع انتقل إلى المرتبة التالية وهى المصادر ليستقى منها معلوماته ، يقول فى مواسم الأمم وأعيادها : « والذى أورده فى هذا الباب هو ما وقفت عليه أثناء مطالعتى للكتب الموضوعة فيه ، ونقلته منها لما تعذر على من أتلقاه من فيه . وضمنته أعياد المسلمين والفرس والنصارى واليهود » (١) .

وهو لا يعتمد على السماع فحسب ، بل يسجل مشاهداته الشخصية وخواطره الذاتية عند عرضه لبعض الموضوعات ، يقول : « وقد رأيت أنا ببانياس — وهى على ساحل البحر الرومى — غربانا كثيرة جدا ، فإذا كان وقت الفجر صاحت كلها صياحا عظيما مزعجا ، فهم يعرفون طلوع الفجر بصياحها » (٢) .

« وهى (يعنى الدجاجة) تبيض فى السنة كلها ما خلا شهرين شتويين ، والذى عرفناه نحن بديار مصر أن البيض لا ينقطع أبدا فى الفصول الأربعة »(٣)

« وقد شاهدت أنا بالقاهرة المعزية درة (أى ببغاء) بيضاء »(٤) ، « وقد رأيت فى سنة سبع وسبعمائة بالقاهرة المعزية سلحفاة تحمل الرجل وتمشى به وهو قائم على ظهرها » (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ١ : ١٨٤ .
(٢) نفس المصدر ١٠ : ٢١٠ .
(٣) نفسه ، ٢١٨ .
(٤) نفسه ، ص ٢٨١ .
(٥) نفسه ، ص ٣١٦ .

كما يتحدث عن بعض الفرق الدينية التى كانت تعيش فى أيامه فى بلاد الشام يقول :

« وفى بعض بلاد الشام تؤخذ الجزية من طائفة تعرف بالشمسية ، يوحدون الله تعالى ، وينكرون نبوة النبى صلى الله عليه وسلم »(١) :

ثم إنه يصف أيضا ما آل إليه حال الآثار المصرية القديمة فى عهده ، فهو يتحدث عن الأهرام ، ومحاولة اكتشاف ما بداخلها من عجائب فى عصر المأمون العباسى ، الذى فتحت فيه البعثة المكلفة من قبل الخليفة باباً استطاعت منه الوصول إلى حجرة النعش الملكية فى هرم خوفو . يقول النويرى مشيرا إلى هذا الباب : « وهذا الموضع يدخله الناس إلى وقتنا هذا » (٢) .

ويصف أيضا « أبا الهول » ويتحدث عن عقائد معاصريه فيه فيقول : « وبالقرب من الأهرام صنم على صورة إنسان تسميه العامة « أبو الهول » لعظمه ، والقبط يزعمون أنه طلسم للرمل الذى هناك ، لئلا يغلب على أرض الجيزة » (٣) .

ويتحدث عما حدث فى عصره لمسلتى « عين شمس » بعد أن وصفها بالتفصيل ، فيقول : « وقد وقع العمودان (يعنى المسلتين) بعد الخمسين وستمائة » (٤) .

ثم يصف منارة الإسكندرية الشهيرة ، ويشير إلى التطورات التى تلاحقت عليها عبر العصور والأزمان معتمدا على كتاب « مروج الذهب » للمسعودى . حتى إذا وصل المصنف إلى عصره هو أتحفنا بمعلومات غاية فى القيمة عن إعادة بناء المنارة ، وشكلها بعد إعادة بنائها فى عهد أحمد

---

(١) نهاية الأرب ، ٨ : ٢٤٢ .
(٢) نفسه ١ : ٢٩٠ .
(٣) أيضاً ص ٣٩٢ .
(٤) أيضاً ص ٣٩٤ .

ابن طولون ، ثم تحويلها إلى مسجد فى عهد الظاهر بيبرس ، ثم انهدامها فى اثنتين وسبعمائة بسبب الزلزلة ، وفى النهاية يقول : « ثم بنى [المسجد] فى شهور سنة ثلاث وسبعمائة فى دولة السلطان الملك الناصر ، وولد السلطان الملك المنصور ، ثبت الله دولته » (١) .

ويتحدث عن فضائل مصر فى عصره مبينا أن أهم فضائلها : « أنها تمير الحرمين الشريفين ، ولولا مصر لما أمكن أهل الحرمين وأعمالهما المقام بهما ، ولما توصل إليهما من يرد من أقطار الأرض » (٢) .

ثم يتحدث عن نشاطها التجارى وثغورها الرئيسية ورباطاتها المعروفة فى عهده حديثاً فى غاية الأهمية ، وكان قبل ذلك قد تحدث عن نيلها ووصفه فى حال زيادته ونقصانه ، وأثر ذلك على الحياة العامة وعلى غلاء الأسعار وانخفاضها (٣) .

ويعطينا المؤلف — فى الجزء الثامن — صورة واضحة ومثيرة عن كيفية تحصيل الجزية من جاليات النصارى واليهود وغيرهم فى عصره ، سواء فى مصر أو الشام ، وكلاهما كان تابعا للمماليك آنذاك ، كما يتحدث عن النظم المالية والضرائبية المتبعة ، ويشرح أسلوب تقسيم الأراضى الزراعية حسب درجة الانتفاع بها إلى أقسام ، فقد كان يؤخذ من بعضها قطائع عينية ، ومن البعض الآخر مبالغ نقدية ، حدد المصنف مقدارها فى بعض الأراضى فقال : « فأكثر ما علمناه بأراضى الجيزية قبالة فسطاط مصر عن كل فدان مائتان وخمسون درهما » (٤) . ثم يتحدث عن الزراعة بالشام فى عصره ، والمحاصيل التى تتم زراعتها هناك وكيفية تحصيل الخراج الزراعى . وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن مصايد الأسماك فى كل من مصر والشام ، وكيفية استغلالها .

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٣٩٧ .

(٢) أيضاً ، ٣٥٤ .

(٣) انظر ١ : ٢٦٢ وما بعدها .

(٤) أيضاً ، ٨ : ٢٤٩ .

وهو ينقل لنا صورة حية ومثيرة لكيفية صناعة القند وعمل القصب في المعاصر ، مبتدئا بالقصب عندما ينقل من الحقول إلى تلك المعاصر حتى يخرج منها قندا كامل الجفاف معدا للنقل إلى مطابخ السكر لتحويله إلى سكر صالح للاستعمال في كل الأغراض .

ويبدو أن المصنف عاين هذه العملية وباشرها بنفسه في موطنه الأول بالصعيد ، يظهر هذا من قوله في نهاية هذا الشرح : « هذا الذى ذكرناه من الوضع والمتحصل والتسمية اصطلاح بلاد قوص من الصعيد الأعلى بالديار المصرية ، وهو وإن اختلف في غيرها من البلاد فلا يبعد من هذا الترتيب » (١) .

ولأنه كان موظفا في ديوان الملك الناصر — كما سبق أن ذكرنا — نقل لنا كثيرا من النظم والتقاليد المعمول بها في البيوت السلطانية في عصره (٢) .

وفي الجزء الثاني عشر ، الذى خصصه لطرق صناعة الطيب والبخورات والندود والأدوية والأدهان ، يصف ما يصنع من الندود في عصره بالديار المصرية ، كما يصف كيفية عمله ومفرداته ومقاديره .

وهكذا بدا لنا أن المؤلف كان حريصا على تقديم إضافات جديدة إلى المعلومات التى يقدمها لقارئه بقدر ما كان حريصا على انتقاء هذه المعلومات وعرضها في صورة مشوقة ونافعة في نفس الوقت .

الأهمية الأدبية والنقدية للكتاب :

ينطوى نهاية الأرب على أهمية كبيرة في مجال الدراسات الأدبية والنقدية ، فالكتاب بذاته مصدر من مصادر الأساليب الأدبية والفنية في عصره وفيما سبقه من عصور ، والمصنف بحسه الأدبي وذوقه النقدى يقيم —

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ٢٧١ .

(٢) انظر ٨ : ٢٢١ وما بعدها .

من نفسه وبمقاييس عصره — معيارا يزن به المواد الأدبية التى يعرضها ويبين به سقيمها من صحيحها . مما سندرسه — إن شاء الله — فى الباب الخاص بالمادة الأدبية فى الكتاب .

وتزداد فى نظرنا القيمة الأدبية للكتاب حين نعلم أنه يأتى بأخبار نادرة لا تتوفر فى غيره من المصادر عن بعض الأدباء فى العصر الأموى ، فهو يتحف قارئه بمجموعة من الأخبار غير المعروفة عن « عدى بن الرقاع العاملى » نديم الوليد بن عبد الملك بن مروان (١) ، كما ينقل لنا أشعارا — يبدو أنها غير معروفة — لأول شاعر فى بيت الخلافة الأموى وهو يزيد ابن معاوية (٢) .

على أنه مما يزيد من القيمة الأدبية والنقدية للكتاب تلك الرسائل الأدبية الرائعة التى سمعها النويرى أو قرأها بنفسه لكتاب عصره .

وقد كان بوسع المؤلف أن يزودنا بالمزيد من هذه الرسائل — التى يعد هو المصدر الرئيسى لها ، إذ لم ترد فى مصدر غيره فيما نعلم — لكن كان شبح الإطالة ماثلا أمامه فاقتصر فى إيراده لرسائل عصره على جملة من رسائل الكتاب من أصدقائه وأصحابه ، ومن يتصل بهم بصلة الود ، يقول : « وكتاب العصر — أعزهم الله تعالى — كثير ، وكلامهم مشهور ، ومدّون بأيدى الناس ، ومحفوظ فى صدورهم ، ولم نشترط أن نورد لجميعهم فنلتزم الشرط ، ولو فعلنا ذلك لطال الكتاب وخرج عن شرطه ، وإنما خصصنا هؤلاء بالذكر لتعلقنا بهم ، واتصال سببنا فى الوداد بسببهم » (٣) .

ومن هؤلاء الكتاب الذين نقل بعض رسائلهم الديوانية المولى علاء الدين على بن المولى المرحوم فتح الدين محمد بن المولى المرحوم محيى الدين بن

---

(١) كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، الترجمة العربية ١ : ٢٤٢ ونهاية الأرب ٤ : ٢٤٦ — ٢٥٠ .

(٢) كارل بروكلمان ، نفس المرجع ، ١ : ٢٤٠ ، ونهاية الأرب ٤ : ٩٢ ، ١١٦ .

(٣) نهاية الأرب ٨ : ١٦٣ .

عبد الظاهر ،الذى يبدو من اسمه أنه حفيد للكاتب المبرز محيى الدين عبد الله ابن عبد الظاهر ، الذى كان النويرى شديد الإعجاب به . ويبدو أن النويرى كان على صلة وثيقة وطيبة بالمولى علاء الدين على وبأحد أبنائه الذى بدا وكأن أباه يعدّه ليخلفه فى مهنته ، ولتظل السلسلة التى تنتهى بابن عبد الظاهر متصلة على الدوام (١) .

ومن هؤلاء الكتاب أيضا المولى تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى الذى لم يكتف المصنف بنقل شىء من إنشائه فحسب ، بل قام بترجمة جزئية لحياته ، وتحدث عن انتقاله من اليمن إلى مصر ثم إلى دمشق ، وأشاد به وبفضله وبنبله (٢) .

والواقع أن المؤلف نقل عددا من الرسائل لابن عبد المجيد اليمانى فى غير جزء من أجزاء كتابه ، ففى الجزء الأول ينقل له رسالة بعنوان « رسالة القنديل والشمعدان » يقول عنها : « سمعتها من لفظه وقرأتها عليه ، وأجاز لى روايتها عنه . . . الخ » (٣).وفى الجزء العاشر ينقل عنه رسالة أخرى فى « الخيل » كان اليمانى قد « أنشأها فى سنة ست أو خمس وسبعمائة ، وسمعتها من لفظه ، ونقلتها من إملائه » (٤) . مما يدلنا على الرابطة الوثيقة التى كانت تربط مؤلفنا بهذا الكاتب الأديب .

وهناك رسالة أخرى فى الخيل نقلها من إنشاء أديب معاصر آخر هو « المولى الفاضل العالم الأديب البليغ شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبى الكاتب . . سمعتها من لفظه ونقلتها من خطه » (٥) .

والحق أن هناك رسالة أخرى أوردها النويرى ، لا تنتمى إلى عصره ،

---

(١) انظر نهاية الأرب ٨ : ١٢٧ .

(٢) انظر أيضاً ٨ : ١٤٩ وما بعدها .

(٣) نفسه ١ : ١٣٤ .

(٤) نفسه ١٠ : ٧٥ .

(٥) نهاية الأرب ١٠ : ٧٠ .

وهى رسالة عبد الملك بن مروان إلى الحسن البصرى ورده عليها . ويقول كارل بروكلمان عن هذه الرسالة إنها « نادرة » (١) وربما لا توجد فى كتاب آخر غير نهاية الأرب .

ولا يقتصر أمر النقل من المعاصرين والسابقين على النثر ، بل يمتد أيضا إلى الشعر ، يستمع إليه من بعض الشعراء المعاصرين له ، يقول : « وأنشدنى الشيخ شهاب الدين أحمد بن الجباس الدمياطى لنفسه ، فى ذى الحجة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فى رمانة مشقوقة يتساقط منها الحب . . . الخ » (٢) .

وسوف نتناول هذه الرسائل والأشعار بدراسة تحليلية فى الفصل الخاص بالمادة الأدبية فى الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

والواقع أن هذه الرسائل والأشعار التى يعد كتاب نهاية الأرب المصدر الرئيسى لها(٣) فيما يبدو ، إنما تضفى على الكتاب من الناحية الأدبية قيمة كبيرة باعتباره أيضا مصدرا من مصادر دراسة الأدب فى عصر مصنفه .

* * *

---

(١) كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربى ١ : ٢٥٨ ، وانظر نهاية الأرب ٦ : ٣٨ .

(٢) نفسه ١١ : ١٠٤ .

(٣) هناك رسالة واحدة من رسائل تاج الدين عبد الباقى بن عبد اليمانى نقلها القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ٦ : ٤٢٢ .

الفصل الخامس

المصادر الأدبية لنهاية الأرب

ينطوى هذا الفصل على أهمية بالغة فى دراستنا التحليلية لكتاب نهاية الأرب ، فالكتاب – وإن كانت قد ظهرت فيه شخصية مؤلفه واضحة جلية – تغلب عليه صفة الجمع من المصادر الأصلية ، تلك المصادر التى حرص النويرى على انتقائها واختيارها بكل عناية ودقة .

وكانت مكتبة المدرسة الناصرية التى حفلت بأعداد ضخمة من الكتب والمراجع ، وبأنواع شتى من المصادر المتعلقة بمختلف العلوم والفنون ، وهى المكتبة التى أشار إليها المقريزى فى كتابه « الخطط » (١) – كانت هذه المكتبة بمجموعتها القيمة تحت تصرف النويرى ، الذى كان يقيم بداخل المدرسة ، بجوار هذه المكتبة النفيسة فأفاد منها فائدة كبيرة ، انعكست آثارها على موسوعته « نهاية الأرب فى فنون الأدب » .

نهاية الأرب بين الموسوعية وأصالة المصادر :

وإذا كان الكتاب يتسم بالطابع الموسوعى ، فإن ذلك لا يعنى أن النويرى كان كحاطب ليل يعتمد على مصادر غير أصيلة فى الموضوعات التى يعالجها ، بل لقد وضع نصب عينيه أن يستقى ما يكتبه من مادة أدبية

---

(١) راجع خطط المقريزى ، ٢ : ١٣٣ .

وعلمية من أفضل المصادر وأوفاها . وكان النويرى حريصا كل الحرص على توثيق مادته الأدبية ، فرجع إلى دواوين معظم الشعراء الذين نقل أشعارهم ، كأبى الطيب المتنبى ، وأبى عبادة البحترى ، وأبى تمام ، وابن الرومى ، وعدد آخر كبير من الشعراء السابقين عليه أو المعاصرين له :

والحق أن النويرى كان يقدم لنا فى كل موضوع من الموضوعات التى يتناولها باقة منتقاة من الأشعار التى قيلت فى المناسبة ، بألسنة عدد كبير من الشعراء ، حتى فى الموضوعات ذات الصبغة العلمية كالحيوان والنبات ، نجد المصنف يأتى بأشعار لأكبر عدد ممكن من الشعراء ، من مختلف العصور :

فنى باب الحيوان نلاحظ أن النويرى استشهد بأشعار لشعراء بلغ عددهم خمسة وسبعين شاعرا، والجدول التالى يبين أسماء هؤلاء الشعراء، ومواضع الاستشهاد :

(أ)

امرؤ القيس : ١٠ : ٤٩–٥٠ (وصف الخيل) . (وصف العقاب) ١٨٢ .

أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة الأندلسى : (وصف الخيل) ١٠ : ٦١ ، ٩٥ ، (وصف البازى) ١٩٠ ، (القطا) ٢٦٢ ، ٢٦٣ . (وصف التين) ١١ : ١٥٩ ، (نسيم) ١١ : ٢٧٢ .

أحمد بن علوية الأصفهانى : (وصف بقر) ١٠ : ١٢٢–١٢٣ .

أحمد بن فرج الجيانى : (الغراب) ١٠ :٢١٣ .

إبراهيم الموصلى : (وصف العقعق) ٢٤٨–٢٤٩ :

أبو الأسود الدؤلى : (الحمام) ٢٦٠–٢٦٦ .

أبو الصلت ، أمية بن عبد العزيز : (الطاووس) ١٠ : ٢١٦ ، ٢١٧ (الحمامة) ٢٢٧ : ٢٧٨ .

ابن أبى الأشعث : ١٠ : ٣٠٦ .

ب ، ت ، ث

ج ، ح ، خ

د ، ذ ، ر ، ز

س ، ش ، ص ، ض

ط ، ظ ، ع ، غ

ف ، ق ، ك ، ل

م ، ن ، و ، ه ، لا ، ى

الناشى : (البازى) ١٠ : ١٨٨ — ١٨٩ ، (الشاهين) ٢٠٢ (الكركى) ٢٣٥ ، (الورد) ١١ : ١٨٩ ، ٢١٧ .

يعلى بن إبراهيم الأندلسى : (الجراد) ١٠ : ٢٩٥ .

وفى باب النبات وظف أشعاراً قالها (٧١) واحد وسبعون شاعراً منهم ١٧ (سبعة عشر) شاعراً من الشعراء الذى أتى لهم بأشعار قيلت فى الباب السابق وهو الحيوان ، وهؤلاء الشعراء السبعة عشر هم :

أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ، والبحترى ، وأبو بكر الصنوبرى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وابن دريد ، وابن الرومى ، والسرى الرفاء ، والسلامى ، وأبو الطيب ، وأبو طالب المأمونى ، وأبو الفضل الميكالى ، وأبو الفتح كشاجم ، وابن المعتز ، وأبو فراس ، وأبو هلال العسكرى ، والناشى .

أما باقى الشعراء ، فترد استشهاداتهم وفقاً للجدول التالى :

(ا)

أبو سحاق الصابى : (الفستق) ١١ : ٩٣ .

الأصمعى : (وصف نخلة) ١١ : ١١٩ — ١٢٠ .

أبو إسحاق الحضرمى : (النمام) ١١ : ٧١ : (الياسمين) ٢٣٧ .

أحمد بن عبد الرحمن القرطبى : (الياسمين) ١١ : ٢٣٨ .

الأخطل الأهوازى : (الآس) ١١ : ٤١ ، ٤٢ ، ٢٦٤ ، ٢٧ — ٢٧٦ ، ٢٨٤ .

أسامة بن مرشد بن منقذ : (التين) ١١ : ١٥٨ — ١٥٩ .

ابن أفلح الأندلسى : ١١ : ٢٥٣ — ٢٥٤ .

أبو طاهر الخوارزمى : ١١ : ٢٦٥ .

ب ، ت ، ث

ج ، ح ، خ

د ، ذ ، ر ، ز

س ، ش ، ص ، ض

ط ، ظ ، ع ، غ

ف ، ق ، ك ، ل

القاضي عياض : (وصف الزرع) ١١ : ١٦ .
كمال الدين بن بشائر الأخميمي : (البلح) ١١ : ١٢٧ .

م ، ن ، و ، ه ، لا ، ى

النمر بن تولب : (النخلة) ١١ : ١٢٣ .
النابغة : (النخلة) ١١ : ١٢٣ .
ابن وكيع التنيسي : (الباقلى) ١١ : ٢٢ (الرازيانج) ١١ : ١٢٤ ، ١٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ .
محمد بن شرف القيرواني : (البطيخ) ١١ : ٣٣ ، ١٢٨ ، ١٦٠ ، ١٦٢ .
الميكالي : (البنفسج) ١١ : ٢٢٨ .
منصور بن الحاكم : ١١ : ٢٦٦ .
نجم الدين بن البارزي : (البطيخ) ١١ : ٣٥ .
ابن وكيع : (البصل) ١١ : ٥٩ ، ١٠٥ (الجلنار) ١١ : ١٢٦ — ١٢٧ ، ١٣٢ .
محمد بن يزيد المبرد : (النرجس) ١١ : ٢٣١ .
محمد بن القاسم العلوي : (النخل) ١١ : ١٢٥ .
ابو محمد الداودي : (السفرجل) ١٦٩ — ١٧٠ .

ولكن من اين استقى النويري كل هذه الأشعار ؟ لا شك أنه كان يستخدم دواوين معظم هؤلاء الشعراء ، أو ينقل أشعارهم من كتب الأدب كما صرح هو في غير موضع ، عندما ذكر بعض الشعراء على أنهم من شعراء اليتيمة (يقصد يتيمة الدهر) (١) وبعضاً آخر على أنهم من فضلاء الخريدة ، ويعني بها خريدة القصر (٢) .

---

(١) انظر مثلا ١١ : ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٨ .
(٢) انظر مثلا : ١٠ : ٢٤٢ ، ١١ : ٢٠٠ ، ٢٠٧ .

ونرى أن النويرى كان يرجع إلى دواوين أصلية موثقة ، ربما لم يصل بعضها إلينا كديوان أبى عبادة البحترى ، فلقد نقل فى باب « الندمان » أبياتاً للبحترى منها :

إن لان عِطفًا قسا قَلْبُه   أو ثَبّتَ الخلخال جال الوشاح (٣)

وهذا البيت — كما يقرر محقق الجزء التاسع من « نهاية الأرب » ، الأستاذ أحمد الزين — ساقط من هذه القصيدة من ديوان أبى عبادة ، مما يدلنا على أن النويرى كان تحت يده نسخ صحيحة من دواوين الشعراء الذين ينقل عنهم .

وإذا كان النويرى قد عنى عناية فائقة بتحرير الأشعار التى أوردها ، فقد أولى النثر نفس العناية .

ولم ينس أن يورد فى نفس البابين — ونعنى بهما بابى الحيوان والنبات — رسائل نثرية بديعة لأدباء مشاهير أو مغمورين ، قدماء أو معاصرين ، فى موضوعات مختلفة ، وقد بلغت عدة هذه الرسائل ثلاث عشرة رسالة هذا بيانها :

رسالة لبعض فضلاء الأندلس فى وصف الباشق : ١٠ : ١٩٣ .

رسالة فى وصف الجوارح ، لأبى إسحاق الصابى : ١٠ : ٢٠٥ ، ووصف الخطاف ١٠ : ٢٤٠ .

رسالة للوزير أبى القاسم بن الجد الأندلسى فى وصف الخطاف ١٠ : ٢٤٢ — ٢٤٥ .

رسالة للعماد الإصفهانى (الكاتب فى الخريدة) رسالة فى وصف البلابل: ١٠ : ٢٥٢ — ٢٥٦ .

رسالة فى وصف طائر للقاضى عبد الرحيم البيسانى : ٢٧٩ — ٢٨٠ .

رسالة (وشعر) فى العسل لإبراهيم بن خفاجة الأندلسى : ٢٨٨ — ٢٨٩ .

---

(٣) انظر : نهاية الأرب ٩ : ٢٩ ، حاشية رقم ٢ .

ضياء الدين بن الأثير : رسالة فى وصف القسى ٣٢٧ .

شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي الكاتب : رسالة فى رمى البندق ٣٢٨ — ٣٤٣ .

رسالة فى وصف القنفذ للأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير الزيارى : ١٠ : ١٦٤ .

رسالة فى رمى البندق ، لعلاء الدين على بن عبد الظاهر : ٣٤٣ .

رسالة لأبى العلاء عطاء بن يوسف السندى ، فى وصف البنفسج ١١ : ٢٢٩ .

رسالة فى الورد لأبى حفص عمر بن برد الأصغر : ١١ : ١٩٦ — ٢٠٠ .

رسالة فى الورد لبعض فضلاء إصفهان ممن ذكرهم الإصفهانى فى الخريدة ٢٠٠ — ٢٠٧ .

رسالة فى المفاخرة بين النرجس والورد ، لتاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى واسمها « أنوار السعد ونوار المجد فى المفاخرة بين النرجس والورد » ٢٠٧ — ٢١٣ .

استيعاب النويرى للمصادر الأصلية فى فنون الأدب :

ولعلنا لاحظنا وفرة عدد الشعراء والأدباء الذين استخدم النويرى أشعارهم وآثارهم فى إتحاف قارئه بما أبدعه هؤلاء ، وما برعوا فيه من نتاج أدبى فائق القيمة عظيم الفائدة (١) . كما لاحظنا مدى حرصه على أن يرد القول إلى قائله ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يستخدم الدواوين الأصلية للشعراء ، وكتب الأدب المعروفة فى استقاء هذه المادة الأدبية الهائلة .

ولقد صنع النويرى نفس الصنيع فى اجتناء المادة العلمية والأدبية لكتابه من مصادر أصيلة وموثوقة ، وربما يعد كل مصدر منها أوفى ما كتب فى بابه .

---

(١) ملاحظاتنا ليست مبنية فقط على بابى الحيوان والنبات وإنما تشمل سائر أبواب الكتاب وفنونه.

وقد اعتمد النويرى على مصادر فريدة فى بابها لا تزال مفقودة إلى الآن — برغم الجهود التى بذلت لحصر المخطوطات العربية الموزعة فى سائر أرجاء العالم . وهذا من شأنه أن يضيف إلى « نهاية الأرب » ميزة أخرى على سائر الميزات التى ذكرناها له من قبل .

ومن بين هذه المصادر المفقودة إلى الآن — فيما نعلم :

— كتاب « الأمصار » للجاحظ — أفاد منه النويرى فى الجزء الثانى من كتابه (ص ٣٧١).

— كتاب « جيب العروس وريحان النفوس » لمحمد بن أحمد بن سعيد التميمى المقدسى ، وقد أفاد منه النويرى حين قدم تلخيصاً له فى الأبواب التسعة الأولى من الجزء الثانى عشر فى أصناف الطيب والبخورات والغوالى والندود والمستقطرات والنضوحات والأدهان .

— كتاب « مختصر المكاتبات البديعة فيما يكتب من أمور الشريعة » لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المخزومى المعروف بابن الصيرفى ، قدمه النويرى ملخصاً فى الجزء التاسع ، فى ذكر كيفية ما يصنعه الكاتب فى كل واقعة من المكاتبات الشرعية ، أو ما يسمى حديثاً بالشهر العقارى .

والحق أن النويرى قد استخدم فى الفنون الأربعة الأولى — قبل أن يدخل فى فن التاريخ — كثرة هائلة من المصادر الأدبية والعلمية ، حاولنا جمعها وترتيبها مع بيان مواضع استخدامها ، فأخرجنا الجدول التالى :

(أ)

أدب الألفاظ : يعقوب بن السكيت : ٣ : ٢٢٠ .

أدب الكاتب : ابن قتيبة : ١٠ : ١٧ ، ٣٥ ، ٨٠ .

الأدب الكبير : ابن المقفع : ٦ : ١٣ ، ٧١ .

الأحكام السلطانية : الماوردى : ٦ : ١٥٢ ، ٨ : ١٩٥ .

أدب القضاة : الإمام الشافعي : ٤ : ٢٣٦ .

م ، ن ، و ، هـ ، لا ، ى

النظر فى التجارة : الجاحظ : ٢ : ٣٢٧ .

نظم السلوك : لعلاء الدين على بن فتح الدين بن محيى الدين بن عبد الظاهر ٨ : ١٢٨ .

كتاب الهدايا : لإبراهيم الحربى : ١٠ : ٨٣ .

يتيمة الدهر : الثعالبى ١١ : ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٨ .

الملل والنحل : الشهرستانى : ١ : ٤٩ .

ومن هذا الجدول يتبين لنا أن النويرى قد استوعب المكتبة العربية — على نحو ما كانت عليه فى عصره — استيعابا يكاد يكون شاملا .

ولقد شهد له « حاجى خليفة » فى كشف الظنون بهذا الشمول ، فأحصى بعض الكتب التى لخصها النويرى فى كتابه «نهاية الأرب» ، وذكر من تلك الكتب « إحياء العلوم ، اللمعة النورانية ، الملل والنحل ، القصيدة العبدونية وشرحها ، فقه اللغة ، الأمثال ، الحماسة ، ديوان المتنبى ، ديوان البحترى ، ديوان البستى ، وأكثر ديوان [صح : دواوين] الشعراء ، مباهج الفكر ومناهج العبر ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (١) .

كيف استخدم النويرى مصادره :

كان النويرى يعرف أنه إنما يؤلف موسوعة شاملة لصنوف المعرفة وضروب الثقافة فى عصره ، وكان على علم بأنه ينبغى أن يعتمد على مصادر أصيلة لجمع مادته العلمية ، وتقديمها لقارئه فى إطار من الوحدة الموضوعية ، والتناسق اللفظى ، حتى لا يشعر القارئ بالتضارب والتناقض بين مختلف الأساليب . وهو الأمر الذى يعيب النقل من مصادر متعددة .

والحق أن النويرى قد حقق — إلى جانب الوحدة الموضوعية — تناسق اللفظ وتكامل الأسلوب ، فلم يكن الانتقال من موضوع إلى موضوع يشعر

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، مطبعة المثنى ببغداد ج٢ ص ١٩٨٥ — ١٩٨٦ .

القارئ بأى نبو أو غرابة فى الناحية الأسلوبية ، وبلغت الموسوعة درجة تقرب إلى الكمال فى ناحيتى التنظيم والعرض على حد سواء .

ولقد بدا لنا أن النويرى درج فى استخدامه لمصادره على عدد من الأسس نجملها فيما يلى :

اعتمد على مصدر رئيسى — متفق على أصالته فى بابه — فى استقاء مادته العلمية نحو :

كتاب الأغانى ، لأبى الفرج	فى باب الأغانى
كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى	فى باب السماع
كتاب الحيوان للجاحظ	فى الباب الخاص بالحيوان
كتاب الأدوية المفردة لابن سينا	فى باب النبات

غير أنه فى استقائه لمادته العلمية من بعض الأبواب يعتمد على كتب قد تبدو مجهولة للبعض ، ولا يمكن اعتبارها مصدراً أصيلا ، لكنها — من وجهة نظره — تعد أفضل ما يمكن الاعتماد عليه فى بابها ، نحو :

كتاب حسن التوسل ، لشهاب الدين الحلبى فى البلاغة

واعتمد النويرى فى كتابة الفصل الخاص بالأنساب على كتاب يعد من أفضل الكتب التى ألفت فى هذا الباب هو كتاب « الأنساب » للشريف أبى البركات الجوانى النسابة (١) .

كتاب المنهاج لأبى عبد الله الحسينى الحلبى فى وصايا أمير الجيش (٢) .

والنويرى لا يعتمد على هذه المصادر الرئيسية اعتماداً مطلقاً ، بل يرجع إلى مصادر أخرى فى نفس الباب ، يأخذ منها وينقل عنها ، ويضيف إلى المادة التى استقاها .

---

(١) أنظر نهاية الأرب ٢ : ٢٧٦ .

(٢) ايضا ٦ : ١٦٧ .

فلقد لاحظنا أنه ، وإن اعتمد فى باب البلاغة على كتاب « حسن التوسل» للحلبى ، فقد استقى معلومات قيمة أيضاً من كتاب « تحرير التحبير » لابن أبى الأصبع (١) .

وإلى جانب كتاب الأدوية المفردة لابن سينا ، اعتمد فى كتابه الفن الخاص بالنبات على كتاب يسمى « أسرار القمر » لابن وحشية .

وفى الفن الخاص بالحيوان ، استقى معلوماته بشكل أساسى من كتاب « الحيوان » للجاحظ ، لكنه استخدم مصادر أخرى عديدة ، ككتاب « فضل الخيل » لأستاذه شرف الدين الدمياطى .

ويحسن النويرى استخدام مصادره ، ويوظفها فيا تصلح له من أبواب موسوعته وفنونها ، فلقد لاحظنا كيف استخدم كتاب « مروج الذهب للمسعودى »، وكتاب الكامل فى التاريخ « لابن الأثير » — وكلاهما كتاب تاريخى — فى أبواب الأدب ، كما اعتمد على كتاب « فقه اللغة » للثعالبى فى التفسيرات والشروح اللغوية ، كشروح أسماء الرياح وغيرها (٢) .

واتسم اختياره بدقة متناهية ، فلقد كان يرجع فحسب إلى المصادر الموثوق فى صحتها ونزاهتها ، فإن لم يجد هذه المصادر فضل عدم التعرض للموضوع أصلا ، يقول فى أصناف الصقر : « ومما أهملوا الكلام فيه « الكوهية » و « الصيفية » و « الزغزغى » وهو يعد من أصناف الصقر ، ولم أجد من أثق بنقله وعلمه بهذه الأصناف فأنقل عنه أخلاقها وطبائعها وعاداتها » (٣) .

كان النويرى يستخدم النسخ الخطية المتاحة لديه من المصادر التى يرجع إليها أفضل استخدام ، فلم يكن يكتفى بقراءة المتن فقط ، وإنما كان يقرأ الهوامش والتعليقات التى يكتبها الأفاضل والقراء المستنيرون للتعقيب على ما ورد

---

(١) انظر فيما يلى الباب الرابع ، الفصل الخاص بالبلاغة فى نهاية الأرب .

(٢) راجع ١ : ٩٨ ، ١٠٢ ، ٦ : ١٨٩ .

(٣) نهاية الأرب ٩ : ٢٠٥ .

فى النص ، فلقد وجد النويرى فى النسخة التى لديه من كتاب « الأدوية المفردة » لابن سينا حاشية أشار إليها بقوله : « ورأيت على حاشية كتاب الأدوية المفردة للشيخ الرئيس فى النسخة التى نقلت عنها بخط من لعله استدرك على الشيخ ما صورته : الجزر نوعان . . ولما خلط الشيخ فى الماهية خلط فى المنافع . . . الخ » (١) .

ويعاب على النويرى تخليه أحياناً عن نظرته الموضوعية للأشياء ، وثقته الشديدة فى بعض العلماء . فيما يوردونه فى كتبهم من معلومات وأخبار لا تقبل التصديق ، مثال ذلك أن مؤلفنا قد ذكر أنه كان يود إغفال ذكر المرآة السحرية التى يستطيع المرء بواسطتها اكتشاف أعمال الزنا ، لأنه كان يشك فى صحة الخبر ، غير أنه عاد فذكر الخبر مرة لأنه اكتشف أن ابن الجوزى أورده فى كتابه « سلوة الأحزان » (٢) .

ونقل النويرى أقوالا كثيرة لحكماء اليونان ، ومن أهم من ينقل عنهم الحكيم أفليمون صاحب الفراسة ، وفيما يلى جدول ببيان اقتباساته من هؤلاء الحكماء :

آبقراط : ١١ : ٩١ .

أرسطو : ١٠ : ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٦٠ ، ٢٨٧ .

أفليمون صاحب الفراسة : ١٠ : ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٧٠ ، ومواضع أخرى عديدة .

جالينوس : ١١ : ٨٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٥٧ ، ١٨٦ ،

ديسقوريدوس : ١١ : ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٠ .

روقس : ١١ : ٨٥ .

* * *

---

(١) نهاية الأرب ، ١١ : ٥٧ ، وراجع أيضا : فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، ترجمة أنيس فريحة ، طبع بيروت ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م ، ص ١٤١ .

(٢) راجع نهاية الأرب ١ : ٣٩٩ .

الباب الثالث

المادة الأدبية فى نهاية الأرب

الفصل الأول : الموضوعات الأدبية .

الفصل الثانى : الكتابة .

الفصل الثالث : الرسائل الأدبية .

الفصل الرابع : الخرافة والأسطورة .

الفصل الخامس : فن التاريخ .

الفصل الأول

الموضوعات الأدبية فى نهاية الأرب

كان عرض المؤلف للمادة الأدبية من خلال تناوله للفنون الخمسة التى شملها الكتاب وهى : فن السماء — فن الإنسان — فن النبات — فن الحيوان — فن التاريخ . وعندما كان يتناول فناً من هذه الفنون الخمسة لا يقف عند حد التعرض للموضوعات اللغوية أو العلمية ، وإنما كان يدبج كلامه بما يحلو ويطيب من المواد الأدبية .

فيبدأ بذكر المعانى اللغوية للموضوع الذى يتناوله ، ثم يتعرض للنواحى العلمية المقنعة التى تقوم على الأدلة العقلية والمنطقية ، أما التى لا تقوم على دليل واضح فإنه يفضل البعد عنها ، يقول مثلا عند حديثه عن هيئة السماء « والقول فى هيئة السماء على مذاهب أصحاب علم الهيئة كثير ، أغضينا عنه لأنه لا يقوم على دليل واضح »(١). وبعد ذلك يتناول الموضوع من الناحية الأدبية متحدثاً عما قيل فيه من شعر أو نثر ، معلقاً ومدلياً برأيه دائماً .

فى الفن الأول وهو السماء ، عندما تحدث عن الكواكب السبعة ، تطرق لمعناها اللغوى أولا ، وقبل أن يبدأ كلامه بالدراسة العلمية ، فإنه يلفت انتباه القارىء إلى أنه لن يقدم فى حديثه عنها إلا ما توافر لديه من

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٣٢ .

أدلة واضحة من الكتاب الكريم والسنة النبوية ، وأيضاً الأوصاف والتشبيهات التى قيلت فيها ، أما آراء المنجمين وأقوالهم فقد أبى أن يذكرها أو يضعها كتابه ، وذلك لما تحويه من عدم رسوخ فى العقيدة وسوء نية، يقول : « وقد اختص كل كوكب من هذه الكواكب بقول ، سنذكر من ذلك ما تقوم به الحجة وينهض به الدليل من الكتاب والسنة ، وما يتمثل به مما فيه ذكرها ، وما ورد من الأوصاف والتشبيهات نظماً ونثراً مما وقفت عليه » (١) .

وفى فن الإنسان يقول : « وهذا الفن قد اشتمل على معان مؤنسة للسامع مشنفة للمسامع ،مرصعة لصدور الطروس والدفاتر ، جاذبة لنوافر القلوب والخواطر ، واضحة البيان ، معربة عن وصف الإنسان » (٢) .

ولا غرو ، فلو لم يكن الإنسان لما كان شعور ، ولما كان أدب ، إذ هو مصدر الأدب ومناطه ، وهو معيار هذا الكون كله ، يقول : « إنما لقب الإنسان بالعالم الصغير ، لأنهم مثلوا رأسه بالفلك ؛ ووجهه بالشمس ، إذ لا قوام للعالم إلا بها كما لا قوام للجسد إلا بالروح ، وعقله بالقمر لأنه يزيد وينقص ويذهب ويعود ، ومثلوا حواسه الخمس ببقية الكواكب السيارة ، وآراءه بالنجوم الثابتة ، ودمعه بالمطر ، وصوته بالرعد ، وضحكه بالبرق، وظهره بالبر ، وبطنه بالبحر ، ولحمه بالأرض ، وعظامه بالجبال ، وشعره بالنبات ، وأعضاءه بالأقاليم ، وعروقه بالأنهار ، ومغار عروقه بالعيون » (٣) .

فهو إذن مرآة تنعكس فيها صورة هذا الكون ، لقد انطوى فيه العالم الأكبر كما يقولون ، ومن ثم فهو حرى باهتمام كل شاعر وناثر ، فاشتمل فن الإنسان عند مؤلفنا على معان طيبة جديرة بالمخلوق الكريم ، تثير انتباه

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٤٠ .

(٢) نهاية الأرب ٢ : المقدمة ١ .

(٣) أيضا ٢ : ٨ .

السامع . وتزدان بها الدفاتر لوضوحها معنى ، وجمالها مبنى ، ولتأثيرها فى نفس المتلقى .

وقد اشتمل هذا الفن على كل ما يتصل بالإنسان وما قيل فيه — شعراً ونثراً — من تشبيه وغزل ، ومدح ومثل وأحجية . وتهان ، وتعاز ، وغيرها من الأغراض الأدبية مما أدى إلى كمال هذا الفن وشموله ، فمن تشبيهات فائقة وغزليات رائقة . « وأنساب طاهرة ، ووقائع ظاهرة ، وأمثال امتدت أطنابها ، وتبينت أسبابها . . . وكنايات نقلت الألفاظ إلى معان أبهى من معانيها ، وبلغت النفوس بعذوبتها غاية أمانيها ، وألغاز غورت بالمعانى وأنجدت ، وأشارت إليها بالتأويل حتى إذا قربتها من الأفهام أبعدت » (١) .

إذن نستطيع القول بأن المادة الأدبية ، وإن كانت منتشرة فى جميع أجزاء الكتاب ، ألا أنها مركزة فى الفن الخاص بالإنسان،لأن الإنسان هو المحور الأساسى الذى منه تنطلق الأفكار ، وتصدر الانفعالات ، والذى يعد — عند النويرى بهذه المثابة — أهم موضوعات الأدب .

وفى الفن الثالث ، وهو الخاص بالحيوان ، يذكر المصنف أنه جمع فيه كل ما يتعلق بأنواع الحيوان ، والطيور ، وأنه رتبه على أحسن ترتيب ، وقد جمعت فى هذا الفن من أجناس الحيوان بين الكاشر والكاسر ، والنافر والطائر . . . وميزت كل حيوان منها بمحاسنه ومناقبه ، ونبذته بمعايبه ومثاليه » (٢) .

ويذكر أن كل نوع من هذه الأنواع يحتاج وصفه لرسالة خاصة به ، وأنه لولا الخوف من الإطالة لفعل ذلك « ولولا خشية الإطالة ، لوصفت كل حيوان منها برسالة ، لكنى استغنيت بما ألفته من منقولى عما أصنفه من مقولى . . الخ » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٢ : المقدمة .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٣ .
(٣) انظر مثلا ١١ : ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤١ .

ويشير إلى مدى عنايته بترتيب هذا الفن ، شأن الفنون السابقة فيقول : « ورتبته على أجمل تقسيم وتبويب » . وقد قسمه إلى خمسة أقسام بدأها بذكر الأسد والببر والنمر ، فيذكر أولا الأسماء المعروفة لكل حيوان ، وأصنافها وعاداتها ثم يذكر ما وصفت به فى شعر الشعراء ورسائل البلغـــاء .

وهو يقدم للفن الرابع الخاص بالنبات مبيناً الهدف من وراء إيراد المادة الأدبية المتعلقة به ، فيقـــول :

« . . . قصدنا بإيراده أن نذكر منه ما عليه وصف للشعراء ، ورسائل للبلغاء والفضلاء ، لأن ذلك مما يستغنى عنه المحاضر ، ويضطر إليه الجليس والمسامر ، وينتفع به الكاتب فى كتابته ، ويتسع به على المنشىء مجال بلاغته » (١) .

فهو يصرح أنه تعرض للحديث عن هذا الفن الخاص بالنبات لأسباب عديدة منها : إفادة الكاتب من الأشعار والرسائل التى قيلت فى النبات ، وأن . . . المادة الأدبية الموجودة فى هذا الفن تعد مرجعاً هاماً للمحاضر وتسلية للمجالس .

وبعد أن يتحدث عن طبع النبات وخواصه المختلفة معتمداً على كتاب « الأدوية المفردة » لابن سينا (٢) ، يذكر ما وصف به الشعراء هذه النباتات وشبهوه بها ، ويتناول أيضاً وصف الرياض والأزهار وما قيل فيها من شعر ونثر ،مما سنتناوله إن شاء الله فيما يلى عند حديثنا عن الأغراض الشعرية فى الكتاب .

وفى الفن الأخير وهو الخاص بالتاريخ ، يبين النويرى فى مقدمة هذا الفن الفائدة من كتابة التاريخ ، فهو مهم لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم من أول الملك حتى الشخص العادى ، فيقول : « والتاريخ مما يحتاج إليه الملك والوزير ، والقائد والأمير ، والكاتب والمشير ، والغنى والفقير ، والبادى والحاضر ، والمقيم والمسافر » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٩ : المقدمة

(٢) أيضاً

(٣) جـ ١٣ ، المقدمة : ١

ولقد حدد المصنف — فى المقدمة لهذا الفن — منهجه التاريخى الذى سيسير عليه فى تناوله لهذا الفن ، فلقد لاحظ أن المؤرخين قد تناولوا تاريخ الأمة الإسلامية على ترتيب السنين ، لا حسب الدول ، ونحن نعلم أن النويرى يهمه استمتاع القارئ بما يقرأ ، واستفادته بما أمامه ، فرأى أن هذه الطريقة ربما تقطع على القارئ اللذة عند ما يقرأ عن واقعة مثلا ؛ فتنقضى السنة دون أن تكمل أخبارها ، وتسلسل أحداثها « ولما رأيت غالب من أرخ للملة الإسلامية وضع التاريخ على حكم السنين ، ومساقها ، لا الدول واتساقها ، علمت أن ذلك ربما قطع على المطالع لذة واقعة استجلاها ... فانقضت أخبار السنة ، ولا استوعب تكملة فصولها ولا انتهى إلى جملتها وتفصيلها ، وانتقل المؤرخ بدخول السنة التى تليها من تلك الوقائع والأخبـــار » (١) .

وقد اختار النويرى طريقة أخرى تخالف الطريقة التى اتبعها المؤرخون السابقون « فاخترت أن أقيم التاريخ دولا . . . حتى أسردها من أولها إلى أواخرها . . . . . . الـــخ » .

وقد قسم هذا الفن إلى خمسة أقسام « ووضعته على أحسن اتساق وأكمل انتظام » (٢) مما سنوضحه عند حديثنا عن التاريخ إن شاء الله .

تنوع الأغراض الأدبية :

وقد لاحظنا أن الأغراض الشعرية والنثرية متفرقة فى ثنايا الكتاب ، إلا أن معظمها مركز فى الفن الخاص بالإنسان ، إذ تناول فيه المؤلف كل ما يتعلق بالإنسان من وصف ، ومدح ، وغزل ، وهجاء ، ورثاء ، وأمثال — كما سبق أن ذكرنا — وفيما يلى عرض لهذه الموضوعات الأدبية .

---

(١) أيضاً ١٣ : ٢ .

(٢) أيضاً : ٣

التشبيه والوصف :

لاحظنا أن التشبيه والوصف لم يقتصر على فن واحد من الفنون الخمسة أنما وجد فى جميع الفنون ، فبعد أن يتناول موضوعاً من الموضوعات من الناحية العلمية ، يتطرق إلى ذكر ما قيل فيه من شعر أو نثر مبتدأ بالوصف والتشبيه .

فى الفن الخاص بالسماء مثلا ، بعد أن تحدث عن خلق السماء وهيئتها ، استشهد بما وصفها به الشعراء كقول عبد الله بن المعتز :

كَأَنَّ سماءَنا لما تَجَلَّتْ ... خلال نُجُومِها عند الصَّباحِ

رياضُ بنفْسَجٍ خضِلٌ ، نَدَاهُ ... تَفَتَّحَ بينَه نورُ الأُقَــــاحِ

كما يتطرق لوصف الكواكب السبعة ، فيقول: « وقد اختص كل كوكب من هذه الكواكب بقول ، سنذكر . . . ما ورد فى ذلك من الأوصاف والتشبيهات نظماً ونثراً (١) ويستشهد بالكثير من الأشعار فى وصف هذه الكواكب ، فمن ذلك مثلا قول الوزير المهلبى يصف الشمس :

الشَّمسُ فى مَشْرقها قد بَدَتْ ... منيرةً ليس لها حاجِــــبُ

كأنَّها بَوْدَقَةٌ أُحْمِيَــتْ ... يَجُولُ فيها ذَهَبٌ ذَاهِبُ

وهو دائماً ينتقى الأشعار التى يستشهد بها فى كتابه ، ويستحسن بعضها ويصرح بذلك فيقول « ومن أحسن ما وصفت به الشمس فى الطلوع والزوال والغروب قول أعرابى :

مَخَبَّأَةٌ : أَمّا إذا اللَّيلُ جَنَّهـــا ... فَتَخْفى وأَمّا فى النَّهار فَتَظْهَرُ

إذا انْشَقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وانْجَلى ... دُجَى اللَّيلُ وانْجَابَ الحجابُ المُسْتَّر

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٤٠ .

وألبَسَ عرضَ الأُفُق اونًا كأنه ... على الأُفُق الغَرْبىِّ ثَوْبٌ مُعَصْفرُ
عليها دُروعُ الزَّعْفَرَان ، يَشُوبُهُ ... شُعاعٌ تلألأَ فهو أَبيَضُ أَصْفَرُ
تَرى الظِلَّ يُطْوَى حين تبدو وتارةً ... تراه إذا زالتْ عن الأَرضِ يُنْشَرُ
فأَفْنَتْ قُرونًا،وهى فى ذَاكَ لَمْ تَزَلْ ... تَمُوتُ وَتَحْيا كُلَّ يَوم وتُنْشَرُ(١)

والوصف عنده لا يقف عند حد الاستحسان وذكر الموصوف بما عليه من حسن المنظر والهيئة ، وإنما يدخل تحته أيضاً ما وصف به على طريق الذم ، فمن ذلك قول التيفاشى :

فى خِلْقَةِ الشَّمْسِ وأَخْلاقِها ... شتَّى عيوبٍ سِتَةٌ تُذْكَرُ
رَمْداءُ عَمْشَاءُ ، إذا أَصْبَحَتْ ... عَمْياءُ عندَ اللَّيل ،لا تُبصِرُ
ويَغْتَدِى البدرُ لها كاسِفًا ... وجُرْمُها من جُرْمِهِ أَكْبَرُ
حُدُودُها فى القَيْظِ لا تُتَّقَى ... ودِفْؤُها فى القَرِّ مُسْتَحْقَرُ
وخلُقها خلُق المليك الذى ... يَنْكُثُ فى العَهْدِ ولا يَصْبِرُ
ليستْ بحُسْناء،وما حُسْنُ مَنْ ... يحسر عنه اللحظُ لا يبصرُ (٢)

ويتبع هذا النظام فى ذكره لجميع الكواكب الأخرى ، والآثار العلوية كالسحاب ، والمطر ، والثلوج ، والصواعق والرعد ، والبرق وغيرها .

والمصنف لا يكتفى بإيراد الأشعار فى الوصف وإنما ينتقى أيضاً بعض الرسائل الأدبية التى قيلت فى هذا الباب ، كالرسالة التى أنشأها أحد الأدباء الأندلسيين فى وصف السحاب . (٣) .

(١) انظر ١ : ٤٥ .
(٢) نهاية الأرب ١ : ٤٧ .
(٣) انظر أ : ٨٢–٨٣ .



والحق أن النويرى ما كان ينبغى أن ينقل مثل هذه الأقوال دون أن يعلق عليها ويتعرض لما فيها من سقط القول . فهى إنما تتناول الخصائص الأخلاقية والطبعية لأناس عاشرهم وعاش بينهم . بل هو ينتمى إليهم كأهل مصر وأهل الشام .

فأهل مصر لم يكونوا فى وقت من الأوقات أذلاء بأسرهم ، وإذا كان فرعون قد استخف قومه فأطاعوه لفسقهم . فإن السحرة المصريين كلهم آمنوا فى وقت واحد ، ولم يعبأوا بتهديدات فرعون لهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وبأن يصلبهم فى جذوع النخل ، وقالوا له : « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر . والله خير وأبقى » (١) .

وهذه شهادة من الله — عز وجل — لطائفة من أهل مصر آمنوا كلهم فى وقت واحد . ولم يتزعزع إيمانهم حتى مع تهديدهم بالموت ، وهو حدث ربما لم يحدث فى التاريخ من قبل . فلقد نقل ابن عبد الحكم فى كتابه « فتوح مصر وأخبارها » — وهو كتاب اعتمد عليه النويرى — قولا لابن لهيعة : « كان منهم (يعنى أهل مصر) السحرة آمنوا كلهم فى ساعة واحدة ، ولا يعلم جماعة أسلمت فى ساعة واحدة أكثر من جماعة القبط » (٢) .

والتاريخ القريب من النويرى أكبر شاهد على عكس ما ورد فى الكلمة المنسوبة إلى كعب الأحبار ، والتى تصم أهل مصر بالذل والخنوع ، فمعركة عين جالوت (سنة ٦٥٨ هـ) التى انتصر فيها المصريون على المغول الذين لم يسبق لهم أن هزموا فى معركة كبيرة من قبل ، واستبسال المصريين فى حروبهم المتعددة ضد الصليبيين مما سبق لنا أن فصلنا القول فيه (٣) ،

---

(١) سورة طه ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، ص٥ طبع أوروبا ١٩٢٠م ، وانظر أيضاً ابن الدواداری ، كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء الثالث ، تحقيق محمد السعيد جمال الدين ، ص٢٢٧ ، طبع مصر ١٩٨٢ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ١٦ وما بعدها .

إلى جانب ما ورد فى الفصل الذى عقده النويرى نفسه عن فضائل مصر فى الجزء الأول من كتابه (١) . كل ذلك وغيره كان ينبغى أن يلفت نظر النويرى ، وألا ينساق وراء هذه الأخبار المنسوبة إلى كعب الأحبار فى شأن أخلاق أهل البلاد الإسلامية . وما يصدق على مصر يصدق أيضا على الشام وغيرها .

على أن النقد الداخلى للنص الذى نقله النويرى عن كعب الأحبار يبين أن الخبر قد يكون مكذوبا ، فلقد كان حوار كعب مع عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وجاء فى الحوار لفظ « فتنة » منسوبا إلى الشام ، والمعروف أن هذا اللفظ لم يتم تداوله كمصطلح تاريخى يدل على التمرد والخلاف إلا فى أواخر عهد عثمان — رضى الله عنه — وبعد وفاة عمر ببضع سنين ، بل وبعد مقتل عثمان حين وقع الخلاف بين على — كرم الله وجهه — ومعاوية ابن أبى سفيان — رضى الله عنهما — والذى كان واليا على الشام . فربما كان هذا النص المنسوب إلى كعب الأحبار ينتمى إلى فترة تاريخية لاحقة لعهد عمر ، بل ربما كان مكذوبا أصلا .

وإذا كان الأمر كذلك، فلم يكن للنويرى — المؤرخ البارع والأديب المدقق — عذر فى عدم التنبيه على ما فى النص من سقط ، أو فى عدم التنبيه إلى كذب الخبر برمته ، ونسبته إلى غير صاحبه .

« وقال أبو حيان القاضى : أعيانى أن أرى خراسانيا ذكيا ، وطبريا رزينا ، وهمذانيا لبيبـا ، وبصريا ركيكا ،وكوفيا رئيسا،وبغداديا سخيا، وموصليا لطيفا ، وشاميا خفيفا ، وحجازيا منافقا ، وبدويا ظريفا » (٢)

وجاء أيضا المصنف بالأشعار والمقطوعات الأدبية التى قيلت فى بعض المدن المقدسة مثل مكة والمدينة ، كالتى أنشأها القاضى عياض فى ذكر ما للمدينة المنورة من فضل . (٣)

---

(١) نهاية الأرب ، ١ : ٣٤٤ وما بعدها .
(٢) أيضاً ١ : ٢٩٤ .
(٣) انظر ، ١ : ٢٨١-٢٨٨ .

وقد خص المؤلف مصر بالذات بأوصاف كثيرة ، وذكر كثيرا من فضائلها التى خصها الله سبحانه وتعالى بها ، وأيد أقواله بالآيات القرآنية التى قيلت فى فضلها ، ومن ولد فى مصر من الأنبياء .

يقول المصنف فى وصفها : « وهى ما بين أربع صفات : فضة بيضاء ، أو سكة سوداء ، أو زبرجدة خضراء ، أو ذهبة صفراء . وذلك أن النيل يعم أرضها فتصير كالفضة البيضاء ، ثم ينضب عنها فتصير سكة سوداء ، ثم تزرع فتصير زبرجدة خضراء ، ثم تستحصد فتصير ذهبة صفراء » (١) .

كما ينقل بعض الأشعار التى قيلت فى وصف مصر . منها قول أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى يصف جبل الرصد :

يانُزْهَةَ الرَّصدِ الْمصرىِّ قَدْ جَمَعَتْ ... من كلِّ شىءٍ حَلا فى جانب الوادِى

فَذا غَدِيرٌ وذا رَوْضٌ وذا جَبَلٌ ... فالضَّبُّ والنونُ والمَلَّاح والحَادى

ويذكر المصنف أن فضائل مصر كثيرة لا تحصى ، وهذه الفضائل تحتاج إلى كتاب مفرد خاص بها ، يقول : « فهذه نبذة من فضائل مصر ، ولولا الرغبة فى الاختصار ، لكانت فضائلها تكون كتابا مفردا » (٢) .

كما ينقل رسالة لابن حزم فى وصف جزيرة الأندلس (٣) ، ثم ينتقل إلى البصرة ، فيصف ما تختص به بغداد ، والأهواز ، وفارس وغيرها . (٤)

أما الفن الثانى ، وهو الخاص بالإنسان ، فقد أورد كل ما يتعلق بالإنسان من اشتقاقه وتسميته وتنقلاته ، وطبائعه ، وجاء بالأشعار والرسائل

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٣٥٧ قارن ذلك بما ورد فى المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٦ ، طبع بولاق .
(٢) أيضـــا : ٣٥٨ .
(٣) انظر نهاية ١ : ٣٥٨-٣٥٩ .
(٤) انظر ، أيضاً ٣٦٢-٣٦٨ .

التى تصف هذا الإنسان ، فأتى بالأشعار التى تصف جميع أجزاء جسم الإنسان مبتدأ بالشعر . وهذه الأشعار تصف كل عضو من أعضاء الإنسان وصفا دقيقا بليغا . وقد صرح المصنف نفسه بذلك فى بداية حديثه عن هذه الأعضاء بقوله : « فى وصف أعضــاء الإنسان وتشبيهها وما وصف به طيب الريق والنكهة ، وحسن الحديث ، والنغمة واعتدال القدود ، ومشى النساء ، وهو مرتب على ترتيب بنية الإنسان فى المذكر والمؤنث » (١) .

فمما نقله مثلا فى وصف الشعر قول نصر بن أحمد :

سَلْسَلَ الشَّعْرُ فوقَ وجهٍ فَحاكى ظُلْمةَ اللَّيل فوقَ ضَوْءِ الصَّباحِ

والمؤلف حريص دائما على نقل وجهات نظر الشعراء والأدباء ، واختلاف آرائهم فى موضوع من الموضوعات فإذا تطرق إلى وصف عضو من أعضاء الإنسان ، فإن بعض الشعراء يمدحه ، والآخر يذمه ، فيأتى المصنف بهذه الأشعار ، مثلما فعل عندما ذكر الشيب والخضاب وما قيل فيها من المدح والذم . ويقول أحد الشعراء فى مدحه :

أهْلًا وسَهْلًا بالْمَشِيب وَمَرْحَبًا أهْلًا به مِنْ وافدٍ ونَزيـــــل

أهدى الوقارَ وذادَ كُلَّ جَهالَةٍ كانتْ ، وسَاقَ إلىّ كُلَّ جَميل (٢)

أما الشاعر الآخر فإنه يذم هذا الشيب فيقول :

وقالوا مَشيبُ المَرْءِ فيه وَقارُه وما عَلِموا أنَّ المَشيبَ هو العَيْبُ

وأىُّ وقارٍ لامرىءٍ عُرِّىَ الصِّبا ومِنْ خَلْفِه شَيْبٌ وقُدّامُه شَيْبُ ؟

ومن الملاحظ أن المؤلف يتناول كل عضو من أعضاء الإنسان ويفصله تفصيلا دقيقا ، وذلك عن طريق ما قيل فى وصفه من شعر أو نثر ،

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ١٦ .
(٢) أيضا ٢ : ٢٢ .

فعندما كتب عن العيون ، أتى بوصف الأدباء لها من المحاسن ، وما وصفت به من المرض والسقم . وبما وصفت به على لفظ التذكير والتأنيث ، وما قيل فى أدواء العين كالرمد مثلا . (١) وهكذا اتبع النظام نفسه عند تعرضه للحديث عن أى عضو من أعضاء الإنسان ، فحين تعرض لوصف الفم وصف الضحك ، والطيب ، والنكهة ، والأسنان ، والسواك واللسان وأوصافه وعيوبه من العى وغيره ، وما وصف به حسن الحديث والنغمة ، وغير ذلك مما يتعلق بالفم .

مجمل القول : أن المؤلف لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى وصف الإنسان وما يتعلق به إلا وتطرق إليها ، ونقل أقوال الشعراء وآراءهم فى هذه الأعضاء.

أما فى الفن الثالث وهو الخاص بالحيوان ، فقد قسمه إلى خمسة أقسام وأفرد لكل قسم الوصف الذى قيل فيه سواء أكان شعرا أو نثرا . ففى القسم الأول مثلا ، وهو الخاص بالسباع وما يتصل بها ، يتحدث عن الأسد ثم يورد بعض الرسائل الأدبية التى قيلت فى وصفه وكذلك بعض الأشعار . (٢)

والمؤلف إذا أعيته الحيلة فى ذكر ما ورد من شعر أو نثر فى وصف حيوان فإنه يصرح بذلك ، ويعطى نبذة موجزة عن هذا الحيوان وطبائعه وصفاته ، كما فعل عندما تحدث عن الببر فيقول : « ولم أقف على شعر فى وصف الببر ولا رسالة فأوردها » (٣) وعن القردة يقول : « ولم أقف على شعر يتعلق بوصف القردة فأثبته » (٤) .

وقد أعطى المؤلف للخيل فى هذا الفن أهمية كبيرة ، وذلك لفضلها وبركتها — كما يقول — وأن الله سبحانه وتعالى قد شرفها بذكرها فى القرآن

---

(١) انظر ٢ : ٤٢-٥٦ .
(٢) انظر ٩ : ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٩ .
(٣) نهاية الأرب ٩ : ٢٤٣ .
(٤) أيضا ٩ : ٣٣٩ .

الكريم ، والإقسام بها ، يقول : « من فضل الخيل وشرفها أن الله أقسم بها فى كتابه العزيز ، فقال : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا . . . » .

كما استشهد أيضا بأحاديث صحيحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى فضل الخيل منها : « الخيل فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة » (١) .

وكان لاهتمام النويرى بالخيل ، أن تناولها بإسهاب ابتداء من خلقها وفضل الإنفاق عليها . . (٢) ، وما وصفت به فى « أشعار الشعراء ، ورسائل الفضلاء التى تتضمن جيدها وذم رديئها » (٣) فأورد أشعارا كثيرة لعدد كبير من الشعراء فى وصف الفرس ، وخصوصا البحترى الذى صرح المؤلف بأنه أجاد وأكثر فى وصفها فيقول : « وكان وصّافا للخيل » (٤) .

وهو لا يقتصر على ما وصفت به الخيل على طريق المدح ، وإنما أتى بمجموعة من الأشعار وسماها : « طرائف فى ذم الخيل بالهزال والعجز عن الحركة » (٥) :

ولم يكتف بالشعر ، وإنما أورد بعض الرسائل الأدبية الهامة فى وصف تلك الخيول يقول : « فلنذكر ما وصفت به فى الرسائل المنثورة ، والفقر المسجوعة ، والألفاظ المزدوجة مع ما يتصل بذلك من الأبيات » . (٦)

كما تناول فى هذا الفن أيضا وصف ذوات السموم وأجناس الطير

---

(١) نهاية الأرب ٩ : ٣٤٦-٣٥٤ .
(٢) انظر ، ٩ : ٣٤٢-٣٨٢ .
(٣) ٩ : ٣٤٣ .
(٤) ١٠ : ٥١ .
(٥) ١٠ : ٦٥-٦٧ .
(٦) ١٠ : ٦٧ .

وأنواع السمك . واختتم الفن الثالث بذكر شىء مما وصفت به آلات الصيد فى البر والبحر (١) .

أما الفن الرابع وهو الخاص بالنبات ، فقد تناول فيه المصنف مجموعات النباتات المختلفة من خضروات وأشجار ، وفواكه وأزهار . وهو يصرح فى مقدمة هذا الفن أنه لا يقصد من إيراده « استيعاب نوعه ، واستكمال جنسه ، واستيفاء منافعه . . . » ويذكر السبب الذى من أجله لم يستوعب هذا الفن وهو : تعذر الإمكان، وضيق الزمان ، وأن هذا الفن قد عجز عن حصره العلماء والحكماء . فجاءت تصانيفهم ومؤلفاتهم — وإن كانت متعددة — إلا أنهم لم يوفقوا إلى حصره .

وقد كان قصد المؤلف من إيراد هذا الفن إنما هو ذكر الأشعار التى قيلت فى وصفه ، وأيضا إيراد رسائل الفضلاء والبلغاء التى قيلت فيه . ولتكون هذه المادة عونا للكاتب ومرجعا للمحاضر وتسلية للجليس كما صرح هو بذلك . يقول : « قصدنا بايراده (يعنى النبات) أن نذكر منه ما عليه وصف للشعراء ، ورسائل للبلغاء والفضلاء ، لأن ذلك مما لا يستغنى عنه المحاضر ، ويضطر إليه الجليس والمسامر . وينتفع به الكاتب فى كتابته ، ويتسع به على المنشىء مجال بلاغته ، فأوردنا منه ما هو بهذا السبيل ، واستقصينا ما هو من هذا القبيل » (٢) :

ولم يقتصر المؤلف على ما قيل فى وصف النباتات من شعر ونثر ، وإنما تناول أيضا منافعه ومضاره ، وطبائعه المختلفة ، وأصله ، وذلك من باب الاستطراد والعلم بالشىء ، يقول : « وتعدينا من وصفه إلى ذكر منافعه ومضاره ، وانتهينا إلى إيراد بارده وحاره ورطبه ومعتدله . . :

---

(١) أنظر ، ١٠ : ٣٢٤ .

(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢ .

فهذه الزيادة إنما وردت على سبيل الاستطراد ، لا على حكم الالتزام والاستعداد ، وهى مما تزيد الفن إلى حسنه حسنا » (١) .

وبعد أن يتناول النويرى وصف النباتات المختلفة من خضروات وفواكه وأشجار . وورود وغيرها ، يعرج على وصف الرياض والمستنزهات الأربعة التى اتفق على أنها مستنزهات الدنيا وهى : صغد سمرقند ، وشعب بوّان ، ونهر الأبلة ، وغوطة دمشق . وقد وصف هذه الرياض وصفا رائعا ، مستخدما أسلوبا أدبيا راقيا ، معتمدا على حسن التقسيم ، والتشبيهات الرائعة ، والسجع غير المتكلف ، يقول فى الرياض :

« أَلَذُّ مَا تَمَتَعَتْ بِحُسْنِه النواظرُ ، وأَبْهَى ما ارتاحَتْ النّفُوسُ إلى أَزْهَاره النواضِر ، وَصْفُ رياضٍ تَاهَتْ الأَرْضُ على السماء بأزهارها ، وباهَتْ أَنْوارُ الكواكب بنورها ونُوّارِها » (٢) .

ويقول فى وصفه لصغد سمرقند : « الذى تَحُفُّ به بساتينٌ كَسَتْ زهرتُها من الأَرضِ عاريها . وأَصْبَح للسماءِ بُكاءٌ فى جَوَانِبِها ، وللرّوضِ ابتسامٌ فى نَواحِيها ، تَتَخَلَّلُها قُصُورٌ يَتَضاءَلُ سَنا النَّجْمِ فى آفاقها ، وتَحْتَجِبُ الغَزَالَةُ عند طلوعِها حياءً من بَهْجَتِها وإشْراقِها » (٣) .

وإذا ألقينا نظرة على وصف النويرى للمستنزهات الأربعة ، وجدنا أنفسنا أمام أديب كبير ، استطاع أن يعبر عن أفكاره ، وينقل لنا صورة مجسمة حية لهذه الرياض ، حتى ليحس القارىء وهو يتابع هذا الوصف أنه أمام هذه الرياض وبين أشجارها وزهورها . (٤)

أما الوصف الذى تناوله فى الفن الخامس ، وهو الخاص بالتاريخ .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٣ .
(٢) أيضا ١١ : ٢٥٦ .
(٣) أيضا ١١ : ٣٥٧ .
(٤) انظر ١١ : ٢٥٦ .

فقد تمثل فى مجموعة من الأشعار التى وردت فى سياق عرضه التاريخى للأحداث ، مما سنتناوله فى دراستنا للمادة التاريخية والأسطورية فى نهاية الأرب .

من هذا الاستعراض السريع ، يتضح لنا أن الوصف قد وجد فى جميع الفنون ، وهو الغرض الغالب فى جميع أجزاء الكتاب . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التزام المصنف بفكرة استولت عليه ، وهى وحدة المعرفة الإنسانية . حيث تتداخل الآداب والفنون جميعا لتكون نسقا واحدا متمايزا يعبر عن تأثر الإنسان بما حوله وتأثيره فيه . (١) كما تدل على دقة المصنف وحرصه التام على إيراد كل ما يتعلق بوصف هذه الفنون من إنسان وحيوان ونبات وغير ذلك .

المـــدح :

أورد المؤلف فى الفن الثانى الخاص بالإنسان بابا للمدح أدخل تحته أغراضا أخرى كالفخر والجود والكرم والصدق والوفاء والأمانة ، والتواضع والشفاعة والاعتذار والاستعطاف .

وقد بلغ عدد هذه الفصول ثلاثة عشر فصلا جعل لها عنوانا عاما سماه « المدح » .

ويعرف المصنف المدح فيقول : « حقيقة المدح وصف الموصوف بأخلاق يحمد صاحبها عليها ، ويكون نعتا حميدا » (٢) .

إذن فمن شروط المدح أن يكون صادقا بعيدا عن المبالغة لتستخدم فيه الألفاظ المناسبة والأسلوب اللائق .

أما المدح الذى يشتمل على النفاق والكذب ، فلا يرتضيه أو يقبله المصنف ، وإنما يقبل المدح الصادق الذى يمدح الرجل بما هو فيه فعلا .

---

(١) ناقشنا هذه القضية فيما سبق ، فى الفصل الخاص بمميزات نهاية الأرب ، الباب الثانى .

(٢) انظر ٣ : ١٧٣ .

ويحاول أن يبرهن على أن هذا النوع من المدح ، ليس عيبا ولا هو بمكروه ، فيحلل حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « وقد أوّلوا قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — : إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب . المقصود به المدح الباطل والكذب ، أما مدح الرجل بما هو فيه فلا بأس به . . بدليل أن العباس بن عبد المطلب ، وحسان ابن ثابت وغيرهم قد مدحوا الرسول — صلى الله عليه وسلم — فلم يرد أنه حثا فى وجه أحد منهم التراب » .

وهناك بعض الشعراء ممن يتجاوز حد المدح ، وذلك بمدح الممدوح فوق ما يستحقه : « مما يفضى بكثير منهم إلى الكفر ، والخروج عن الحد » (١) وهذا مما يتنافى والتعاليم الإسلامية والأخلاق الفاضلة .

وقد أورد النويرى مجموعة كبيرة من الأشعار التى قيلت فى هذا الباب ، وسوف نتناول بعضها بالدراسة فى الباب الخاص بالنقد إن شاء الله .

الهجـــاء :

أدخل المصنف أيضا — كما فعل فى باب المدح — تحت هذا الباب أربعة عشر فصلا تشمل أغراضا متنوعة ومتعددة كالحسد والسعاية والبغى والبخل واللؤم ، والجبن ، والكذب ، والطمع .

ويقرر أن الذى يستحق الهجاء هو : « من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأراذل والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره » (٢) .

وقد أورد مجموعة من الأشعار والأقوال فى هذا الباب مما سنتعرض له فى الفصل الخاص بالنقد .

---

(١) انظر نهاية الأرب ٣ : ١٧٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ٢٦٧ .

الغزل والنسيب :

تناول المصنف هذا الموضوع فى الفن الثانى الخاص بالإنسان فتحدث عن الهوى والعشق والفرق بينه وبين المحبة ، وهو يذكر أن هذا الباب وهو الغزل باب متسع قد أكثر الشعراء القول فيه ، وتنوعت أساليبهم ومعانيهم .

ويبدأ المصنف كلامه بالهوى لأنه — فى رأيه — « السبب الباعث على الغزل ، وذلك أنه إذا حل فى الأجسام ارتاحت النفوس ، ورقت القلوب وانجذبت الخواطر ، وصفت الأذهان وسهل على القرائح فأبرزته الألسن»(١)

ثم انتقل من حديثه عن الهوى إلى ذكر ماهية العشق وحقيقته ، فذكر أولا آراء الحكماء والفلاسفة وتعريفهم للعشق مثل أفلاطون ، وفيثاغورس وأرسطوطاليس .

وهو حريص دائما على إيراد التوافق فى الآراء بين الحكماء والشعراء فى هذا الشأن ، فأتى مثلا برأى فيثاغورس الذى يقول : العشق طبع يتولد فى القلب ويتحرك وينمى ثم يتربى ، ويجتمع إليه مواد من الحرص ، وكلما قوى ازداد صاحبه فى الاهتياج واللجاج ، والتمادى فى الطبع ، والفكر فى الأمانى ، والحرص على الطلب ، حتى يؤديه ذلك إلى الغم والقلق » (٢) .

ويذكر النويرى أن هذا هو رأى الشاعر المتنبى أيضاً ، وأنه أشار إلى هذا المعنى فى بيت من الشعر يقول فيه :

وَمَا العِشْقُ إلَّا غِرَّةٌ وطَمَاعَةٌ يُعرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَه فَيُصَابُ

ولأنه دائما ينظر إلى الأشياء من وجهة النظر الدينية كما سبق أن ذكرنا ،

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ١٢٥ .

(٢) نفس المصدر ٢ : ١٢٦ .

فإنه يذكر آراء الإسلاميين فى العشق ، ثم يدلى بعد ذلك برأيه الشخصى فيه فيقول :

« والتحقيق أن العشق شدة ميل النفس إلى صورة تلائم طبعها ، فإذا قوى فكرها فيه تصورت حصولها وتمنت ذلك ، فيتجدد من شدة الفكر مرض » (١) .

ويتعرض المؤلف للحديث عن العشق وضروبه ، والفرق بينه وبين المحبة فيقول : « المحبة جنس ، والعشق نوع ، فإن الرجل يحب أباه وأمه ولا يبعثه ذلك على تلف نفسه ، بخلاف العشق » .

وتحدث عن أسباب العشق ، وذكر أن المصادفة هى سبب هذا العشق ، وأن أهم أسباب هذه المصادفة النظر ، وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بغض النظر ، فأتى بالآيات القرآنية الكريمة التى تأمرنا بغض النظر ، وكذلك بالأحاديث النبوية الصحيحة ، وأقوال العلماء . ثم أورد أشعارا كثيرة تصف ما يحدثه النظر من بلايا ؛ فمن ذلك مثلا قول ابن المعتز :

مُتَيَّمٌ يَرْعَى نُجُومَ الدُّجَى يَبْكِى عَلَيْهِ رَحْمَةً عَاذِلُــهْ
عَيْنِى أَشاطَتْ بدمِى فى الهَوى فابكُوا قتيلًا بعضُه قاتِلُهْ (٢)

ويقول أيضا أبو شجاع الوزير :

لَأُعذِّبَنَّ العَيْنَ غَيْرَ مُفَكِّرٍ فِيهَا ، جرَتْ بِالدَّمْعِ أَمْ فَاضَتْ دَمَا
ولأَهْجُرَنَّ مِنَ الرُّقادِ لذَيذَهُ حَتَّى يَصِيرَ عَلَى الجُفُونِ مُحَرَّمَا
سَفَكَتْ دَمِى ، فَلأَسْفِكَنَّ دُمُوعَهَا وَهِىَ الَّتِى بَدَأَتْ فَكَانَتْ أَظْلَمَا
هِىَ أَوقَعَتْنِى فِى حَبَائِلِ فِتْنَةٍ لَوْلَمْ تَكُنْ نَظَرَتْ ،لَكُنْتُ مُسَلَّمَا (٣)

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ١٢٨ .
(٢) نفس المصدر : ١٣٣ .
(٣) أيضا : ١٣٤ .

وقد اختلف الناس فى العشق ، هل هو ممدوح أم مذموم . فقال قوم هو ممدوح لأنه لا يكون إلا من لطافة الطبع . وقال آخرون هو مذموم ؛ لأنه يستأثر العاشق ويجعله فى مقام المستعبد . (١)

ويوافق مؤلفنا على أن المحبة والود والميل إلى الأشياء المستحسنة الملائمة لا يذم ، وهو يعطينا الأدلة على أن هذا النوع من العشق لا يعاب أو يذم ، لأن بعض الخلفاء والأكابر قد وقعوا فيه فلم يعب عليهم ولا نقصهم « أما العشق الذى يزيد على حد الميل والمحبة فيملك العقل ويصرف صاحبه على غير مقتضى الحكمة ، فذلك مذموم ويتحاشى من مثله الحكماء » (٢)

وهذا العشق المذموم يؤدى بصاحبه إلى الضرر فى الدين والدنيا معا ، أما فى الدين « فإنه يشغل القلب عن الفكر فيما له خلق : من معرفة الله تعالى ، والخوف منه ، والقرب إليه . . . » (٣) .

أما ضرره فى الدنيا « فإنه يورث الهم الدائم ، والفكر اللازم والوسواس والأرق ، وقلة المطعم ، وكثرة السهر . . . » (٤)

ثم أورد شعرا قيل فى ذم العشق والحب ، فمن ذلك قول شاعر :

هل الحُبُّ إلا زَفْرةٌ بعد زَفْـرةٍ وحَرٌّ على الأَحشاءِ ليس له بَرْدُ ؟
وفَيْضُ دموعِ العَيْنِ منِّىَ كلَّما بدا عَلَمٌ منأَرضكُمْ لم يكُنْ يَبْدُو

كما أورد أيضا أخبار العشاق الذين خاطروا بأنفسهم وألقوها إلى الهلاك من أجل المحبوب ، ومن كفر بسبب العشق ومن قتل وقتل أيضا بسبب العشق . (٥)

---

(١) انظر نهاية الأرب ، ٢ : ١٣٨ .
(٢) نفس المصدر والصفحة : ٢ : ١٣٨ .
(٣) أيضا ٢ : ١٤٦ .
(٤) أيضا ٢ : ١٤٧ .
(٥) انظر ، ٢ : ١٦٠-١٩٧ .

وقد خصص فصلا فى هذا الباب فى التحذير من فتنة النساء ، وذم الزنا ، والنظر إلى المردان ، والتحذير من اللواط وعقوبة اللائط ، معتمدا على الأحاديث النبوية الصحيحة التى تحذر من هذه الآفات السيئة . (١)

وهو يقرر أن كل ما أورده فى العشق وتوابعه ، إنما كان كلاما مختصرا ، وأخبارا موجزة ، وهذا مما يناسب الكتب الشاملة للفنون المختلفة ، يقول : « هذا ما أمكن إيراده فى هذا الفصل على سبيل الاختصار والإيجاز ، وإلا فالأخبار فى العشق وتوابعه وما يتولد عنه كثيرة جدا ، ووقفنا على كثير ، ولا يحتمل أن يورد فى الكتب الشاملة لفنون مختلفة أكثر مما أوردنا » (٢) .

ثم يعقد المؤلف فصلا يذكر فيه نبذة مما قيل فى الغزل والنسيب من الأشعار ، فأورد الأشعار التى قيلت فى المؤنث ، والمذكر ، والمشترك ، وطيف الخيال ، والوصال والفراق ، والتوديع ، والصد والهجران . . وغير ذلك مما يدخل تحت هذا الباب . (٣)

ويقرر المؤلف — كما سبق أن ذكرنا — أن باب الغزل والنسيب باب متسع ، وأنه لو استقصاه لطال هذا التصنيف وإنما « لخصنا منه دررا نفيسة وأعلاقا خطيرة ، واقتصرنا منه على ما رق معناه وراق، وحسن لفظه وشاق ، وارتاحت إليه النفوس ، وتحلت به الطروس ، ولحته النواظر وانجذبت إليه الخواطر » (٤) .

فقد أراد النويرى أن ينزه كتابه عن الغزل الفاحش الذى لا يقبله الدين الحنيف ، ولا يرتضيه الذوق السليم ، وإنما انتقى واختار ما يتمشى مع اعتقاداته وما يعلم أن النفوس تميل إليه وتنجذب نحوه ، فأورده فى كتابه .

---

(١) انظر نهاية الأرب أيضا : ١٩٨-٢١٠ .
(٢) أيضا ٢ : ٢١٠ .
(٣) انظر ٢ : ٢١١ .
(٤) نهاية الأرب ٢ : ٢١٠ .

وهو يقرر أن الشعراء قد تنوعت أساليبهم فى الغزل فنهم من تغزل فى « المحبوب باسمه ، وكنوا عنه واستعاروا له ، ووصفوا أعضاءه وشبهوها بأشياء فشبهوا العيون بالنرجس ، وأفعالها بالخمر والسهام . . . »

ومنهم أيضا من تغزل فى « أصناف الفواكه المأكولة والمشمومة وتغزلوا فى الرياض والأزهار » .

وربما يعد النويرى أول من استعمل مصطلح « الغزل » للدلالة على وصف الرياض والأزهار والفواكه وغيرها ، وذلك لتعلق الأدباء والشعراء بالمناظر الطبيعية الخلابة التى تجذب العيون وتأسر الناس للتمتع بجمالها الذى يضفى على الكون كله بهجة وجمالا ، وجعلتهم يصفونها وكأنهم يتغزلون فيها ، فقد أكثر كل الشعراء فى وصف كل هذه الأنواع من المأكولات والرياض والأزهار وغيرها من المناظر الطبيعية والتغزل فى جمالها . فمن ذلك مثلا وصف لأبى هلال العسكرى فى وصف الرياض :

أَلوانُ منثورٍ يريك حُسنُها ألوانَ ياقوتٍ زها فى عِقدِهِ
ياحسنُها فى كفٍّ من يشبهها فانظر إلى النِّدِّ بكَفِّ نِدِّه
من أشهلٍ كعينه وأبيضٍ كثغرِه وأحمرٍ كخدِّه
وأصفرٍ مثلِ صريعِ حُبِّه إذا تغشَّته غواشِىَ صَدِّهِ (١)

التّهانى والبشائر :

يقسم النويرى التّهانى إلى قسمين : خصوص ، وعموم ، « فالخصوص هو ما يتعلق بالرجل من منصب يليه ، ونعمة تواليه ، وولد رزقه ، وشفاء من مرض أقلقه وأرّقه ، وقدوم من سفر ، وزواج قضى به الأرب والوطر » (٢) .

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٧٢ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٢٧ .

أما العموم : « هو ما يتعلق بالجمهور ، يتساوى فيه الملك والمملوك والأمير والمأمور : من انصباب غيث عم الربا والوهاد . وجريان نيل شمل بريه البلاد وآمن العباد ، وهزيمة عدو زاد فى عدوانه وتمادى فى طغيانه ، وفتوح حصن أمن أهله بتشييد أركانه وإتقان بنيانه » (١) .

وهو يورد لكل قسم من هذه الأقسام مجموعة من الرسائل التى قيلت فى المناسبات المختلفة لكبار الفضلاء والأدباء ، كابن بشر الصقلى الكاتب فى رسالة يهنىء فيها الحسن بن إبراهيم التترى بوزارة مصر . والحمدونى فى رسالة يهنىء فيها بالسلامة من حريق وقع فى دار الخلافة ، وابن العميد فى تهنئة عضد الدولة بن بويه وقد ولد له توأمان .

وللنويرى رأى خاص فى التهانى الخاصة بالزواج ، فإنه يصرح بأنها قليلة ، ولا تقع إلا بين صديقين سقطت بينهما الكلفة ، وتساويا فى الرتبة . يقول « وقلما تقع التهنئة بذلك (يعنى بالزواج) إلا بين صديقين صح بينهما الالتئام ، وسقطت بينهما مؤنة الاحتشام ، وتساويا فى الرتبة ، واتحدا فى الصحبة » (٢) .

وينتقل المؤلف إلى نوع آخر من أنواع التهانى الخاصة : وهى التهانى الشاذة التى تجمع بين التهنئة والتعزية ، والبشارة والتسلية ، وقد نقل رسالة لعبد الملك بن صالح ، قالها للرشيد حينما ذمه بعض الحساد عند الرشيد ، وقالوا له إنه يعد كلامه ، فأنكر ذلك الرشيد وأراد أن يختبره . فقال الرشيد للفضل : قل له : ولد لأمير المؤمنين فى هذه الليلة ابن ومات له ابن . فدنا عبد الملك من الرشيد وقال : « يا أمير المؤمنين ، سرك الله فيما ساءك ، ولاساءك فيما سرك ، وجعلها واحدة بواحدة: ثواب الشاكر وأجر الصابر ، فقال الرشيد : أهذا الذى زعموا أنه يتصنع الكلام ، ما رأى الناس أطبع من عبد الملك فى الفصاحة » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٢٧ .

(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٣٦ .

(٣) نهاية الأرب ٥ : ١٣٦-١٣٧ .

كما نقل قصيدة لعبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى يهنىء العزيز بخلافة مصر ويرثى أباه المعز منها :

قَدْ أَصْبَحَ الجَوهَرُ العُلْوىُّ مُنْتَقِلًا ... فى خيرِ مَن كانَ مِن خَيرِ الوَرى بَدَلًا

يامِنْحَةً كَمُلتْ فى مِحْنَةٍ عَظُمَت ... لَوْلَاكَ فى الدّهر مَا نَال امروءٌ أَمَلَا

صُنْعٌ مِنَ الله فى خَطْبٍ أُتِيحَ لَنَا ... عمَّ البلادَ وعمَّ السَّهلَ والجَبَـلَا

كان الزمانُ بمن أَبْقى ومَنْ أَخَذَتْ ... صروفُهُ مُذْنِبًا طورًا ومُنْتَصِلَا

قَامَ العزيزُ بِما أَفْضَى المُعِزُّ بِـه ... إليه مُضْطَلِعابالعِبْء ، مُحتَمِلَا(١)

أما التهانى العامة،وهى المتعلقة بالناس كافة كما سبق أن أوضحنا ، فقد بدأها بما قيل فى بشارة النيل ، وذلك لما يدره من منفعة عامة على جميع الناس ، يقول : « . . . ولنبدأ بما قيل فى البشارة بوفاء النيل ، لما فيه من عموم المنافع الشاملة وشمول النعم الكاملة ، والخصب الذى يتساوى فى الانتفاع به الغنى والفقير ، والمأمور والأمير » (٢) .

وقد نقل ما كتبه شهاب الدين محمود الحلبى ، الذى يقرظه النويرى ويثنى عليه ، ويلقبه بالمولى الفاضل ، الصدر الكبير الكامل ، ذى المناقب والمآثر ، والفضائل والمفاخر ، فمن هذه الرسالة : « هذه المكاتبة إليه — أعزه الله تعالى — ونعم الله قد عمت ، وآلاؤه مع تحقق المزيد قد تمت ، ومواد فضله قد أمت الأقطار ، فقامت صلاة الصلات إذا أمت ، وكلمة الخصب قد نمت فى الآفاق ، فوشت بمكنون حديثها للأرض ونمت ، والخصب قد أقبل على الجدب فلم يكن له بمقاومته قبل ، وطوفان الرحمة قد طبق الوهاد فلم يغن المحل أن قال : سآوى منه إلى جبل . . . الخ »(٣)

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٣٧–١٣٨ .

(٢) نفسه ، ٥ : ١٤١ .

(٣) أيضا ٥ : ١٤١ .

كما أورد أيضا رسالة للقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى جوابا لكتاب جاءه يخبر فيه بانتصار المسلمين ، ورسالة أخرى لمحيى الدين عبد الله ابن عبد الظاهر وغيرهم . (١)

وإذا تأملنا الرسائل التى أوردها المؤلف فى هذا الشأن ، وجدنا أنها ذات قيمة أدبية عالية ، انتقاها المؤلف ، واختار مجموعة من الأدباء البارزين لينقل عنهم تلك الرسائل القيمة ، والتى قيلت فى المناسبات المختلفة عونا للكاتب عند الكتابة . . . وذلك مما سنتناوله بالتفصيل عند حديثنا عن الرسائل :

المراثى والنوادب :

وكما فعل المصنف فى التهانى ، فعل أيضا فى المراثى ، فقدم لها بمقدمة أدبية رائعة ، ذكر فيها أن المراثى إنما جعلت لأهداف منها : تسلية أصحاب المصائب ، والعلم بأن الموت ضرورى لابد منه ، وأن لا سبيل إلى الخلود . يقول : « والمراثى إنما جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها ، وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها ، وتأسية لمن سبق إلى هذا المصرع . . . ووثوقا للاحقاق بالماضى ، وعلما أن حادثة الموت من الديون التى لابد لها من التقاضى » (٢) .

وفى هذه المقدمة ، يقدم النصائح لأصحاب المصائب بأن يصبروا لينالوا الأجر الكريم ، والثواب الجزيل من الله سبحانه وتعالى . وليتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد جعل الله فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وليقتدوا بأصحابه — رضى الله عنهم — ليفوزوا بثواب الصابر ويحوزوا أجر الشاكر .

وهو يقرر أن باب الرثاء ، باب متسع ، متعدد الأغراض ، مختلف

---

(١) انظر نهاية الأرب ٥ : ١٤٠–١٦٤ .

(٢) نفسه ٥ : ١٦٤ .

الأسلوب ، يقول : « وباب الرثاء فهو باب فسيح الرحاب والنوادى ، فصيح اللسان فى إجابة المنادى ذى القلب الصادى ، متباين الأسلوب ، مختلف الأطراف ، متباعد الشعوب ، منه ما يصمى القلوب بنباله ومنه ما يسليها بلطيف مقاله ، ومنه ما يبعثها على الأسف ، ومنه ما يصرفها عن موارد التلف » .

وقد أكثر الشعراء القول فى هذا الباب ، وجاءت أشعارهم عن حس صادق بالمواقف ، ولذلك بلغوا فيها القمة ، يقول : « وقد أكثر الشعراء القول فى هذا الباب وارتقوا الذروة العليا من هذه الهضاب ، ووجدوا وكان القول ذا سعة . فقالوا ، وأصابهم هجير اللوعة فالوا إلى ظلّة وقالوا » (١) وأورد سؤال الأصمعى للأعرابى : ما بال المراثى أشرف أشعاركم ؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا تحترق .

وقد انتقى المؤلف بعض الأقوال الموجزة البليغة التى قيلت فى مثل هذه المواقف .

كما أورد بعض المراثى والنوادب ، بدأها بما قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — موت ابنه إبراهيم : « يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنّا عليك حزنا هو أشد من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب » (٢) .

وذكر بعض رسائل للفضلاء والبلغاء فى الرثاء كالقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، والشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القرطبى ، والمولى شهاب الدين محمود الحلبى ، وغيرهم من الأدباء .

ومن هذه الرسائل رسالة كتبها شهاب الدين محمود الحلبى إلى الأمير

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٦٥ .

(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٦٨ .

عز الدين الحيوى النائب بدمشق تعزية بولده : « أعز الله أنصار المقر الكريم العالى ، ولا هدمت له الخطوب ركنا ، ولا فجأت له الحوادث حمى ولا طلبت عليه إذنا ، ولا هصرت أيدى الأقدار من عروشه الناضرة غصنا ، ولا أذاقته الأيام بعد ما مر أسفا على من يحب ولا حزنا ، ولا سلبه الجزع رداء الصبر الذى يخصه بجزيل الأجر . . . » (١) .

كما أورد كثيرا من الأشعار التى قيلت فى هذا الباب . فمن آرائه الشخصية التى ذكرها فى الرثاء قوله :

« ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخنساء فى رثائها لأخيها صخر ، فمن ذلك قولها :

أَلاَ يَا صَخْرُ إنْ أَبْكَيْتَ عَيْنِى ... لَقَدْ أَضْحَكْتَنِى دَهْرًا طَوِيلَا

دَفَعْتُ بِكَ الجَلِيلَ وَأَنْتَ حَىٌّ ... فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجَلِيلَا

إِذَا قَبُحَ البُكَاءُ عَلَى قَتِيـــلٍ ... رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الحَسَنَ الجميلَا»

ويذكر لها مجموعة أخرى من الأبيات قيلت فى رثاء أخيها (٢) وهو يأتى بآراء الأدباء المختلفة وينقل وجهات نظرهم فى أشعار الرثاء ، منها أنهم قالوا : أرثى بيت قالته العرب قول المحدث :

عَلَى قَبْرِهِ بَيْنَ القُبُـــورِ مَهابَةٌ ... كَمَا قَبْلَها كَانَت عَلَى صاحبِ القَبْرِ

وقيل ، بل قول الآخر :

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَه عن عَدُوِّهِ ... فَطِيبُ تُرَابِ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى القَبْرِ (٣)

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٧٦ .

(٢) انظر ٥ : ١٧٨–١٧٩ ، وانظر أيضا رأيه فى بعض أبيات فى الرثاء ص ١٨٠ .

(٣) ٥ : ١٧٩–١٨٠ .

فى المجون والنوادر والفكاهات والملح

ويبدو للقارىء لأول وهلة عندما يقرأ هذا العنوان أن المؤلف سيخرج عن خطته ويحيد عن مفهومه الخاص للأدب ، ويأتى لنا بأشعار وأقوال تنطوى على غزل فاضح ، أو مجون واضح ، وما أكثر هذه الأشعار والأقوال فى الأدب العربى . غير أننا لا نلبث أن نجد المؤلف قد طوع المجون والفكاهة والملح لمفهومه الخاص ، وأبعد عنها كل شائبة وأزال عن لوحها كل مساس يمس العقيدة ، والدين والمروءة ، والخلق الرفيع . بل نجده يعد باب المجون والنوادر ضروريا ، فهو باب « تنجذب النفوس إليه ، وتشتمل عليه ، فإن فيه راحة للنفوس إذا تعبت وكلّت ، ونشاطا للخواطر إذا سئمت وملت » (١) لكنه على كل حال ، يعد هذا الباب عارضا ، لابد أن ينتقل الإنسان منه إلى الجد مرة أخرى ، ولكن بنشاط جديد ، ونفس حديد فى طلب العلم ، وممارسة العمل ، فهى نفس الإنسان « إذا عاهدتّها بالنوادر فى بعض الأحيان ، ولاطفتّها بالفكاهات فى أحد الأزمان ، عادت إلى العمل الجد بنشطة جديدة ، وراحة فى طلب العلوم مديدة »(٢)

باب المجون عند النويرى باب ضرورى حقا ، لكن لمدة ساعة ، ولا ينبغى الإفراط فيه ، والانسياق وراء دواعيه . ولقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وهو أفضل الخلق والأسوة الحسنة لكل مسلم — يمزح ولا يقول إلا حقا ، وروى عنه أنه قال : « روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلّت عميت » . ولم يكن الصحابة — رضوان الله عليهم — يرون فى النوادر والفكاهات بأسا ، كما كان الخلفاء الأمويون والعباسيون ، وكذلك القضاة والنحاة ، والنساء ، والجوارى والعميان لكل طائفة منهم نوادر .

واشتهر بالمجون فى الأدب العربى ، عدد من الناس كأشعب ، وأبى دلامة ، وأبى صدقة ، وأبى الشبل . وينقل أخبار الندماء عن أبى الفرج

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١ .

(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة .

الإصفهانى ، لكنه قبل أن ينقل أخبارهم ، يبدأ فى التعريف بكل واحد منهم تعريفا يكاد يكون مفصلا .

لكن الإفراط فى المزاح مكروه ، ولابد للمرء أن يقتصد فيه قدر الإمكان . فقد روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « من مزح استخف به » وقال بعض البلغاء : « من كثر مزحه لم يسلم من استخفاف به أو حقد عليه » .

ونقل قول أبى الفتح البستى :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالهَمِّ رَاحَةً ... تُرَاحُ ، وعَلِّلْهُ بِشَىءٍ مِنَ المَزْحِ
ولَكِنْ إذَا أَعْطَيْتَهُ الْمَزْحَ فَلْيَكُنْ ... بِمِقْدَارِ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ المِلْحِ

اعتذار رقيق :

لكن النويرى — برغم حرصه الشديد على عدم الإتيان — حتى فى هذا الباب ، باب المجون — بشىء فيه إساءة أدب ، لا يستطيع أن يخرج منه كما دخل فيه دون أن يقع — بمقاييسه هو — فى خطيئة تستوجب الاستغفار ، فقد أورد فى آخر باب المجون أشعارا ، ظن — بمقاييسه الأدبية والنقدية — أنها تنطوى على إساءة أدب ، فى حين أننا إذا نظرنا إليها نجدها أشعارا لا تنطوى على مجون فاضح أو إساءة أدب ، من وجهة نظرنا على الأقل ، وسوف نناقش هذا الموضوع فى الجزء الخاص بالثقافة النقدية .

فى الخمر وما قيل فيها من جيد الشعر ، وما قيل فى وصف آلاتها . . الخ :

بدأ حديثه عن الخمر ببحث فقهى وتاريخى من الدرجة الأولى استخدم فيه مقدرته ومهارته فى الحديث الشريف ، والفقه والتاريخ ، والأدب ، واللغة .

ولقد عرّف الخمر فى أول البحث ، ثم انتقل إلى الآيات القرآنية الشريفة الواردة فى الخمر ، وكيف تدرج الأمر بتحريمها من الإباحة إلى الكراهة ،

ثم بين أسباب نزول قول الله عز وجل فى النهاية بتحريمها . وانتقل بعد ذلك إلى السنة النبوية ، فبين الأحاديث الواردة فى تحريم الخمر .

وباعتباره من أهل الفقه والحديث ، لم يشأ أن يترك شيئاً من هذا الأمر معلقاً، فناقش قضية لصيقة بموضوع تحريم الخمر ، وهى قضية إباحة الخمر لعلاج بعض الأمراض فقال : « وأما من زعم أنها تباح للتداوى بها ، فيرد عليه ذلك ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن طارق ابن سويد الجعفى سأل النبى — صلى الله عليه وسلم — عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها ، وقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : « إنها ليست بدواء ولكنها داء »(١) ،واستدل النويرى على أن الخمر محرمة فى جميع الأحوال بأحاديث أخرى فى هذا الباب .

لكن المطبوخ الذى يسمى الطلاء « وهو الذى طبخ حتى ذهب ثلثاه ، وبقى ثلث » ليس بحرام عند أكثر العلماء ، ويتحدث عن أوامر أصدرها كل من عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز — رضى الله عنهما — فى شأن الطلاء ، ويتعرض المؤلف إلى ما ذهب إليه جماعة من أهل العراق فى تحليل الطـــلاء .

ومهما يكن من أمر ، فإن للخمر آفات وجنايات كثيرة،لأنها أمّ الكبائر ، « وأول آفاتها أنها تذهب العقل ، وأفضل ما فى الإنسان عقله ، وتحسن القبيح وتقبح الحسن ، قال أبو نواس الحسن بن هانىء ، عفا الله عنه ورحمه وغفر له ما أسلف :

اسْقِنِى حَتَّى تَرَانِى حَسَنًا عِنْدِىَ القَبِيحُ »(٢)

ولما يكن النويرى صاحب كأس ، ولا شارب خمر ، ولا نديما للشاربين فقد ترك من اشتهر بشرب الخمر من الشعراء والأدباء يحدثنا عنها وعن آفاتها .

---

(١) انظر نهاية الأرب ، ٤ : ٨٢-٨٣ .

(٢) نهاية الأرب ٤ : ٨٣ .

على أن ضرر الخمر الاجتماعى كبير « فمن آفاتها افتضاح شاربها بريحها عند من يحتشم منه ويتقيه ويخافه ، فلا يستطيع مع وجود ريحها إنكار شربها ، والولاة تحد بالاستنكاه ، لأن خمارها يثبت فى الفم اليوم واليومين بعد تركها » (١) .

وإذا كانت إمكانات النويرى من النواحى الفقهية والتاريخية، واللغوية، والنقدية ، قد ظهرت من خلال هذا البحث ، فلا بد إذن للجانب العلمى أن يظهر ، وقد بدا هذا الجانب واضحا عندما عرض ما يفعله من يشرب الخمر تحايلا على قطع ريحها من الفم ، وما صنعوه من أدوية يستعملونها بعد شربها، « فأجود ما صنعوه من هذه الأدوية أن يؤخذ من المر والبسباسة (٢) والسعد (٣) والجناح (٤) ، والقرنفل أجزاء متساوية ، وجزءان من الصمغ ، ويدق فى ذلك ويجبل (٥) بماء الورد ، ويستعمل منه فإنه يقطع رائحة الخمر من الفم » . ولا ينسى أن يبين أنه ليس صاحب تجربة فى هذا الأمر فيضيف قوله . . . « كما زعموا » (٦) .

ثم ينتقل بعد ذلك إلى التعريف بأسماء الخمر فى مراحل صناعتها المختلفة « من حين تعصر إلى أن تشرب » ويبين أصل اشتقاق كل اسم من تلك الأسماء .

وقد ترفع عن الخمر وتنزه عنها فى زمن الجاهلية رجال من أشراف العرب ، بينما حدّ فيها من الأشراف فى الإسلام رجال ، كالوليد بن عقبة ابن أبى معيط ، أخى عثمان بن عفان لأمه (٧) ، وكعبيد الله بن عمر ابن

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ٨٥ .
(٢) البسباسة : قشر جوز الهند .
(٣) السعد : نبات له أصل تحت الأرض أسود طيب الرائحة .
(٤) الجناح : نبات طيب الرائحة .
(٥) يجبل : يرش .
(٦) نهاية الأرب ٤ : ٨٥-٨٦ .
(٧) أورد النويرى قصته فى الفن الخاص بالتاريخ .

الخطاب الذى جلده أبوه حداً لشربها ؛ وعبدالرحمن بن عمر بن الخطاب الذى حده أبوه فمات تحت الحد .

وأما من شربها واشتهر بها ، فهم جماعة من الأكابر والأعيان ، والخلفاء ، ذكر منهم النويرى عددا من خلفاء الأمويين والعباسيين ، وعددا من القضاة والندماء .

ثم يعرج النويرى على أبى نواس الحسن بن هانىء ممن اشتهر بالشراب واللهو والطرب ومنادمة القيان . « وله فى الخمر تشبيهات حسنة ، وحكايات ظريفة ونذكر هاهنا من أخباره طرفا »(١)،ويأتى بحكايات عن أبى نواس تتخللها أشعار له فى الخمر . ثم ينتقل بعد ذلك إلى عرض سريع لأشعار بعض من اشتهر بشرب الخمر من الأدباء والشعراء ، كالثروانى الذى « كان شاعرا مطبوعا بليغا ، من أهل الخلاعة المشهورين » . . وأبى عبد الرحمن العطوى : « كان شاعرا فصيحا ، لا يكاد يتقدمه أحد بجزالة ألفاظه ، وحلاوة معانيه ، وكان مولعا بالخمر ، مشتهرا بها ، مدمنا عليها ، أكثر أشعاره فيها » . ومنهم « أبو هفان ، وكان شاعرا محسنا ، وخليعا ماجنا » (٢) .

فهؤلاء الشعراء وغيرهم ، اجتمع فيهم — فى رأى النويرى — ضدان : حلاوة اللفظ وطلاوة المعنى ، وبلاغة الطبع ، مع المجون والخلاعة .

والأدب العربى يشتمل على شعر فائق رائق فى كل ما يتعلق بالخمر ، « فقد أوسع الشعراء فى هذا المعنى ، وأطنبوا فيه ، وتنوعوا ، فمنهم من مدحها ، ومن وصفها وشبهها ، ومنهم من ذكر أفعالها وتغزل فيها . . . » .

ويورد النويرى طائفة من الأشعار فى هذه الأغراض كلها ، قالها شعراء مشهورون ومغمورون ، كما قالها مجاهيل لم يذكر لهم أسماء . وينسحب

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ٩٧ .
(٢) راجع ٤ : ١٠٠—١٠١ .

القول إلى ما قيل فى مبادرة اللذات ومجالس الشراب ، وما قيل فى وصف آلات الشراب وأوانيها من زقاق وأباريق وكؤوس .

فى الندمان والسقاة :

يتبع النويرى الباب السابق فى الخمر بباب خامس لصيق به ، فى النديم والساق . لكنه فى هذا الباب الخامس لم يبد رأيا ، ولم يضف شيئا من عنده إنما اقتصر جهده كله على الانتخاب والاختيار .

ويبدأ بنقل قول سهل بن هارون : « ينبغى للنديم أن يكون كأنما خلق من قلب الملك ، يتصرف بشهواته ، ويتقلب بإرادته ، لا يمل المعاشرة ولا يسأم المسامرة ، إذا انتشى يحفظ ، وإذا صحا ييقظ ، ويكون كاتماً لسره ، ناشراً لبرّه » (١) .

ثم يذكر محاورة بين كاتب ونديم ، وينقل أقوالا نثرية فى الندمان لإسحاق بن إبراهيم الموصلى ، والحجّـاز ، ويعرج بعد ذلك على الشعر فيقتطف مقتطفات من أقوال بعض الشعراء كأبى هلال العسكرى الذى يقـــول :

مَا أَعَافُ النَّبِيذَ خِيفَةَ إِثْـــمٍ ... إِنَّما عِفْتُهُ لِفَقْدِ النَّدِيـــمِ
لَيْسَ فى اللَّهْوِ والمُدَامَةِ حَظٌّ ... لِكَرِيم دُونَ النَّدِيم الكَرِيمِ
فَتَخَيَّرْ قَبلَ النَبيذ نديمـــاً ... ذا خِلالٍ معطَّرات النَّسيمِ

ولا يجد مؤلفنا بأسا من أن ينقل بيتين لعبد الرحمن العطوى ، سبق أن أوردهما فى باب « الخمر » ، وهما :

أُخْطُبْ لكأسك نَدمانًا تُسَرُّ به ... أَوْ لا فَنَادِمْ عليها حكمةَ الكُتُبِ
أَخطُبْه حُرًّا كريماً ذا محافَظَـــةٍ ... ترى مودَّتَه من أقربِ النَّسَبِ

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١٢٦ .

لكن هناك من كره النديم وآثر الانفراد ، « قال إبراهيم الموصلى – عفا الله تعالى عنه ورحمه :

دخلت يوما على الفضل بن يحيى فصادفته يشرب وعنده كلب ، فقلت له : تنادم كلبا ! ! قال : نعم ، يمنعنى أذاه ، ويكف عنى أذى سواه ، ويشكر قليلى ، ويحفظ مبيتى ومقيلى . وأنشد :

وأَشْرَبُ وَحْدِى مِنْ كَرَاهَتِىَ الأَذَى مَخَافَةَ شَرٍّ أَوْ سِبَابِ لَئِيمِ

انتهى واستغفر الله العظيم » .

ومما قيل فى السقاة « قول الصنوبرى عفا الله عنه » :

وَمُوَرَّدُ الْخَدَّيْنِ يَخْـ ـطِر حينَ يخطر فى موردْ

يَسْقِيكَ من جِفْنِ اللُّجَيْـ ـنِ إذا سقاك دموعَ عَسْجَدْ

حتى تَظنَّ النَّجم ينـ ـزِلُ أو تظنَّ الأَرْضَ تصعَدْ

فإذا سقاكَ بعينـه وبفيه ثمّ سقاك باليَـدْ

حَيّاك بالياقوتِ ثُمّ الـ ـدرّ من تحتِ الزَّبَرْجَدْ (١)

وينهى النويرى هذا القسم الخاص بالندمان بقوله :

« انتهى واستغفر الله العظيم » (٢)، كأن هذه الأشعار عبء ثقيل على نفسه ، اقتضى المقام إيراده وهو كاره، وهو يستغفر الله العظيم لما فعل .

ثم ينتقل إلى إيراد ما قيل فى السقاة ، وينهج نفس نهجه السابق فى الندمان ، وهو يأتى بأشعار لبعض الشعراء يصف ساقيا وساقية ، وبعضهم يصف ساقية ، لكنه يتحرى الدقة فى اختيار هذه الأشعار .

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١٢٩ .
(٢) أيضا .

قال المعوّج يصف ساقية :

لا عيش إلا من كفّ ساقيةٍ ذاتِ دلالٍ فى طَرْفِها مَرَضُ
كأنّما الكأسُ حينَ تمزُجُها نجومُ ليلٍ تعلو وتَنْخَفِضُ

فليس فى هذه الأشعار شىء يعاب بمقاييس النويرى - فيما يبدو - إلا أنها قيلت فى مناسبة تتعلق بأم الكبائر ، وهى الخمر .

على أن النويرى لا يطلب المغفرة لنفسه فقط بسبب إيراده هذه الأشعار ، وإنما يطلب المغفرة أيضاً لبعض قائليها من الشعراء : « وقال أبو عبادة البحترى عفا الله عنه » ، « فمن ذلك قول الصنوبرى ، عفا الله عنه » ، « وقال أبو القاسم الهبيرى الكاتب رحمة الله تعالى عليه » (١) .

الغنـــاء والسماع :

ثم يلى ذلك الباب الخامس باب سادس فى الغناء والسماع ، ويستعرض النويرى فى صدر هذا الباب الموضوعات التى سيناقشها فيه . ويبدو لنا من هذا الاستعراض أن النويرى قد أجمع رأيه على أن يدخل إلى الغناء بمدخل يختلف عن مدخل أبى الفرج الإصفهانى فى الأغانى ، فإذا كان أبو الفرج قد بدأ كتابه بالحديث مباشرة عن الغناء بأن ذكر فى مستهل كتابه أخبار المائة صوت التى اختارها المغنون للرشيد ، فإن النويرى رأى أن يتريث أولا ويتوقف لينظر فى شأن الغناء ، حلال هو أم حرام ؟ ومن الذى قال بحرمته ، ومن ذا الذى قال بحله ؟ وأى الآراء أرجح ؟ وهذا الذى فعله النويرى يتوافق مع مذهبه الأدبى على كل حال .

كان أول الموضوعات التى عرض لها فى هذا الباب موضوع ما ورد فى الغناء من الحظر والإباحة ، فعرض اختلاف الآراء فى الغناء . وهى الآراء التى تباينت بين الإباحة المطلقة أو الإباحة المقيدة ، والكراهة والإنكار ،

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ .

وبين التحريم.وعمد المؤلف بعد ذلك إلى ما استدل به من قال بتحريم الغناء من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين والأئمة من علماء المسلمين :

ثم انتقل إلى الموضوع الثانى : وهو ذكر ما ورد فى إباحة الغناء والسماع والضرب بالآلة . . . فلقد « تكلم الناس فى إباحة الغناء وسماع الأصوات والنغمات والآلات . . . وأباحوا ذلك ، واستدلوا عليه ، وضعفوا الأحاديث الواردة فى تحريمه وتكلموا على رجالها وجرحوهم ، وبسطوا فى ذلك المصنفات ،ووسعوا القول وشرحوا الأدلة، وطالعت من ذلك عدة تصانيف فى هذا الفن مجردة له ومضافة إلى غيره من العلوم » (١) .

غير أن النويرى اختار فى النهاية تصنيفاً واحداً من تلك التصانيف ، للشيخ الإمام الحافظ أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى واعتمد عليه اعتماداً رئيسياً فى كتابة هذا الباب ، لكنه لم ينقل منه نقلا حرفياً ، وإنما عول على أن يأتى منه بمختصره ومعناه فقط . (٢) .

والواقع أن التلخيص الذى أورده النويرى لكتاب الشيخ ابن طاهر المقدسى ، يعد تلخيصاً ممتازاً مركزاً ، فقد أورد فيه الأحاديث الصحيحة الواردة بإباحة الغناء ، والضرب بمختلف الآلات الموسيقية التى كانت معروفة فى عهد النبى — صلى الله عليه وسلم — أو التى عرفت بعد عهده .

ثم أتى بالأحاديث النبوية التى احتج بها من قال بتحريم الغناء ، وأخذ ينقدها من حيث سندها ورجالها ، فلم يترك حديثاً من تلك الأحاديث إلا وتكلم فى رجاله ، معتمداً على ما كتبه طائفة من علماء الجرح والتعديل ، كأبى حاتم بن حسان مؤلف « كتاب الضعفاء والمتروكين » ، وأحمد بن عدى الجرجانى (توفى ٣٦٥) صاحب كتاب « الكامل فى معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث » ، وغيرهما .

ويتبين من عرض النويرى — الذى استعان فى كتابته بكتابات أخرى

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١٣٧ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

للثعلبي والغزالي — إلى جانب كتاب الحافظ أبي الفضل المقدسي — أن مصنفنا يميل إلى الرأى القائل بإباحة الغناء والضرب بالآلات ، ويؤيد ما ذهب إليه الأئمة بعدم تحريمه ، وإن كان يرى عدم الإفراط فى الغناء أو الاستكثار منه ، فلقد نقل قول الإمام الشافعي — رضى الله عنه — فى كتاب « أدب القضاة » : « من استكثر من الغناء فهو سفيه ترد شهادته » (١) .

وينتقل بعد ذلك إلى موضوع « السماع » ، فيعتمد فى القول بإباحته على الإمام أبي حامد محمد الغزالى الطوسى ، الذى أورد فيه أقوالا كثيرة استدل بها على إباحته .

وقد نقل النويرى هذه الأقوال من كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالى ، واستطرد بعد ذلك فى الإفادة من ذلك الكتاب فى بيان آداب السماع وآثاره فى القلب والجوارح .

ولا يكتفى بذلك ، بل ينقل رأياً آخر لإمام الظاهرية أبي محمد على بن محمد بن سعيد بن حزم ، الذى ذكر مسألة السماع واستدل على إباحته . ولم يكن ابن حزم وحده هو الذى ذهب هذا المذهب بل « قد تكلم على إباحة السماع جماعة من العلماء . وفيما أوردناه من هذا الفصل كفاية » (٢) .

ويعرض النويرى بعد ذلك لأخبار من سمع الغناء من الصحابة والتابعين — رضى الله عنهم — ومن الأئمة والعباد والزهاد ، معتمداً فى إيراد هذه الأخبار فى الغالب الأعم على الحافظ أبي الفضل محمد بن طاهر المقدسى ، فى كتابه المذكور آنفاً ، وكذلك أبي طالب المكى فى كتابه المعروف : « قوت القلوب » ويأخذ بعض هذه الأخبار عن الأغانى لأبي الفرج الإصفهانى .

إلا أنه يبدأ فى الاعتماد اعتماداً يكاد يكون كلياً من أول الفصل الذى خصصه لذكر من غنى من الخلفاء وأبنائهم (٣) على أبي الفرج الإصفهانى

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١٣٦ .

(٢) نهاية الأرب ٤ : ١٩٠ .

(٣) نهاية الأرب ٤ : ٢٠٠ ، ولكنه يعود فينقل عن الحافظ أبي الفضل المقدسى فى الفصل الخاص بذكر من غنى من الأشراف والعلماء رحمهم الله .

فى كتابه الأغانى ، وهو يذكر بعد ذلك من غنى من الأعيان والأكابر ، والقواد ممن نسبت لهم صنعة فى الغناء . وينقل فى تلك الأخبار بعض الأشعار التى صنع فيها المغنون الأصوات والألحان المختلفة .

لكنه يبدو وكأنه يأتى بهذه الأخبار عن المغنين وبأشعارهم كرها لا طوعاً ، وجبراً لا اختياراً ، وربما ظن أن كتابه لن يكتمل ، ويتحقق له النجاح إلا إذا أتى بهذه الأخبار والأشعار ، وهو حريص على إنجاح كتابه ، لكنه فى الوقت نفسه يخشى الإثم ويخاف اقتراف الذنب .

ولذلك نجده فى نهاية هذا الفصل يكتب جملة تدل على تلك النوازع المتناقضة التى تختلج فى نفسه ، وتعتمل فى وجدانه فيقول : « وأستغفر الله العظيم » (١) .

ويقدم النويرى دراسة اعتمد فيها على الإصفهانى فى تاريخ الغناء العربى ، وكيف انتقل من الفارسية إلى العربية ، ويستهل هذه الدراسة بقوله :

« والغناء قديم فى الفرس والروم ، ولم يكن للعرب قبل ذلك إلا الحداء والنشيد ، وكانوا يسمونه « الركبانية » ، وأول من نقل الغناء من العجمى إلى العربى من أهل مكة « سعيد بن مسجح » ، ومن أهل المدينة « سائب خاثر » ؛ وأول من وضع الهزج « طويس » ، ولنبدأ بذكر أخبار هؤلاء ، ثم نذكر من أخذ عنهم إن شاء الله تعالى » .

وإذا كان أبو الفرج قد صب اهتمامه أساساً على التعريف بالأصوات المائة التى اختارها المغنون للرشيد ، فلم يرتب كتابه ترتيب الطبقات ، وذكر الأغانى بأخبارها (٢) ، فإن النويرى لم يلق بالا إلى الأصوات ، وإنما اهتم بالمغنين والإشارات الأدبية ، والتاريخية ، والفنية التى وردت بشأن كل واحد منهم ، ثم انتقل إلى القينات والمغنيات ومن اشتهر منهن بالغناء فى بلاط الخلفاء .

---

(١) نهاية الأرب ، ٤ : ٢٣٨ .

(٢) راجع الأغانى، طبع بيروت (١٣٩٠ هـ) عن طبعة بولاق الأصلية، المقدمة ص ٣ .

ومن الواضح أن النويرى اعتمد كل الاعتماد فى استقاء مادته العلمية عن هذا الموضوع على كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الإصفهانى ، لكنه كان يتصرف كثيراً ، ولا يقتصر على الاقتباس الحرفى(١) ، وإنما يعمد إلى إشباع المادة التاريخية بمزيد من الأخبار التى ترد فى الأغانى . (٢)

وحتى فى اختيار المغنيات يحرص على انتقاء الروايات ونقل الأخبار التى تخدم فكرته ، ويتفق ومذهبه ، ويركز عليها ، ويحرص على لفت الأنظار إليها ، مثلما فعل عندما أورد أخبار « سلامة القس » ، التى أحبها وشغف بها رجل كثير العبادة من قراء أهل المدينة ، سمى لكثرة عبادته باسم القس ، فعرفت سلامة به ، وما لبثت أن أحبته بدورها ، وباحت بحبها له ، ولكنه لم يشأ أن يقربها وقال : يمنعنى منه قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » فأنا أكره أن تحول مودتى إياك عداوة يوم القيامة . ثم قام وانصرف وعاد إلى ما كان عليه من النسك . (٣) .

والنويرى حريص على ألا يكرر الروايات فى الخبر الواحد كما يفعل أبو الفرج إنما هو يكتفى برواية واحدة تدل على المعنى توخياً للاختصار ، يقول فى أخبار جميلة المغنية : « وأخبار جميلة كثيرة ، فقد ذكر منها أبو الفرج الإصفهانى جملة تدل على أنها كانت مبجلة عند الأشراف ... وفيما قدمناه دلالة على ذلك . والله أعلم » (٤) .

عدة المغنى وصفة الغناء والقيان :

ومثلما فعل فى الخمر عندما أتى بما قاله الشعراء فى وصف آلاتها من إبريق ، وكأس وغيره ، وجد أنه يتعين عليه أن يأتى بوصف آلات الغناء

---

(١) قارن مثلا فى أخبار طويس: النويرى ٤ : ٢٤٦، أبا الفرج ٢ : ١٧٠ وأخبار ابن فليح العوراء : النويرى ٤ : ٣٢٦ ، أبا الفرج ٤ : ٩٨-٩٩ .

(٢) قارن مثلا أخبار عائشة بنت طلحة، النويرى ٤ : ٢٧٢، الأغانى ١٠ : ٥٤ ومابعدها .

(٣) النويرى: نهاية الأرب ٥ : ٥٣، وانظر القصة مع اختلاف يسير فى اللفظ فى الأغانى ٨ : ٦ وما بعدها .

(٤) نهاية الأرب ٥ : ٥٠ .

والطرب أيضاً ، فخصص باباً لهذا الغرض ، لكنه أضاف إلى هذا الباب أغراضاً أخرى ، وجعله بعنوان : فيما يحتاج إليه المغنى ويضطر إلى معرفته ، وما قيل فى الغناء ، وما وصفت به القيان ، ووصف آلات الطرب .

وهو يعتمد فى جمع مادة هذا الباب على جهده هو فى اختيار الأقوال والأشعار التى قيلت فى هذه الأغراض من أقوال القائلين ، ودواوين الشعراء ، ولم يعتمد على كتاب معين ، فليس لهذا الباب نظير — فيما نعلم — حتى فى كتاب الأغانى ، الذى تخصص فى هذا اللون من الأدب . ولذلك كان على مصنفنا أن يبذل جهده فى جمع ما يندرج تحت هذه الأغراض من دواوين الشعراء .

ويأتى فى أول هذا الباب بتعريف للمحسن المصيب من المغنين : (١) « وهو الذى يشبع الألحان ، ويملأ الأنفاس ، ويعدل الأوزان، ويفخم الألفاظ ، ويعرف الصواب،ويقيم الإعراب ، ويستوفى النغم الطوال ، ويحسن مقاطع النغم القصار ، ويصيب أجناس الإيقاع ، ويختلس مواضع النبرات ، ويستوفى ما يشاكلها من النقرات » .

ثم ينتقل إلى إيراد بعض الأشعار التى قيلت فى وصف القيان قديماً وحديثاً، وكذلك فى وصف آلات الطر ب ، وينقل قطعة لأبى الفتح محمود المعروف بكشاجم ، نظمها فى قول الحكماء : إن العود — الآلة الموسيقية — مركب على الطبائع الأربع :

شَدَتْ فَجَلَتْ أسماعَنا بمُخَفَّفٍ ... يُحَدِّثُها عن سِرِّها وتُحَدِّثُـهْ

مُشَاكِلَةٌ أوتارُهُ فى طِبَاعِهـا ... عَنَاصِرَ منها أحدث الخَلْقَ مُحْدِثُهْ

فللنَّار منه الزِّيرُ والبَمُّ أَرْضُـهُ ... وللرِّيح مَثْنَاهُ ولِلْمَاءِ مَثْلَثُـهْ

وكلُّ امرىءٍ يرتاحُ مِنْهُ لِنَغْمَةٍ ... على حَسَبِ الطَّبْعِ الذَّى منه يبعثُهْ

---

(١) نقله عن مالك بن السمح ، ٥ : ١١٣ .

وهكذا ، بدا لنا النويرى فى الأبواب المتعلقة بالغناء يتبع نفس النهج الذى اتبعه فى أبواب المجون ، والخمر ، والندمان ، والسقاة ، ويصدر عن نفس النظرة المتحرجة إلى مثل هذه الفنون ، ويعمل جهده على تقريب ما استطاع منها إلى الشرع ، وتخليص ما قيل فيها ، من نثر وشعر ، من مظاهر الفسوق وشواهد العناد والعصيان .

* * *

الفصل الثانى

الكتابة فى نهاية الأرب

لقد أراد النويرى أن يقدم خبرته فى مجال الكتابة لقارئه عامة ، ولمعشر الكتاب بصفة خاصة ، وهو لا يضن بأية نصيحة ، فإن الدين عنده النصيحة لله ولرسوله ، ولعامة المسلمين ، ويحب لأخيه العامل فى مجال الأدب عامة ، والكتابة خاصة، ما يحب لنفسه، فلا يترك شاردة ولا واردة إلا أتى بها . ووضعها أمام الكتاب،على اختلاف تخصصاتهم وتنوع مشاربهم لينتفعوا بها . ولا يدع بابا أهمله الأدباء والكتّاب ولم يؤلفوا فيه، وكانت له فى مجاله خبرة سابقة أو دراية سالفة إلا ووضع خلاصة خبرته وعصارة تجربته أمام الكاتب ليتخذه دليلا فى صنعته . ثم إنه يأتى إلى كل فرع من فروع الكتابة ، فيتلمس ما ألف فيه من كتب، وينتقى أفضلها وأقربها إلى تناول الكتّاب ويتخذها مصدراً رئيسياً يعتمد عليها فى تبيان أبواب هذا الفرع فصوله ، وشعبه ودقائقه .

لذلك كان « أدب الكاتب » فى كتابه نهاية الأرب من أهم الأبواب وأكثرها أصالة ونفعاً ، وأوفرها حظاً من عناية النويرى وتوفره .

ومن ثم بلغت الأجزاء التى ألف فيها عن الكتابة ما يقرب من ثلاثة أجزاء ، إبتداء من الجزء السابع حتى منتصف التاسع .

تعرض المصنف للكتابة ، وأعطاها أهمية بالغة حيث أتى بكل ما يستطيع أن يقدمه للكاتب من نصائح وإرشادات يستطيع الاستعانة بها عند الكتابة ، أو عندما يتعرض لأى موقف من المواقف .

وقد قسم الكتابة إلى مجموعة من الأقسام الرئيسية بحسب من يحترفونها ، هذه الأقسام هى : كتابة الإنشاء — كتابة الديوان والتصرف ، كتابة الحكم والشروط ، كتابة النسخ ، كتابة التعليم .

وقد ذكر المؤلف قسماً آخر من أقسام الكتابة ، وهو كتابة الشرط ، إلا أنه لم يشأ أن يضمن كتابه هذا النوع من الكتابة ، تنزيهاً لكتابه ، وأنه رأى أن لا فائدة ولا حكمة فى إيرادها . يقول : « . . . ومنهم من عد فى الكتابة ، كتابة الشرط ، ولم نرد ذكرها تنزيهاً لكتابنا عنها ، ولا حكمة فى إيرادها » (١) .

وقد تناول المصنف كل قسم من هذه الأقسام بالدراسة والتوضيح ، وما يتوافر فى كل قسم من صفات وشروط . فعند ذكره لكتابة الإنشاء مثلا تحدث عما اشتملت عليه من البلاغة والإيجاز ، والجمع فى المعنى الواحد بين الحقيقة والمجاز والتلاعب بالألفاظ والمعانى ، والتوصل إلى بلوغ الأغراض . (٢) وسنوضح فيما يلى الأقسام الرئيسية التى ذكرها النويرى للكتابة :

كتابة الإنشـــــاء :

ويبدأ بتناول الصفات الجسمانية التى يجب أن تتوفر فى الكاتب . ثم ما ينبغى أن يأخذ به نفسه ، وأول ذلك ، حسن الخط الذى هو لسان اليد ، وبهجة الضمير ، وسفير العقول ، ووحى الفكر ، وسلاح المعرفة ، وأنس الإخوان عند الفرقة ، ومحادثتهم على بعد المسافة ومستودع السر ، وديوان الأمور (٣) .

وقد فصل الحديث فى كل هذه الأمور التى يجب أن تتوفر فى كاتب الإنشاء ، موضحاً كلامه باقتباس أقوال مشاهير الكتاب والحكماء ،

(١) نهاية الأرب ، ٧ : ٤ .
(٢) انظر ، نهاية الأرب ، ٧ : ٤ — ١١ .
(٣) نفس المصدر ٧ : ١٣ .

وبإيراد بعض الأبيات الشعرية التى تؤيد فكرته . فمثلا حين تحدث عن حسن الخط وجودة الكتابة ، اقتبس قول على — رضى الله عنه — : « الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً » و « حسن الخط إحدى البلاغتين » . ويستشهد بشعر لأبى هلال العسكرى :

الكُتْبُ عَقْل شَوَارد الكَلِمِ   والخطُّ خَيْطٌ فى يد الحَكَمِ
والخطُّ نظمُ كلِّ مُنْتَشِرٍ   مِنْهَا ، وفصلُ كلِّ مُنْتَظِمِ
والسَّيفُ وهو بحيثُ تَعرِفُه   فرضٌ عَلَيهِ عبادةُ القَلَـمِ

ومن شدة اهتمام النويرى بالكتابة وحسن الخط ضمن كتابه الحديث عن آلات الكتابة التى يجب أن يستخدمها الكاتب ويحسن استعمالها ، وما خص به الكتّـاب القلم من أوصاف كثيرة ، ومزايا كبيرة ، مثلما فعل العتابى الذى قام بوصف أى الآلات أصلح للكتابة عندما سأله الأصمعى عن ذلك . ورسالة لطيفة لعلى بن الأزهر كتبها إلى صديق له يستدعى منه أقلاماً ، فكتب إليه ينصحه باستخدام نوع من الأقلام الجيدة وهو : الأقلام الصحرية (١) .

ولم يكتف بذكر الرسائل التى تضمنت الكثير من النصائح للكتاب فى استخدام الأنواع الجيدة من الأقلام وغيرها من أدوات الكتابة ، وإنما نقل أيضاً الكثير من الأشعار التى تصف القلم قالها شعراء مثل أبى تمام ، وابن المعتز وابن الرومى وغيرهم من الشعراء ، يقول ابن الرومى :

إن يخدم القلمَ السيفُ الذى خَضَعتْ   له الرِّقابُ ودانتْ خَوفَه الأُمَمُ
فالموتُ والموتُ لا شىءٌ يُغالبُه   ما زال يَتْبَعُ ما يَجرى به القَلَمُ
كذا قضى اللهُ للأَقلامِ مُذْ بُرِيَتْ   أنَّ السيوفَ لها مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٢١ .

وصاياه للكاتب :

ولأن النويرى كان صاحب تجربة فى مجال الكتابة – كما قدمنا – فهو لا ينسى أن يقدم خلاصة تجربته فى صورة وصايا للكاتب . غير أن هذه الوصايا قد سبق لغيره أن كتبها ، لا سيما قدامة بن جعفر فى كتابه « نقد الشعر » (١) ، وغيره من الأدباء والنقاد .

ولقد استحسن النويرى الوصايا التى كتبها معاصره وصديقه الحلبى فى « حسن التوسل » ، فنقلها بعد أن اختصرها ووضع النقاط على الحروف فيها ، وقدمها موجزة محددة لكى يستفيد الكتّـاب بهذه الطريقة .

وهو يرى – تبعاً للحلبى – أن هناك أموراً كلية يجب على الكاتب معرفتها والإلمام بها. وأموراً أخرى خاصة وإن كان الكاتب المتمكن لا يضطر إليها . إلا أن معرفتها تزيد من قدره .

أما الأمور الكلية ، وهى التى يتعين على الكاتب معرفتها فهى : حفظ كتاب الله ، وتدبر معانيه « حتى لا يزال مصوراً فى فكره ، دائراً على لسانه ، ممثلا فى قلبه ، ذاكراً له فى كل ما يرد عليه من الوقائع التى يحتاج إلى الاستشهاد به فيها ، ويفتقر إلى إقامة الأدلة القاطعة به عليها » (٢) .

ومنها أيضاً : معرفته بالأحاديث النبوية الشريفة لأن الفصاحة « إذا طلبت غايتها ، فإنها بعد كتاب الله ، فى كلام من أوتى جوامع الكلم » (٣) .

وعلى الكاتب أيضاً أن يقرأ كتب النحو ، فإنه « لو أتى من البلاغة بأتم ما يكون ولحن ، ذهبت محاسن ما أتى به ، وانهدمت طبقة كلامه . . .» (٤)

ويتعين عليه أيضاً : حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم « لما فى

---

(١) انظر ، قدامة : نقد الشعر ، ص ٥٧ .
(٢) نهاية الأرب ٧ : ٢٨ .
(٣) نهاية الأرب ٧ : ٣١ .
(٤) أيضاً ، نفس الجزء والصفحة .

ذلك من معرفة الوقائع بنظائرها ، وتلقى الحوادث بما شاكلها ، والاقتداء بطريقة من فلج على خصمه . . . . » (١) .

ثم عليه أيضاً النظر فى أيام العرب ، وفى التواريخ ، ومعرفة أخبار الدول ، « لما فى ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياستهم ، وذكر وقائعهم . . . فإن الكاتب قد يضطر إلى السؤال عن أحوال من سلف ، أو يرد عليه فى كتاب ذكر واقعة بعينها ، أو يحتج عليه بصورة قديمة فلا يعرف حقيقتها من مجازها . . . » (٢) .

كما يجب على الكاتب أيضاً : حفظ أشعار العرب ، ومطالعة شروحها « لما فى ذلك من غزارة المواد ، وصحة الاستشهاد والاطلاع على أصول اللغة ونوادر العربية . . . » (٣) .

كما عليه أيضاً النظر فى رسائل المتقدمين ، والأمثال الواردة عن العرب ، والأحكام السلطانية .

هذه هى الأمور الكلية التى يجب على الكاتب حفظها والإلمام بها ، والتصدى للاطلاع عليها ، والإكباب على مطالعتها والاستكثار منها « لينفق من تلك المواد ، وليسلك فى الوصول إلى صناعته تلك الجواد ، وإلا فليعلم أنه فى واد والكتابة فى واد » (٤) .

أما الأمور الخاصة ، التى عدها المؤلف من المكملات لفن الكتابة ، فهى علوم البلاغة « المعانى — والبيان — والبديع » ، فالعالم بهذه العلوم « متمكن من أزمة المعانى ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسن ويصوغ الكلام بترتيب » (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٣١ .
(٢) ٧ : ٣٢ .
(٣) أيضاً .
(٤) أيضاً : ٧ : ٣٥ .
(٥) ٧ : ٣٥ .

وقد تعرض المؤلف لشرح هذه العلوم بالتفصيل ، وأتى بآراء كثير من علماء البلاغة ، مبيناً وموضحاً بكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والأشعار والأمثال ، مما سنوضحه عند حديثنا عن البلاغة إن شاء الله.

والنويرى حريص دائماً على أن يصل الكاتب إلى أعلى درجات الإجادة ، فهو لا يقف عند هذا الحد من الأمور الكلية والخاصة التى يجب على الكاتب أن يلم بها ، وإنما قدم له ما يتعين عليه استعماله والمحافظة عليه ، وما يجوز استعماله فى الكتابة وما لا يجوز ، حيث نقل آراء العلماء والأدباء فى هذا الصدد أمثال : إبراهيم بن محمد الشيبانى ، وابن عبد ربه ، والحلبى مقدمين له النصائح القيمة ، منها وجوب مراعاة أن لكل مقام مقالا ، ومخاطبة كل طبقة من الناس على قدر عقولهم .

فهو ينقل مثلا قول إبراهيم الشيبانى : « فإن احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء ، والكتاب ، والأدباء والخطباء والشعراء ، وأوساط الناس وسوقتهم ، فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته . . . ولكل طبقة من هذه الطباق معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها فى مراسلتك إياهم فى كتبك . . . . الخ » (١) .

إذن ، فكل طبقة تحتاج إلى تميزها ، ومخاطبة كل صنف بما يلائمه ويناسبه ، فيصوغ المعانى ويستعمل الأسلوب الذى يناسب كل طبقة ، وينتقى الألفاظ الدالة الملائمة لكل صنف من أصناف الناس .

وكما أن لكل طبقة من طبقات الناس ما يناسبها من الكلام ، فإن لكل وقت وكل واقعة أيضا ما يناسبها فيتعين عليه اختيار الأسلوب الأصلح لكل مقام ، فينقل قول شهاب الدين محمود الحلبى : « ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه ، والتمسك به ، إعطاء كل مقام حقه ، فإذا كتب فى أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه ، وإلى مقدمى الجيوش والسرايا ،

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ١٨٥ .

فليتوخ الإيجاز ، والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد . . . ولا تهويل لأمر يحصل به الاغترار » (١) .

« وإذا كتب عن الملك فى أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء العدو ، فليبسط القول فى وصف العزائم ، وقوة الهمم ، وشدة الحمية للدين ، وكثرة العساكر والجيوش . . ويبرزه فى أمتن كلام وأجله وأمكنه ، وأقربه من القوة والبسالة . . . » (٢) .

وإذا كتب فى التهانى بالفتوح « فليس إلا بسط الكلام والإطناب فى شكر نعم الله ، والتبرؤ من الحول والقوة إلا به . . . » (٣)

ويستشهد المؤلف ببعض الرسائل التى قيلت فى كل مناسبة من هذه المناسبات سواء فى أوقات الحروب ، أو الانتصار ؛ تكون نموذجا للكاتب يستطيع الاطلاع عليها ، والاحتذاء بها عند تعرضه للكتابة فى مثل هذه المواقف .

فأعطانا نماذج للرسائل التى تصف السلاح ، وآلات الحرب وأوصاف السلاح ، ورسائل إخوانية ، مما سنوضحه عند حديثنا عن الرسائل إن شاء الله .

والنويرى حريص على أن تكون شخصية الكاتب متميزة دائما ، واضحة تمام الوضوح فى كتاباته ، لا تضيع وسط الاقتباس والحل(٤) ، أو الإكثار من ألوان البديع التى قد تملها النفوس وتعرض عنها ، يقول مقدما نصائحه للكاتب بألا يعتمد على الحل فى جميع كتاباته حتى لا يتعود « ويتكل خاطره على ذلك ، ويذهب رونق الطبع السليم . . . بل يكون

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) أيضاً ٧ : ١٩٠ .

(٣) أيضاً ٧ : ١٩٣ .

(٤) الحل هو هدم البيت المنظوم وحل فرائده ثم ترتيب تلك الفرائد ترتيباً دقيقا لم يحصره الوزن . . . انظر ، نهاية الأرب ٧ : ١٨٣ .

استعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفوا من غير تكلف ، كالشاهد على صحة الكلام » (١) .

هذه هي الشروط الواجب توافرها في كاتب الإنشاء . ويصرح المصنف أنه أورد في هذا الباب الخاص بكتابة الإنشاء كل ما يعين الكاتب ويساعده على ارتقاء مناصبه من كلام للصحابة ، ورسائل للفضلاء والأدباء ، وحكم لأوائل الحكماء ، يقول في نهاية حديثه عن باب كتابة الإنشاء :

« هذا ما اتفق إيراده في هذا الباب من أمر كتابة الإنشاء وكلام الصحابة والخلفاء ، وذوى الفصاحة من الأمراء ، وبلاغات الخطباء والفصحاء ، ورسائل الفضلاء والبلغاء ، وفقر الكتاب والأدباء ، وحكم أوائل الحكماء ، وهو مما يضطر الكاتب إليه ، ويعتمد في الاطلاع على ما خفي من أمر هذه الصناعة عليه ؛ وهي إشارات إلى مجموعها ، ورشفات من ينبوعها . . . » (٢) . وهو يقرر أن فيما أورده كفاية لمن يرغب في صناعة الكتابة . ويريد التوصل إلى مقاصدها يقول : « فقد وضح لك أيها الطالب السبيل ، وظهر لك أيها الراغب قيام الدليل ، وفيما أوردناه كفاية لمن تمسك بهذه الصناعة ورغب فيها ، وغنية لمن تأمل مقاصدها وتدبر معانيها . . . » (٣)

كتابة الديوان وقلم التصرف :

ويوضح المؤلف في بداية حديثة عن هذا النوع من الكتابة السبب الذى من أجله قدم كتابة الإنشاء على كتابة التصرف فيقول : « قدمنا ذكر كتّاب الإنشاء لما هم بصدده من الصدارة والوجاهة ، والنبالة والنباهة ، والفصاحة والصباحة ، والنزاهة والسماحة ، والأمانة والديانة . . .

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ١٨٤ - ١٨٥ .

(٢) نفس المصدر ٨ : ١٨٥ .

(٣) أيضاً .

ولما تصدوا له من كتم أسرار الدول . . وتحلوا به من صفات الأفاضل والأكارم . إلى غير ذلك من مناقبهم الجمة » (١)

ولأن النويرى كان صاحب تجربة فى مجال كتابة التصرف ، فقد باشر العمل بها فى طرابلس كما سبق أن ذكرنا ، فإنه يعود مرة أخرى ليبين فضلها ، وأنها لا تقل أهمية – إن لم تكن أكثر – عن كتابة الإنشاء .

وهو يعقد مقارنة بين هذين النوعين من الكتابة فبعد أن ذكر فضل كتابة الإنشاء ، يبين أيضا فضل كتابة الديوان والتصرف فيقول : « فكتّاب الحساب أكثر تحقيقا وأقرب إلى ضبط الأموال طريقا ، وأدل برهانا ، وأوضح بيانا . . . وبكتّاب الحساب تحفظ الأموال ، وتضبط الغلال ، وتحد قوانين البلاد ، وتميز الطوارف من التلاد » (٢) .

وإذا كان كتّاب الإنشاء قد فخروا بمنقبة أو فضل ، فإن كتاب التصرف فى المقابل أيضا قد فخروا بمناقب كثيرة ، ورقوا إلى أعلى المراتب ، يقول : « لم يفخر كتاب الإنشاء بمنقبة إلا فخروا [أى كتاب التصرف] بمناقب ، ولا سموا إلى مرتبة إلا وقد رقوا مراتب ، ولا تميزوا برسالة إلا ولهؤلاء فيها القدح المعلى ، ولا نسبوا إلى نباهة إلا ومحلهم فيها المحل الأرفع ، ومقامهم المقام الأعلى ، ولا اتصفوا بكتمان سر إلا اتصف هؤلاء بمثله ، ولا شهدوا ببذل بر إلا وهؤلاء هم أعيان أهله » (٣) .

ولما بدأ التأليف فى باب الكتابة ، أراد ألا يتعرض لذكر كتابة التصرف ، وأن يضرب عنها صفحا ، ويقتصر على كتابة الإنشاء فقط ، جريا على قاعدة المؤلفين فى هذا النوع من الكتابة ، يقول : « ولما انتهيت فى كتابى هذا إلى باب الكتابة ، أردت أن أضرب عن ذكر كتابة التصرف

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٩١ – ١٩٢ .
(٢) نهاية الأرب ٨ : ١٩٢ .
(٣) أيضاً ، ١٩٢ – ١٩٣ .

صفحا ، ولا أعيرها من النظر لمحا ، وأقتصر على كتابة الإنشاء جريا على عادة من صنف ، وقاعدة من ألف » (١)

غير أنه يعود فيغير رأيه ، ويؤلف فى كتابة التصرف وذلك إجابة لسؤال أحد أصدقائه فى وضع ملخص لهذا النوع من الكتابة ، لأن النويرى ربما يكون أقدر على إعطاء فكرة وافية عنها ، لأنه قد باشر العمل فى هذا النوع ، وعرف كل ما يتعلق بأموره . يقول : « فسألنى بعض إخوانى أن أضع فى ذلك ملخصا يعلم منه المباشر كيف المباشرة ، ويستضىء به فيما يسترفعه أو يرفعه من ضريبة وموافرة ، فأوردت هذه النبذة إزالة لسؤاله ، وتحقيقا لآماله » . (٢)

ويبدو أن النويرى هو أول من ألف فى فن كتابة التصرف ، إذ يذكر أنه حاول الاستعانة بمرجع يمكن الاعتماد عليه ، والاقتداء به فى هذا الشأن ، إلا أنه لم يجد أى كتاب صنف فى هذا الفن ، أو حتى فصل يحتذيه ويسير على منواله فاستخار الله ، وشرع هو فى تصنيف هـــذا الفن مستعينا بتجربته الشخصية فى هذا المجال يقول : « وحين وضعت ما وضعت من هذه الصناعة لم أقف قبل ذلك على كتاب فى فنها مصنف ، ولا انتهيت إلى فصل مترجم بها أو مؤلف ، ولا لمحت فى ذلك إشارة ولا سمعت من لخص فيها عبارة ، ولا من تفوه ببنت شفة ولسان، ولا من صرف ببنان بلاغته فى ميادينها العنان ، حتى أقتدى بمثاله ، وأنسج على منواله . . ثم قرعت بابها ففتح بعد غفلة . . . وارتقيت ذروتها فظهر للفكرة طريق نجاحها ، فشرعت عند ذلك فى تأليف ما وضعته ، وترصيف ماصنفته » (٣) .

وقد بدأ المصنف حديثه بذكر اشتقاق تسمية الديوان ، ولم سمى ديوانا ، وما تفرع من كتابة الديوان من أنواع الكتابات فذكر أن هذه

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٩٣ .
(٢) نهاية الأرب ٨ : ١٩٣ .
(٣) أيضاً : ٨ : ٢٠٠

الكتابة تنقسم إلى أقسام رئيسية وفرعية ، منها مباشرة الجيوش ، ومباشرة الخزانة ، وبيت المال ، وأهراء الغلال ، ومباشرة البيوت ، والهلالى والأقصاب والمعاصر ، ومطابخ السكر ، ومباشر كل وظيفة من هذه الوظائف يحتاج إلى معرفة قواعد وأصول للسير بمقتضاها .

فكاتب ديوان الجيش يحتاج « أن يرصع أسماء أرباب الإقطاعات والنقود والمكيلات من الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، والمماليك السلطانية ، وأجناد الحلقة ، وأمراء التركمان والعربان ، ويضع لذلك جريدة مقفاة على حروف المعجم يثبت فيها أسماءهم . . . » (١) . كما يحتاج « إلى بسط جريدة إقطاع ، إلى أن يتعاهد مباشرى المعاملات ، وبسط جريدة بأسماء أرباب النقود والمكيلات الخاصة ، كما يحتاج إلى أوراق تتضمن أسماء أمراء الميمنة والميسرة . . . ويحتاج إلى ضبط أسماء من توجه بدستور إلى جهة من الجهات . كما يحتاج إلى غير ذلك من حضور البديهة بأن يكون مستعدا للإجابة على أى سؤال على الفور دون الرجوع إلى أوراق . كما يجب أن يكون كاتما للأسرار . . . إلى غير ذلك » (٢) .

وقد تناول أيضا الحديث عن مباشرة بيت المال والخزانة ومباشرة البيوت السلطانية .

وهو يذكر أن كل ما تناوله من مباشرة البيوت السابقة إنما هو من الكتابة العملية وليست العلمية ، لأن العمدة فى صناعة الكتابة إنما تظهر فى مباشرة الهلالى والخراجى « وجميع ما قدمنا ذكره من البيوت ليس بشىء من صناعة الكتابة العلمية ، بل العملية خاصة ، فإن علوم الكتابة إنما تظهر فى نظم الحسبانات ولا نظم فيما قدمناه ، والعمدة فى صناعة الكتابة على مباشرة الهلالى والخراجى » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ٢٠٠ .
(٢) أيضاً ٨ : ٢٢١ — ٢١٣ .
(٣) أيضاً ، ٢٢٨ .

ويتحدث بالتفصيل عن مباشرة الهلالى ، وما يحتاج إليه مباشرها ، ويتناول موضوع الجزية الواجبة على أهل الذمة وما ورد فيها من أحكام شرعية . وأول من ضربها وقررها هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما اصطلح عليه كتاب التصرف – فى زمن المؤلف – من استخراجها ، وموضع إيرادها وما يلزم مباشرها من الأعمال وما يحتاج إليه (١) .

وفى نهاية حديثه عن ديوان التصرف يذكر أنه أورد قواعد هذا الفن وبجملة غير مفصلة ، وأن عملية استقصائه متعذرة نظراً لاختلاف المباشرات والآراء ، يقول : « وقد ذكرنا تلخيص قواعد هذه الكتابة والمباشرين وأوضاعهم ولوازمهم ، والأوضاع الحسابية ، وغير ذلك من معالم المباشرات مجملا غير مفصل ، وبعضاً من كل وقليلا من كثير إذ لو استقصينا ذلك لطال وتعذر لاختلاف المباشرات والوقائع والأوضاع ، والآراء ... » (٢) ويبين أن ما أورده فيه كفاية لحاجة طالب هذه الصناعة ، إلا أن أساسها الأول هو الدربة والمباشرة ، ويأتى ببيت من الشعر يؤكد به كلامه وهـــو :

ولابُدّ مِنْ شَيْخٍ يُريكَ شُخُوصَها وإلا فَنصُّ العِلْم عندك ضائعُ

إذن من الواضح أن التأليف فى هذا الفن ، وهو كتابة الديوان والتصرف شىء لم يسبق إليه النويرى ، فهو يؤلف فيه ، ولا ينقل عن أحد ، وربما أسعفه فى ذلك أنه يكتب عن تجربة شخصية مر بها ، فقد باشر العمل فى هذا المجال كما سبق أن ذكرنا .

كتابة الحكم والشروط :

بدأ المصنف حديثه عن هذا النوع من الكتابة بذكر الشروط التى ينبغى أن يتصف بها كاتب الحكم والشروط ، وأهم هذه الشروط :

---

(١) انظر نهاية الأرب ٨ : ١٩٦ – ٢٠٠ .

(٢) أيضاً، انظر نهاية الأرب ٨ : ٢٤٥ – ٢٦١ .

أولا :

العدالة والديانة والأمانة : لأنه « يتصرف بشهادته فى الأموال والدماء والفروج ، فإذا لم يكن فيه من الديانة والعدالة والأمانة ما يستمسك به ، ويقف عند أوامر الشرع الشريف ونواهيه بسببه ، تولاه — والعياذ بالله تعالى — الشيطان بالغرور . . . » (١) .

وثانياً :

طلاقة العبارة وذلاقة اللسان : لأنه يجلس بين يدى الحاكم ويحضر العلماء والفقهاء ، « وهو المتصدى لقراءة ما يحضر من المجلس من إسجالات حكمية ، ومكاتيب شرعية . . . « فإذا لم يكن الكاتب طلق العبارة فصيح اللسان . . . تعذرت قراءة ذلك عليه . . . فرمقته العيون شزراً ، وتلمظت به الألسن سراً . . . » (٢) .

ثالثاً :

حسن الخط : لأن النفوس تميل إلى الخط الحسن ، أما إذا كان غير ذلك فإنها تمله وتكرهه .

رابعاً :

معرفة اللغة العربية : لأنه يكتب عن حاكم المسلمين ، ولا يجوز أن يقع فى كتابته أى خطأ ، لأن هذا يخل بالمعنى ويفسده وينقله إلى غير ما أريد به .

خامساً :

معرفة الفقه : فلأن الكاتب يجلس بين يدى الحاكم ، ومجلس هذا الحاكم لا يكاد يخلو من الفقهاء والعلماء ، يتناقشون فى المسائل كل على حسب علمه ، « فإذا كان الكاتب عارياً من الفقه ، والمدارسة ، ومطالعة

---

(١) نهاية الأرب ٩ : ٢ .
(٢) أيضاً ٩ : ٣ .

كتب العلوم الشرعية ، اقتضى ذلك عدم مشاركته لهم فيما هم فيه ، فيصير بمثابة الأجنبي من المجلس » (١) .

سادساً :

معرفة علم الحساب والفرائض : « لأنه لو وقع فى المجلس قسمة شرعية بين ورثة أو شركة ، ولم تكن له معرفة بهذا العلم كان ذلك عجزاً منه وتقصيراً ونقصاً فى صناعته . . . » (٢)

سابعاً :

معرفة صناعة الوراقة : لأن الكاتب إذا أخرج المكتوب من يده بعد إتقانه وتحرير ألفاظه من غير أن يسلك فيه طريق الكتاب واصطلاحهم ، مجته الأسماع ، ولم تقبله النفوس . . » (٣) .

ويشير النويرى أنه لابد أن يقدم لقارئه فكرة مختصرة عن صناعة الوراقة ، وما اصطلح عليه الكتاب من أوضاعها « على ما استقر عليه الحال فى زماننا » . وهذه الفكرة المختصرة عن الوراقة فكرة ضرورية لكل « كاتب شروطى » فهى « مما يضطر إليه المبتدئ ، ولا يكاد يستغنى عنه المنتهى » (٤)

ويبدأ بتوجيه كاتب الشروط إلى ما يتعين عليه أن يلتزمه من تقسيم للوثيقة وتعريف بالمشهود عليه . ويطلب إلى الكاتب الاهتمام بتأريخ المكتوب باليوم ، والشهر والسنة ، ولا يرى بأساً من أن يحدد الكاتب — خاصة فى المكاتيب الشرعية — الساعة التى كتب فيها المكتوب « لاحتمال تعارض مكتوب آخر فى ذلك اليوم يناقض هذا المكتوب . مثال ذلك أن امرأة طلقت فى يوم قبل دخول الزوج المطلق بها ، فتزوجت فى يومها ، وتمادى الأمر على ذلك ، ثم ادعى مدع أنها تزوجت قبل وقوع الطلاق ،

(١) نهاية الأرب ٩ : ٤ .
(٢) أيضاً ٩ : ٥ — ٦ .
(٣) أيضاً ٩ : ٦ .
(٤) أيضاً ٩ : ٦ .

ولم يكن فى الكتاب ما يمنع دعواه ، فإنه يحتاج فى مثل هذا ونحوه إلى تحديد الطلاق والزواج بالساعات . فإنه فيه إزالة للشك وحسماً لمادة الالتباس »(١)

ولقد أورد شروطاً ينبغى أن يلتزمها كاتب المكاتيب الشرعية بالذات عند الكشط أو الضرب أو الإلحاق ، أما إذا كان المكتوب يشتمل على فواصل وأوصال أشار عليها بقلمه إشارة يعرفها وتعرف عنه .

وفى رأى النويرى أن كتّاب عصره قد أخطأوا خطأ كبيراً ، فالمفروض أن يكتب الكاتب « فى آخر أسطره عدد أوصال المكتوب ، وعدة أسطره ، وقد أهمل الكتاب ذلك فى غالب مكاتيبهم . وهو زيادة حسنة فى التحرير » (٢) لا ينبغى أن تفوت الكاتب الحاذق .

ولكل واقعة من الوقائع طريقة خاصة فى الكتابة ، يتعين على كاتب الشروط أن يلم بها لكى يقوم بها عند الحاجة .

ويعتمد النويرى فى إيراد هذه الأساليب المختلفة فى كتابة الشروط والوثائق على كتاب لأبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المخزومى ، المعروف بابن الصيرفى ، وهو كتاب مختصر ، اختصره المخزومى نفسه عن كتاب كبير له بعنوان : « جامع العقود فى علم المواثيق والعهود » ، وسمى المختصر باسم « مختصر المكاتبات البديعة فيما يكتب من أمور الشريعة » . ويبدو أن هذين الكتابين قد ضاعا ، ولم يبق منهما إلا ما نقله النويرى من كتاب « مختصر المكاتبات البديعة » (٣) .

وربما نقل النويرى معظم كتاب المختصر الذى ألفه ابن الصيرفى فى كتابة الشروط ، إن لم يكن قد نقله كله ، إذ تقع منقولاته من ذلك الكتاب

---

(١) نهاية الأرب ٩ : ٧ — ٨ .

(٢) أيضاً ٩ : ٨ .

(٣) انظر ، النويرى ، نهاية الأرب ٩ : ٩ ، وانظر حاشية رقم (٢) من نفس الصفحة وهى التى لم يهتد فيها المحقق الأستاذ أحمد الزين إلى شىء عن المخزومى المذكور ، وذكر أن اسمه ينبغى أن يكون «محمد بن عبد الله الصيرفى» وليس «أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن المخزومى».

فى نحو مائة وخمسين صفحة من الجزء التاسع (١)، ويشتمل هذا القسم على نماذج للمكاتيب التى يتعين على كاتب الشروط اتخاذها دليلا ، واعتبارها قواعد يقاس عليها عند الكتابة ، وذلك فى عدة فصول منها :

— الإقرارات وما يتصل بها من الرهن والضمان .
— الشركة والقراضى .
— العارية والهبة ، والصدقة والرجوع .
— التمليك والبيوع ، والشفعة والقسمة .
— الوصايا والشهادة على الكوافل بالقبوض .
— النكاح والطلاق وما يتعلق بها .
— الوكالات والمحاضر والإسجالات .
— الكتب والتقاليد الحكمية .
— الأوقاف والتحبيسات .

ولقد أخرج النويرى من نماذج التقاليد الحكمية تقاليد قاضى القضاة ، « فإنها لا تدخل فى باب كتابة الشروط ، بل تتعلق بكاتب الإنشاء » (٢)

لقد أراد النويرى ألا يدع أمراً من الأمور المعيشية وأمور المعاملات بين الناس ، وكتابة التوثيق والعدل ، والشروط ، وما نسميه اصطلاحاً الآن باسم « الشهر العقارى » إلا وعرض نموذجاً يقيس عليه الكاتب ، ويجعله أمامه حتى لا يقع فى الخطأ ، ويبعد عما استقرت عليه مصطلحات الكتاب فى مكاتيبهم التوثيقية ، لأن الكاتب مهما بلغ فى الفقه والعربية واللغة ما عساه أن يبلغ ، ولم يدر ما المصطلح ، وخرج الكتاب من يده،« وقد حرره على

---

(١) هذا خلا الصفحات التى سقطت من المخطوط الأصلى لنهاية الأرب، ولم يعرف محقق هذا الجزء التاسع عددها ، انظر ج ٩ : ١٦٠ هامش رقم (٢) .

(٢) نهاية الأرب ٩ : ١٥٦ .

قواعد الفقة والعربية من غير أن يسلك فيه طريق الكتاب واصطلاحهم مجته الأسماع ، ولم تقبله النفوس كل القبول . وثقل على قارئه وسامعه » (١)

غير أن النويرى — برغم حرصه على التزام الكاتب هذه النماذج التى أوردها لا يريد لهذا الكاتب أن يلغى شخصيته إزاءها . ويقف منها موقف التقديس . وعدم المساس بها ؛ بل لابد له من أن يتصرف كما يشاء ، ويطلق لقلمه العنان إذا أراد ، مستخدماً ما أودعه الله فى فطرته من ذكاء وما اكتسبه من دراية وخبرة ، إذ يرى أن « الكاتب يتصرف بحسب نباهته ومعرفته وعلمه » (٢) .

ويجعل من هذه النماذج مقياساً يقاس عليه ، وخطاً عريضاً يضعه أمامه ولا يكف — حين الكتابة — عن التزامه وعدم تجاوزه :

كتابة التعليم :

وكتابة التعليم — عند النويرى — تنقسم إلى قسمين :

(١) تعليم ابتداء .

(٢) تعليم انتهاء .

فأما تعليم الابتداء : فهو ما يتعلمه الصبيان فى ابتداء حياتهم من تعليم حروف المعجم . والقراءة والكتابة على يد معلم ، فيبدأ هذا المعلم أو المؤدب بتعليمهم الحروف ، ثم يتدرج فى تعليمهم إلى أن يستطيعوا القراءة والكتابة .

ويشير النويرى إلى ما للمعلم من تأثير كبير على تصرف الأطفال وسلوكهم . فهم دائماً يقلدون معلمهم ، ويجعلون منه مثلهم الأعلى ، فإذا كان هذا المعلم أميناً متديناً ، انعكس سلوكه على هؤلاء الأطفال ؛ ولذلك فإن النويرى

(١) نهاية الأرب ٩ : ٦ .
(٢) أيضاً ٩ : ١٥٦ .

يشترط لمؤدب الأطفال عدة شروط لابد أن تتوفر فيه ، وإلا أبعد عن هذا المنصب . فلا ينبغى « أن يتصدى لها إلا من اشتهرت ديانته وحسن اعتقاده والتزامه طريق السنة ، ومن كان بخلاف ذلك ، أو ممن طعن فيه بوجه من وجوه المطاعن ، وجب على ناظر الحسبة منعه » (١) .

أما تعليم الانشاء : فهو كتابة التجويد ، كما يذكر المصنف ويبين أهميتها بأنها هى أصل لجميع الكتابات التى قدمناها،ويشترط لمن تصدى لها أن يتقن أقلام الكتابة « ويعرف أوضاعها التى وضعها الوزير أبو على ابن مقلة حين عرب الخط ونقله من الكوفية إلى التوليد ، ثم عمدته على طريق على بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب »(٢)،وهو الذى هذب طريقة ابن مقلة ونقحها .

وعلى الكاتب أيضاً أن يعرف الأقلام الأصول لهذا الفن ، وهى خمسة : « قلم المحقق ، وقلم النسخ، وقلم الرقاع ، وقلم التواقيع ، وقلم الثلث »(٣) وهذه الأصول تتفرع منها أقلام أخر ،« فقلم المحقق مثلا يتفرع منه خفيفة، وقلم الريحان . . . . وهكذا » (٤) .

هذا هو ما اصطلح عليه الكتّـاب من أسماء أقلام الكتابة ، فان الكاتب إذا أتقن « هذه الأقلام وحررها ، وعرف أوضاعها وقواعدها ، وكيفية وضع الحروف وموضع ترقيقها وتغليظها ، والمكان الذى تكتب فيه بسن القلم وبصدره ، وأين يضع الحرف الآخر منه . إلى غير ذلك من شروطها وقواعدها . واتصف بما قدمناه فى المؤدب من الديانة والخير ، والعفة ، وحسن الطريقة ، وصحة الاعتقاد والتزام السنة فقد استحق أن يتصدى للتعليم والإفادة ، ويتعين على الطالب الرجوع إليه ، والاقتداء بطريقته ، والكتابة على خطه ، والتزام توقيفه » (٥) :

---

(١) نهاية الأرب : ٩ : ٢١٩ .
(٢) نفسه: ٢٢٠ .
(٣) نفسه .
(٤) انظر ٩ : ٢٢١ - ٢٢٢ .
(٥) أيضاً : ٢٢٣ .

النسخ وشروطه :

كان النويرى - كما سبق أن ذكرنا - ناسخاً مجيداً ، وخطاطاً مطيقاً ، عرف فى زمانه بأنه كتب بالخط المنسوب (١) .

ولقد حرص النويرى على أن يقدم خبرته فى مجال النسخ للقراء والنساخ معاً .

وهو يقسم النساخ إلى أقسام عدة ، ويشترط لكل قسم منهم شروطاً على النحو التالى :

١ - نساخ الحديث النبوى الشريف (٢) :

لابد لهؤلاء النساخ من معرفة المؤتلف من المختلف من أسماء نقلة الحديث الشريف ورواته ، لكى يميز بين الطيب والخبيث من هؤلاء النقلة .

ويقدم النويرى للنساخ عرضاً سريعاً لبعض ظواهر الاختلاف والائتلاف فى أسماء الرواة ، أو ما يعرف اصطلاحاً باسم المشتبه فى أسماء رجال الحديث ، من مصدر رئيسى اعتمد عليه فى إيراد هذه الأسماء ألفه رجل يسمى « عبد الغنى » (٣) ، لكن النويرى يستدرك على هذه الأسماء استدراكات

---

(١) راجع فيما سبق ، ص ١١٣ .

(٢) سقط جانب كبير من هذا القسم من المخطوط الأصل - راجع جـ ٩ ص ١٩٠ هامش ٢ .

(٣) يبدو أن محقق الجزء التاسع من نهاية الأرب لم يهتد إلى مؤلف يسمى عبد الغنى ألف فى المؤتلف والمختلف من أسماء الرواة . ولذلك لم يعرف به ويبدو أنه كان من أوائل المؤلفين فى مجال علم الحديث وهو العلم الذى ما لبث أن ازدهر فى القرن الثامن الهجرى على يد أحد زملاء النويرى : الحافظ الذهبى وتلميذه ابن حجر العسقلانى . راجع مقدمة سبرنجر للطبعة الهندية لكتاب الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى طبع كلكتا ١٨٥٣ - ١٨٦٤ ، وانظر أيضاً أبا الحسن الندوى : رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ، ط الكويت ١٣٩٧ (١٩٧٧) ص ١٠٣ وما بعدها .

كثيرة ، لا سيما أسماء الرواة المنسوبين إلى مدن وقرى فى مصر وبلاد الشام ، اللذين كان النويرى يعرف ربوعهما حق المعرفة ،وهو ينوه بعد كل استدراك بقوله : « لم يذكرها عبد الغنى » (١) .

ويشير إلى ذلك فى نهاية القائمة التى أوردها لأسماء الرواة بقوله : « هذا مختصر ما ألفه عبد الغنى . . . وفيه زيادة فى مواضع نبهنا عليها ، ولم يكن الغرض بإيراد ما أوردناه من المؤتلف والمختلف استيعابه وحصره وإنما كان الغرض التنبيه على ذلك ، وأن الناسخ يحتاج إلى ضبط ما يرد عليه من هذه الأسماء وأمثالها ، وتقييدها والإشارة عليها » (٢) .

٢ — نساخ العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية :

يرى النويرى بأنه يجدر بهؤلاء النساخ — إذا نسخوا كتاباً فى الفقه والأصول واللغة العربية — أن يطلعوا على كل فن من هذه الفنون للإلمام بأطرافه كى يسلم الناسخ من « الغلط والتحريف ، والتبديل والتصحيف .... وإلا فهو حاطب ليل لا يدرى أين يفجأه الصباح ، وراكب سيل لا يعرف الغدوّ من الرواح » (٣) .

٣ — نساخ التاريخ :

لابد للناسخ من هؤلاء أن يعرف أسماء الملوك وألقابهم وكناهم ، والحق أن ناسخ التاريخ يصادف صعوبة حقيقية عند كتابة أسماء « ملوك العجم والترك ، والخوارزمية ، والتتار ، فإن أغلب أسمائهم أعجمية لا تفهم إلا بالنقل ، ويحتاج الناسخ إذا كتبها إلى تقييدها بضوابط وإشارات وتنبيهات تدل عليها » (٤) .

---

(١) انظر مثلا جـ ٩ : ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
(٢) نهاية الأرب ٩ : ٢١٤ .
(٣) نفسه .
(٤) أيضاً ٩ : ٢١٥ .

على أنه يجرى على أسماء الأماكن ما يجرى على الأسماء الأعجمية ، فإن الناسخ متى أطلق اسم المكان ، ولم يميزه بموقعه ، ربما تبادر ذهن السامع إلى مكان آخر (١) .

٤ — نساخ أسماء الرجال :

إن تشابه أسماء الرجال وارد فى تاريخنا الإسلامى ، ولذلك لابد من تمييز كل اسم على حده ، وإلا : « أشكل ذلك على السامع وأنكره ، ما لم تكن له معرفة بالوقائع واطلاع على الأخبار » (٢) .

ومثل تشابه أسماء الرجال تتشابه أسماء أيام العرب ، « فينبه على ذلك كله ، ويشير إليه بما يدل عليه » (٣) .

٥ — نساخ الشعر :

لا يستغنى الواحد منهم عن معرفة أوزان الشعر ، والعروض ، ليقيم وزن البيت إذا أشكل عليه بالتفعيل ، « فإن تغييره يخل بالمعنى ويفسده ، ويحيله عن صفته المقصودة » (٤) .

هذه هى الأقسام الخمسة للنساخ ، وهى أقسام غير منفصلة تماماً بل متداخلة ولذلك يتعين على الناسخ أن يستوفى شروط هذه الأقسام الخمسة ، فهذه الشروط إنما هى فوائد جمة لا يستطيع من كانت مهنته النسخ أو الكتابة أن يستغنى عنها ، يقول النويرى مختتماً كلامه : « فإذا عرف الناسخ هذه الفوائد وأتقنها وحرر هذه القواعد وفنها ، وأوضح هذه الأسماء وبينها ، وسلسل هذه الأسماء وعنعنها . . فليبسط قلمه عند ذلك فى العلوم ، ويضع به المنثور والمنظوم » (٥) .

* * *

(١) انظر نهاية الأرب ، ٩ : ٢١٦ .
(٢) أيضاً ٩ : ٢١٦ .
(٣) أيضاً .
(٤) أيضاً ٩ : ٢١٨ .
(٥) أيضاً .

الفصل الثالث

الرسائل الأدبية

إذا تصفحنا نهاية الأرب ، نجد أن الرسائل كثيرة متنوعة ومنتشرة فى أرجاء الكتاب ، وقد اشتمل كل فن من الفنون الخمسة على مجموعة من الرسائل الأدبية ذات القيمة العالية .

ويصرح النويرى نفسه بكثرة تلك الرسائل وانتشارها فيقول : « وهذه الرسائل والفصول كثيرة جداً ، وقد قدمنا منها فيما مر من كتابنا هذا ما حلا ذكره وفاح نشره . . . وأوردنا فى كل باب وفصل منه ما يناسبه » (١) فمن رسائل تتضمن أوصافاً للسلاح وآلات الحرب ، وأخرى فى وصف طير أو حيوان ، وغيرها فى وصف الأزهار والرياحين .

ونجد المؤلف — بالرغم من تعدد الرسائل وانتشارها فى الفنون المختلفة — قد خصص قسماً مستقلا للرسائل الإخوانية فى الجزءين : السابع والثامن من الكتاب ، لكى يستطيع الكاتب الانتفاع بها ، والإفادة منها .

أما الرسائل الخاصة بالتاريخ ، فإن المصنف لم يشأ أن يوردها ضمن هذه الرسائل الإخوانية ، وإنما أوردها ضمن سياقته للأحداث التاريخية فى الفن الخاص بالتاريخ .

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٢٥٩ .

ويقرر النويرى فى بداية حديثه عن تلك الرسائل الإخوانية أنه قد انتقاها ، واختارها لأبرز الكتاب والبلغاء سواء من المشارقة أو المغاربة . « فسنورد ما انتخبناه من رسائل الكتاب والبلغاء المشارقة والمغاربة على ما تقف عليه » (١) .

وكما علمنا ، فإنه دائماً يضع نصب عينيه إفادة الكاتب بما يكتب من رسائل ، واقتداءه بها حتى يستطيع أن يرتقى سلم المجد ، ويحوز قصب السبق فى مجال الكتابة . فبدأها بذكر شىء من الرسائل المنسوبة إلى الصحابة — رضى الله عنهم — والتابعين ، وهى من الرسائل التى يتعين على الكاتب حفظها (٢) والإلمام بها .

وقد أورد رسالة منسوبة إلى أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وأخرى للسيدة عائشة — رضى الله عنها — فى أبيها ، عند ما بلغها أن قوماً يتناولون والدها .

ثم تناول رسائل البلغاء والفضلاء من المشارقة والمغاربة ، وقد بدأها بإيراد رسائل أهل المغرب أمثال : أبى الوليد بن زيدون ، وأبى عبد الله محمد ابن الخياط ، وأبى المغيرة بن حزم وغيرهم من كتاب المغاربة (٣) .

وأورد رسائل لكتاب المشرق أمثال القاضى الفاضل محيي الدين أبى على عبد الرحيم البيسانى ، الكاتب المعروف ، والذى يمدحه المصنف مدحاً جليلا ، لما عرف عنه من الإجادة والفضل فى علوم البلاغة والبيان، يقول « إليه انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها . . . فهو كاتب المشرق والمغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة » (٤) .

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٢٦٠ .

(٢) انظر فيما سبق ص ٢٢٠ وما بعدها .

(٣) انظر نهاية الأرب ٧ : ٢٧١ — ٣١١ .

(٤) أيضاً ٨ : ١ .

وقد اختار النويرى مجموعة من الرسائل التى كتبها البيسانى منها : رسالته إلى النظام أمير حلب ، وأخرى القاضى إلى محيى الدين بن الزكى ، ومنها بعض الرسائل الإخوانية التى بها يتشوق إلى أحبائه وإخوانه . (١)

وإذا نظرنا إلى تلك الرسائل لوجدنا أنها تجمع بين جزالة اللفظ وعذوبته ورقة المعانى وانسيابها واتساع الخيال ، وخصوصاً الرسائل التى كتبها يتشوق فيها إلى أصحابه .

فمن رسالته التى كتبها إلى أمير حلب نقتبس العبارات :

« وقفت على هذا الكتاب المشار إليه وما وقفت عنه لساناً شاكراً ، ولا صرفت عنه طرفاً ناظراً ، وبلغت من ذلك جهدى ، وإن كان قاصرا ، واستفرغت له خاطرى ، وما أعده اليوم خاطراً . . . » (٢) .

ومن مميزات الكتابة عند البيسانى أنه يجمع بين الكتابة النثرية والشعر ، فيدبج رسائله دائماً بالأشعار التى تناسب الموقف الذى يتحدث فيه ، فمثلا أنشد فى بعض رسائل الشوق أبياتاً من الشعر تتسم بالخيال ، وشدة الشوق والتأثر ، فجاءت معبرة عن نفسية الكاتب تعبيراً صادقاً ، يقول :

وبى غَمْرةٌ للشَّوقِ من بعدِ غَمْرةٍ ... أَخوضُ بها ماءَ الجفونِ غِمارا
وما هى إلا سَكْرةٌ بعدَ سَكْرَةٍ ... إذا هى زالتْ لا تزالُ خُمـــارا
رَحلْتُمْ وصَبْرِى والشبابَ ومَوْطِنى ... لقد رَحَلَتْ أَحبابُنا تَتَبارى
ومنْ لم تُصافحْ عينُه نورَ شَمْسِه ... فليس يرى حتى يُراهُ نهـــارا
سقى اللهُ أَرضَ الغوطَتَين مدامِعى ... وحَسْبُكِ سُحْبًا قد بعثتُ غزاراً
وما خَدَعَتْنِى مصرُ عن طيبِ دارِها ... ولا عوَّضَتْنِى بُعدَ جارىَ جارا

---

(١) نهاية الأرب ، ٨ : ٢ .
(٢) انظر ٨ : ٣ .

أدارَ الصِّبا لا مِثلَ ربعكَ مَربَعٌ أرى غيرَكَ الربعَ الأنيس قفارا
فما اعتضتُ أهلا بعد أهلِكِ جيرةً ولا خلتُ دار المُلك بعدَكِ دارا (١)

ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أبلغ كتاب العصر الأيوبى ، وقد ظلت المصطلحات التى كان يستخدمها فى فنه أساسية عند جميع الكتاب المصريين من بعده (٢)، فقد كانوا يسيرون على منواله ، ويقلدونه ، ويتخذون آثاره مثلهم الأعلى الذى يحتذونه ولذلك يقول النويرى : « أنصف بعض الكتاب فيه ، ونطق من تفضيله بملء فيه حيث قال : « إن كل فاضل بعد الفاضل فضلة » (٣)

كما يورد النويرى مجموعة من الرسائل للشيخ الإمام الفاضل ضياء الدين أبى العباس أحمد القرطبي (٤) .

وقد ذكر النويرى أسرة من الأسر المجهولة فى تاريخ الأدب العربى فى الإنشاء توارثت الكتابة ، هذه الأسرة هى أسرة عبد الظاهر . فنقل رسائل فى غاية الأهمية للمولى القاضى الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر ، وأثنى عليه النويرى كثيراً ، وذكر مناقبه وفضائله ، وأنه من أعظم شعراء العصر وكتابه فيقول : « كان رحمه الله — من أجل كتاب العصر وفضلاء المصر . . . له من النظم الفائق ماراق صناعة وحسناً ، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى . . . وطريقه فى البلاغة أسهل طريق ، وفى الفصاحة أوضح محجة » (٥) .

ورغم معاصرة النويرى لمحيي الدين بن عبد الظاهر إلا أن الظروف

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ٢٠ .
(٢) انظر د . شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ص ٣٧٥ ، طبع دار المعارف ، مصر ١٩٦٥ م .
(٣) نهاية الأرب ٨ : ١-٢ .
(٤) أيضاً .
(٥) أيضاً ٨ : ١٠١ — ١٠٢ .

لم تمكنه لسوء حظه — كما يقول — من لقائه أو التحدث إليه ، ويصرح أنه حصل على تلك الرسائل التى أوردها له فى كتابه عن طريقين :

الأولى : نقله تلك الرسائل من خط ابن عبد الظاهر نفسه .

الثانى : السماع ممن تلقى عنه الرسائل . « والذى أورده من كلامه هو مما نقلته من خطه ، وتلقيته ممن سمعه من لفظه » (١) .

فمن الرسائل التى أوردها : رسالة كتبها محيى الدين عن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحى إلى ملك المغرب . ورسالة أخرى فى الصيد ، وأخرى فى تقليد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بولاية عهد السلطنة من أبيه السلطان المنصور (٢).هذا إلى جانب الرسائل التى أوردها له فى باب التهانى . (٣) .

ونقتبس بعض فقرات من رسالته التى كتبت إلى ملك المغرب لنقف على طريقته :

« تحيات الله تتتابع وفودها وتتوالى ، وتشرق نجومها وتتلالا ، وتنفق إسرافاً ولا تخاف من ذى العرش إقلالا ، تخص الحضرة السنية السرية ، العالمية العادلية المستنصرية ، ذخيرة أمير المؤمنين ، وعصمة الدنيا والدين ، وعدة الموحدين . لا زالت سماؤها بالعدل مغدقة الأنواء ، مشرقة الأنوار ، ورياضها بالفضل مورقة الأغصان مونقة الثمار . . . » (٤) .

وإذا تأملنا هذه الفقرات ، وجدنا أنها مليئة بالمحسنات البديعية ، وهى سمة من سمات محيى الدين الذى « يستخدم البديع ويتصنع لاصطلاحات العلوم ويكثر من الاقتباس لآى الذكر الحكيم ، كما يكثر من تضمين الشعر » (٥).وهذه هى الطريقة التى اتبعها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى.

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٠٢ .
(٢) انظر ٨ : ١٠١ — ١٢٦ .
(٣) انظر ٥ : ١٥٦ — ١٦١ .
(٤) انظر ٨ : ١٠٢ .
(٥) شوقى ضيف . الفن ومذاهبه فى النثر العربى : ٢٨٠ .

وفى النهاية يصرح النويرى بأن لابن عبد الظاهر الكثير من الرسائل المشهورة المتداولة بين الناس ، ولولا تقيده بالمنهج الذى التزمه فى كتابه ، وخشية الإطالة لأتى بكل رسائله ، « وكلامه — رحمه الله — كثير ، ورسائله مشهورة ، وبيد الناس من إنشائه ما لو استقصيناه لطال وانبسط . . . » (١)

وينتقل النويرى إلى كاتب آخر من كتاب أسرة عبد الظاهر ، هو « المولى المالك علاء الدين على بن المولى المرحوم فتح الدين محمد بن المولى المرحوم محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر . . . » ويبدو أن النويرى كان شديد الإعجاب به وبكتاباته ، فقد ذكر فضائله فيما يقرب من الصفحتين (٢) ، ومع ذلك يعتذر عن تقصيره فى إيراد فضائله ومناقبه . يقول : « فهذه نبذه من أوصافه أثبتناها ، ولمعة من محاسنه أوردناها . . . وله أعزه الله وأوفر نعمه لديه . . . من الرسائل البليغة ، والتقاليد البديعة ، والعهود التى عاهدتها البلاغة ألا تتعداها ، فوفت بعهدها ، وأقسمت معانيها أنها لم تقصد سواه من قبل ، لعلمها أن غيره لا يوفيها حق قصدها . . . » (٣) .

فمن الرسائل التى أوردها لهذا الكاتب الكبير ، رسالة أنشأها للسلطان المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى إلى الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، وتقليداً آخر للأمير سيف الدين سلار المنصورى ، ومقامة كتبها لمن طلبها منه . هذا إلى جانب ما أورده له فى فن الحيوان (٤) .

ومن الرسالة التى كتبت للملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصورى ، نقتبس هذه الفقرات :

« ... الحمد لله الذى جعل الملة الإسلامية تأوى من سلطانها إلى ركن شديد ، وتحوى من مبايعة مظفرها كل ما كانت ترومه من تأييد التأييد ، وتروى

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٢٤ .
(٢) انظر نهاية الأرب ٨ : ١٢٦ — ١٢٨ .
(٣) نهاية الأرب ٨ : ١٢٧ .
(٤) انظر ١٠ : ٣٤٣ — ٣٤٨ .

أحاديث النصر عن ملك لا يمل من نصرة الدين الحنيفى ، وإن مل الحديد من الحديد ، مؤتى ملكه من يشاء من عباده ، وملقى مقاليده للولىّ الملى بقمع أهل عناده » (١) .

ورغم إيراد تلك الرسائل ، فإن المصنف يشعر بالتقصير الشديد تجاه هذا الكاتب الكبير ويطلب الاعتذار والصفح ، وأنه إنما أتى بتلك الرسائل القليلة للكاتب الكبير ليزين بها كتابه ، ويرفع بها من شأنه « وسنورد إن شاء الله من كلامه ما هو بالنسبة إلى مجموعه نبذة يسيرة ، ونرصع فى كتابنا هذا من فضائله لمعة خطيرة ، ونرفع بما نضعه فيه من كلامه قدر هذا التصنيف . ونطرز به أردان هذا التأليف . . . ونحن الآن نعتذر عن التقصير فى الانتهاء إلى وصف محاسنه ، ونعترف بالعجز عن إدراك كنه مناقبه الشريفة وميامنه . . . » (٢) .

ويعلل النويرى السبب الذى من أجله اختار هؤلاء الكتاب بالذات أمثال : البيسانى ، وابن عبد الظاهر والقرطبي ، وأورد لهم بعض الرسائل — رغم كثرة كتاب عصره ووفرة إنتاجهم — وهو حبّه لهم وتعلقه بهم ، ويقول :

« هذا ما اتفق إيراده فى هذا الفصل من رسائل الكتاب ، وكتاب العصر — أعزهم الله تعالى — كثير ، وكلامهم مشهور . . ولم نشترط أن نورد لجميعهم فنلتزم الشرط ، ولو فعلنا ذلك لطال الكتاب وخرج عن شرطه ؛ وإنما خصصنا هؤلاء بالذكر لتعلقنا بهم ، واتصال سببنا فى الوداد بسببهم »(٣).

وإذا تأملنا الرسائل التى ألفت فى العصر المملوكى ، وجدنا أنها تؤلف من ألوان البديع ، واصطلاحات العلوم ، وتضمين الأشعار ، والاقتباس من آيات الذكر الحكيم ، وقد أصبحت هذه الطريقة من سمات الكتابة فى

---

(١) نهاية الأرب ٨ : ١٢٨ ، والملى بالأمر ، المضطلع به .
(٢) نهاية ٨ : ١٢٧ — ١٢٨ .
(٣) أيضاً ٨ : ١٦٣ .

هذا العصر ، « فليس هناك كاتب ممتاز لهذا العصر إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون فى نثره » (١) .

إذن ، فقد اتبعت فى كتابة الرسائل أثناء العصر طريقة القاضى الفاضل التى أساسها المعانى الخيالية ، والتزام السجع ، والمحسنات البديعية . . . وبقيت هذه الطريقة مرعية فى مصر والشام حتى نهاية دولة المماليك (٢) .

* * *

(١) شوقى ضيف ، الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، ٣٨٢ — ٣٨٣ .

(٢) انظر السيد أحمد الهاشمى : جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب ٢ : ٢٠٤ . طبع مكتبة المعارف ، بيروت .

الفصل الرابع

الخرافة والأسطورة
فى نهاية الأرب

الخرافة فى لغة العرب هى « حديث مستملح كذب »، والأسطورة هى « الأباطيل والأحاديث العجيبة التى لا أصل لها » (١) .

وإذا نحن نظرنا إلى هذين التعريفين نلاحظ أن من الصعوبة التمييز بين الخرافة والأسطورة . (٢) .

وتشتمل موسوعة النويرى على بعض هذه الأحاديث الخرافية — أو الأسطورية — نقلها من مصادر بعينها ، أو سمعها من الناس .

ولقد سبق أن بينا أن النويرى كان حريصاً على أن يرفع الملل والسآمة عن قارئه ، ومن ثم أتى ببعض هذه الأحاديث لتحقيق هذا الغرض ، ولتزيين كتابه بجنس من الأجناس الأدبية التى تروق للقراء وتستحوذ على اهتمامهم .

غير أن النويرى كان واعياً كل الوعى بما يكتب ، يعرف الحد الفاصل بين الحقيقة والأسطورة ، وبين الصدق والخرافة يقول فى أحد المواضع : « وقد قالوا فى ولدها [يعنى الكركون] وهو فى بطنها قولاً لولا أنه ظاهر على ألسنة الهند لكان أكثر الناس — بل كثير من العلماء — يدخلونه فى باب الخرافة » (٣) .

---

(١) لسان العرب ، القاموس المحيط .

(٢) الدكتور أحمد كمال زكى : الأساطير ، طبع بمصر سنة ١٩٦٧ م ، ص ٣٠ .

(٣) نهاية الأرب ٩ : ٣١٥ — ٣١٦ .

وقدم المؤلف لبعض الحكايات التى يوردها على أنها من خرافات العرب(١). وهذا يعنى أنه كان على وعى بالفرق بين الخرافة والحقيقة كما ذكرنا :

لكن النويرى يتردد فى قبول حكاية المدائن السبع التى بناها « أوشهنج » بأرض بابل، « وكنت قد أنكرت هذه الحكاية، وقصدت حذفها وإلغاءها والإضراب عنها » . لكنه لما كان واثقاً من أن « ابن الجوزى » لا يأتى فى كتبه إلا بحكايات موثقة – حتى ولو كانت تدخل فى باب الخرافة – أوردها ، يقول : « فرأيت ابن الجوزى وضعها فى كتابه الذى سماه « سلوة الأحزان » فأوردتها»(٢) ليس اقتناعاً بها – فيما يبدو – وإنما ثقة فى الكاتب الذى نقلها ، وهو ابن الجوزى .

مصادر الخرافة :

غير أننا نلاحظ أن هذه القصص والأخبار الخرافية جاءت بكثرة فى الفن الخاص بالحيوان ، والفن الخاص بالسماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية ، وأنه اعتمد فى الإتيان بهذه القصص والأحاديث على مصادر ذكر منها :

(١) كتاب مباهج الفكر ومناهج العبر . (٣)

(٢) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، للإدريسى . (٤) .

(٣) كتاب أسرار القمر ، لابن وحشية . (٥)

(٤) تاريخ مصر – لمحمد بن على بن يوسف بن حلب راغب . (٦)

---

(١) نهاية الأرب ١٠ : ٢٢٢ .
(٢) أيضاً ١ : ٣٩٩ .
(٣) انظر نهاية الأرب ، ١ : ٢٧٤ – ٢٧٥ ومواضع أخرى متفرقة .
(٤) أيضاً : ١ : ٢٥٠ .
(٥) أيضاً ١٠ : ٢٠٦ ، ٢٠٩ .
(٦) أيضاً ١٠ : ٢٩٥ – ٢٩٦ .

(٥) سلوة الأحزان ، لابن الجوزى . (١) .

(٦) المغازى (فتوح السند) للواقدى . (٢) .

(٧) تاريخ الطبرى . (٣) .

(٨) كتاب المغرب فى تاريخ إفريقية والمغرب . (٤)

(٩) كتاب الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير . (٥)

وكما يعتمد فى إيراد العجائب على الكتب ، يعتمد أيضاً على السماع ، وقد يكون القائل شاهداً للحدث العجيب . يقول : « وأخبرنى المولى شرف الدين أحمد بن اليزدى قال كنت بمدينة الرملة فى شهور سنة اثنتين وسبعمائة صحبة الصاحب شرف الدين بن الخليل ومعه القاضى الحاكم وجماعة كثيرة من الناس وفيهم عدولى وغيرهم ، فنظرنا نحو السماء فإذا نحن بحيتين عظيمتين طائرتين فى الهواء قاصدتين صوب البحر ، كل منهما فى غلظ الثينانة ، وإن إحداهما مستقيمة فى طيرانها والأخرى تتعوج من قبل رأسها ووسطها وذنبها ، وكانتا من الأرض بحيث لا يبلغهما السهم ، قال : فسطرنا بذلك محضراً على عدة نسخ » .(٦)

أنواع الخرافة فى نهاية الأرب :

ويمكننا أن نقسم أنواع الخرافة عند النويرى على النحو التالى :

أولا : ظهور خصائص خرافية لبعض العناصر والمخلوقات الحية :

من ذلك ما أورده عن منطقة فى الهند تسمى « عتبة عورك » تتميز بعين ماء فيها ، لا تقبل نجساً ولا قذراً ، وإن ألقى فيها شىء من ذلك ، اكفهرّت

---

(١) انظر نهاية الأرب ١ : ٣٩٩ — ٤٠٠ .
(٢) أيضاً نفس الجزء والصفحة .
(٣) أيضاً ١٠ : ٣٢١ .
(٤) أيضاً ١٠ : ٣٢١ .
(٥) أيضاً ٩ : ٣٤٤ .
(٦) أيضاً ١ : ٢٧٥ .

السماء وهبت الريح ، وكثر الرعد والبرق والمطر ، فلا تزال كذلك إلى أن يخرج منها ما طرح فيها » (١) .

كما تعرف فى أرض فارس منطقة تسمى « دارين » بها « نهر ماؤه شروب إذا غطت فيه الثياب خضّرها » (٢) .

وعلى ذكر خصائص مياه بعض العيون والآبار يورد قصة تتعلق بجذب نوع من أنواع الماء فى «خوزستان» لطائر يسمى « السمندل » وممن مميزات هذا الطائر أنه إذا نقل هذا الماء إلى منطقة موبوءة بالجراد اجتهد فى قتل الجراد حتى أتى عليه عن آخره ، بل ويحث فى شقوق الأرض عن بيض الجراد حتى يأكله ، فتتخلص المنطقة بذلك من الجراد، وقد استخدمت هذه الطريقة فى القضاء على جراد الشام سنة ٥٩٢ ه‍ .

كما يشير المصنف إلى خصائص عجيبة لبركة فى فلسطين تسمى بركة قوم لوط . يقول : « وقد بلغنى من كثير من الناس رجلين مشيا على البركة المعروفة ببركة قوم لوط وهى فى غور الكرك .٠. وتعرف هذه البركة بالمنتنة ، ويقال إنها إحدى المدائن التى خسف بها ، فجعلا يتباسطان . فكان جملة ما قالاه أو قاله أحدهما للآخر فلم ينكره : هذه بركة أصحابنا ، فطلعت من البركة موجة اختطفتهما معا ، وألقتهما فى البركة فكان آخر العهد بهما » (٣) .

ويذكر المؤلف أيضاً قصة خرافية سمعها بنفسه عن خطورة بول الفأر على إنسان جرحه نمر ، يقول : « ومن أعجب ما سمعت أن إنساناً جرحه النمر ، فاحترز على نفسه من الفأر ، فركب فى مركب ، ووقف به فى الماء وقد وثق بذلك ، وظن أن الفأر لا يصل إليه ، فاتفق لنفوذ

---

(١) نهاية الأرب ، ١ : ٢٧٤ .

(٢) أيضاً ، ١ : ٢٧٥ .

(٣) أيضاً ، ١٠ : ٢٩٥ - ٢٩٦ .

القضاء المقدر الذى لا حيلة فى دفعه ، أن حدأة اختطفت فأراً من الأرض وطارت ، فحاذت المجروح ، فلما سامته الفأر بال عليه فمات » (١) .

والعجائب التى ذكرها النويرى من هذا النوع كثيرة جداً ، منها عجائب البحيرات (٢) ، الخصائص التى تجرى مجرى الطلسمات (٣) ، عجائب المبانى (٤) ، وعجائب الحيوان المائى (٥) ، وبعض خرافات العرب التى ذكرها نقلا عن الجاحظ فى كتابه الحيوان ، وعن صاحب مباهج الفكر (٦) .

على أن النويرى يصحح فى هذا الصدد عدداً من المفاهيم التى جرت مجرى الخرافات والأساطير ، يقول فى النسر : « وهو أشد الطير طيرانا ، وأقواها جناحاً حتى زعموا أنه يطير بين المشرق والمغرب فى يوم واحد ، وهذا القول أراه من التغالى فيه » (٧) .

ويدحض زعم ابن وحشية بأن العقاب والحدأة يتبدلان فتصير الحدأة عقاباً والعقاب حدأة ، ويقول : « هذا أراه من الخرافات » (٨) .

ثانياً : تحول الأحياء عن حالتها الأصلية إلى حالات وأشكال أخرى :

من ذلك ما نقله النويرى عن أبى عبيد البكرى صاحب كتاب « البيان المغرب فى تاريخ إفريقية والمغرب » — والذى يسمى كذلك كتاب المسالك والممالك — خبراً عجيباً هو « أن ببحر الصين سرطانات تخرج كالذراع والشبر ، فإذا صارت إلى البر عادت حجارة وانقلبت عن الحيوانية ، والأطباء يتخذون منها كحلا يجلو البياض » (٩) .

(١) نهاية الأرب ، ٩ : ٢٤٤ .
(٢) انظر نهاية الأرب ١ : ٢٥٠ .
(٣) أيضاً ١ : ٣٦٨ .
(٤) أيضاً ١ : ٣٩٨ .
(٥) أيضاً ١٠ : ٣٢٢ — ٣٢٣ .
(٦) أيضاً ١٠ : ٢٢٢ — ٢٢٦ .
(٧) نفسه .
(٨) أيضاً ١٠ : ٢٠٩ .
(٩) نهاية الأرب ١٠ : ٣٢١ .

وقد يحدث العكس ، فيتم التحول من عالم الماء إلى عالم الأحياء : « وبناحية تفليس عين تنبع ، فإذا خرج منها الماء صارت حيات » (١) :

ولا يحدث التحول من حال الحيوانية إلى حال الجمادية أو العكس فحسب ، كماذكر فى المثال السابق ، بل ربما حدث من حال الحيوانية إلى حال الإنسانية ، فى حديث النويرى عن الحيات والأفاعى يشير إلى نوع من الحيات يسمى « الأصلة » ، وهو ثعبان عظيم جداً ، « وله وجه كوجه الإنسان ، ويقال إنه يصير كذلك إذا مرت عليه ألوف السنين » (٢). على أن النويرى — رغم تمتعه بحاسة الملاحظة الدقيقة — لم يسجل دهشته لهذا القول ولم يسقه على أنه من باب الخرافة .

وقد يكون التحول فى داخل النوع نفسه ، فينقلب الذكر إلى أنثى ، والأنثى إلى ذكر ، كالقصة التى نقلها النويرى عن كتاب الكامل لابن الأثير بشأن الأرنب الذى يتحول كل عام من ذكر إلى أنثى ، ومن أنثى إلى ذكر (٣) .

على أن النويرى يدحض — مثلما فعل الجاحظ — الخرافة العربية والفارسية القائلة بأن الزرافة مهجّنة أو مركبة فى خلقها من حيوانات شتى ، فينقل قول الجاحظ بأنها نوع من الحيوان قائم بنفسه كقيام الخيل والحمر ، وما يحقق ذلك أن يلد مثله ، ويضيف النويرى ، « وكذا ما ذهب إليه الجاحظ ، وهذا غير منكور ، فإنا نحن رأينا زرافة بالقاهرة ، ولدت شبهها ، وعاشت إلى الآن » (٤) :

---

(١) نهاية الأرب ١٠ : ٢٧٤ .

(٢) أيضاً ١٠ : ١١٦ .

(٣) أيضاً ، ٩ : ٣٣٤ ، وانظر ابن الأثير ، الكامل ، طبع بيروت ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .

(٤) نهاية الأرب ٩ : ٣١٧ .

ثالثاً : اختلاف الزمن ، وظهور علاقة تزامنية بين ما لا صلة بينه أصلا :

من ذلك ما أورده عما حدث فى سنة ٣٧٢ عن ظهور الرطب مرتين فى العام الواحد بقوله : « اتفق يوم النوروز فى هذه السنة (٣٧٢ هـ) لسبع خلون من شهر ربيع الأول ، فأكل الناس الرطب قبل النوروز ، ولم يبق فى النخل شىء من الرطب ، ثم حمل النخل حملا ثانياً فأكل الناس البلح والبسر مرة ثانية . ولم يتفق مثل هذا فى سنة من السنين ، ولا سمع فى تاريخ إلى وقتنا هذا » (١) .

وهناك أيضاً حكاية خرافية أوردها عن الإدريسى تتضمن اتفاقاً بين ظهور حيوان فى بحيرة خوارزم ، وموت ملك من الملوك ، يقول النويرى : « وزعم صاحب كتاب «نزهة المشتاق إلى اختراق الآفاق» أن فى هذه البحيرة (بحيرة خوارزم) حيواناً يظهر على سطحها فى صورة الإنسان يتكلم ثلاث كلمات أو أربعاً بلغة لا تفهم ثم يغوص،وظهوره عندهم يدل على موت ملك من ملوك ذلك الحين » (٢) .

* * *

الأنساب فى نهاية الأرب بين الأسطورة والحقيقة :

يشير الأستاذ الدكتور عفت الشرقاوى فى كتاب « دراسات عربية » إلى أن الأسطورة والخرافة قد تسربت إلى المادة التاريخية المنقولة عن العرب قبل الإسلام فى مجال « الأنساب » ، وما ذلك إلا لأن النسابين « يبالغون فى الرجوع بالأجداد إلى تاريخ سحيق قد تختلط فيه الأسطورة بالحقيقة . . . من أجل هذه النزعة الخرافية كانت الأنساب، ولا تزال،مجال شك كبير لدى كثير من علماء المسلمين » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٢٩ .

(٢) أيضاً ١ : ٢٥٠ .

(٣) الدكتور إبراهيم عبد الرحمن ، والدكتور عفت الشرقاوى : دراسات عربية ، طبع مصر ١٩٧٧ ، ص ٢٢٠ — ٢٢٦ .

ولقد اهتم النويرى فى « نهاية الأرب » وفى الفن الخاص بالإنسان بمجال « الأنساب » اهتماماً كبيراً حين عدّ الأنساب مفخرة للعرب على سائر الأمم ، لكنه اقتصر على عمود النسب المتصل برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكعادته فى مثل هذه الموضوعات الشائكة يحرص النويرى على أن يعتمد على مصدر ثقة ، وهو هنا يعتمد على رجل مشهود له من كبار الثقات فى الموضوع هو « الشريف أبى البركات الجوانى النسابة » (١) .

ويبدأ النويرى عمود النسب الشريف لسيد البشر من آدم عليه السلام مخالفا فى ذلك الشريف الجوانى الذى يقول عندما يصل إلى إسماعيل عليه السلام « واتفق أهل العلم بالنسب كما وجدوه فى التوراة وكما حملوه عن علماء أهل الكتاب ، وكما روى عن عبد الله بن عباس ، أن النسب فيما بين آدم وإسماعيل صحيح على ما أوردناه لا خلف فيه بينهم ولا خلاف إلا فى الأسماء لتنقل الألسنة ، وإنما الخلاف فيما بين إسماعيل وعدنان. وذلك أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون إليها ، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض ، فمن أجل ذلك حدث الاختلاف فيما حفظوه». (٢)

وربما كان هذا التصريح من الشريف أبى البركات هو الذى أدى بالنويرى إلى الإصرار على سياقة النسب الشريف منذ آدم عليه السلام حتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — دون تحرج، مع أنه يعلم أنه قد « روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه كان إذا انتهى النسب إلى معد ابن عدنان أمسك ثم قال : « كذب النسابون (٣) » ولقد كان هذا التصريح

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ٢٦٧ — ٢٧٧ ، وهو أبو على محمد بن أبى البركات أسعد بن على الحسين الجوانى (٥٢٥ — ٥٨٨ هـ) ينسب إلى الجوانية ، قرية قرب المدينة المنورة ، راجع « تاج العروس » مادة (جون) ، ومعجم البلدان لياقوت ٣ : ١٥٦ .

(٢) نهاية الأرب ٢ : ٣٢٤ .

(٣) ورد بهذا اللفظ فى كل من : ابن سعد : الطبقات الكبرى (طبع بيروت ، بتحقيق إحسان عباس ١ : ٢٥٦) ، والسهيلى: الروض الأنف (طبع مصر ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل ١ : ٦٦) ، والسيوطى : الجامع الصغير (ط . مطبعة المشهد الحسينى بالقاهرة ٢ : ٩٠) وأورده النويرى فى موضع آخر بلفظ آخر هو « كذب النسابون فيما فوق ذلك » نهاية الأرب ٢ : ٢٨٧ .

من النبي — صلى الله عليه وسلم — كفيلا بأن يرد النويرى عن ذكر النسب الشريف بعد عدنان ، لكنه لم يفعل وبدا أنه اختار متابعة الشريف الجوانى وغيره من علماء النسب وترك توجيه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمضى فى ذكر هذا النسب بعد عدنان ووصله إلى آدم عليه السلام .

وفى الباب الخاص بالأنساب ، بدأ النويرى من أعلى ، أى من آدم عليه السلام ، ولم يبدأه من الأغصان والفروع كصنيع المؤرخين إذا تعرضوا لذكر هذا النسب ، وصرح بأنه تعمد تلك المخالفة لأبى البركات الجوانى ، الذى بدأ « بذكر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثم بآبائه . . . فرأيت أن أسرد النسب من أصله ، وأبدأ بآدم عليه السلام ثم بنسله . . . إلى أن أنتهى إلى اسمه الشريف فأجعله خاتمة النسب » (١) .

لكنه حين أعاد ذكر النسب الشريف فى الجزء السادس عشر — الخاص بالسيرة النبوية بدأ السلسلة من الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وانتهى بها — منبها إلى أنه يعتمد على أبى البركات الجوانى — إلى آدم أبى البشر . غير أن النويرى فى هذه المرة لا يكتفى بذكر الأسماء فحسب ، وإنما يذكر « بعض الوقائع والأخبار مما لم يتقدم ذكره » (٢) . ويمكن أن تكون بعض هذه الوقائع والأخبار المتعلقة بشخصيات تنتمى إلى عصور ساحقة غنية بالمادة الأسطورية ، كحداء مضر وما قيل فيه ، على سبيل المثال (٣) .

ولعل أهم الأساطير المتعلقة بالأنساب ، والتى أوردها النويرى فى نهاية الأرب أسطورة الأفعى الجرهمى ، تلك الأسطورة التى أشار فى باب الأنساب إلى أنه سيذكرها فى باب « الأمثال » ثم ذكرها شرحا للمثل القائل « إن العصا من العصيّة »(٤) ، وملخصها أن أولاد نزار الأربعة اختصموا فيما بينهم فتذكروا نصيحة أبيهم بأن يذهبوا إلى الأفعى الجرهمى

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ٢٧٧ .
(٢) أيضاً ١٦ : ٦ .
(٣) أيضاً ١٦ : ١٠ .
(٤) أيضاً ٣ : ٧ وما بعدها .

بنجران ليحتكموا إليه إذا اختصموا ، وفى طريقهم إليه حدثت لهم أحداث غريبة دلت على فراستهم ، وعندما وصلوا إلى الأفعى الجرهمى اكتشفوا بفراستهم وذكائهم العجيب أنه ليس لأبيه الذى يدعى له ، وعرف الأفعى بذلك عندما أصدقته أمه القول ، فما لبث أن وزع ثروته كلها عليهم ، فصدروا من عنده وهم أغنياء .

ومهما يكن من أمر فإن المادة الأسطورية المتعلقة بالأنساب فى نهاية الأرب محدودة الحجم إلى حد كبير .

* * *

كانت هذه المحاولة دراسة تحليلية لطبيعة الخرافة والأسطورة فى نهاية الأرب ، لكننا لم نذكر نوعا آخر من أنواع الخرافة والأسطورة ذكره النويرى فى موسوعته، ونعنى به « الإسرائيليات » التى حفل بها القسم الخاص بتاريخ الأنبياء، وقد رأينا أن نتناول هذه الإسرائيليات بالبحث عند حديثنا عن « تاريخ الأنبياء » فى الفصل التالى .

* * *

الفصل الخامس

فن التاريخ فى نهاية الأرب

مقدمة :

فن التاريخ هو الفن الخامس والأخير فى نهاية الأرب ، ومع أن هذا الفن يشتمل — حسب الخطة الموضوعية التى وضعها النويرى لموسوعته — على خمس حجم الموسوعة ، فإن فن التاريخ قد تجاوز خمس العمل بكثير وأصبح يمثل تقريبا ثلثى الموسوعة ، فلقد اشتملت الفنون الأربعة الأولى على اثنى عشر جزءا ، بينما اشتمل فن التاريخ على تسعة عشر جزءا ، من الجزء الثالث عشر حتى الجزء الحادى والثلاثين (١) .

وربما لم يكن يظن النويرى — عندما بدأ فى تأليف كتابه فى حدود سنة ٧١٢ هـ ، كما أشرنا (٢) — أن فن التاريخ سيتضخم على هذا النحو ، وربما قدر لموسوعته أن تبلغ نحو خمسة وعشرين جزءا أو أكثر بقليل ، فلا تزيد الأجزاء المشتملة على التاريخ عن ثلاثة عشر جزءا ، لكن الأجزاء ما لبثت أن تزايدت بمرور الأيام ، وواصل النويرى كتابة التاريخ حتى

---

(١) حسب تقسيم دار الكتب المصرية فى طبعتها للكتاب ، انظر أواخر الأجزاء التى تم طبعها ، والنسخ الخطية للأجزاء التى لم تطبع ، وهى الأجزاء المحفوظة الآن لدى قسم التراث بالدار.

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٧٢ .

وصل به إلى سنة ٧٣١ ، « وقد ظل يضيف إلى القسم التاريخى على هيئة حوليات من عام لآخر إلى قرب وفاته » (١) .

على أن حجم المادة التاريخية لما غلب على سائر المواد ، تصور بعض الناس ، حتى من العلماء والمؤرخين المعاصرين للنويرى ، أن الموسوعة منحصرة فى فن التاريخ وحده ، وغلب لفظ « المؤرخ » على النويرى ، وممن ذهب هذا المذهب الحافظ ابن كثير عند ترجمته للنويرى حيث قال عنه : « وقد جمع تاريخا فى ثلاثين مجلدا . . . الخ » (٢) فغلب بذلك فن التاريخ على سائر فنون موسوعته .

بين التاريخ والأدب :

والنويرى يعد التاريخ للوهلة الأولى فناً من الفنون ، وليس علماً من العلوم لأن « العلم بالغا ما بلغ لا يعطينا من التاريخ إلا العظام المعروقة ، اليابسة ولا مندوحة عن خيال الشاعر إذا أريد نشر تلك العظام أو بعث الحياة فيها ، فإذا ما أحياها الخيال فهى بحاجة إلى منتهى براعة الكاتب النحرير ، حتى تبرز فى الثوب اللائق بها ، وتعرض بحيث تصبح قوة فعالة فى عالمنا هذا » (٣) .

ولما كان التاريخ فناً فى مذهب النويرى ، لاحظنا أنه لا يكاد يعرض لحدث من الأحداث التاريخية إلا ويمزج تلك الأحداث بالشعر حينا ، وبالحوار الأدبى حينا وبالرسالة الفنية حينا آخر . فالشعر قرين التاريخ لا يكاد ينفصم عنه :

---

(١) كراتشكوفسكى ، الأدب الجغرافى ، ١ : ٤٠٩ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ١٤ : ١٦٤ .

(٣) الدكتور حسين نصار ، نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى ، مصر ١٩٦٦ م ، ص ٣ ، وانظر مقالا فى هذا الباب بعنوان « التاريخ هل هو علم ؟ » للدكتور شاكر مصطفى ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، الكويت ١٩٧٤ ص ١٦٧ وما بعدها .

على أن المصنف يزداد اهتمامه بالشعر وإيراده فى مواطن بعينها ومواضع بذاتها من الأحداث التاريخية ، ففى الأجزاء الخاصة بالسيرة النبوية لا يقتصر فحسب على الأشعار الواردة فى كتب السيرة كسيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، بل يضيف إلى تلك الأشعار أشعارا التقطها من دواوين الشعراء ، كحسان بن ثابت وغيره ، برغم حرص مصنفنا على الاختصار (١) .

وربما اعتمد على مصدر من المصادر فى سياقة حدث تاريخى ، ثم وجد أن مصدرا آخر يزين هذا الحدث بشعر لم يرد فى المصدر الأول فيعرج على ذلك المصدر الآخر لينقل ما أورده من الشعر فى تلك المناسبة ، مثلما فعل فى حديثه عن قدوم وفد هوازن على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بعد هزيمتهم فى غزوة حنين — فقد ساق هذا الخبر نقلا عن الطبقات الكبرى لابن سعد ، ثم مالبث أن عرج على القاضى ابن عبد البر القرطبي لينقل من كتابه « الاستيعاب فى معرفة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم » ما قيل من شعر فى هذه المناسبة ، وهو الشعر الذى لم يأت به ابن سعد (٢) .

وليس الشعر فحسب هو الذى يدخل فى صميم عمل المؤرخ عند سياقة الأحداث ، بل يتسع مذهب النويرى ليدخل فى ذلك الفن كل الأجناس الأدبية المعروفة فى عصره . فالمصنف يقول عند حديثه عن الرسائل الأدبية : « وسنورد إن شاء الله فى فنى الحيوان والنبات عند ذكر كل حيوان أو نبات يستحق الوصف ما سمعناه وطالعناه من وصفه نظما ونثرا ، مع ما يندرج فى فن التاريخ من الرسائل والفصول والأجوبة والمحاورات عند ذكر الوقائع ، وإنما نورده ثم ، وإن كان هذا موضعه ليكون الكلام فيه سياقة ، وترد الوقائع يتلو بعضها بعضا » (٣) . فهذه الأجناس الأدبية إنما هى فى الواقع جزء لا ينفصم من الأحداث نفسها .

---

(١) راجع مثلا نهاية الأرب ١٧ : ١٩٩ .

(٢) انظر نهاية الأرب ١٧ : ٣٤١ .

(٣) نهاية الأرب ٧ : ٢٥٩ — ٢٦٠ .

ولقد أفصح النويرى نفسه عن منهجه فى الكتابة التاريخية وربطها بالأدب ، فقال « . . . لأن كتابنا هذا ليس مبناه على مجرد التاريخ ، بل هو كتاب أدب » (١) .

وإذا كان التاريخ فناً ، وهو الفن الخامس فى ترتيب الفنون الأدبية فى نهاية الأرب ، فإن له قواعد وأصولا يتعين الالتزام بها من خلال منهج محدد ، فما هو منهج النويرى فى التاريخ ؟ سنعرف ذلك فى الفقرة التى تلى حديثنا عن التاريخ والحديث الشريف .

بين التاريخ والحديث الشريف :

يعد النويرى فى الواقع ممثلا لجيل جديد من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا فى التاريخ الإسلامى العام(٢)، فهو — من حيث تكوينه العلمى — محدّث أكثر منه مؤرخا ، فلقد تعلق بعلم الحديث ،وأخذ عن أكبر شيوخ عصره ، وحضر مجالس السماع فيه ، ونسخ أصح الكتب فيه ، وهو صحيح البخارى بضع مرات ، كما ذكرنا (٣) . فكان يتعين عليه إذا عمد إلى التاريخ أن يتميز عمله بالدقة والتحرى اللازمين لرجل له دربة على علم الرواية ، ومعرفة الصحيح من السقيم ، وأن يتجنب بذلك أخطاء المؤرخين المسلمين حين جمع بعضهم روايات متناقضة أشد ما يكون التناقض فى الحدث الواحد (٤) .

ولقد حاول النويرى جهده ، أن يتجنب أخطاء من سبقه من المؤرخين — لاسيما فى سياقته لأحداث الفتنة بين عثمان وعلى ، ثم على ومعاوية رضى الله عنهم أجمعين ، كما سنرى . كما ابتعد — قدر إمكانه — عن التناقض بين الروايات فى سائر الأحداث التى ذكرها .

---

(١) نهاية الأرب ١٣ : ٥ .

(٢) نعنى بهذا الاصطلاح تاريخ الدول الإسلامية كلها ، لا تاريخ دولة من الدول أو بلد من البلدان ، وهو ما يطلق عليه اصطلاحا « التاريخ الخاص » .

(٣) راجع فيما سبق ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(٤) كالطبرى فى تاريخ الأمم والملوك ، مثلا .

ولما كان الكتاب مختصراً ، فقد رأى أن من الأنسب حذف سلسلة السند من الروايات المتعلقة بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعين .

فربما كان مردّ هذه الدقة وهذا الإحكام الذى ميز الكتابة التاريخية عند النويرى ، والذى يتجلى لقارئه ، راجعا إلى أنه كان من أهل الحديث ومن ذوى الدراية بعلومه . ولعله يعد فى ذلك رائدا لعالمين من العلماء الأفذاذ ، واثنين من كبار مؤرخى الإسلام ، ونعنى بهما معاصريه : الإمام الذهبي (٧٨٤ هـ) صاحب كتاب « تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » ، وأبا الفدا اسماعيل بن كثير (٧٠١ — ٧٧٥ هـ) مع اختلاف منهج كل منهما فى استخدام علم الحديث لدى كتابة التاريخ (١) .

غير أننا نستطيع أن نرد بعض هذه الدقة إلى التقاليد المهنية التى كانت قد استقرت فى عصر النويرى لمهنتى الكتابة والنسخ ، ولا سيا نسخ التاريخ ، وهذه التقاليد تقتضى من ناسخ التاريخ أن يلتزم بتعلم أشياء بعيدة الغور ، والنويرى نفسه يتحدث عن هذه التقاليد بقوله : « وأما من ينسخ التاريخ : فإنه يحتاج إلى معرفة أسماء الملوك وألقابهم ونعوتهم وكناهم ، خصوصا ملوك العجم والترك والخوارزمية ، والتتار ، فإن غالب أسمائهم أعجمية لا تفهم إلا بالنقل ، ويحتاج الناسخ إذا كتبها تقييدها بضوابط وإشارات وتنبيهات تدل عليها . وكذلك أسماء المدن والبلاد والقرى ، والقلاع والرساتيق ، والكور والأقاليم ، فينبه على ما تشابه منها خطاً ، واختلف لفظا ، وما تشابه خطا ولفظا ، واختلف نسبه ، نحو (مرو) و (مرو) إحداهما (مرو الروذ) والأخرى (مرو الشاهجان) ، (والقاهرة) (والقاهرة) إحداهما (القاهرة المعزية) ، والأخرى (القلعة القاهرية)

---

(١) لا نعنى بهذا أن محاولة النويرى استخدام علم الحديث فى كتابة التاريخ الإسلامى العام هى أول محاولة فى هذا المجال ، فقد سبقتها محاولات أخرى ونذكر منها كتاب « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (توفى عام ٥٩٧ هـ) الذى يوقره مصنفنا (راجع فيما سبق ص ٢٤٢) ، ولكن النويرى لم يشر إلى المنتظم فى نهاية الأرب ، ويبدو أنه لم يفد منه .

التى هى (بزوزن) التى أنشأها مؤيد الملك صاحب (كرمان) فإن الناسخ متى أطلق اسم القاهرة ولم يميز هذه بمكانها ونسبتها تبادر ذهن السامع إلى القاهرة المعزية لشهرتها دون غيرها » (١) .

فإذا كان هذا حال ناسخ التاريخ ، فما بالك بالمؤرخ نفسه ؟ لابد أن يكون متقنا كل الإتقان وعارفا قدر الجهد بما يكتب .

منهج النويرى فى الكتابة التاريخية :

وإذا كان النويرى يعد أستاذا لكل من الحافظ الذهبى ، والحافظ ابن كثير فى المزج بين الحديث والتاريخ ، وتوظيف الدراية بعلوم الرواية فى خدمة المادة التاريخية ، فلقد راودته نفس الأفكار التى راودت العلامة عبد الرحمن بن خلدون (توفى ٨٠٨ هـ) فى سياقة الأحداث على حسب الدول لا على حسب السنين . فلقد توقف النويرى فى قبول الطريقة التقليدية فى الكتابة التاريخية فى عهده ، وقال : « لما رأيت غالب من أرّخ فى الملة الإسلامية ، وضع التاريخ على حكم السنين ومساقها ، لا الدول واتساقها ، علمت أن ذلك ربما قطع على المطالع لذة واقعة استحلاها ، وقضية استجلاها ، فانقضت أخبار السنة ، ولا استوعب تكملة فصولها ، ولا انتهى إلى جملتها وتفصيلها ، وانتقل المؤرخ بدخول السنة التى تليها من الوقائع وأخبارها . . فتنقل من الشرق إلى الغرب ، وعدل عن السلم إلى الحرب . . وقد تجول به خيل الاستطراد فيبعد ، وتحول بينه وبين مقصده السنون فيغور تارة وتارة ينجد ، فلا يرجع المطالع إلى ما كان قد أهمه إلا بعد مشقة . . » (٢) . واهتدى النويرى إلى نفس الفكرة التى اهتدى إليها خلفه ابن خلدون بعد أكثر من نصف قرن من الزمان ، يقول النويرى : « فاخترت أن أقيم التاريخ دولا ، ولا أبغى عن دولة إذا شرعت فيها حولا ، حتى أسردها من أوائلها إلى أواخرها ، وأذكر جملا من وقائعها ومآثرها ،

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٣٢ .
(٢) نهاية الأرب ١٣ : ٢ .

وسياقة أخبار ملوكها ، ونظم عقود سلوكها ، ومقر ممالكها ، وتشعّب مسالكها ، فإذا انقضت مدتها ، وانقرضت عدّتها . . . رجعت إلى غيرها فقفوت أثرها ، وشرحت خبرها » (١) .

والحق أن النويرى التزم بهذه الخطة التزاما كاملا (٢) فتفادى بذلك ما وقع فيه المؤرخون السابقون والمعاصرون من خطأ فنى لسياقة الأحداث على حسب السنين ، وهى الطريقة التى يسميها المستشرقون « صنعة الفسيفساء لانفصال أجزائها بعضها عن بعض ، والتى بها تنعدم قدرة المؤرخ على توضيح تسلسل الحوادث ، ويعجز عن تفسيرها وفلسفتها » (٣) .

وقد بلغ من حرص النويرى على التزام هذه الخطة فى ذكر أخبار كل دولة وحدها أنه لم يخلط أخبار الدولة الأموية بأخبار الدعوة لبنى العباس ، مع أن الدعوة العباسية بدأت قبل انتهاء الدولة الأموية بمدة طويلة ، ولم يكن ثمت عيب فى ذكرها ضمن أخبار الدولة الأموية ، ولكن النويرى التزم بسياقة أخبار الأمويين إلى نهاية دولتهم ، ولم يخلط تلك الأخبار بإرهاصات الدولة العباسية « جريا فى ذلك على القاعدة التى قدمناها » (٤) ، كما يصرح بنفسه .

بل إن النويرى اختط هذه الخطة نفسها على مستوى أقل من مستوى الدول ، ونعنى به مستوى الخلفاء والحكام (٥) . فهو يبدأ بعد ذكر تنصيب الخليفة بالتعريف بشخصيته ، ثم ذكر الغزوات والفتوحات فى عهده ، ثم ذكر الأحداث التى جرت فى زمنه وفقا للسنين . وقد ظل النويرى يهتم بتقديم الغزوات والفتوح فى عهد توسع الدولة الأموية (٦) حتى تقلصت هذه الفتوح فى عهد العباسيين .

---

(١) نهاية الأرب ١٣ : ٢ — ٣ .
(٢) انظر نهاية الأرب ٢١ : ٢٣٣ .
(٣) عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية ، ص ٢٩٦–٢٩٧ .
(٤) نهاية الأرب ٢١ : ٥٣٨ .
(٥) انظر مثلا خلاف الحجاج مع عبد الرحمن الأشعث ٢١ : ٢٣٣ .
(٦) مثلما فعل فى عهد الوليد بن عبد الملك ٢١ : ٢٨٢ .

ولقد لاحظ النويرى أن دائرة الانتفاع بفن التاريخ واسعة جدا ، فهى تضم أجناسا شتى ، وأنواعا متفرقة من الناس ، من الملك والأمير إلى الغنى والفقير ، وتتفاوت درجة انتفاع كل صنف من هذه الأجناس بقدر حاجته إلى هذا الفن ، يقول المؤلف : « والتاريخ مما يحتاج إليه الملك والوزير ، والقائد والأمير ، والكاتب والمشير ، والغنى والفقير ، والبادى والحاضر ، والمقيم والمسافر » .

« فالملك يعتبر بما مضى من الدول ومن سلف من الأمم ، والوزير يقتدى بأفعال من تقدمه ممن حاز فضيلتى السيف والقلم ، وقائد الجيش يطلع منه على مكايد الحرب ، ومواقف الطعن والضرب ، والمشير يتدبر الرأى فلا يصدره إلا عن رويّة . . . والكاتب يستشهد به فى رسائله وكتبه . . والغنى يحمد الله تعالى على ما أولاه من نعمه ورزقه من نواله . . . والفقير يرغب فى الزهد لعلمه أن الدنيا لا تدوم . . . ومن عدا هؤلاء يسمعه على سبيل المسامرة ، ووجه المحاضرة والمذاكرة ، والرغبة فى الاطلاع على أخبار الأمم ، ومعرفة أيام العرب وحروب العجم » (١) .

على أن هناك صنفا آخر من الناس — وهم الكتّاب — الذين تقتضيهم طبيعة مهنتهم أن يلموا بهذا الفن إلماما شاملا ، وهذا الإلمام بالتاريخ يعد جزءا لا يتجزأ من إعدادهم وتكوينهم ككتّاب بارعين : « لما فى ذلك من الاطلاع على سير الملوك وسياستهم ، وذكر وقائعهم ومكايدهم فى حروبهم ، وما اتفق لهم من التجارب ، فإن الكاتب قد يضطر إلى السؤال عن أحوال من سلف ، أو يرد عليه فى كتاب ذكر واقعة بعينها ، أو يحتج عليه بصورة قديمة لا يعرف حقيقتها من مجازها ، وقد أوردنا فى فن التاريخ ما لا يحتاج الكاتب معه إلى غيره من هذا الفن » (٢) .

والحق أن هذا التنوع فى أجناس الناس التى تحتاج إلى معرفة التاريخ قد جعل النويرى يلزم نفسه بتقديم المادة التاريخية واضحة جلية ، بريئة

---

(١) نهاية الأرب ١٣ : ١-٢ .
(٢) أيضاً ٧ : ٣٢ .

من الصنعة والزينة اللفظية ، وذلك لكى تتمكن كل فئة من هذه الفئات من تحقيق بغيتها بالانتفاع بهذا الفن ، دون مشقة أو عناء ، ومن غير إبهام أو غموض .

ولا شك أن استخدام الزينة اللفظية فى الكتابة التاريخية يضرّ بها إضراراً بليغاً ، وتصبح عناية المؤرخ نفسه منصرفة إلى تحقيق الألوان البلاغية فى تاريخه أكثر من انصرافها إلى شرح الحوادث التاريخية ، وعرضها عرضا مناسبا (١) .

ولذلك نجد أبا شامة المقدسى (توفى ٦٦٥ هـ) صاحب كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » ينتقد الطريقة التى اتبعها العماد الإصفهانى فى كتابة التاريخ فى كتابيه « الفتح القدسى » ، و « البرق الشامى » ، فيقول أبو شامة : « إلا أن العماد فى كتابيه طويل النفس فى السجع والوصف ، يملّ الناظر فيه ، ويذهل الطالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع . . . وانتزعت المقصود من الأخبار . . . وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام » (٢) .

ولم يكن النويرى بأقل مهارة فى استخدام الزينة اللفظية من العماد الإصفهانى ، ولكنه رأى أن يتنكب هذا الطريق ، ويتجافى عن هذا الأسلوب فى كتابة التاريخ ، حرصا على توفير أكبر قدر من الإفادة لقرائه من مختلف الطبقات والمستويات .

تاريخ الأنبيـــاء :

لعل أضعف أقسام نهاية الأرب ، وأكثرها قابلية للنقد ، ذلك القسم الذى دوّن فيه النويرى تاريخ الأنبياء ، وهو القسم الذى يبدأ به النويرى كتابة التاريخ ، وقد استغرق هذا القسم جزءين كاملين : الثالث عشر والرابع عشر من نهاية الأرب .

---

(١) انظر عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية ، ص ٢٩٢ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، طبع مصر ١٢٨٧ هـ .

وربما كان السبب فى تهافت هذا القسم وضعفه راجعاً إلى اعتماده اعتماداً يكاد يكون كاملا على كتابين لا يمكن اعتمادهما كمصدرين رئيسين فى تاريخ الأنبياء وقصصهم ونعنى بهما كتاب « يواقيت البيان فى قصص القرآن » لأبى إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، وكتاب « المبتدأ » لأبى الحسن محمد بن عبد الله المعروف بالكسائى (١) وكلا الكتابين يعتمد على الإسرائيليات ، كما سنرى .

على أن هذا الخطأ الذى وقع فيه النويرى باعتماده على هذين المصدرين يتضاعف إذا لاحظنا أن مصنفنا رجل من أهل الفقه والحديث ، وأنه قد فاته أن يتحقق من صحة المادة التى عرضها فى تاريخ الأنبياء نقلا عن المصدرين المذكورين ، لا سيما وأن هذه المادة تتعلق بتفسير آيات من كتاب الله عز وجل ، كما تتصل بشخصيات اصطفاها الله تعالى من بين خلقه ، لتبلغ إليهم رسالاته .

والحق أن المادة التى قدمها النويرى فى هذا الباب تعد فى جزء منها ، ولاعتمادها على الأسطورة ، منافية للمبدأ القرآنى الخاص برفض الخرافة والأسطورة والتى جاء القرآن الكريم ليحرر العقل الإنسانى منها بحكم أنه وحى إلهى يلتزم الصدق والحق ، وبدلا من أن يتبين النويرى هذا المبدأ القرآنى نجده يتوسع فى استخدام المادة الخرافية والأسطورية لشرح آيات القرآن الكريم ، الذى يرفض أصلاً الخرافة والأسطورة .

ويأتى النويرى — استناداً إلى مصادره — بتفسيرات وشروح لا يقبلها المنطق والعقل ، ويعطينا هذه التفسيرات دون أى تعقيب مما يعنى أنه ربما كان مقتنعا بها ، وقلما نجد له تعقيبا أو نقدا لما يعرضه من مادة .

---

(١) هذان الكتابان لا وجود لهما بالعنوانين اللذين ذكرهما النويرى ، وإنما يحملان اسمين آخرين الأول باسم « قصص الأنبياء المسمى بالعرائس » للثعلبى ، والثانى « العرائس » أو « نفائس العرائس » للكسائى ، ويذكر حاجى خليفة فى كشف الظنون عنوانا آخر للكتاب الأخير ، وهو « خلق الدنيا وما فيها » .

ومن أمثلة تلك الأساطير ما أورده فى أخبار شيث بن آدم عليهما السلام (١) وخبر شديد وشداد بنى عاد (٢) . وشعيب عليه السلام (٣) ، وأنبياء بنى إسرائيل لا سيما سليمان عليه السلام (٤) . وخبر « بلوقيا » وما شاهد من العجائب (٥) ، وأخبار ذى القرنين (٦) ، وغيرها .

كما وقع النويرى — تبعاً لمصادره — فى بعض الأخطاء الكبيرة المنافية للتصور الإسلامى ، نذكر من هذه الأخطاء اعتبار إسحاق عليه السلام هو الذبيح وليس إسماعيل عليه السلام ، وذلك تأثرا بنظرة التوراة ؛ وهذا أكبر تأثير للإسرائيليات على مادة النويرى الدينية (٧) . ومنها أيضا علم إبليس المسبق بأن الله سيفضل آدم على الملائكة،فذهب إبليس يسأل الملائكة « ماذا تفعلون إذا فضل هذا المخلوق عليكم »(٨)، وهذا لا يوافق روح النص القرآنى ، ويجعل من إبليس عالما بإرادة الله وقصده قبل أن يعلن الله سبحانه وتعالى عن هذه الإرادة ، وغير هذا كثير .

وإلى جانب المادة الخرافية الأسطورية اعتمد النويرى — تبعاً لمصادره — على الإسرائيليات اعتماداً كلياً ، ولعل أصدق دليل على ذلك هو ذلك الإسناد المتواصل لمعظم مادته الدينية إلى شخصيات مثل وهب بن منبه ، وكعب الأحبار وغيرهم من رواة الإسرائيليات .

ويبدو أن أغلب المادة الخاصة بأنبياء بنى إسرائيل مأخوذة عن التوراة المحرّفة مباشرة ، وعن مصادر يهودية أخرى . وقد استخدمت هذه المصادر دون تحقيق ودون تعقيب حتى فى حالة تعارض الشروح اليهودية مع التصور

---

(١) انظر نهاية الأرب ، ١٣ : ٣٥-٣٦ .
(٢) أيضا ، ١٣ : ٧٠ وما بعدها .
(٣) أيضا ، ١٣ : ١٨٨ .
(٤) أيضا ، ١٤ : ٧٠ وما بعدها .
(٥) أيضا ، ١٤ : ١٨٢ وما بعدها .
(٦) أيضا ، ١٤ : ٢٩٨ وما بعدها .
(٧) أيضاً ، ١٤ : ١٢٠ وما بعدها .
(٨) نهاية الأرب ١٣ : ١١ .

القرآنى ، كما ذكرنا . ليس هذا فحسب ، بل نجد هناك إشادة بالتوراة ، التى ورد فى كتاب الله عز وجل أنها حرّفت عن مواضعها ، وقد جاءت هذه الإشادة على لسان كعب الأحبار ، الذى ينقل عنه النويرى قوله : « والذى نفس كعب بيده ، ما خلق الله تعالى فى الأرض شيئاً إلا وقد فسره فى التوراة لعبده موسى تفسيرا ، وأن هذا القرآن أشد وعيدا ، وكفى بالله شهيـــدا » (١) .

ويبدو أن هذا الإكثار من المادة القصصية فى القسم الخاص بتاريخ الأنبياء قد فتح الباب واسعاً أمام تلك الإسرائيليات فأصبحت سمة غالبة على ذلك القسم .

والظاهر أن مصنفنا كان مقتنعا بنقل هذه الأحاديث وغيرها، وأراد بدوره أن يسهم بنصيب فى تأكيدها وتعزيزها ، فهو يسوق حديثا منسوبا إلى ابن عباس رضى الله عنهما بشأن المسخ وآياته فى بنى إسرائيل ، يقول : « قال ابن عباس — رضى الله عنه — أول الآيات العصا ، وآخرها الطمس ، وبلغنا أن الدنانير والدراهم صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا، وجعل سكّرهم حجارة ، وبعض المسخ من الآدميين باق مشاهد إلى وقتنا هذا ، وقد شاهدت أنا منه شخصا شكل خادم وهو جالس على كرسى بقرب البيت الأخضر ببلاد الجيزية ، وذلك فى شهور سنة سبع عشرة وسبعمائة ، ولعله من ذلك المسخ» (٢) .

على أن النويرى لاحظ متأخرا — فى أواخر القسم الخاص بتاريخ الأنبياء — أنه لا يستطيع أن ينساق أكثر من هذا وراء مصادر تعتمد على الإسرائيليات فبدأ بعد أن اختتم حديثه عن الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — يتحدث عن علامات الساعة ومنها نزول عيسى — عليه السلام — وضرب صفحا عما ذكره « أهل السير » فى هذا الموضوع ، يقول : « لما رأيت أهل السير

---

(١) نهاية الأرب ١٣ : ٦٧ .

(٢) نفسه : ٢٠٦ .

قد أكثروا من القول فى نزول عيسى عليه السلام وزادوا القول ونقصوا منه عدلت عن أقوالهم ، وأوردت ما أذكره من ذلك من الحديث النبوى وكذلك خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم . . . وهذه الأحاديث خرّجتها من كتاب السنن للإمام الحافظ أبى عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزوينى ، رحمه الله » (١) .

والحق أن النويرى لم يعتمد من كتب الحديث على سنن ابن ماجة فحسب فى كتابة « التذييل » أو الجزء الملحق بتاريخ الأنبياء ، والذى يشتمل على علامات الساعة وخبر قيامها والنفخة الأولى ، بل يعتمد أيضا على مسند الإمام أحمد ، وتفسير الإمام القرطبى (٢) . وإن كان النويرى يعود سيرته الأولى فيعتمد فى سياقته أخبار ذى القرنين — ضمن القسم الذى ذكر فيه أخبار يأجوج ومأجوج — على كتاب المبتدأ للكسائى مرة أخرى ، وينقل أحاديث وهب بن منبه عنه،غير أن هذه الأحاديث قلّت بشكل واضح عما سبق .

وهكذا بدا لنا أن النويرى حاول فى النهاية أن ينفك من إسار هذا السيل من الإسرائيليات والأحاديث غير المعتمدة ، وهو الإسار الذى أوقع نفسه فيه باعتماده على مصادر مخلوطة بتلك الإسرائيليات . وقد بدت هذه المحاولة متأخرة للغاية .

ويبدو لنا أن النويرى لم يتحرج من نقل كل ما وجده من أخبار خرافية تتعلق ببنى إسرائيل استنادا إلى تفسير لحديث نبوى ورد فى صحيح البخارى عن اليهود ، إذ يقول فى خبر بلوقيا وما شاهده من العجائب : « وهذه القصة تشتمل على عجائب كثيرة ووقائع قد ينكرها بعض من يقف عليها

---

(١) نهاية الأرب ، ١٤ : ٢٧٧ .

(٢) انظر ، نهاية الأرب ١٤ : ٢٩٢–٢٩٩ . وقد حدد النويرى مصادره فى كتابة هذا التذييل بقوله : « مما أورد إن شاء الله تعالى ذلك من كتب الحديث الصحيح النبوى ، ومن كتاب المبتدأ للكسائى ، ومن كتاب العاقبة للشيخ أبى محمد عبد الحق عبد الحق بن عبد الله الأزدى الأشبيلى على سبيل الاختصار » (١٤ : ٢٧٠) .

لغرابتها ، وليست بمستنكرة بعد أن ثبت فى صحيح البخارى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : بلّغوا عنى ولو آية ، وحدّثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج ، ومن كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (١) .

فربما ظن النويرى أنه بالتقاطه - دون تحرج - لكل خبر مكذوب عن بنى إسرائيل ، وإتيانه فى كتابه إنما يمتثل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » لكن مصنفنا يتوسع فى هذا التسامح فلا يقتصر نقله للأخبار المكذوبة على بنى إسرائيل وحدهم ، بل يشمل - كما لاحظنا - سائر المادة التى ساقها فى تاريخ الأنبياء وقصصهم .

النويرى وتناوله للتاريخ الإسلامى :

وبقدر ما أخفق النويرى فى كتابته لتاريخ الأنبياء أجاد فى تناوله لتاريخ الإسلام ، الذى بدأه بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم الخلفاء الراشدين ، ثم الدولة الأموية ، ثم الدولة العباسية حتى انتهائها ، ثم الأمويين فى الأندلس ، ثم تاريخ المماليك حتى قبل وفاته بثلاث سنين أى إلى سنة ٧٣٠ هـ (٢) .

وربما كان أفضل ما كتبه النويرى فى تاريخ الإسلام ، إنما يتمثل فى القسم الخاص بالسيرة النبوية . والواقع أن هذه السيرة الشريفة شهدت فى كلا العصرين الأيوبى والمملوكى ازدهارا كبيرا ، واحتلت مكانا مرموقا فى الشعر والنثر على السواء (٣) . فلا غرو أن أقبل النويرى على الكتابة فى هذا الموضوع الجليل بروح وثّابة ، يريد أن يختط لنفسه طريقا بين كتّاب السيرة فى عهده وقبل عهده فجاء عمله عملاقاً بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

---

(١) نهاية الأرب ١٤ : ١٨٢ .

(٢) تم حتى كتابة هذه السطور طبع واحد وعشرين جزءا من نهاية الأرب تنتهى بانتهاء الدولة الأموية .

(٣) راجع ، عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية ٢٩٥-٢٩٦ .

ورغم حرصه على الاختصار ، وعدم التطويل ، اشتمل القسم الخاص بالسيرة النبوية على ثلاثة أجزاء ، هى : السادس عشر ، والسابع عشر ، والثامن عشر (١) . وأراد بهذا العمل الضخم أن يستوعب كل جوانب السيرة النبوية ، ويناقش ما اختلف العلماء عليه فيها ، وكان مع ذلك حريصا على الاختصار وعدم التطويل .

ولقد بدأ النويرى عمله هذا الكبير بتقسيم موضوعات السيرة إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، خشية التكرار أو الإطناب :

١ — سيرته صلى الله عليه وسلم حتى هجرته .

٢ — مكوثه — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة ، وذكر الحوادث التى تلت الهجرة على حكم السنين ، من السنة الأولى إلى العاشرة سنة وفاته صلى الله عليه وسلم .

وذكره لحوادث السنين يبدو مختصرا ، فهو لا يتوسع فى مناقشة الأحداث ، وربما لم تنل حوادث — كالسنة الثالثة — سوى أربعة سطور (٢) . ويغلب على عرضه للحوادث الطابع الموضوعى ، ويفضله على السرد التاريخى الأصم للوقائع ، فيخصص أثناء تناوله لحوادث بعض السنين عناوين يتناول فيها موضوعات بعينها ، مثلما فعل فى حوادث السنة الأولى فى الموضوعات التالية : ذكر صرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، وذكر خبر الآذان ، وفى حوادث السنة الرابعة : ذكر نزول الحجاب على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم .

٣ — أما القسم الثالث ، فقد خصصه « للغزوات والسرايا والوفود » ، وقد استغرق هذا القسم الجزءين السابع عشر والثامن عشر .

ولقد اعتمد النويرى فى ذلك كله على أوثق المصادر وأكثرها صحة وشيوعا بين الناس فى السيرة النبوية الشريفة ، وفيما يلى بيان بتلك المصادر :

---

(١) من تقسيم دار الكتب المصرية .

(٢) انظر ، نهاية الأرب ١٦ : ٤٠٠ .

— المقدمة الفاضلية — مقدمة لكتاب الأنساب للشريف أبى البركات الجوانى.
— الطبقات الكبرى ، لابن سعد .
— الاكتفاء — لأبى الربيع بن سالم الكلاعى الأندلسى (١) .
— الروض الأنف ، للسهيلى .
— أنساب قريش وبنى هاشم ، للزبير بن بكار .
— الكامل فى التاريخ ، لابن الأثير .
— الكامل ، للمبرد (٢) .
— المعارف ، لابن قتيبة (٣) .
— « الدلائل » ، لأبى نعيم الإصفهانى (٤) .
— الأنساب أو الجوهر المكنون فى القبائل والبطون ، للشريف أبى البركات محمد بن أسعد الجوانى النسابة .
— الكشف والبيان فى تفسير القرآن ، لأبى إسحاق الثعلبى النيسابورى(٥) .
— سيرة ابن إسحاق (٦) .
— سيرة ابن هشام (٧) .
— الاستيعاب ، للقاضى أبى عمر بن عبد البر (٨) .
— المغازى ، للواقدى .

---

(١) طبع هذا الكتاب أخيرا فى جزءين بالقاهرة بتحقيق مصطفى عبد الواحد . وقد أخطأ النويرى فى اسم هذا الكتاب فسماه « الاشتمال » (نهاية الأرب ١٦ : ١١) .
(٢) نهاية الأرب ، ١٦ : ١٦ .
(٣) أيضا ، ١٦ : ١٧ .
(٤) أيضا ، ١٦ : ١٨ .
(٥) أيضا ، ١٧ : ١٤١ .
(٦) أيضا ، ١٦ : ٢٢—٣٠ .
(٧) أيضاً ، ١٦ : ٥٢—٥٣ .
(٨) أيضا ، ١٦ : ٥٧ .

— كتاب الشفا ، للقاضى عياض (١) .

— أسد الغابة ، لابن الأثير (٢) .

— الأغانى ، لأبى الفرج الإصفهانى (٣) .

— خير البشر ، لمحمد بن ظفر (٤) .

— دلائل النبوة ، لأبى بكر أحمد بن الحسن البيهقى (٥) .

— صحيح البخارى ، وصحيح مسلم (٦) .

— صفة الصفوة ، لأبى الفرج ابن الجوزى .

— نوادر الأصول ، للترمذى .

— سنن أبى داوود (٧) .

— مختصر السيرة، للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى (أستاذ النويرى) (٨) .

ومن الكتب غير المعروفة أو الضائعة التى ذكر أنه اعتمد عليها :

— المحبّر، لأبى جعفر عبد الملك بن حبيب (٩) .

— المغازى ، لأبى عبد الله محمد بن عائذ الدمشقى .

— مختصر السيرة ، للشيخ عبد القادر محمد بن أبى الحسن الصعبى (١٠)

---

(١) نهاية الأرب ، ١٦ : ٧٣ .
(٢) أيضا ، ١٦ : ٧٧ .
(٣) أيضا ، ١٦ : ٩٥ .
(٤) هو حجة الدين أبو هاشم محمد بن ظفر ، له كتاب فى السيرة النبوية ، طبع مصر ١٢٨٠ هـ .
(٥) نهاية الأرب ، ١٧ : ٢٦٩ .
(٦) أيضا ، ١٦ : ١٥٢ .
(٧) أيضا ، ١٧ : ٢٦٣ .
(٨) أيضا ، ١٦ : ٢٧٧-٢٧٩ .
(٩) أيضا ، ١٦ : ٧٥ .
(١٠) راجع ترجمته فى تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى ٩ : ٢٤٢ .

ولقد استطاع النويرى أن يخرج من هذه المصادر كلها بعمل أقرب إلى الكمال فى ميدان السيرة النبوية ، وأحسن استخدام مصادره ، ووظّفها جميعا لتحقيق الصحة فى المادة التى يقدمها ، يقول فى بعض المواضع ليدل على طريقته :

« قال ابن إسحاق ومحمد بن سعد فى طبقاته، ليس بينهما تناف إلا فى مغايرة بعض الألفاظ أو زيادة أوردها أحدهما دون الآخر ، ونحن نورد ما يتعين إيراده منها . . . » (١) .

ولقد لاحظنا من استقرائنا لمصادره أنه لم يعتمد على ما كتبه كتّاب السيرة وحدهم بل رجع أيضا إلى كتب الحديث الشريف ، للتحقق من صحة قول من الأقوال أو حدث من الأحداث، وحرص فى بعض الموضوعات على أن ينقلها فقط من كتب الحديث وحدها (٢) كحديث الإفك ، الذى نقله من البخارى ، حيث أن الأمر متعلق ببيت النبوة ، وبعلاقة النبى — صلى الله عليه وسلم — بزوجاته .

وأفصح المصنف عن طريقته فى الاعتماد على كتب الحديث فى بعض موضوعات السيرة حين قال : « والأحاديث الصحيحة بصحة الإسراء قد جاءت من طرق كثيرة ، وقد رأينا أن نبدأ منها بأكملها وأجمعها ، وهو حديث ثابت البنانى عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ثم نذكر زيادات عن غيره يتعين ذكرها ، أما حديث ثابت البنانى فهو ما رويناه بإسناد متصل عن مسلم بن الحجاج » (٣) .

ويعتمد على المحدثين فى تصحيح أخطاء المؤرخين ، ذلك أنه لا يطمئن

---

(١) نهاية الأرب ١٦ : ٢٥٣ ، وانظر أيضا ١٧ : ١٦٦ ، وأيضا ١٧ : ١٨٦ .

(٢) غير أن النويرى يورد خبر جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — وجمله التى باعها للنبى — صلى الله عليه وسلم — فى غزوة ذات الرقاع عن محمد بن إسحاق فى حين أن مثل هذه الأخبار ينبغى أن تلتمس عند أهل الحديث لا عند كتاب السيرة،راجع نهاية الأرب ١٧ : ١٦٠-١٦٢ .

(٣) نهاية الأرب ١٦-٢٨٤ .

إلى الخطأ التاريخى الذى وقع فيه المؤرخون حين ذكروا أن محمد بن مسلمة هو الذى قتل مرحب اليهودى فى غزوة خيبر ، فيرجع إلى الرأى الذى قاله المحدّثون من أن الذى قتله كان على بن أبى طالب (١) .

ويعمد النويرى ، انطلاقاً من نظرته الشمولية للتاريخ ، إلى تجميع أخبار متفرقة لم يسبق لها أن جمعت فيما نعلم ، كأخبار المنافقين من الأوس والخزرج ، يقول : « وقد رأيت أن أجمع ما فرقه أهل السير من أخبار المنافقين ، وأضمه بعضه إلى بعض ، وأورده جملة واحدة ، فإن ذلك لم يكن فى وقت واحد ولا فى سنة بعينها ، بل أورده أهل السير بحسب ما وقع ، وعرفوه فى الغزوات وغيرها ، فآثرت جمعه فى هذا الموضع ، وما كان فى غزاة أو حادثة نبهت عليه فى موضعه على ماتقف عليه . . . إن شاء الله تعالى » (٢) .

ولا يكتفى فى ذلك بأخبار المنافقين من العرب ، بل يضيف بحثا آخر عن المنافقين من أحبار اليهود الذين تعوّذوا بالإسلام ، ودخلوا فيه وأظهروه (٣) .

ويترك أخبار المنافقين لينتقل إلى تجميع ما تفرق من أخبار اليهود عامة (٤) .

وهو يزين كل ذلك بالآيات القرآنية الكريمة التى وردت فى شأن المنافقين واليهود على السواء .

والواقع أن بحثه الخاص باليهود خرج بحثا متميزا بما تضمنه من تنسيق وتبويب للمعلومات التى أوردها . كما بدا بحثه الخاص بالبشائر برسول الله — صلى الله عليه وسلم — بحثا فريدا فى بابه من حيث وضوحه وسلاسته وحسن تبويبه (٥) .

---

(١) انظر نهاية الأرب ، ١٧ : ٢٥١ وما بعدها .
(٢) نهاية الأرب ١٦ : ٣٥١ .
(٣) أيضا ، ١٦ : ٣٥٨ .
(٤) أيضا ، ١٦ : ٣٦٢ .
(٥) أيضا ١٦ : ١٠٥ وما بعدها .

والنويرى لا يفوته الشعر والأدب بعامة وهو بين يدى السيرة النبوية ، فهو يمزج السيرة الشريفة بالأمثال العربية (١) ، ويأتى فى حوادث السنة التاسعة بخبر إسلام كعب بن زهير بن أبى سلمى ، وامتداحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويطيل فى ذلك ، ويورد قصيدة « بانت سعاد » ويبين كيف أثر هذا الشعر فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم (٢) . ثم يورد قصيدة أخرى يمتدح فيها كعب الأنصار .

وبرغم هذا العمل الكبير الذى قام به النويرى فى السيرة النبوية ، وكان مؤهلا له بحق باعتباره محدثا ومؤرخا معا ، فإنه يعد نفسه مقصّرا فى عمله ، عاجزاً فيما قام به فالسيرة النبوية — كما يقول المصنف — قد « عجز الواصفون عن وصفها ، واعترف المادحون بالتقصير عن بلوغ اليسير من مدى مدحها :

وإذا أَردتُ لكَ الثَّنَاءَ فَما الَّذِى والله قَد أَثْنى عَلَيْكَ — أَقولُ » (٣)

لكن عمل النويرى فى خدمة السيرة الشريفة يشهد له بأنه قد اجتهد فأصاب أجرين .

* * *

وبعد انتهائه من السيرة النبوية ، التى خصص لها الأجزاء الثلاثة ، من السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، ينتقل إلى تاريخ الخلفاء الراشدين ، ويبدأ بذكر خلافة أبى بكر الصدّيق — رضى الله عنه — فيتحدث عن نسبه وصفته (٤) ، ويتناول قضية هامة جدا ، ربما لم يتناولها غيره من

---

(١) راجع مثلا ١٧ : ٦٠ .

(٢) راجع فى تحليل هذه القصيدة والتدليل بها على تهافت مقولة عداء الإسلام للشعر ، الدكتور إبراهيم عبد الرحمن : قضايا الشعر فى النقد العربى ، طبع مصر ١٩٧٧ م ، ص ٢٩٩ وما بعدها .

(٣) نهاية الأرب ١٦ : ٢ .

(٤) كان النويرى ينتمي كما ذكرنا فيما سبق إلى الصديق رضي الله عنه .

المؤرخين ، وهى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد استخلف أبا بكر على أمته من بعده . وينقل ما قاله الفقيه الحافظ أبو عبد الله بن عبد البر صاحب الاستيعاب ، فى هذا الشأن .

وبعد أن يتحدث عن بيعة أبى بكر . وخبر السقيفة يسوق أهم الأخبار التى جرت فى عهده ، ويبدأ بتحديدها على هذا النحو :

١ - بعث أسامة بن زيد .

٢ - حروب الردّة .

٣ - فتوح العراق والشام .

وبعد أن ينتهى من هذه الأحداث الهامة ، يبدأ بذكر أحداث أخرى أقل أهمية من السابقة على ترتيب السنين .

ويتبع النويرى نفس الطريقة فى ذكره لأخبار سائر الخلفاء الراشدين ، يعرّف أولا بشخصية الخليفة ، وصحبته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويسوق أهم الأحداث فى خلافة كل خليفة ، ثم يذكر الأحداث الأخرى متفرقة على حسب السنين .

وهو يعنى عناية خاصة بالفتوحات . فيقدّمها على ما سواها من الأحداث . وإذا تعددت الفتوحات ، لم يذكرها جملة ، كما فعل فى عهد عمر - رضى الله عنه - بل يذكر فتوح كل بلد على حدة ، فيذكر أولا فتوح الشام ، ثم فتوح العراق ، ثم فتوح مصر « لتكون الفتوحات متوالية ، ولا ينقطع خبرها بأخبار غيرها ، ولا يتداخل فتوح بفتوح » .

والنويرى وإن كان قد اعتمد على مصادر التاريخ العام كالطبرى ، وابن الأثير فى سياقته لأخبار الخلفاء الراشدين ، فإنه يعنى عناية خاصة بفتوح مصر خاصة ، فهو ينقل عن كتاب « فتوح مصر » لابن عبد الحكم الذى يصل فى إسناد أخباره إلى جماعة ممن حضروا الفتح (١) . كما ينقل

---

(١) راجع نهاية الأرب ١٩ : ٢٨٤ وما بعدها ، وانظر أيضا ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، طبع أوروبا ١٩٢٠ م .

عن « مروج الذهب » للمسعودى أخبار الإسكندرية وفتوحها(١) . ومغازى الواقدى (٢) ، وينقل عن أبى الفرج الإصفهانى أخبارا لبعض الصحابة . ويعتمد أيضا على العقد الفريد (٣) ، كما ينقل من كتب الصحاح بعض الأخبار (٤) . وينقل أيضا عن سنن الترمذى (٥) .

وإلى جانب الفتوحات ، والأخبار — على حكم السنين — يهتم المصنف بذكر سير بعض الرجال من ذوى التأثير فى مجرى الأحداث (٦) . كما يعمد إلى الحديث عن تاريخ بعض المدن القديمة عند تناوله لفتوح هذه المدن ، كالنبذة التى ذكرها عن تاريخ مدينة دمشق ، ومدينة الإسكندرية (٧) .

والحق أن النويرى قد عنى — فى سائر أقسام كتابه — عناية بالغة بأخبار مصر وتاريخها، ويدفع عن نفسه ما قد يثور من أقاويل بأنه لم يوفـها حقها فى كتابه ، فقال عند حديثه عن أخبار الإسكندرية وبنائها وما اتفق فى ذلك من الأعاجيب : « وربما اعترض علىّ معترض لم يطالع مجموع ما ألـفت، ولا وقف على جملة ما صنـفت، فيقول كيف اقتصر على فتوح مصر على مجرده ، وهى أصل بلاده وقاعدة عباده ، وبسط القول فى الإسكندرية وهى على الحقيقة من مضافاتها ، وولاية من جملة ولاياتها ! . . . وليس الأمر — ولله الحمد — كذلك ، لأنا ذكرنا أخبار مصر فى كتابنا هذا فى أربعة مواضع سلفت منه . . فلا اعتراض بعد ذلك علىّ ولا تقصير تنتسب نسبته إلىّ » (٨) .

---

(١) انظر نهاية الأرب ١٩ : ٣١٣ .
(٢) نفس المصدر ٢١ : ١٣١ .
(٣) نفس المصدر ٢١ : ٢٤٦ .
(٤) نفس المصدر ٢ : ٣٥٩ .
(٥) نفس المصدر ٢١ : ٣٤ .
(٦) انظر ١٩ : ٣٤٦ فى ذكر عزل المغيرة بن شعبة ، وانظر أيضا ١٩ : ٤٢٩ فى خبر أبى ذر الغفارى ، وأخبار طلحة والزبير ، والحكم بن العاص فى الجزء العشرين .
(٧) انظر ١٩ : ١٥٧ وما بعدها ، ص ٣١١ وما بعدها ، وتختلط الأسطورة بالتاريخ فى هذا الموضع .
(٨) نهاية الأرب ١٩ : ٣١٢–٣١٣ .

والحق أن مصر — فى صفاتها وخصائصها . ونيلها ومبانيها وآثارها . وأخبار ملوكها الأوائل . وعجائبها — كل ذلك قد حظى باهتمام المصنف وعنايته ، ولا عجب فى ذلك . فالنويرى قد أحب بلده مصر حباً ملك عليه فؤاده ، وآثرها على ما عداها من الأماكن والبقاع ، وبدا حبه وإيثاره واضحا كل الوضوح فى كتاباته عنها .

كما أخذ النويرى يصحح الأخطاء التى تتعلق بمصر فحدد بما لا يدع مجالا للشك تاريخ فتحها . وحسم الخلاف فى هذه المسألة فقال : « وقد اختلف فى السنة التى فتحت مصر فيها ، فقيل فى سنة عشرين ، وقيل سنة ست وعشرين . والصحيح أنها فتحت قبل عام الرمادة ، وكان عام الرمادة فى سنة ثمانى عشرة ، فإن عمرو بن العاص حمل منها الطعام إلى المدينة فى بحر القلزم . على ما نذكره إن شاء الله تعالى فى حوادث السنين » (١) .

ولا يصحح النويرى الأخطاء التى تتعلق بتاريخ مصر فحسب ، بل ينقد الروايات المتصلة بفتوحات فلسطين والشام ، يقول : « هذه الوقعة قد ذكرها ابن الأثير — رحمه الله تعالى — بعد وقعة اليرموك،واعتمد فى ذلك على أبى جعفر الطبرى رحمه الله ، فإنه أوردها على منواله ، ويقتضى سياق التاريخ أن تكون مقدمة على وقعة اليرموك ، وذلك أن . . . . الخ» (٢).

ولا يريد النويرى أن يقع فيما وقع فيه بعض المؤرخين من العيب على بعض الصحابة وسب عثمان — رضى الله عنه — يقول : « وذكر البلاذرى فيما حكاه عن أبى ذر الغفارى كلاما كثيرا وقع بين عثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب — رضى الله عنهما — بسبب ذلك أغضينا عن ذكره » (٣) .

وعثمان — وسائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين — مبرّأون من العيوب ، يقول النويرى : « وقد ذكر بعض من أرّخ أسبابا كثيرة جعلها

---

(١) نهاية الأرب ١٩ : ٢٨٤ .

(٢) أيضا ١٩ : ١٢٠ .

(٣) أيضا ١٩ : ٤٤٤ .

من أقدم على قتل عثمان ذريعة له ، وتمسك بها ، أغضينا عن ذكرها ، وهو رضى الله عنه مبرأ من كل سوء ونقص ، فلنذكر خلاف ذلك » (١) .

* * *

وينتقل مصنفنا بعد ذلك للحديث عن أخبار الخلافة الأموية ، لكنه لا ينسى — مع ذلك — أخبار آل البيت ، وما كان من أمر الحسن والحسين ، رضى الله عنهما ، فيخصص جانبا كبيرا من الجزء العشرين للحديث عن مقتل الحسين بن على ، يقول : « ولنبدأ بخبر مسيره من مكة شرفها الله تعالى ، وسبب مسيره ، ومن أشار عليه بالمقام بمكة وترك المسير إلى الكوفة ، ثم نذكر ما كان من خبره فى مسيره إلى أن قتل — رضى الله عنه » .

وتستغرق هذه الأخبار ثلاثا وسبعين صفحة من القطع الكبير فى الجزء العشرين ، وقد بدت شخصية المؤرخ واضحة إلى حد بعيد فى تناوله لبعض هذه الأحداث ، ولا سيما فى تحقيق ما ورد من اختلافات فى مقر رأس الحسين — رضى الله عنه ، وأين دفن (٢) .

ويعتمد المصنف — فى سياقته لأخبار الدولة الأموية — على عدد من المصادر أهمها : « الكامل فى التاريخ » لابن الاثير (٣) . كما اعتمد على تاريخ الطبرى وفتوح البلدان للبلاذرى ، كما يذكر أنه اعتمد على مصادر أخرى ، ككتاب « الداعى إلى وداع الدنيا » للاستّرباذى (لعله الاستّرابادى) (٤) وكتاب « سيرة الصالح بن زريك » لمحمد بن القاضى المكين (٥) ، وكتاب « تاريخ دمشق » لأبى القاسم بن عساكر (٦) .

---

(١) نهاية الأرب ١٩ : ٥٠٦ .
(٢) انظر نهاية الأرب ٢٠ : ٤٧٦ .
(٣) راجع مقدمة المحقق للجزء الحادى والعشرين .
(٤) نهاية الأرب ٢٠ : ٤٧٧ .
(٥) أيضا ٢٠ : ٤٧٨ .
(٦) أيضا ٢١ : ٣٢٤ .

وكدأبه فى نقد الروايات التاريخية ، يستخدم النويرى درايته فى تصحيح هذه الروايات أو الإضافة إليها ، فهو يصحح رواية نقلها عن ابن الأثير ، حين أورد نصيحة معاوية لابنه يزيد عندما أشرف معاوية على الموت ، وجاء فى هذه النصيحة تحذير ليزيد من أربعة رجال من قريش من بينهم عبد الرحمن بن أبى بكر ، يقول النويرى — الذى يصل نسبه إلى عبد الرحمن ابن أبى بكر نفسه ، والذى لا شك أنه كان على دراية بسيرته : « هكذا فى هذه الرواية ذكر عبد الرحمن بن أبى بكر ، والصحيح أنه مات قبل معاوية » (١) .

كما يضيف النويرى إلى بعض الروايات — فى تاريخ الدولة الأموية — معلومات معاصرة من عنده ، ففى ذكر وفاة الوليد بن عبد الملك يقول إن وفاته كانت بدير مران سنة ٩٦ هـ ، ويضيف : « ودير مران كان بجبل قاسيون بظاهر دمشق ، وهو الآن مدرسة وتربة منسوبة إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن العادل بن أيوب » (٢) .

والمصنف — وإن كان يبدو أنه لا يحب يزيد بن معاوية لأنه حرّض على قتل الحسين ، ولأنه بعث جيوشه لتنهب المدينة المنورة فيما عرف عندئذ « بوقعة الحرة » فى سنة ثلاث وستين — يدفع عنه أبياتا نسبت إليه يقول:
« وقيل إن يزيد بن معاوية لما بلغه ما كان من خبر هذه الوقعة قال :

لَيتَ أَشْيَاخى بِبَدْر شَهِدُوا ... جَزَعَ الخَزْرَجِ مِن وَقْعِ الأَسَلْ
لأَهَلُّوا واسْتَهلُّوا فَرَحَاً ... ثُمَّ قَالُوا يَايَزِيدُ لا تَشَلْ
لَسْتُ من عُتْبَةَ إن لم أَثْأَر ... مِنْ بَنى أَحمدَ مَا كَانَ فَعَلْ

هكذا حكى عن بعض المؤرخين ، والذى أعتقده أن هذه الأبيات مفتعلة عنه ومنسوبة إليه ، فإنها لا تصدر إلا ممن نزع ربقة الإسلام من عنقه » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٢٠ : ٣٦٦ .
(٢) أيضا ٢١ : ٣٣٥ .
(٣) أيضا ٢٠ : ٤٩٥ .

على أن النويرى يذكر خبرا يبدو أنه يمثل رأيه الجامع فى بنى أمية ، وذلك من خلال إيراده حديثا للحسن بن على — رضى الله عنهما — فقال : « وروى أنه لما سار الحسن — رضى الله عنه — عن الكوفة [بعد تنازله لمعاوية] عرض له رجل فقال : يا مسوّد وجوه المؤمنين . فقال : لا تعذلنى ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى بنى أمية ينزون على منبره رجلا رجلا ، فساءه ذلك فأنزل الله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر » وهو نهر فى الجنة ، و « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر » يملكها بعدك بنو أمية » .

ويبدو أن النويرى قد اعتمد هذا الحديث فى نظرته الشاملة للدولة الأموية فقال تعقيبا عليه : « وقد خرّج هذا الحديث أهل الصحة . وكانت دولة بنى أمية ألف شهر » (١) ، فقد أثبتت الأحداث فى دولة بنى أمية ، والمدة التى تولتها صحة هذا الحديث .

* * *

(١) نهاية الأرب ٢٠ : ٢٨٨-٢٨٩ .

الباب الرابع

الثقافة النقدية والبلاغية فى نهاية الأَرب

الفصل الأول : مفهوم النقد عند النويرى .

الفصل الثانى : آراؤه النقــدية .

الفصل الثالث : البلاغة فى نهاية الأرب .

الفصل الأول

مفهوم النقد عند النويرى

يتعين علينا بادىء ذى بدء أن ننظر لرأى « النويرى » إلى الأدب وأهدافه حتى نستطيع أن نتعرف بعد ذلك على مفهومه للنقد ، وعلى حجم ثقافته النقدية، تلك الثقافة التى كانت — فى واقعها — انعكاسا لنظرته إلى الأدب .

الأدب عند النويرى : حدوده وغاياته :

لقد نظر النويرى إلى الأدب — كما أسلفنا — (١) على أنه يضم كل المعارف الإنسانية والخبرات البشرية التى يكتسب بها الإنسان علما ، أو يجتنى — من خلال معرفتها — فضلا ، فشمل الأدب عنده فنونا شتى ، قد لا نعدها اليوم — فى عصر التخصص الدقيق — ضربا من ضروب الأدب أو قسما من أقسامه .

ولقد شمل الأدب عنده — من خلال نظرته تلك — فنوناً خمسة ، هى : الأول : فى السماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية ، الثانى : فى الإنسان وما يتعلق به . الثالث : فى الحيوان الصامت ، الرابع : فى النبات ، الخامس : فى التاريخ .

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٠٦ وما بعدها.

هذه هى الفنون الخمسة التى اشتملت عليها « صناعة الآداب » فى رأى النويرى وهى كلها — عنده — فنون أدبية أصيلة ، لا شىء فيها دخيل على الأدب ، يكفى أن يكون موضوع هذه الفنون : الإنسان ، وما يحيط به من مظاهر الطبيعة ، وما يتصل به من حيوان ، ونبات ، وجماد ، وكيف يتأثر هذا الإنسان بهذه المظاهر (١) ، ويؤثر فيها ويستخدمها لرقيه ، وكيف تراكمت لدى هذا الإنسان خبرات توارثها عن أجيال سبقت ، وأمم بادت ، عبر التاريخ البشرى .

والمصنف — وإن كان قد حرص على أن يصبغ المواد التى نطلق عليها نحن الآن « المواد العلمية والتطبيقية » (٢) بصبغة أدبية ، فأورد فيها حكماً بالغة وأقوالا مأثورة وأشعاراً رائعة ، فهو لا يعد هذه الحكم والأقوال والأشعار بحد ذاتها دخيلة على المادة ، ولا يقصد أن يزينها بها ، بل هى داخلة فى صميم المادة العلمية ، وجزء لا يتجزأ منها .

هذا الشمول والتداخل ، وهذه الوحدة فى المعرفة الإنسانية التى وقف النويرى الجانب الأخير من حياته على تأكيدها ، قد تبدو لنا فى العصر الذى نعيش فيه غريبة كل الغرابة ، لا يكاد يطبقها إنسان ، ولا سبيل إلى تطبيقها إلا عن طريق طائفة من العلماء تخصص كل منهم فى فرع من الفروع ليحقق لنا هذه الفكرة . لكن الحقيقة أن النويرى تمكن بإرادته الصلبة ، وإصراره ، وإيمانه بالهدف ، أن يطبقها بنفسه فذل له مركبها ، وصفا له مشربها (٣) .

شيوع روح الالتزام فى نقد النويرى :

غير أن النويرى — بحكم نشأته الدينية وعقيدته الصارمة — التزم فى إيراده هذا الكم الهائــل من المواد الأدبية والعلميــة على السواء بمقياس واحد لا يكاد يختل وهو ألا يورد شيئاً يتنافى مع العقيدة السمحاء ، تلك

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٧٠-١٧١ .

(٢) راجع : شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، طبع مصر ١٩٧٦ ، ص ٦٩ .

(٣) انظر : نهاية الأرب ، ١ : ٣ .

العقيدة التى يراها فى الواقع مهيمنة على الفكر والرأى . لا يندّ عنها رأى . ولا يشذّ عنها إلا ما كان ضرباً من الأساطير وصنفاً من الأوهام والوساوس. ولقد التزم النويرى بهذا المقياس فى كل الفنون علمية كانت أم أدبية . فهو — على سبيل المثال — يقول فى الباب الخاص بالكواكب السبعة المتحيرة : « وقد اختص كل كوكب من هذه الكواكب بقول . سنذكر من ذلك ما تقوم به الحجة . وما ينهض به الدليل من الكتاب والسنة . وما يتمثل به مما فيه ذكرها وما ورد فى ذلك من الأوصاف والتشبيهات : نظماً ونثراً . مما وقفت عليه فى أثناء مطالعتى لكتب الفضلاء وتصانيفهم ودواوينهم ، وعدلت عن أقوال المنجمين لما فيها من سوء الطويّة وقبح الاعتقاد ، لأن منهم من يرى أن للنجوم فى الوجود تأثيرات وأفعالا . أعاذنا الله تعالى من ذلك » (١) .

وإذا كان النويرى قد التزم هذا المعيار فيما أورد من مواد علمية فى موسوعته فقد التزمه أيضاً ، وإلى حد كبير ، فى الأدب شعره ونثره . ولقد لاحظنا من خلال دراستنا للمادة الأدبية أنه فى عرضه لأدب الخمر مثلا دخل إلى الموضوع بمدخل فقهى فى تحريم الخمر ، وعدم جواز شربها ، حتّى للمرضى أنفسهم (٢) .

وكان صنيعه فى « باب الغناء والسماع » هو الصنيع نفسه ، حيث بدأ الباب بعرض للآراء المختلفة للفقهاء ، وهى الآراء التى تباينت بين الإباحة المطلقة ، والإباحة المقيدة ، والكراهية والإنكار . وبين التحريم (٣) .

وهو يحاول أن يخضع بعض الموضوعات الأدبية — والتى تبدو بعيدة كل البعد عن مفهومه الأدبى الخاص — لمقاييسه الرصينة الحاسمة ، مثلما فعل فى « باب المجون والنوادر والفكاهات والملح » ، حيث عمد إلى تطويع هذه الفنون لتتوافق مع مفهومه الخاص للأدب ، وأبعد عنها كل شائبة ،

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٤٠ ، وانظر فيما سبق ، ص ٨١ وما بعدها .

(٢) راجع فيما سبق ، ص ١٩٨ .

(٣) راجع فيما سبق ، ص ٢٠٤ .

وأزال عنها كل ما يمس العقيدة والدين ويخرم المروءة والخلق الرفيع . بل وجدناه يعد باب المجون والنوادر ضرورياً لتجديد النشاط والترويح عن النفس ، فهو مما « تنجذب النفوس إليه ، وتشتمل الخواطر عليه ، فإن فيه راحة للنفوس إذا تعبت وكلّت ، ونشاطاً للخواطر إذا سئمت وملّت » (٤) .

وهو عندما أراد أن يورد فصلا فى « هفوات الأمجاد وكبوات الجياد » من الأدباء، نبّه على أنه قد رأى « بعض أهل الأدب ، ممن يستحق الأدب ، تعرض فى هذا الفصل إلى ذكر قصص الأنبياء — صلوات الله عليهم — كآدم ويوسف وداود وسليمان ، فكرهت ذلك منه ، ونزّهت كتابى عنه » (١) . فهذا الأمر ليس بكبوة ولا هفوة بل هو إساءة أدب ، وتطاول على أخيار الخلق ، وهم الأنبياء .

وهذا يماثل صنيعه فى باب « المدح » : « وللشعراء عادة فى تجاوز قدر الممدوح فوق ما يستحقه ، حتى إن ذلك أفضى بكثير منهم إلى الكفر والخروج عن الحد . أعاذنا الله من ذلك » (٢) .

وفى القسم الخاص بما وصفت به الآلات الموضوعة لمعرفة الأوقات ، نقل النويرى شعراً لأبى طالب عبد السلام المأمونى ، وصف فيه آلة من تلك الآلات . فقال :

وعالمْ الغيبِ من غيرِ ما سَمْعٍ . ولا قَلْبٍ ، ولا ناظِرِ

ويعلق النويرى على ذلك بقوله : « لا يعلم الغيب إلا الله » .

لكن النويرى يضع أمام القارىء مثالا آخر أفضل من السابق لالتزامه طريق الشرع والذوق السليم ، فيقول : « قارن بين هذا القول وقول أبى الصلت أمية بن عبد العزيز :

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١ .

(٢) أيضا ٨ : ١٧٥-١٧٦ .

(٣) أيضا ٣ : ١٧٤ .

مسكَنهُ الأَرضُ وهو ينْبِئنا   عن جُلِّ ما فى السماءِ من خَبَر
أبدعَهُ ربُّ فِكْرةٍ بَعُدَتْ   فى اللُّطفِ عن أن تُقاسَ بالفِكَرِ
فاستَوْجبَ الشُّكرَ والثناءَ به   من كلِّ ذى فطنةٍ من البَشَر
فهو لِذى اللُّبِّ شاهدٌ عَجَبٌ   على اختلافِ العُقُول والفِطَر » (١)

معيار الجمال والقبح فى نظرته النقدية :

على أن نطاق التزام النويرى لم يكن محصوراً فى مطابقة ما يورد للشرع . بل فى مطابقته أيضاً لقواعد الأخلاق ، ومراعاته للطبع السليم . ونزولا على ما يتطلبه سمو المشاعر الإنسانية . فالشاعر — عنده — مطالب بالتغنى بالفضيلة من حيث جمالها وبالرقى بمشاعر قارئه وسامعه ، والنهوض بالهمم ، وعدم مجافاة الفطرة .

أما القبح — فى رأيه — فهو الخروج على قواعد الشرع ، ثم على قواعد الخلق الرفيع ، وإلحاق الأذى بكل ما هو عدل وحق ، وإثارة اشمئزاز الفكر والضمير .

على أن هجاء الأخلاق الرذلة — عند النويرى — وإظهارها واضحة جلية أمام العيان ، وتعميق الشعور بالاشمئزاز والنفور منها ، أمر واجب وضرورى يقول : « ويستحق الهجاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأرذال ، والأنذال وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره . وسأذكر جماع ما اتصفوا به من سوء الفعال . . . الخ » (٢) .

لكننا — فى رأى النويرى — ينبغى أن نقبح الأخلاق الوضيعة الرذلة فى ذاتها ولا نعرّض بأسماء من اقترفوها ، لأن هذا التعريض فيه ما فيه من

---

(١) نهاية الأرب ١ : ١٥٣-١٥٤ .
(٢) أيضاً ٣ : ٢٧٦ .

تشنيع عليهم : وإذاعة لمساويهم مما قد يؤدى إلى تفشى هذا الخلق القبيح فى المجتمعات ، وتحريك سلسلة الفساد ، فينتشر الشر بدلاً من أن ينقمع ، يقول : « وقد ذكر أبو الفرج فى كتابه المترجم « بذم الهوى » من افتتن بالأحداث ، وصرح بأسمائهم ، فلم نؤثر التعرض لذلك لما فيه من التشنيع عليهم ، والإذاعة لمساويهم » (١) .

وكما لاحظنا، فيما سبق ، فإن النويرى — من خلال نظرته النقدية (٢) — صب جام غضبه على الأشعار التى لا تتفق ومذهبه الدينى والخلقى لا على شعرائها الذين طالما طلب رحمة الله — عز وجل — ورضوانه وغفرانه لهم (٣).

النويرى بين الالتزام الدينى والتذوق الأدبى :

لكن النويرى لم يستطيع أن يخضع كل المادة التى أوردها لهذا المقياس ، وغلبه ذوقه الشعرى على هذا الالتزام الذى ألزم به نفسه ، ولا غرو فقد أقحم نفسه فى الحديث عن فنون أدبية هى بطبيعتها لا تتفق أصلاً مع مفهومه للأدب ، كالخمر ، والسقاة والندمان ، والمجون . وتشتمل هذه الفنون على أشعار فائقة رائقة ، فغلب الذوق هنا الالتزام (٤) ، واضطر فى بعض الأحيان — كما فى باب المجون — إلى التجاوز بعض الشيء عن التزامه ، فأورد فى آخر باب المجون فصلا بعنوان « ذكر شيء من الشعر المناسب لهذا الباب والداخل فيه » أورد فيه من أشعار هذا الفن « ما رفلت معانيه فى حلل أنفاسها على صفحات أطراسها ، وأهلّت مغانيه بما أودعه لسان

---

(١) نهاية الأرب ١ : ٢٠٣ .

(٢) راجع فيما سبق ، ص ٢٠٤ .

(٣) يسمى الدكتور غنيمى هلال هذا النوع من النقد « بالنقد العذرى » لأنه لا يعبأ بشعر من يتغنون بهذه الغرائز الدنيا . انظر : محمد غنيمى هلال النقد الأدبى الحديث ، طبع بيروت ١٩٧٣ م ، ٣٩٣ .

(٤) لا نعنى بالالتزام هنا المصطلح النقدى الحديث ، الذى ربما نشأ من منطلق ماركسى . راجع الدكتور بدوى طبانه ، قضايا النقد الأدبى ، طبع معهد البحوث والدراسات العربية ، مصر ١٩٧١ ، ص ٥٠ وما بعدها .

القلم صدر قرطاسها من بديع إيناسها ، يضحك سامعه وإن كان ثكلا . ويستوفيه وإن كان عجلا »(١). غير أن لكل مقام مقالا . وهذه الأقوال إنما قيلت فى مقامات وظروف خاصة لا تليق إلا بها ولابد للقارئ أو السامع أن يتصور المناسبة التى قيلت فيها ، وإلا مجّها وتأفف منها . يقول . هذا مع ما فيه من فحش القول الذى إذا تأملته فى موضعه كان أزين من عقود اللآلى وإن لمحته فى غيره كان أقفر من ظلم الليالى » (٢) .

لكن النويرى — مع كل هذا التبرير — لا يزال يشعر بالمسئولية والالتزام. فهو يستغفر الله — عز وجل — لإيراد هذا الشعر . ويسأله « المسامحة لكاتبه ، وقائله ومستمعه وناقله » (٣) .

والحق أننا إذا نظرنا إلى هذه الأشعار وجدناها لا تزيد على خمس قطع من الشعر ، لخمسة من شعراء المشرق والمغرب ، كابن حجاج ، وأبى بكر محمد الخوارزمى . وإذا نظرنا إليها ثانية ، وجدنا أربعاً منها تعالج موضوعاً واحداً وهو « الفساء » . أما الخامسة فهى للحسن بن هانئ . وفيها تعريض غير مباشر بالمرد ، يقول فيها : .

لَلَطمةٌ يلطِمُنى أمـــرَدٌ تـأْخذ منِّى العينَ والفكَّا
أَطيبُ من تفاحةٍ من يَدَىْ ذى لِحيةٍ محشوّةٍ مسِكا

وعلى سبيل المثال ننقل قطعة ممـــا أورده النويرى فى موضوع « الفساء » : « قال أبو سكرة الهاشمى :

وباتَ فى السَّطح معى صاحبٌ من أكرم النَّاس ذَوِى الفَضْلِ
أَفْسُو فَيَفْسُو فَهُوَ لِى مُسْعِدٌ وإنَّمَـــا أُمْلِى ويَسْتَمْلِى »

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ٧٤ .
(٢) أيضا ٤ : ٧٥ .
(٣) نفس الجزء والصفحة .

هذه هى النماذج التى عرضها النويرى ، وهو يكاد يخفى طالعه فى ثنايا أعطافه خجلا من الناس ، لأنه إنما نقل هذه الأشعار التى تخدش الحياء ، وتفزع الذوق السليم ! ! ، لكن الأمر — كما يبدو — وعلى الأقل بمقاييسنا نحن — لا يستأهل ذلك كله ، ولا يستوجب كل المقدمات وأقوال الاستهلال التى ذكرها النويرى . بيد أن هذا كان مذهبه فى نقد الشعر وفنون القول كلها .

هكذا كان الأدب عند « النويرى » ينطوى على وحدة المعرفة الإنسانية أدبية كانت أم علمية . ومن ثم لا ينبغى علينا أن ننظر إلى الجوانب الأدبية الواردة على الأقسام العلمية فى كتابه على أنها جزء دخيل على تلك الأقسام بل هى جزء لا يتجزأ عنها ، وفقاً لمقاييسه . كما كانت غاية الأدب عند النويرى السمو بالمشاعر الإنسانية ، وعدم الإسفاف والغلو فى تمجيد المادة المسخرة للإنسان ، وعدم الإشادة بالهوى الذى يهوى بالإنسان إلى الحضيض .

مجمل القول ، أن الفضيلة ، والتزام طريق الشرع هو معيار النقد عنده ، لكنه فى عرضه لبعض الموضوعات الشائعة فى الأدب العربى ، كالمجون والغناء ، اضطر إلى الخروج عن هذه القاعدة ، وغلبت الحاسة الفنية عنده — إلى حد ما — التزامه الشرعى والخلقى ، فأتى لنا بأشعار ظن بمقاييسه النقدية أنها تنطوى على فحش فى القول . بيد أنه اعتذر اعتذاراً رقيقاً عن إيراد هذه الأشعار ، واستغفر لمن قالها ونقلها وسمعها .

* * *

الفصل الثانى

النويرى وآراؤه النقدية

لا يمكننا أن نزعم أن النويرى كان صاحب مذهب متميز فى النقد الأدبى ، أو صاحب منهج خاص فى تقويم الشعر ، يعدّ به ناقداً يقف على قدم المساواة مع كبار النقاد فى أدبنا العربى . فلم يكن النويرى يهمه « النقد » وفلسفة القول ، بقدر ما كانت تهمه الحالة النفسية لقارئه ، الذى ينتقى له ويختار أجمل ما يؤنسه ويسليه ويعزيه ، ولم يشأ أبداً أن يقحم نفسه بأقوال وآراء من عنده تفسد على قارئه تمتعه بما يقرأ من شعر ونثر ، أو تثقل عليه ، وتزج به فى متاهات وموازنات تنتهى إلى أحكام عقلية حادة تخرج عن دائرة الوجدان ، الذى هو مجال الشعر وميدانه الرحيب . فهو يريد لقارئه أن يستمتع بتلك المختارات التى انتقاها من جيّد الشعر والنثر ، ويهمه أن يحكم القارىء على ذوقه هو فى الانتقاء ، لا أن يوازن القارئ بين أقوال الشعراء . ولذلك كان حرص النويرى شديداً على التزام وحدة الموضوع الذى يعرضه على قارئه ؛ فإذا عرض شعراً أو نثراً فى فن من الفنون لم يعن بأشخاص القائلين ، بل يعنى بموضوع كل فن ، وبوحدة هذا الموضوع . وكثيراً ما عرض أشعاراً — فى نفس موضوع الفن — لشعراء مجاهيل لم يذكر لهم اسما ، ولم يوضّح لهم رسماً ، كما عرض لشعراء معروفين وغير معروفين . لكن كان همه الأول والأخير هو القارىء ، يقدم له ما يمتعه ، ويحرص على عدم الإثقال عليه .

النويرى وموقفه من أبى هلال العسكرى وابن رشيق :

قد يبدو للوهلة الأولى أن النويرى متأثر فى آرائه النقدية بأبى هلال العسكرى فى كتابه « الصناعتين » ،فهو يقتبس كثيراً من أبى هلال ، ويذكر آراء نقدية ينسبها إليه صراحة ، مما يدل على اعتماد النويرى آراء أبى هلال فى النقد وتأييده لها .

ولقد درس الدكتور محمد مندور فى كتابه «النقد المنهجى عند العرب »(١) كتاب « الصناعتين » لأبى هلال . وانتهى إلى أن ذلك الكتاب إنما يعد نقطة تحول من النقد إلى البلاغة ، وأن المنهج الذى اعتمده أبو هلال إنما هو منهج « تقريرى » ومن أخصّ وسائل المنهج الاعتماد على التعاريف والتقاسيم(٢) . وأن أبا هلال كان من المعجبين بمذهب الصنعة الذى أفسد الأدب العربى فى عصوره المتأخرة (٣) .

والحق أن أبا هلال — كما لاحظ الدكتور مندور — عنى عناية بالغة بالبلاغة وعدها « أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ، بعد المعرفة بالله جل ثناؤه » (٤) وعمد أبو هلال — فى كتابه الصناعتين — إلى الإيغال فى تقسيم البلاغة إلى أقسام صارمة ، قد تبدو أمثلتها فى بعض الأحيان مجافية للذوق ، وعدّ ذلك أهم ما ينبغى على الكاتب تعلمه .

غير أننا إذا أمعنا النظر فى آراء النويرى فى البلاغة ، (٥) نجدها تقف على النقيض من آراء العسكرى . فالبلاغة ليست بهذا القدر من الأهمية

---

(١) طبع مصر ١٩٦٩ م .

(٢) راجع ص ٣٢٠ ، ٣٢١ من النقد المنهجى .

(٣) أيضا ، ص ٣٣١ .

(٤) أبو هلال : كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر . تحقيق على البجاوى ، ومحمد أبى الفضل إبراهيم ، طبع مصر ١٣٧١–١٩٥٢ ، ص ١ .

(٥) وهى آراء أخذها فى مجملها عن شهاب الدين محمود الحلبى ، فى كتابه « حسن التوسل » ، راجع فيما سبق ، ص ٢١٤ .

عند النويرى . إنما هى من المكملات لفن الكتابة ، ولا يضطر إلى معرفتها : « ذو الذهن الثاقب . والطبع السليم والقريحة المطاوعة . . . . لكن العالم المتمكن بها متمكن من أزمّة المعانى ، يقول عن علم ويتصرف عن معرفة » (١) ، ومن هذا يتبين أن رأى النويرى فى هذا الصدد مناقض تماماً لرأى أبى هلال . النويرى يعتمد إذن على الذكاء ، وسلامة الطبع ، وجودة القريحة والذوق ، ولا يلقى انتباهاً كبيراً إلى القوالب الجامدة للتعبير عما يعتمل فى وجدان الشاعر ، كأبى هلال .

ولا شك أن النويرى كان معجباً بمذهب الصنعة ، تأثراً بالعصر الذى عاش فيه وتأثراً بأبى هلال وغيره ممن احتفوا بالصنعة . يقول النويرى : « فقد أكثر الشعراء من تشبيهه (يعنى الأقحوان) بالثغور ، وتشبيه الثغور به أكثر فى أشعارهم من تشبيهه بالثغور ، وقد أجاد ظافر الحداد الإسكندرى فى وصفه ، حيث قال :

والأُقْحُوانَةُ تَحْكِى ثَغْـرَ غَانِيةٍ ... تَبَسّمَتْ عنهُ مِن عُجْبٍ ومن عَجَبِ

فى القَدّ والبَرْد والرِّيق الشهِّى وطيـ ... ـبِ الرِّيحِ واللَّون والتفليجِ والشَّنبِ

كشمسةٍ من لُجَينٍ فى زبرجدة ... قد شُرِّفتْ حول مسمارٍ من الذهبِ (٢)

وقال آخر :

والأُقْحُوانةُ تُجلَى وهى ضاحكةٌ ... عن واضحٍ غيرِ ذى ظَلْمٍ ولاشنبِ

كأنَّها شمسةٌ من فضَّة حُرِستْ ... خوفَ الوقوع ، بمسمارٍ من الذهبِ (٣)

ويعلق النويرى على هذه الأبيات بقوله : « وهذا أو الذى قبله من بديع التشبيه وهو أجود من تشبيهها بالثغور وأصنع ، فإنها لا تشبّه بالثغر حقيقة

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٣٥ .

(٢) أيضا ١١ : ٢٨٩ .

(٣) أيضـا .

إلا من وجه واحد ، وهذا قد شبهها بجميع صفاتها وهيئتها » (١) ومن هذا يتبين لنا إعجاب النويرى بالصنعة عموماً ، وبشمول التشبيه وجمع المشبه لصفات المشبه به فى هذا المثال .

والنويرى فى إعجابه بمذهب الصنعة إنما يصدر عن حس فنى أصيل ، وذوق مرهف وتأثر عميق بوقع المعانى والألفاظ ، ولم يكن هو ، أو أبو هلال العسكرى ، وحدهما من المعجبين بالصنعة ، وإنما كان معظم الأدباء - وربما النقاد - يسير على نهجهما ، ولا يعنى هذا أن النويرى - أو أبا هلال - قد غلّبا جانب اللفظ على المعنى ، بل اهتم كلاهما بالتوازن والتوافق بين اللفظ والمعنى جميعاً (٢) .

على أن قضية اللفظ والمعنى كانت قد عولجت منذ زمن طويل ، منذ عصر ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦) الذى رد فى كتابه « الشعر والشعراء » على معاصره « الجاحظ » بأن البلاغة لا تقتصر على اللفظ ، فهى قد تكون فيه فقط ، وقد تكون فى المعنى فقط ، وقد تكون فيهما جميعاً ، فليس اللفظ وحده هو الذى يعطى النماذج الأدبية قيمتها من فن وجمال ، فالمعنى يشركه فى ذلك ، إذ يوصف بالرداءة والقبح كما يوصف بالجودة والجمال (٣) .

وعندما جاء أبو هلال العسكرى ، عقد - فى كتاب الصناعتين - فصلا خصصه للمعنى ، بين فيه متى يكون حسناً مستقيماً يقبله النقاد ، ومتى لا يكون . وعقد للفظ فصلا آخر ، نقل فيه بعض عبارات الجاحظ مبيناً قيمته ، وما يضفيه على النموذج الأدبى من روعة وبيان وبلاغة . وإذا كان العسكرى قد فصل فى الظاهر بين اللفظ والمعنى فإنه عد دور كل منهما مكملا لدور الآخر ، ونقل قول العتابى : « الألفاظ أجساد والمعانى أرواح » (٤) ، وجاء ابن رشيق القيروانى فتبنى - فى كتابه العمدة - نفس الفكرة (٥) .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٩ .

(٢) انظر الصناعتين ، ص ٥٩ وما بعدها .

(٣) انظر شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، ص ١٦٢ .

(٤) كتاب الصناعتين ، ص ١٦١ .

(٥) راجع شوقى ضيف ، فى النقد الأدبى ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

ولقد كان عند النويرى ولوع بالتزاوج والتمازج بين اللفظ والمعنى . وعد ذلك مرة من المرات دليلا على فصاحة العرب الذين أنزل القرآن بلغتهم ، وذلك عندما نقل ما قاله على بن أبى طالب يرثى أبا بكر الصديق — رضى الله عنهما — فى خطبة بليغة — علق النويرى على هذه الخطبة بقوله : « فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب وتأمل هذا النمط الغريب ، الذى جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازها ، وإصابة المعانى وإعجازها . ولا يستكثر على من أنزل القرآن بلغتهم أن يكون هذا القول من بديهتهم » (١) .

على أن هذا التماثل فى الآراء بين النويرى وأبى هلال العسكرى ، لا يعد دليلا على تأثر النويرى بأبى هلال فى آرائه النقدية ، فلقد سبق أن بينا مدى التعارض بينهما حول قضية هامة من القضايا النقدية ألا وهى جدوى البلاغة وضرورتها (٢) .

ويبدو لى أن النويرى لم يفد من كتاب الصناعتين لأبى هلال ، ولم ينقل عنه ، فالآراء والنقول التى أخذها عن أبى هلال العسكرى لم يأخذها من « الصناعتين » ولعله أفاد من كتاب آخر لأبى هلال هو « ديوان المعانى »(٣). فأغلب الظن أن النويرى قد استقى معظم ما نقله عن أبى هلال من ذلك الكتاب ، فهو لا يذكر اسم أبى هلال إلا مقرونا — فى الغالب — بأبيات شعرية عدها أفضل ما قيلت فى بابها ، وهو المنهج الذى اعتمد عليه أبو هلال فى تأليف « ديوان المعانى » . وإذا كان النويرى لم يشر فى مصادره الأدبية إلى « الصناعتين » ، فقد أشار إلى « ديوان المعانى » عندما تحدث عن القصائد التى قيلت فى « القتال فى البحر » وذكر المراكب التى يجرى عليها القتال (٤).

ويعمد النويرى — عند عرضه لفنون الشعر — إلى ذكر أحسن ما قيل فى كل فن من أشعار ، ويعتمد فى ذلك إلى حد ما على أبى هلال ، يقول مثلا : « قال أبو هلال : وهذا من أغرب ما روى من تشبيهات القدماء :

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٧١ ، وانظر أيضا فى تزاوج المعنى واللفظ ٧ : ٨٨ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٨٨–٢٨٩ .

(٣) انظر ، نهاية الأرب ٦ : ١٩٧ مثلا .

(٤) نفس الجزء والصفحة .

كفى حَزنا أنّى تطاللتُ كى أرَى ذُرى عَلمى دُمّخٍ فما يريـان
كأنّهما ، والآلُ يَنْجاب عنهما من البعْد عَيْنا بُرْقُعٍ خِلْقَانِ (١)

« وقال العسكرى : وأنشد بعض أهل الأدب قول ابن أبى ظاهر ، وقال لو استعمل الإنصاف لكان هذا أحسن مدح قاله متقدم ومتأخر ، وهو :

إذا أبو أحمدٍ جادتْ لنا يــدُه لم يُحمد الأجودان : البحرُ والمطرُ
وإنْ أضاءتْ لنا أنوارُ غُرّتِـه تضاءلَ النيرّانِ الشَمسُ والقمرُ (٢)

وقال « أى أبو هلال : ومن المديح القليل النظير قول على بن محمد الأفـوه :

أوفوا من المجدِ والعلياء فى قُلَلٍ شُمٌّ ، قواعدُهنّ البأسُ والجودُ

قال العسكرى : ومن المديح البارع ، قول بشّـار :

ألا أيها الطالبُ المبتغـى نجومَ السماء بسعى أمـمْ
سمعتَ بمكرمةِ ابن العـلاء فأنشأتَ تطلبها لست ثَمْ (٣)

ولا يقتصر النويرى فى نقل هذه النماذج الشعرية البديعة ، التى تعد الأولى فى فنها ، من أبى هلال على المدح ، بل يشتمل ذلك على العديد من الفنون الأخرى كالرثاء ، يقول النويرى : ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مطير الأسـدى :

ألِمّا بمعنٍ ثم قـولا لقبرهِ سقتكَ الغوادى مَربعاً ثم مَرْبعَا
فتًى عيشَ فى معروفه بعد موته كما كان بعد السَّيل مَجْراه مَرْتَعَا

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ١٨٨ .
(٢) نهاية الأرب ٣ : ١٨٨ .
(٣) أيضاً ٣ : ١٨٩ .

أيا قبرَ معنٍ كنتَ أولَ حُفْرةٍ ... من الأرضِ خُطَّتْ للسماحة مَضْجَعَا
ويا قبرَ معنٍ كيف واريتَ جودَهُ ... وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُتْرَعَا
بلى قد وسِعْتَ الجُودَ والجودُ ميِّتٌ ... ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعا
ولما مضى معنٌ مضى الجودُ والنَّدى ... وأَصبح عِرْنينُ المكارِم أَجْدَعا

قال أبو هلال العسكرى : هذه الأبيات أرثى ما قيل فى الجاهلية والإسلام » (١) .

وينقل عن أبى هلال أيضاً قطعتين فى « الخيال » ويتفق معه على أن هاتين القطعتين هما النموذج والمثال الذى أخذ منه المحدثون (٢) أكثر معانيهم فى الخيال (٣) .

ورغم هذا التماثل فى الآراء حول أفضل ما قيل فى بعض ضروب الشعر بين كل من النويرى وأبى هلال ، فإن النويرى لا ينساق كلية وراء أبى هلال ، وحين حديثه عن المدح يعرض لنماذج أخرى بارعة غير تلك التى نقلها من أبى هلال ثم يفضل نموذجا يختلف عن النموذج الذى قدمه أبو هلال على أنه « أمدح بيت قالته العرب » ، يقول النويرى :

« قال أبو هلال العسكرى : سمعت أبا أحمد الحسن بن عبد الله ابن سعيد يقول : أمدح بيت قالته العرب قول النابغة الذبيانى يمدح النعمان ابن المنذر :

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٨٠ .

(٢) من الواضح أن اصطلاح « المحدثين » ينبغى أن يعنى عند أبى هلال العسكرى الذى عاش فى القرن الثالث الهجرى غير ما يعنيه عند النويرى الذى ألف كتابه فى القرن الثامن الهجرى ، لكن يبدو من القرائن أن النويرى يعنى بالمحدثين هنا شعراء العصور الأدبية الإسلامية ، منذ عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى عصره الذى كان يعيش فيه ، ويقابل هذا الاصطلاح « القدماء » أى شعراء العصر الجاهلى .

(٣) راجع نهاية الأرب ٢ : ٢٣٧ .

ألم تر أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً ؟ ترى كلَّ مُلكٍ دونها يتذبذبُ

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يَبدُ منهن كوكبُ»(١)

ويستطرد النويرى فيعمد إلى الإتيان بنماذج أخرى ، فى محاولة للوصول إلى نموذج أفضل مما أتى به أبو هلال ، يقول النويرى : « وقالوا أبدع بيت قيل فى المديح قول النابغة :

فإنَّكَ كالليلِ الذى هو مُدركى وإنْ خلت أنَّ المنتأى عنك واسعُ

وقال الفرزدق :

فلو حملَتْنى الريحُ ثم طَلَبْتَنى لكنتُ كشىءٍأدركتْهُ مقادرُه (٢)

ويوازن النويرى بين هذين البيتين بقوله : « وقول النابغة أبلغ ، لأن الليل أعم من الريح ، والريح يمتنع منها بأشياء، والليل لا يمتنع منه بشىء »(٣

ولم يقتصر النويرى على هذين النموذجين للوصول إلى أمدح بيت قالته العرب ، بل قدم نماذج أخرى لقارئه ووضعها أمامه ليقارن بينها أيها أفصح ، وعلى سبيل المثال فإنه فى الفصل الخاص بالبخل يذكر أبياتاً قيلت فى هذا الباب ، وآراء النقاد فى أبلغ ما قيل فى البخل ، فأبو هلال يفضل قول ابن الرومى الذى يقول :

يُقَتِّرُ عيسى على نفسِه وليس بباقٍ ولا خالدِ

فلو يستطيعُ لِتقْتيرِهِ تَنَفَّسَ مِن مِنخَرٍ واحدِ

رضيتْ لتشتيتِ أموالِه يدى وارثٍ ليس بالحامدِ

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ١٨٢ .

(٢) أيضا .

(٣) أيضا .

أما النويرى ، فرأيه يخالف رأى أبى هلال فى ذلك ويذكر بيتاً آخر لابن الرومى عده من أبلغ ما قيل فى البخل : « وقد ذم الشعراء البخل وهجوا من اتصف به ، فمن ذلك ، وهو أبلغ ما قاله محدث قول ابن الرومى :

الحابسُ الروثِ فى أعفاجِ بغلتِه خوفًا على الحَبِّ من لَقْطِ العصافيرِ(١)

وفى الباب الخاص بالجود والكرم اختار مجموعة من الأشعار التى استحسنها وفضلها على غيرها ، وذلك لجودتها وحسن صياغتها فيقول : وقد وصف الناس أهل الجود والكرم بمدائح ، سنذكر ما استجودناه منها » (٢) ونذكر على سبيل المثال بعض أبيات نقلها لأمية بن أبى الصلت الثقفى ، يمدح فيها عبد الله بن جدعان فيقــول :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك إنَّ شيمتَك الحياءُ

وعلمُكَ بالأُمورِ وأنت قرم لك الحسب المهذبُ والسناءُ

كريمٌ لا يغيِّرُه صـــباحٌ عن الخلُق السنى ولا مساءُ

إذا أثنى عليك المرءُ يوما كفاه من تعرضه الثنـــاءُ

وفى الهجاء يذكر آراء النقاد فى أهجى بيت قالته العرب إلا أنه يستحسن أبياتاً لحسان بن ثابت عدها من الأقوال البليغة فى هذا الباب فيقول : « ومن البليغ قول حسان :

أبناءُ حار ، فلن تلقى لهم شبها ألا التيوسَ على أكتافها الشَّعَرُ

إن نافروا نُفِروا ، أو كاثروا كُثِروا أو قامروا الربحَ عن أحسابهم قُمِروا

كأنَّ ريحهُمُ فى الناس إن خرجوا ريحُ الكلاب إذا ما مسّها المطرُ »(٣)

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ٣٠٩ .
(٢) أيضاً ٣ : ٢١٣ — ٢١٨ .
(٣) أيضاً ٣ : ٢٧٨ .

ويقول أيضاً : « ومما يذم به الرجل أن يكون ثقيلا . . . وأبلغ ما قيل فى هذا المعنى قول بشـــار :

ولقد قلتُ حينَ وَتَّد فى الأَر ض ثقيــلٌ أَرْبَى على ثَهْلانِ

كيف لم تَحْمِل الأَمانةَ أَرضٌ حَمَلت فوقَها أَبا سُفْيـانِ»(١)

وهكذا ، بدا لنا أن النويرى اعتمد على ذوق أبى هلال العسكرى فى نقد الشعر والوصول إلى النموذج الأفضل والمثال الأكمل فى كل فن من الفنون ، لكنه لم ينسق وراءه كل الانسياق ، وظل محتفظاً بحقه — ككاتب موسوعى وأديب ذواق — فى أن يعرض فى موسوعته نماذج أخرى لا تقل روعة عن تلك التى عرضها أبو هلال .

ابن رشيق :

وإذا كان النويرى قد أفاد من أبى هلال العسكرى — سلباً وإيجاباً — فائدة واسعة ، فقد قرأ لابن رشيق القيروانى (٣٩٠ — ٤٥٦ هـ) كتابه « العمدة »(٢) ولكنه — فيما يبدو — لم يسغ آراء ابن رشيق كما ساغ آراء أبى هلال . وربما كان السبب فى ذلك يرجع إلى نقد ابن رشيق — فى بعض المواضع من كتابه « العمدة » — للمتنبى شاعر العربية الفحل ، الذى أعجب به النويرى كل الإعجاب ، وساق لنا الكثير من أشعاره فى مختلف الفنون. يقول النويرى : « وقد أخذ على المتنبى فى قوله يرثى أم سيف الدولة ابن حمـدان :

سلامُ الله خَالقُنا حَنُـوطٌ على الوجْهِ المكَفَّن بالجَمَـالِ

وقالوا : ما له ولهذه العجوز يصف جمالها ! ! ووبخه الصاحب ابن عباد فى قوله فيها :

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ٢٨٣ .

(٢) يبدو أن هذا الكتاب كان يسمى أيضا بالأغانى ، انظر نهاية الأرب ٥ : ٢٢١ .

رُوَاقُ العِزِّ فوقكِ مُسْبَطِرٌّ وملْكُ عَليٍّ ابنِكِ فى كَمالِ » (١)

وينقل النويرى نقد ابن رشيق لهذا البيت . فيقول : « وقال أبو الحسن على ابن رشيق الأزدى فى كتابه المترجم بالعمدة وبالأغانى أيضاً : أشد ماهجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها « بفوقك » فجاء عملا تاماً لم يبق فيه إلا الإفضاء » (٢) .

ويعقب النويرى على رأى ابن رشيق هذا ، فيوافقه عليه . لكنه يقول : « وإن يكن المتنبى أخطأ فى هذا . فلقد أجاد فى غيره . والفاضل من عدت سقطاته ، وحفظت هفواته وفلتاته ، وانظر إلى قوله فى أخت سيف الدولة :

ياأختَ خَيرِ أخٍ يابنتَ خَيرِ أبٍ كِنايةً بهما عن أشْرَفِ النَّسَبِ
أَجلُّ قدركِ أن تُدْعَى مُؤَنثةً ومن يصفكِ فقد سمّاكِ للعربِ

والحق أن ابن رشيق قد نبه — قبل أن يورد هذا النقد — إلى مدى احترامه وتقديره للمتنبى .إذ قال ابن رشيق : « ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات ، ألا ترى ما صنعوا بأبى الطيب — وهو فحل مجود إذا ذكر المحدثون — فى قوله يذكر أم سيف الدولة :

صلاةُ الله خالقنا حنوطٌ على الوجه المكفَّن بالجمالِ

. . . على أن فيها (يعنى القصيدة) ما يمحو كل زلة ، ويعفى كل إساءة »(٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٢٢٠–٢٢١ .

(٢) نهاية الأرب ١٢٢ ، وقارن : أبا على الحسن بن رشيق القيروانى : العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبع بيروت ١٩٧٢ ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

(٣) ابن رشيق : العمدة ٢ : ١٥٤ — ١٥٥ .

ولكن — يبدو أن النويرى ضرب صفحاً عن هذا التنبيه المبدئى الذى أورده ابن رشيق ، وعد كلامه قدحاً فى المتنبى ، شاعره المفضل ، فانبرى للدفاع عن المتنبى والتوهين من رأى ابن رشيق .

وربما كان هذا هو الموضع الوحيد الذى أفاد فيه النويرى بكتاب « العمدة » فى مسألة من مسائل النقد الأدبى ، فالنويرى لم يستخدم هذا الكتاب بعد ذلك إلا مرة واحدة فى حديثه عن أسماء كرام الخيل المشهورة عند العرب ، حيث نقل عن ابن رشيق بعض هذه الأسماء (١) .

وهكذا يتبين لنا أن النويرى لم يفد كثيراً من ابن رشيق فى مجال النقد الأدبى ربما لأنه عده متجنياً على واحد من شعراء العرب الفحول ، ألا وهو المتنبى ، مما صبغ نظرته إلى آراء ابن رشيق النقدية بصفة التشكك وانعدام الثقـة .

التذوق والانتقاء عند النويرى :

اهتم نقاد العرب ببيان دور الذوق فى النقد ، وأهميته فى معرفة الجيد والقبيح ، يقول الآمدى : « ... ويبقى ما لم يمكن إخراجه إلى البيان ، ولا إظهاره إلى الاحتجاج وهى علة ما لا يعرف إلا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة ، وبهذا يفضل أهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ، فمن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد أن يكون هناك طبع فيه تقبّـل لتلك الطبائع وامتزاج وإلا لا يتم ذلك . وأكلك بعد ذلك إلى اختيارك وما تقضى عليه فطنتك وتمييزك » (٢) .

فملكة الذوق عند القدماء يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام : الأول هو الطبع : بمعنى القوة التى فطر عليها الناقد . والثانى الحذق ، بمعنى القوة التى

---

(١) راجع ١٠ : ٤٠ ، كما نقل عن كتاب « مباهج الفكر » أشعارا قالها ابن رشيق فى وصف « الحجل » وهو دجاج البر ، انظر ج ١٠ ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(٢) الآمدى ، الموازنة بين أبى تمام والبحترى . طبع دار المعارف ١٩٥٤ م ، ١ : ٣٨٣-٣٨٤ .

يكتسبها بالدربة والممارسة وطول الاطلاع على آثار الشعراء والكتّاب . والثالث : جماع الاثنين معا ، ويسمى بالفطنة ، وهى امتزاج الطبع بالحذق (١) .

وقد انتقد أستاذنا الدكتور إبراهيم عبد الرحمن هذا النوع من التذوق الشخصى فى دراسته عن « طه حسين وقضية الشعر » ، فلا ينبغى — فى رأى الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن أن نجعل قيمة الشعر الفنية رهينة بما تحدثه من المتعة واللذة فى نفس قارئه . ولا يعنى هذا أن نغفل جانب الذوق كلية وإنما يتعين علينا — إلى جانب هذا الذوق — الوقوف عند البناء اللغوى للشعر وما يتصل به من الصور والأساليب والموسيقى (٢) .

ولم يغفل النويرى — مع احتفاله بالذوق — الجوانب الفنية والجمالية التى لا يكون الشعر شعراً إلا بها . وكان التذوق عنده قائماً — فيما يبدو — على ذلك التوافق العضوى والائتلاف العفوى بين اللفظ والمعنى ، كما سبق أن أشرنا (٣) .

ومهما يكن من أمر فقد اعتمد فى انتقاء الآثار التى أوردها ، شعراً كانت أم نثراً على ذوق أدبى رفيع ، مكّنه من أن يحسن الاختيار ، وهذا الذوق إن دلنا على شىء فإنما يدلنا على حذق النويرى واستعداده الطبيعى وطول إكبابه على الأدب قراءة وتفهما وتعمقاً ثم تذوقاً من بعد ذلك .

أجل ، لقد كوّن لنفسه ذوقاً أدبياً خاصاً من خلال قراءاته للشعر والنصوص النثرية فى عصورها وأطوارها المختلفة ، وحرص على أن يكون حكمه سليماً حتى ولو خالف فيه كبار النقاد ، كما رأينا .

---

(١) انظر : محمد زغلول سلام : تاريخ النقد الأدبى والبلاغى حتى القرن الرابع الهجرى ، طبع الاسكندرية ، ص ١٣ .

(٢) انظر ، إبراهيم عبد الرحمن ، وعفت الشرقاوى : دراسات عربية ، طبع مصر ١٩٧٧ ، ص ١٠٥ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٢٩٠-٢٩١ .

ولم يشأ النويرى أن يهضم حق قارئه أو يصادر على رأيه ، فتخير من كل فن أبدع ما فيه من الشعر ، ولم يكتف بما قاله النقاد من أن هذا البيت أو ذاك هو أروع مديح ، أو وصف أو رثاء . . . الخ قالته العرب ، بل عرض نماذج أخرى من مختاراته إلى جانب تلك النماذج التى اختارها النقاد وعرض ذلك كله على قارئه ، فإن لم يشأ القارئ أن يحكم بنفسه على أن هذه النماذج الأفضل ، فسوف ينعم — بلا شك — بتذوق هذا الشعر الرفيع الذى جادت به قرائح الشعراء العرب .

وهو معجب أشد الإعجاب — كما أشرنا — بالمتنبى ، وبغيره من كبار الشعراء يتذوق أشعارهم ، ويتخير من الفنون ما يبرع الواحد منهم فيها ، ليقدمه إلى قارئه ، فهو يرى أن أمرأ القيس بن حجر أجاد فى وصف الخيل « وهو أول من شبه الفرس بالظبى والسرحان والنعامة ، ثم اتبعه الشعراء ، وحذوا مثاله ، واقتدوا به ، حيث قال :

لَهُ أَيْطَلا ظَبىٍ وساقَا نَعامَـــةٍ ... وإرْخَاءُ سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَنْفُلِ

كأَنَّ على المَتْنَيْن منهُ إذَا انْتَحىَ ... مداكَ عروسٍ أو صراية حنظلٍ (١)

وكثيراً ما نقل أشعاراً بديعة لأبى عبادة البحترى ، ومنها وصفه للخيل ، حيث قال النويرى إن البحترى : « كان وصافاً للخيل » .

وأَغرَّ فى الزمن البهيم محجـــلٍ ... قد رحتُ منه على أَغرَّ محجّلِ

كالهيكلِ المبْنِىِّ إلا أنـــه ... فى الحُسنِ جاءَ كصورةٍ فى هيكلِ (٢)

وينقل النويرى أبياتاً قيل إنها من أجود ما قيل فى طيب عرف النساء وهى قول الأعشى :

ما روضةٌ من رياضِ الحَزنِ مُعْشَبةٌ ... خضراءُ جادَ عليها مُسْبل هطـــلُ

---

(١) نهاية الأرب ١٠ : ٤٨ — ٤٩ .

(٢) انظر أيضا ، ١٠ : ٥١ — ٥٥ .

يضاحك الشمسَ منها كوكبٌ شرقٌ   مُؤزَّرٌ بعميمِ النَبْتِ مُكْتَهِلُ
يوما بأَطيبَ منها نشرَ رائحةٍ   ولا بأَحسنَ منها إذ دَنا الأُصُلُ(١)

لكنه يستحسن بعض الأبيات التى قيلت فى هذا الصدد ويقدمها لقارئه فيقول « ومن البليغ قول سحيم :

فما زال بُردى طيبا من ثيابها   إلى الحَوْلِ . حتى أَنْهجَ البُردُ باليا

إلا أن هناك أبياتاً أخرى قد تفوقت — فى رأى النويرى — على الأبيات السابقة فى هذا المجال ، حيث يقول بعد ذكره للبيت السابق : « وأبلغ منه قول الأحنف :

فهم يُنكرون ذاكَ وما يَـدْ   رون أَنْ قد حَلَلتَ منها قَريبا

كما ذهب مذهب من قال : إن أجود شعر قيل فى «الحسن مع الشجاعة من شعر المتقدمين والمحدثين قول أبى العتاهية يمدح الرشيد بن المهدى وولده :

بنو المصطفى : هارون حول سريره   فخيرُ قيامٍ حولَه وقعودِ
تُقَلِّبُ أَلحاظَ المهابةِ بينهم   عيونُ ظِباءٍ فى قلوبِ أسودِ

وعد « ابن الرومى » أول من بين السبب فى حب الوطن . بسبب أبيات قالها ، منها :

ولى منزلٌ آليتُ أَلا أَبيعَه   وأَنْ لا أَرى غيرى له الدهرَ مالِكَا
عهدتُ به شَرْخَ الشبابِ ونعمة   كنعمةِ قومٍ أَصبحوا فى ظلالكَا
وحَبب أَوطانَ الرجالِ إليهم   مآربُ قضَّاها الشبابُ هُنالِكَا
إذا ذكروا أَوطانهم ، ذكرت لهم   عهود الصبا فيها فحنُّوا لِذَلِكا (٢)

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ٦٢ .
(٢) أيضا ٢ : ٤١٥ .

ولم يكن انتقاء النويرى مقصوراً على أشعار الفحول من الشعراء ، بل هو يأتى بشعر لشعراء مغمورين غير مشهورين ، ويفاضل بين أقوال أولئك الشعراء ، وأقوال بعض المجاهيل .

فلقد أعجب النويرى بقول شاعر غير مشهور فى وصف « زقاق الخمر » يقول : « وقال أبو الهندى وأجاد فى شعره :

أَتلفَ المالَ وما جمّعتُـــه طلبُ اللّذاتِ من ماءِ العنبْ

واستباءُ الزقّ من حانوتهـــا شائل الرجلين مَعْضوب الذنبْ

كلّما كُبّ لشَرْبٍ خلتَه حبشيًّا قُطِعْت منه الرُّكَبْ (١)

وفى مجال النثر أتى النويرى بالعديد من الرسائل الأدبية الرفيعة ، كما قدمنا (٢) غير أنه أعرب عن إعجابه الشديد برسالة أدبية من إنشاء صديقه شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى الكاتب فى رمى البندق ، « وصف فيها الرماة ، ومواضع الرمى ووقته ، والقسى ، وأفعال الرماة . . . لم أقف فيما طالعته لمتقدم ولا متأخر على أجمع لهذا الفن منها ، وهى مما يستعين بها الكاتب على إنشاء ما يقصده من قدم البندق (٣) . . . وقد أوردتها جملتها لحسن التئامها ، واتساق نظامها ، وجودة ترتيبها وبديع تهذيبها » (٤) .

والحق أن من قرأ هذه الرسالة ، يعجب بحسن صياغتها ولطف تركيبها ، فهى تنطوى على حبكة موضوعية ، وترتيب جميل ، ولا يسأم القارىء من قراءتها ، رغم أنها كتبت فى عصر المبالغة فى الصناعة .

---

(١) نهاية الأرب ٤ : ١٢٣ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٣٣ وما بعدها .

(٣) قدم : جمع قدمة ، وهى رسائل تشتمل على أحوال الرمى بالبندق وأحوال الرماة واصطلاحاتهم وشروطهم ، وما يصيدونه من طيور فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء وهذه الطيور جميعها تسمى « طيور الواجب » ، راجع ، صبح الأعشى ١٤ : ٢٨٢ ، وهامش رقم ٣ من نهاية الأرب ١٠ : ٢٣٨ .

(٤) نهاية الأرب : ١٠ : ٢٣٨ .

حسن الأخذ لا السرقة :

ويبدو النويرى متساهلا فى المعانى المتناظرة ، وتداولها عند الشعراء ، شأنه شأن « أبى هلال العسكرى » الذى يقرر فى الصناعتين : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم — إذا أخذوها — أن يكسوها ألفاظا من عندهم ، ويبرزوها فى معارض من تأليفهم ، ويوردوها فى غير حكايتها الأولى . . . فإذا فعلوا ذلك فهم أحق بها ممن سبق إليها . . . الخ » (١) .

وللنويرى ولوع فى إيراد الأشعار ذات المعانى المتناظرة فى كتابه نهاية الأرب والأمثلة على ذلك كثيرة نقتبس منها ما يلى :

فى الرثاء ، قال : « وقف على — رضى الله عنه — على قبره صلى الله عليه وسلم — فقال : إن الصبر لجميل إلا عنك ، وإن الجزع لقبيح إلا عليك ، وإن المصاب بك لجليل ، وإنه قبلك وبعدك لجلل » .

فيعلق النويرى على ذلك ويقول : « وقد ألمَّ الشعراء بهذا المعنى . فقال إبراهيم بن إسماعيل فى على بن موسى الرضا (٢) :

إن الرزيّةَ يا بن موسى لم تَدَعْ ... فى العينِ بعدَكَ للمصائبِ مَدْمَعاَ
والصبرُ يُحمَدُ فى المواطنِ كلِّها ... والصّبرُ أن نَبكِى عليكَ ونَجْزَعا

ولا يقف تساهل النويرى عند التناظر فى المعانى وحدها بل يمتد ذلك إلى الألفاظ نفسها ، وهو لا يحكم حكما حتما على الشاعر المتأخر بأنه سرق من المتقدم ، بل يعد هذا نوعا من « الأخذ » ليس إلا ، فينقل فى مبادرة اللذات قول السرى :

أَحاطتْ عيونُ العاشقين بخِصرِه ... فهن له دونَ النطاقِ نطاقُ

---

(١) الصناعتين : ١٩٦ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٦٩ .

فيقول النويرى : إنه مأخوذ من قول المتنبي :

وخِصْرٌ تثبت الأَحداقُ فيه   كأَنَّ عليه من حدقٍ نطاقاَ

لكن النويرى حساس للغاية بشأن التناظر المعنوى واللفظى ، يشير إلى هذا التناظر عند أدنى ملابسة ، يقول مثلا فى ذكر ما قيل فى الحروب : « قال ابن الخياط الأندلسى :

سيوفٌ إذا اعتلتْ جهاتٌ بغورةٍ   فمِنهن فى أَعناقِهن تَمائِمُ

وكلُّ خميسٍ طَبَّقَ الجَوُّ نَقْعَهُ   وضَيَّقَ مسراهُ الجيادُ الصلادمُ

والبيت الأول مأخوذ من قول المتنبى :

وكان بها مثلَ الجنونِ فأَصبحتْ   ومن جُثثِ القتلى عليها تمائمُ »(١)

والواقع أن هذه الحساسية للتناظر بين الألفاظ والمعانى ، إنما تدل دلالة عملية واضحة على أن النويرى كان يتمتع بثقافة أدبية واسعة ، وحافظة وذاكرة قوية ، فأحاط إحاطة تكاد تكون تامة بقصائد الشعراء المماثلة ، ووضع المعانى والألفاظ المتداولة بينها أمام القارىء لكى يحكم عليها بذوقه ومشاعره (٢) .

المبالغة والتهويل :

والمبالغة — عند النويرى — على نوعين : محمود ، ومذموم . وهو يضرب أمثلة للمبالغة المحمودة المقبولة ، كقول امرىء القيس يصف فرسا :

فعادى عداءً بين ثورٍ ونَعْجَةٍ   دِراكًا ولمْ يَنْضَحْ بماءٍ فيُغْسلِ

---

(١) نهاية الأرب ٦ : ١٩٢ .

(٢) انظر ، نهاية الأرب ، ٤ : ١٠٥-١٠٦ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٥ : ١٦٩ ، ٦ : ١٩٢ .

وقد علق النويرى على البيت بقوله : إن امرىء القيس يعنى أن الفرس « أدرك ثوراً وبقرة فى مضمار واحد ولم يعرق » (١) .

ومن جيد المبالغة قول المتنبى :

وأصرَع أىَّ الوحش قفَّيتُه   وأنزِل عنه مِثلَه حين أركَب

لكن الإغراق والتهويل ، وما لا تقبله العقول يعد من المبالغة المذمومة ، يقول : «ولا يعاب فى المبالغة إلا ما خرج عن حد الإمكان كقوله (يعنى المتنبى) :

وأَخَفْتَ أهلَ الشِّركِ حتى إنــه   لتخافُك النُطَف التى لم تُخلَق (٢)

فالمبالغة هنا — فى رأى النويرى — مذمومة لخروجها عن حدود المعقول والإمكان .

ويحاول النويرى أن يؤكد نظريته عن طريق المقارنة بين البيت السابق ، وأبيات أخرى لعيسى بن الحطيم :

طَعنتُ ابنَ عبدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثائرٍ   لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءها

ملكتُ بها كَفِّى فأَنْهَرْتُ فَتْقَها   يُرى قائماً مِن دونِها ما وراءها

فإن ذلك من جيِّد المبالغة، إذ لم يكن قد خرج مخرج الاستحالة ، مع كونه قد بلغ النهاية فى وصف الطعنة .

فالمبالغة — عنده — محمودة إذن ما لم تصل إلى حد الاستحالة ، وتخرج عن حد الإمكان .

وبهذا المقياس ، ينقد للأعشى بيتاً قيل فيه إنه أمدح بيت قالته العرب ، وهـــو :

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ١٢٤ .

(٢) أيضـــا ٧ : ١٢٥ .

فَتىً ،لو يُنادى الشمسَ ألقتْ قناعَها ... أَو القمرَ السارى لألْقى المَقَالِدَا

ويعلق النويرى على البيت بقوله : « وهذا من الغلو ، وهو مذموم عند بعضهم » (١) ولم يكن هذا الغلو بمذموم إلا لخروجه عن حد الإمكان .

ويضيف النويرى مثالاً آخر للغلو المذموم من شعر « أطريح بن إسماعيل » :

لو قلتَ للسيل : دع طريقَكَ والـ ... ـموج عليه كالهَضْبِ يعتلجُ
لارتَدَّ ، أَو ساخَ ، أَو لكان لـه ... فى جانبِ الأَرضِ عنكَ مُنْعَرجُ (٢)

على أن أحسن ما أعجب النويرى من شعر المبالغة ، قول أحد شعراء الحماسة :

رَهَنْتُ يدى بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرّه ... وما بعدَ شُكْرى للشُّكورِ مَزيدُ
لو كان مما يُستطاعُ استَطَعْتُـــه ... ولكنَّ ما لا يُسْتطاعُ شَديدُ (٣)

ومهما يكن من أمر ، فإن النويرى يفضل الصدق على كل ما عداه من مبالغات وتهويلات التجربة الذاتية للشاعر ، كما سنرى .

الصدق والتجربة الشعرية :

ولعل أصدق الأشعار وأفصحها عن مكنون الذات ، وأقدرها على التعبير عن خلجات الوجدان ، وأكثرها تأثيرا فى النفس — فى رأى النويرى — تلك التى يقولها الشعراء فى باب الرثاء ، « فالمراثى إنما جعلت تسلية لمن عضّته النوائب بأنيابها وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابها ، وتأسية لمن سبق إلى هذا المصرع ، ونهل من هذا المشرع ، ووثوقا باللحاق بالماضى ،

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ١٨٤ .
(٢) أيضا ، وانظر أيضا فى الغلو والتهويل ، ٩ : ٢٣٦-٢٣٧ .
(٣) نهاية الأرب ٧ : ١٢٥ .

وعلما أن حادثة الموت من الديون التى لابد لها من التقاضى . . . الخ » (١) .

وباب الرثاء باب فسيح للغاية ، وهو ينطوى على أدب وثيق الصلة بالقلب فى مختلف أحواله ، ومن ثم كان الرثاء — عند النويرى — على أنواع أربعة من حيث موقف المتلقى له :

١ — فمن شعر الرثاء « ما يصمى القلوب بنباله » (٢) ، ويحزنها بالتعبير عما يجيش فيها من لوعة .

٢ — ومنه ما يسليها بلطيف مقاله .

٣ — ومنه ما يبعثها على الأسف « لفراق الأحبة » .

٤ — ومنه ما يصرفها عن موارد التلف « بالتعزية والحض على الصبر الجميل » .

فأدب الرثاء — عند النويرى — يحتل موقعا من هذه المواقع الأربعة فى قلب السامع والمتلقى ، لا سيما إذا كان هذا المتلقى قد أصيب بفقد عزيز لديه ، أو حبيب إليه . فباب الرثاء مفتوح لينهل منه ما يشاء ، ويقع منه الموقع الحسن الجميل ، فهو إذن باب « فصيح اللسان فى إجابة المنادى ذى القلب الصادى » (٣) الذى يجد فى أدبنا العربى وفرة بالغة فى هذا الباب .

وإذا كان هذا هو موقف المستمع والمتلقى ، فما موقف الشاعر نفسه حين يقول الرثاء ؟

يستشهد النويرى — فى هذا الصدد — بقول الأصمعى : « قلت لأعرابى : ما بال المراثى أشرف أشعاركم ؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة » (٤) .

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٦٤ .
(٢) نفس المصدر ١٦٥ .
(٣) أيضـا .
(٤) أيضـا .

فحرقة القلب إذن هي السبب في شرف الشعر ، ولوعة الوجدان والمرور الناضج بالتجربة هو الذي ينطق الشعراء هذه الأشعار الشريفة التي تجد لدى القلوب الصادية الموقع المناسب ، والقبول الحسن .

ولعل أهم أشعار الرثاء التي عرض لها النويري وعقّب عليها مبينا إعجابه بها ما قاله متمم بن نويرة في أخيه مالك ، « وكان قد قتله خالد ابن الوليد في الردة ، وكان متمم قدم العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى ، فقيل له : يموت أخوك بالملا وتبكي على قبر بالعراق ! فقال :

لقد لَامَني عند القبورِ على البُكا رفيقي لتَذْرافِ الدموعِ السّوافِكِ

أَمِنْ أَجلِ قبرٍ بالـمَلَا أَنتَ نائحٌ على كلِّ قبرٍ أَو على كلِّ هالكِ

وقال : أَتَبْكي كلَّ قبرٍ رأيتَـهُ لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكَادِكِ

فقلتُ له : إنَّ الشجَا يَبعَثُ الشجَا فَدَعْنِي فهذا كلُّه قبرُ مالكِ »

يعقب النويري على هذا الشعر بقوله : « معناه قد ملأ الأرض مصابه عظما ، فكأنه مدفون بكل مكان ، وهو أبلغ ما قيل في تعظيم ميت » (١) .

وعلى هذا النسق يأتي النويري بأشعار لكبار الشعراء كالمتنبي وغيره ، ويأتي بآراء النقاد في أي الأبيات أرثى شعر عند العرب ، كما يأتي بأقوال لأناس أنطقتهم محن وخطوب ألمّت بهم ، ففرقت بينهم وبين ذويهم ، كتاج الملوك بن أيوب ، الذي قال يرثي أخاه :

لو كان يَشفِي الدمعُ غُلَّةَ واجدٍ لشَفَى غليلي فيضُ دمعِي الهامرِ

هيهاتَ لا بَرَدَ الغليلُ وقد ثَوَى من كان من عُدَدي وخيرَ ذخائِري

يا للرجال لِنكبـةٍ قد أذهبتْ جَلَدَ الجليدِ وحُسْنَ صبرِ الصابرِ

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٧٧ .

ومنهـــا :

جَبلٌ هَوَى فارتجّتْ الدنيا لهُ فكأنَّما رَكِبتْ جَناحَيْ طائرِ (١)

ولقد كان من الطبيعى أن يذكر النويرى الخنساء فى هذا الباب من الشعر الوجدانى ، الصادر عن تجربة مريرة اعتملت فى النفس، ثم صدرت عنها تلك الكلمات الصافية النقية ، مثلما يخرج الذهب سوياً خاليا من كل شائبة بعد احتراقه بالنار . يقول النويرى :

« ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخنساء فى رثائها لأخيها صخر من ذلك قولها :

أَلَا يا صخرُ إنْ أبكيتَ عينى لقد أَضْحَكْتَنى دَهْرًا طَوِيلَا

دفعتُ بكَ الجليلَ وأنت حَىٌّ فَمَنْ ذا يَدْفَعُ الخَطْبَ الجَلِيلَا

إذا قَبُح البُـكاءُ على قَتِيـلٍ رأيتُ بكاءَكَ الحَسَنَ الجَميلا» (٢)

ولم يكن للنويرى أن يذكر الرثاء دون أن يذكر طرفاً من قصيدة المتنبى فى رثاء الإخشيد :

هو الزمَانُ مُشِتٌّ بالذى جَمَعَا فى كل يومٍ نرى من صَرْفِهِ بِدَعا

لو كانَ ممتنعٌ تُغنيـه مَنْعَتُـهُ لم يصنع الدهرُ بالإخشيدِ ما صَنَعا

على أن النويرى يرى أن أبا تمام ربما كان أفضل الشعراء على الإطلاق فى فن الرثاء ، يقول : « ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه مراثى أبى تمام بن أوس الطائى » ، وأورد له جانبا من مراثى عدة قالها فى مواضع مختلفة ، واستهل النويرى هذه المختارات بأبيات متفرقات من قصيدته فى رثاء غالب بن السعدى :

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٨٤ .
(٢) أيضـــا ٥ : ١٧٦ .

هو الدهرُ لا يُشوِى وهنَّ المصائبُ ... وأكثرُ آمالِ الرجالِ كواذبُ

فيا غالباً لا غالبٌ لرزيّةٍ ... بل الموتُ لا شكَّ الذى هو غالبُ

ثم يأتى بقصيدة أبى تمام التى رثى بها إدريس بن بدر السامى : (١)

دموعٌ أَجابت داعِىَ الحُزْنِ هُمَّعُ ... تَوَصَّلُ منّا عن قلوبٍ تَقَطَّعُ

عفاءٌ على الدُّنيا طويلٌ فإِنّها ... تَفَرّقُ من حيث ابتَدَتْ تَتَجَمّعُ

تَبَدّلت الأَشياءُ حتى لخلتُها ... ستَثْنِى غروبَ الشمسِ مِنْ حيثُ تَطْلُعُ

وإذا كان فن الرثاء عند أبى تمام على هذا المستوى الرفيع فى رثاء الأصحاب والخلان ، فما بالك به وهو يرثى أعز شىء لديه ، يرثى ابناً له . كان النويرى حريصا على أن ينقل لنا مثل هذا النوع من مراثى أبى تمام التى يفضى فيها بذات نفسه عندما يرثى ابناً من أبنائه :

كان الذى خِفْتُ أَنْ يكونا ... إنّا إلى اللهِ راجعُونا

أَمسى المُرَجَّى أَبو علىٍّ ... مُوَسَّدًا فى الثَرَى يمينَا

حين استوىٰ وانتهى شَبَابًا ... وحَقَّقَ الرأْىَ والظُنونَا

أُصِبْتُ فيه وكان عندى ... على المصيباتِ لى مُعينَا (٢)

والحق أن النويرى معجب بهذه القصيدة ، يريد أن يتحف بها قارىء كتابه لأنه يعرف أن من « أشد الرثاء صعوبة على الشاعر ، وأضيقه مجالا أن يرثى امرأة أو طفلا » (٣) . فلقد تغلب أبو تمام – بمشاعره الصادقة ، وتجربته الفنية الرائعة على هذه الصعوبة بكل سهولة ويسر .

---

(١) ولا ينسى أن يبين فى هذه القصيدة أيضا بعض الأبيات التى أخذها أبو تمام من غيره ، راجع ٥ : ٢١٠–١١١ .

(٢) انظر ٥ : ٢١٥ : ٢١٦ .

(٣) نهاية الأرب ٥ : ٢٢٠ ، وهذا هو نفس رأى ابن رشيق ، راجع العمدة .

ولقد أعجب النويرى بمرثية رثى بها ابن عبد الملك بن الزيات أم والده ، وعدّ هذه المرثية « من جيد ما رثى النساء به ، وأشد تأثيرا فى القلب ، وإثارة للحزن » (١) .

أَلَا مَن رأَى الطفلَ المفارقَ أُمَّهُ بُعَيدَ الكرى عيناهُ تَبْتَدِرانِ

رأَى كلَّ أمٍ وابنَها غيرَ أُمِّهِ يَبيتانِ تحت الليلِ يَنْتَجِيانِ

وباتَ وحيدًا فى الفِراشِ تحثُّه بلابِلُ قلبٍ دائِم الخَفَقانِ

على أن الرثاء لا يقتصر على رثاء الخلان والنساء والولدان ، بل إن مما يدخل فى باب المراثى « ويلتحق به ما يطرأ من الحوادث التى تعم بها البلية ، وتشمل بسببها الرزية كاستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام ، وهزيمتهم لجيشه اللهام » (٢) وينقل النويرى فى هذا الصدد بعض الرسائل النثرية والأشعار التى ألفت فى مناسبات مختلفة ومنها قصيدة قالها معاصر للنويرى هو علاء الدين على الأوتارى الدمشقى لما استولى التتار على دمشق فى سنة ٦٩٩ هـ ، أى قبل توجه النويرى ليتولى منصبه فى ديوان الخاص بدمشق بنحو سنتين (٣) : ومطلع هذه القصيدة :

لك عِلْمٌ بما جرى يا سُهَادِى من جفونى على افتقاد رُقادِى (٤)

والحق أن هناك مرثية شهيرة نظمها الأديب والوزير الأندلسى المعروف عبد المجيد بن عبدون فى رثاء بنى مسلمة المعروفين ببنى الأفطس ، من ملوك الأندلس ، هذه المرثية لفتت نظر النويرى ، ودفعته إلى شرحها « فهى من أمهات القصائد ووسائط القلائد ، فإنه (يعنى أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون) ذكر فيها عدة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ، ممن

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ٢٢١ .
(٢) أيضا ٥ : ١٢٤ .
(٣) انظر فيما سبق ، ص ٤١ .
(٤) نهاية الأرب ٥ : ٢٢٧ .

أبادهم بحوادثه ونكباته ، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جنّة تقيهم من وثباته ، ودبّت عليهم الأيام بصروفها ، وسقتهم المنية بكأس حتوفها » (١) .

ولقد أثارت هذه المرثية الرائعة فى النويرى - فيما يبدو - روح المؤرخ لا روح الناقد ، فالحق أنها تنطوى على إشارات تاريخية كثيرة تنتمى إلى عصور مختلفة فى الجاهلية ، وفى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين من بعده والدولتين الأموية والعباسية ، ثم بعض ملوك الأندلس . وهى إشارات تحتاج إلى استيعاب كامل لهذه الأحداث .

ويبدو أن هذه القصيدة قد شرحت من قبل عدة مرات ، فالنويرى يقول : « من المراثى المشهورة التى عنى بها ، واتصلت أسباب الشارحين بسببها المرثية العبدونية . . . الخ » (٢) .

لكن النويرى أراد أن يدلى بدلوه فى شرحها ، فقد رأى فى نفسه القدرة على شرح الإشارات التاريخية الغامضة التى ربما أشكلت على غيره من شارحى هذه القصيدة .

ولقد قصر النويرى شرحه فى الواقع على الجزء الذى وردت فيه تلك الإشارات التاريخية، ويقع هذا الجزء فى واحد وثلاثين بيتاً، فالقصيدة « العبدونية » تبدأ بأبيات فى الحكمة ، وفجيعة الدهر ، يقول ابن عبدون فى مطلعها :

الدهرُ يفجَعُ بعد العَيْن بالأثَرِ   فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَرِ

ثم تبدأ الإشارات التاريخية التى عنى بها النويرى فى البيت العاشر :

هوت «بِدارا» وفَلَّت غَربَ قاتله   وكان عَضْبًا على الأَملاك ذا أُثُرِ

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٩٠ .
(٢) أيضـا ٥ : ١٩٠ .

يشرح النويرى هذا البيت بقوله : « دارا ، الذى ذكره هو دارا ابن دارا آخر ملوك الفرس ، وقاتله الإسكندر ، وسنذكر إن شاء الله أخبارهما فى فن التاريخ » (١) .

ويمضى النويرى فى شرح الإشارات التاريخية الواردة فى الأبيات ، والتى تدل كلها على تقلب الأيام وغدر الزمان حتى يأتى النويرى على هذه الأبيات ثم يورد ما قاله ابن عبدون فى آخر القصيدة من رثاء بنى الأفطس أنفسهم :

بنى المُظَفَّرِ والأَيّامُ ما بَرِحَتْ ... مَراحِلاً والوَرَى منها على سَفَرِ
سُحْقًا ليومِكُمُ يومًا ولا حَمَلَتْ ... بمثله ليلةٌ فى مُقْبِلِ العُمُرِ
مَنْ للأَسِرَّةِ أَو مَنْ للأَعِنَّة أَو ... من للأَسِنَّةِ يُهْدِيها إلى الثُّغَرِ
مَنْ للبرَاعَةِ أَو من لليَراعةِ أَو ... مَنْ للسماحة أَو للنفع والضَّرَرِ (٢)

وهكذا بدا لنا النويرى فى عنايته بشرح هذه المرثية مؤرخا أكثر منه أديبا ، لكنه — كما قدمنا — لم يكن يرى فرقا بين التاريخ والأدب . وإنما التاريخ عنده جزء لا يتجزأ من الأدب ، كما أن هذه المرثية إنما تمثل رثاء دولة إسلامية كان لها شأن فى تاريخ بلاد الأندلس .

وإذا كان الرثاء الصادق عند النويرى ، سواء كان رثاء لفقد حبيب أو عزيز أو رثاء لانهيار دولة من الدول وسقوطها ، هو أشرف الشعر على الإطلاق لأن الشاعر إنما يقوله بقلب محترق (٣) ، فكذلك « الفراق » والبعد عن الأحبة ، إذا صدق كان من أكثر الشعر تأثيرا فى النفس ، لكن النويرى إذا كان يشترط الصدق فى التعبير عن التجربة ،

---

(١) نهاية الأرب ٥ : ١٩٠ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ٢٠٠ .
(٣) انظر ما سبق ، ص ٣٠٧ .

فإنه لا يروق له المبالغة وقلب الحقائق ، أو تزييف المشاعر ، فهو ينقل قول الشاعر :

جزى اللهُ يومَ البَيْنِ خيرًا ، فإنَّهُ   أَرَانا على عِلَّاتِهِ أُمَّ ثابتِ

ثم ينقل قول ابن الرومى :

فإذا كان فى الفُراقِ اعتنـاقٌ   جعلَ اللهُ كلَّ يـومٍ فُراقَا

ويعقب على ذلك بقوله : « وأرى هذا كله على سبيل التعلل ليس إلا ، وإنما الفراق لا شك فى إيلامه للقلوب » (١) ، فما يقوله ابن الرومى وغيره من الترحيب بالفراق أمر لا يتفق مع ما يختلج فى القلوب من مشاعر نتيجة الفراق .

ويستشهد النويرى بأقوال — تتسم بالتوازن وصدق التعبير — عن الفراق ، فينقل قول أحد الشعراء :

فلِمَ لا تُسْبَلُ العبراتُ منِّى   ولستُ على اليَقينِ مِنَ التَّلاقِى ؟

فَلَا وأَبيكَ ، ما أبصرتُ شيئًا   أَمَرَّ على النُّفُوسِ من الفِراقِ

وينقل قول شاعر آخر :

يارَبِّ ، باعِدْ بَيْنَ جَفْنِى والكَرَى   ما دامَ مَنْ أَهْـواهُ فى هجرانِى

إنِّى لأَخْشَى أَنْ أنامَ فَأَلْتَقِى   بخيالِه ، خَوفَ الفراقِ الثانى

نستطيع أن نقرر فى نهاية هذا الفصل أن المبدأ الذى سار عليه النويرى فى نقده وتقويمه للشعر هو أن « أشرف الشعر أصدقه ، وأن أفضله ما كان تعبيرا عن تجربة ذاتية واعية ، وعن حرقة فى القلب ، ولوعة فى الوجدان » :

---

(١) نهاية الأرب ٢ : ٢٤٣ — ٢٤٤ .

والشعر الحقيقى — عند النويرى — صادق ، وليس كاذبا ، وليس أدل على ذلك من أن النويرى قد استدل بالشعر على حقيقة وجود أشياء معينة ، وأكد أن هذه الأشياء التى لا يصدق البعض وجودها — موجودة ، لا لشىء إلا لأنها وردت فى الشعر كألوان الورد مثلا ، يقول : « ومما يدل على وجود هذه الألوان [الأصفر والأحمر والأسود والأزرق فى الورد] ، وأنها غير منكورة ، أن الشعراء وصفوها فى أشعارهم فذكروا الأصفر والأزرق والأسود ، على ما نورده . . . الخ » (١) .

من هذا العرض نستطيع أن نلخص المذهب النقدى للنويرى فى النقاط التالية :

— الاهتمام بوحدة الموضوع ، والاعتماد على تحكيم الذوق أكثر من الاعتماد على التحكيم العقلى .

— أن مذهبه النقدى يعتمد غالبا على الذكاء وسلامة القريحة أكثر مما يعتمد على القوالب الجامدة للتعبير عما يعتمل فى وجدان الشاعر .

— أنه اهتم بالتوازن بين اللفظ والمعنى ، ولم يغلّب أحدهما على الآخر .

— أنه يجيز أخذ المعانى من المتقدمين بحيث يكسوها الأدباء ألفاظاً من عندهم ، ويبرزوها فى أحسن صورة .

— وقد تحمد المبالغة عنده إن لم تصل إلى حد الاستحالة ، ولم تخرج عن حد الإمكان .

— إن أصدق الشعر هو ما نبع من إحساس صادق ، وتجربة حقيقية .

* * *

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٨٥ .

الفصل الثالث

البلاغة فى نهاية الأرب

تناول المؤلف علوم البلاغة فى الفن الثانى من كتابه ، فبدأ بتعريف كل من البلاغة والفصاحة ، وشرح الفرق بينهما . يقول معرّفا البلاغة : « هى أن يبلغ الرجل بعبارته كنه ما فى نفسه ، ولا يسمى البليغ بليغا إلا إذا جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، وهو المسمى إيجازا » (١) :

ويقسم هذا الإيجاز إلى قسمين : إيجاز حذف ، وهو أن يحذف شىء من الكلام وتدل عليه القرينة ، وإيجاز قصر : وهو تكثير المعنى وتقليل الألفاظ . وقد استشهد بالكثير من الآيات القرآنية لتوضيح هذين النوعين من الإيجاز .

ويكتفى النويرى ببضع كلمات قلائل فى تعريفه الإيجاز ، وهو الأمر الذى توسع فيه البلاغيون السابقون حين عرّفوا الإيجاز بأنه اختصار بعض الألفاظ ليأتى الكلام وجيزا من غير حذف لبعض الاسم كحذف المضاف أو لبعض الجملة كحذف الفاعل أو حذف الخبر أو بالعدول عن لفظ المعنى كالإرداف وشبهه أو بتغير لفظ المعنى كالاستعارة وغيرها (٢) .

---

(١) وهذه التسمية تسمية ابن المقفع أيضا : يقول : الإيجاز هو البلاغة ، انظر ، البيان والتبيين : ١-١١٥ .

(٢) انظر مثلا ، ابن أبى الاصبع : بديع القرآن ، بتحقيق محمد حفنى شرف ، ص ١٧٩ وما بعدها ، القاهرة – الطبعة الثانية بدون تاريخ . وانظر كذلك العمدة ، لابن رشيق ١ : ٦٧ ، وسر الفصاحة تحت اسم الإيجاز والاختصار وحذف الفضول .

ولقد ذكر الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز(١) أن من الإيجاز حذف المبتدأ وأنشد عليه أبياتا كثيرة . ويذكر فخر الدين بن الخطيب(٢) أن السبب فى ذلك هو أنه بلغ فى استحقاق الوصف ما جعل وصفا له إلى حيث يعلم بالضرورة أن ذلك الوصف لا يليق إلا به ولا يكون إلا له ، وبهذا قال الإمام عبد القاهر ما من اسم حذف فى الحالة التى ينبغى أن يحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره ، ويعلق الخطيب على ذلك أن هذا الكلام فيه نظر ، لأن ذلك إنما يحسن فى مبتدأ خبره وصف يقتضى المدح أو القدح وتقبل المبالغة فيه ، وتكون تلك المبالغة مقيدة للموصوف معنى ، ولعل عبد القاهر أراد مبتدأ مخصوصا .

وهكذا يتضح لنا أن ما ذكره النويرى فى أسطر قلائل قد فصّله العلماء قبله واستوفوه فى مباحثهم عن هذا العلم ، وربما يعتذر عن النويرى بأنه أراد كتابة موسوعة شاملة تأخذ من كل فن بطرف ولم يهدف إلى كتابة بحث مفصل فى فن بعينه ، ولهذا أخذ كلامه هذا الطابع المختصر فى أبواب البلاغة .

صفة البلاغـة :

يعتمد المؤلّف فى بيان صفة البلاغة على أقوال مجموعة من العلماء أمثال : الخليل بن أحمد ، وقدامة ، وابن عبد ربه ، والجاحظ ، والعتابى وغيرهم . ويأتى ببعض الأمثال البلاغية التى أثرت عن العرب معقبا عليها ، شارحاً لها ، مثال ذلك قوله : « ومن أمثالهم فى البلاغة قولهم « يقل الحز ويطبق المفصل » وذلك أنهم شبهوا البليغ الموجز الذى يقل الكلام ، ويصيب نصوص المعانى بالجزار الرقيق الذى يقل حز اللحم ويصيب مفاصله » (٣) .

---

(١) ص ١١٢ - ١١٧ طبع المنار .

(٢) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، للرازى ، طبع مصر ١٣٢٧ هـ ، ص ١٤٣ .

(٣) نهاية الأرب ٧ : ٩ .

ويعقد فصلا يختار فيه بعض الأقوال البليغة التى نقلت عن العرب والعجم على حد سواء ، وسماه « فصول من البلاغة » ، يأتى فيه بأقوال علماء البلاغة والحكماء ويعقد المقارنات بين أقوال علماء العرب وعلماء العجم ، كما فعل مثلا عندما نقل قول أبرويز لكاتبه : «إذا فكرت فلا تعجل، وإذا كتبت فلا تستعن بالفضول : : : واجمع الكثير مما تريد فى القليل مما تقول » . فيعلق النويرى على هذا بقوله : « ووافق كلامه (يعنى أبرويز) قول ابن المعتز : ما رأيت بليغا إلا رأيت له فى المعانى إطالة ، وفى الألفاظ تقصيرا » .

الفصاحة :

يعرّف الفصاحة بأنها مأخوذة من قولهم : أفصح اللبن إذا أخذت عنه الرغوة ولا يسمى الفصيح فصيحا حتى تخلص لغته من اللكنة الأعجمية .

وعلماء العرب يجعلون الفصاحة فى الألفاظ ، والبلاغة فى المعانى ، ويستدلّـون بقولهم : لفظ فصيح ، ومعنى بليغ ، كأبى هلال العسكرى مثلا الذى يقول : الفصاحة مقصورة على اللفظ ، والبلاغة مقصورة على المعنى (١) .

والنويرى يؤيد الرأى الآخر القائل بأن الفصاحة توجد فى الألفاظ والمعانى يقول : « وعلماء العرب يزعمون أن الفصاحة، فى الألفاظ والبلاغة فى المعانى . . . ومن الناس من استعمل الفصاحة والبلاغة بمعنى واحد فى الألفاظ ، والمعانى والأكثرون عليه » (٢) .

وهو لم يدخل فى جدل حول فصاحة العرب ، وفضلهم فى البلاغة على

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ، ص ٨ .

(٢) نهاية الأرب ٧ : ٦ . ومن العلماء المؤيدين لهذا الرأى : ابن الأثير ، انظر المثل السائر : ٦٧١ ، والخفاجى ، انظر سر الفصاحة ، ص ٦٠ ، وعبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز .

سائر الأمم ، مثلما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه « المقابسات » (١) حينما سأل أستاذه هل هناك بلاغة أحسن من بلاغة العرب ؟ .

فمصنفنا لم يجد مجالا للتردد أو التشكك ، وإنما يؤكد أن الفصاحة لا توجد إلا فى العرب أنفسهم ، فهم أهل الفصاحة والبلاغة بلا منازع ، وذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم ، وخاطبهم بتلك اللغة التى يتحدثون بها .

فهو مثلا فى باب المراثى ، يذكر شيئاً مما قيل فى هذا الباب ويقول معلّقاً على تلك الأقوال : « فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب ، وتأمل هذا النمط الغريب الذى جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازها ، وإصابة المعانى وإعجازها ، ولا يستكثر على من أنزل القرآن بلغتهم ، أن يكون هذا القول من بديهتهم » (٢) .

فى مصادر البلاغة :

وقد تعرض النويرى لكل من علوم : المعانى والبيان والبديع ، وجعلها من الأمور الخاصة المكملة لفن الكتابة ، ولا شك أن الكاتب الذى يلم بها ويتقنها يستطيع أن يتحكم فى المعانى ، ويملك ناصية البيان ، يقول : « وأما الأمور الخاصة التى تزيد معرفتها قدره (يعنى الكاتب) ويزيد العلم بها نظمه ونثره ، فإنها من المكملات لهذا الفن ، وإن لم يضطر إليها ذو الذّهن الثاقب ، والطبع السليم . . . لكن العالم بها متمكن من أزمّة المعانى ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب » (٣) .

ويعمد المؤلف إلى تعريف القارئ بالمصادر الرئيسية فى هذا الفن الجليل ، فيقول : « فمن ذلك علم المعانى والبيان والبديع ، والكتب المؤلّفة فى

---

(١) انظر : المقابسات ٢٩٣-٢٩٤ ، وانظر إحسان عباس : تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، ص ٢٣٦ .
(٢) نهاية الأرب ٥ : ١٧١ .
(٣) أيضا ٧ : ٣٥ .

إعجاز الكتاب العزيز ، ككتب الجرجانى ، والرمانى ، والإمام فخر الدين السكاكى والخفاجى ، وابن الأثير وغيرهم » (١) .

ويشير النويرى إلى أنه اعتمد فى بيان هذه الأمور على كتاب « حسن التوسل » لأبى محمود بن سليمان الحلبى « سأذكر فى هذا الكتاب ملخص ما أورده (الحلبى) فى ذلك باختصار وزيادة عليه » (٢) .

ومعنى ذلك أن النويرى حاول تنقيح واختصار ما أورده الحلبى ، ثم زاد وعلق على ما يحتاج إلى تعليق أو توضيح .

ولم يلتفت من كتبوا حديثاً فى تاريخ البلاغة إلى كتاب حسن التوسل (٣) رغم أنه يعد – فى رأى النويرى – من أهم المصادر فى هذا الصدد ، فلقد فضّله النويرى لعدة أسباب هى :

(١) حسن التأليف .

(٢) توضيح وبيان ما أشكل واختلف فيه علماء البلاغة .

(٣) أوضح معالم البديع .

(٣) أنه أوضح هذه العلوم ، وحلها من التعقيد ، وسهلها على الأفهام .

يقول : « هذا ما أورده فى حسن التوسل من علوم المعانى والبيان والبديع ، وقد أتينا على أكثره بنصه لما رأينا من حسن تأليفه ، وبديع ترصيفه ، وأن اختصاره لا يمكن إلا عند الإخلال بفائدة لا يستغنى عنها ، فلم نحذف منه إلا ما تكرر من الأمثلة والشواهد ، . . . فالنسبة فيه إلى فضائله وفضله ، والعمدة على شواهده ونقاله . فلقد أحسن التأليف ، وأجاد التعريف ، واحتمل التوقيف وحرر الشواهد وأوضح السبيل حتى صار الغائب عن هذه الصناعة

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٣٥ .

(٢) أيضــا .

(٣) كشوقى ضيف فى كتابه الفن ومذاهبه ، وإحسان عباس فى كتابه : تاريخ النقد ، وقد طبع كتاب حسن التوسل للحلبي (شهاب الدين أبو الثناء الحلبى) بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .

إذا طالع كتابه كالشاهد ، وأبدع فى صناعة البديع ، وبيّن علم البيان بحسن الترصيف والترصيع ، واعتنى بألفاظ المعانى فصرف أعنتها ببنائه وأبان لشكلها فأحسن فى بيانه ، وحل من التعقيد عقالها الذى عجز غيره عن حله ، وسهل للأفهام مقالها فأبرزته الألسنة من محرم اللفظ إلى حلّه » (١) .

هذا بالإضافة إلى أن الحلبى كان صديقاً حميماً للنويرى نفسه ، وكان معاصراً يشرف من عصره على ما كتبه أئمة البلاغة فى العصور السابقة عليه .

ومع أن النويرى قد عنى عناية تامة بالبلاغة فى نهاية الأرب ، فإننا نجده لا يقسمها إلى ألوانها المعروفة ، بأن يضع مثلا المواد المتعلقة بالبيان تحت قسم مستقل ، وكذلك المعانى والبديع ، وإنما تحدث عن هذه العلوم دون تقسيم أو تحديد .

وقدّم بين يدى ذلك مدخلا للتفرقة بين الحقيقة والمجاز ، فالحقيقة فعيلة بمعنى مفعوله من حق الأمر يحقه بمعنى أثبته أو كان منه على يقين ، والمجاز من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه ، ولهما حدود فى المفرد والجملة فحداهما فى المفرد أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهى حقيقة وإن أريد بها غيره لمناسبة بينهما فهى مجاز ، وفى الجملة أن كل جملة كان الحكم الذى دلت عليه كما هو فى العقل فهى حقيقة ، وكل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل بضرب من التأويل فهى مجاز (٢) .

ومن علوم البيان التى اهتم بها النويرى ، وتوسع فى بيانها وشرحها : التشبيه والاستعارة والكناية . والتشبيه عنده : الدلالة على اشتراك شيئين فى وصف هو من أوصاف الشيء فى نفسه ، كالشجاعة فى الأسد . ويذكر أن التشبيه ركن أساسى من أركان البلاغة لأنه يخرج به الخفى من الجلى ، ويدنى البعيد من القريب ، « وهو جار كثيراً فى كلام العرب حتى لو قائل قال هو أكثر كلامهم لم يبعد . . . » (٣) .

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ١٨١-١٨٢ .
(٢) انظر : نهاية الأرب ٧ : ٣٧ .
(٣) المبرد : الكامل ٣ : ٩٣ .

هذا ويقسم النويرى التشبيه إلى أربعة أقسام : تشبيه محسوس بمحسوس ، تشبيه معقول بمعقول ، تشبيه معقول بمحسوس ، تشبيه محسوس بمعقول. وهذا النوع الأخير غير جائز – كما يقول – وذلك لأن العلوم مستفادة أصلا من الحواس ومنتهية إليها .

وربما كان هذا النوع الأخير من التشبيه ، وهو تشبيه محسوس بمعقول ، هو الذى سماه المبرد « بالبعيد » ولم يقبله أو يوافق عليه ، لأنه يحتاج إلى تفسير وتوضيح .

يقول المبرد : « والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى تفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام » (١) .

وقد تناول النويرى أيضاً تقسيمات المتأخرين لأنواع التشبيه ، الذين وصلوا بها إلى سبعة أقسام : التشبيه المطلق ، التشبيه المشروط ، تشبيه الكناية ، تشبيه التسوية ، التشبيه المعكوس ، تشبيه الإضمار ، تشبيه التفضيل .

والاستعارة : يعرفها النويرى بأنها : « ادعاء معنى الحقيقة فى الشىء للمبالغة فى التشبيه مع طرح ذكر المشبه من البين لفظاً وتقديراً ، وإن شئت قلت : هو جعل الشىء الشىء ، أو جعل الشىء للشىء لأجل المبالغة فى التشبيه » (٢) .

وهو يأتى بتعريفات علماء البلاغة للاستعارة ، أمثال الرمانى ، وابن المعتز ، والخفاجى (٣) .

ومعروف أن الرمانى يعرف الاستعارة بأنها تعليق العبارة على غير ما

---

(١) المبرد : الكامل ٣ : ١٢٨ .

(٢) انظر نهاية الأرب : ٧ : ٤٩ .

(٣) انظر الرمانى : النكت فى إعجاز القرآن ، ص ٧٩ ، مخطوط ٢٩٨ تفسير تيمور نقلا عن ابن أبى الإصبع ، بديع القرآن ، تحقيق حفنى شرف ، ص ١٩ .

وضعت له فى أصل اللغة على سبيل النقل ، ويرى ابن الخطيب أن ذلك التعريف باطل من أربعة وجوه :

الأول : أنه يلزم أن يكون كل مجاز استعارة وذلك باطل .

الثانى : أن تكون الأعلام المنقولة استعارة وهو محال .

الثالث : أن يكون ما استعمل من اللفظ على سبيل الغلط فى غير موضعه للجهل به استعارة وذلك الوجه فيه نظر عنده .

الرابع : أن هذا التعريف لا يتناول الاستعارة التخيلية (١) .

ويرى ابن أبى الإصبع أن الأولى أن يقال الاستعارة تسمية المرجوح الخفى باسم الراجح الجلى ، لأنك إن سميت المرجوح الخفى باسم الراجح الجلى فقد جعلت ما للراجح الجلى للمرجوح الخفى من الرجحان والظهور ، فتكون قد بالغت فى تشبيه المستعار له بالمستعار منه (٢) .

وقد تناول النويرى أيضاً أركان الاستعارة وهى : المستعار منه ، والمستعار ، والمستعار له ، بالتوضيح والشرح معتمداً على الآيات القرآنية .

الفرق بين التشبيه والاستعارة :

ويتعرض النويرى لبيان الفرق بين كل من التشبيه والاستعارة ، معتمداً على ذكر الأمثلة والشواهد التى توضح كلامه . فيقول مثلا ، إذا قلنا : رأيت أسداً ، وأردنا الرجل الشجاع ، فهو استعارة بالاتفاق ، وإن ذكرنا معه الصيغة الدالة على المشابهة كقولنا « زيد كالأسد » أو مثله أو شبهه فليس باستعارة ، وإن لم نذكر الصيغة وقلنا « زيد أسد » فإنها ليست من الاستعارة ، إذ فى اللفظ ما يدل على أنه ليس بأسد فلم تحصل المبالغة ، فإذا قلت : زيد الأسد فهو أبعد عن الاستعارة » (٣) .

---

(١) انظر ، ابن أبى الإصبع ، بديع القرآن ، تحقيق حفنى شرف ، ص ١٩ .
(٢) انظر نهاية الأرب ٧ : ٥٠ وما بعدها .
(٣) أيضا ٧ : ٥٠–٥١ .

فالتشبيه المضمر الأداة قد خلطه قوم بالاستعارة ولم يفرقوا بينهما ، وهذا خطأ محض كما يقول ابن الأثير .

إذن ، بين التشبيه المضمر الأداة ، وبين الاستعارة فروق منها :

(١) أن التشبيه المضمر الأداة يحسن إظهار أداة التشبيه فيه ، أما الاستعارة فلا يحسن ذلك فيها .

(٢) أن الاستعارة أخص من المجاز ، إذ أن قصد المبالغة شرط فى الاستعارة دون المجاز .

(٣) ولا تحسن الاستعارة إلا إذا كان التشبيه مقرراً ظاهراً ، وإلا فلابد من التصريح بالتشبيه . وكلما زاد التشبيه خفاء كلما زادت الاستعارة حسناً ، بحيث تكون ألطف من التصريح بالتشبيه .

إذن ، فإن الاستعارة « أقوى أثراً من التشبيه ، ولكن ألا تكون بعيدة المنال ، فلا ينبغى أن يبالغ المرء فى البحث عنها حتى تبدو غريبة ، ويجب ألا تكون واضحة كل الوضوح ،وهى التى يعرفها كل الناس ،ولا يحتاج فيها إلى بحث ، كما لا يلقون بالا إلى ما هو غريب بعيد المنال ، وإنما يهتمون بسماع الأفكار التى تحيط بها بمجرد سماعها وليست معروفة من قبل أو ليست حاضرة فى الذهن » (١) .

ويورد النويرى شواهد من الشعر معلقاً عليها ، لبيان التفريق بين التشبيه والاستعارة (٢) .

ويعقد فصلا بعنوان « فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله » ويتناول أيضاً أقسام الاستعارة . ويقسمها قسمين :

(١) اشتراك اثنين فى وصف ولكن أحدهما أنقص من الآخر فيعطى الناقص اسم الزائد مبالغة فى تحقيق الوصف . وهذا النوع هو ما نسميه الاستعارة التحقيقية .

---

(١) الخطابة لأرسطو ، نقلا عن غنيمى هلال ، النقد الأدبى الحديث ، ص ١١٦ .

(٢) انظر نهاية الأرب ٧ : ٥٢ .

(٢) أن نعتمد لوازمه عندما تكون جهة الاشتراك وصفاً وإنما ثبت كماله فى المستعار منه بواسطة شىء آخر ، فثبت ذلك الشىء للمستعار له مبالغة فى إثبات المشترك ، وهذا النوع هو ما يسمى بالاستعارة المكنية .

أما الكناية : فيتعرض لها النويرى — فى كتابه — فى موضعين ، الأول فى الجزء الثالث ، والثانى فى الجزء السابع عند حديثه عن علوم البلاغة .

ويبدأ بتعريفها فيقول : اللفظة إذا أطلقت وكان الغرض الأصلى غير معناها فلا يخلو : إما أن يكون معناها مقصوداً أيضاً ليكون دالا على ذلك الغرض الأصلى ، وإما لا يكون كذلك .

فالأول : الكناية ، والثانى : المجاز .

فالكناية عند علماء البيان هى : أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى لا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكى يجىء إلى معنى هو تاليه وردفه فى الوجود فيومى به إليه ويجعله دليلا عليه . مثال قولهم : كثير رماد القدر ، يعنون كثير القرى ، وقد تعرف بأنها تعبير المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن ، وعن النجس بالطاهر وعن الفاحش بالعفيف ، هذا إذا قصد المتكلم نزاهة كلامه عن العيب (١) .

مواضع الكنايات : والكنايات لها مواضع ، ولكن أحسنها : « العدول عن الكلام القبيح إلى ما يدل على معناه فى لفظ أبهى منه ، ومن ذلك أن يعظّم الرجل فلا يدعى باسمه ويكنى بكنيته أو يكنى باسم ابنه صيانة لاسمه »(٢)

ويستشهد على ذلك بآيات من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « فقولا له قولا ليّنا » أى كنّياه . وكذلك بالأشعار كقول البحترى :

---

(١) انظر ، ابن أبى الإصبع : بديع القرآن ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، ويحيى بن حمزة العلوى : الطراز ١ : ٣٦٤ طبع مصر ١٩١٤ .

(٢) نهاية الأرب ٣ : ١٥٢ .

يتشاغَفْن بالصغيرِ المُسمَّى موضعاتٍ وبالكبير المُكَنَّى

ويعلق النويرى على هذا بقوله : « وهذا يدل على أن المراد بالكنية التبجيل »(١) فاستعمال الكناية عنده إنما هو صيانة للشىء ، وتعففاً للسان .

ويقرر المصنف أن العرب تكثر من استعمال الكنايات ، فلقد جرت عادتهم على استخدام الكناية « فى الأشياء التى يستحى من ذكرها قصداً للتعفف باللسان ، كما يتعفف بسائر الجوارح » (٢) .

ومن الكنايات ما يجئ على شكل مثل ، كما فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إياكم وخضراء الدّمن » وهو يريد بها المرأة الحسناء فى المنبت السوء .

وقد عدّ المبرّد هذا النوع من الكنايات ، وهو الذى يقع موقع المثل أبلغ الكنايات يقول عند كلامه عن أضرب الكناية : « والكلام يجرى على ضروب ، فمنه ما يكون فى الأصل لنفسه ، ومنه ما يكنى عنه بغيره ، ومنه ما يقع مثلا ، فيكون أبلغ ما فى الوصف » (٣) .

والنويرى نفسه يهتم ، بهذا النوع من الكنايات ويأتى بكثير من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، والحكايات التى وردت فى هذا الشأن يشرحها ويعلق عليها (٤) .

وقد حاولنا فيما سبق — قدر الطاقة — أن نمزج كلام النويرى بغيره لنقدم صورة كاملة عن هذه الأبواب البيانية ، خاصة وقد أوجز النويرى فى بعض المواضع ، لأنه لم يرد — كما قلنا — أن يقدم كلاماً مستوعباً ، ولكنه رغب فى تأليف موسوعة تأخذ من كل فن بطرف .

---

(١) نهاية الأرب ٣ : ١٥٢ ، وانظر تفصيل ذلك : محمد حفنى شرف ، التصوير البيانى ، ص ٣٣٤ وما بعدها ، ط . مصر ١٩٧٠ م

(٢) أيضا ٣ : ١٥٢-١٥٣ .

(٣) الكامل ٣ : ٦٧٤ .

(٤) انظر نهاية الأرب ٣ : ١٥٣-١٦٢ .

أما علم المعانى : وهو العلم الذى يبحث فى اختلاف المعنى تبعاً لاختلاف التراكيب، فقد تناول المصنف موضوعاته بالتفصيل، ومن هذه الموضوعات : الخبر والتقديم والتأخير ، والفصل والوصل،وإنما، وغيرها من الموضوعات الهامة .

وقد بدأ بالخبر وأحكامه ، فعرّفه بقوله : « الخبر هو القول المقتضى تصريحه نسبة معلوم بالنفى أو الإثبات » (١) فالخبر المثبت إما أن يكون فى الفعل أو الاسم، والإخبار بالفعل أخص من الإخبار بالاسم،وقد أتى المصنف بكثير من الأمثلة والشواهد من القرآن الكريم والشعر لتوضيح ما يقول (٢) .

أما التقديم والتأخير : فإن التقديم يحسن فى مواضع منها :

(١) أن تكون الحاجة إلى ذكره أشد ، كقولك: « قطع اللصّ الأميرُ ».

(٢) أن يكون ذلك أليق بما قبله من الكلام أو بما بعده كقوله تعالى : « وتغشى وجوههم النار » .

(٣) أن يكون من الحروف التى لها صدر الكلام ، كحروف الاستفهام والنفى (٣) .

الفصل والوصل : يعرّفه فيقول : « هو العلم بمواضع العطف والاستئناف والتهدى إلى كيفية إيقاع حروف العطف فى مواقعها » (٤) .

ويعد النويرى هذا المبحث من مباحث علم المعانى من أهم أركان البلاغة وأعظمها « حتى إن بعضها حد البلاغة بأنها معرفة الفصل من الوصل » (٥) ، وهو يؤيد رأيه بذكر رأى لأحد علماء البلاغة، وهو عبد القاهر الجرجانى ،

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٦١ .
(٢) انظر ٧ : ٦١-٦٣ .
(٣) انظر تفصيل ذلك ٧ : ٦٩-٧٠ .
(٤) نهاية الأرب ٧ : ٧٠ .
(٥) أيضا ٧ : ٧١ .

الذى يقول فى الفصل والوصل : « إنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معانى البلاغة » (١) .

وتحدث عن هذا الموضوع بإسهاب ، وبين أن الاشتراك إما أن يكون فى المفردات ، أو فى الجمل . كما تناول المواضع التى يجب فيها إسقاط العاطف لاختلال المعنى عند إثباته (٢) .

الحذف والإضمار : تناول الحذف فى الأفعال المتعدية ، وحذف المبتدأ والخبر ، والمواضع التى يحسن الحذف فيها ، يقول مثلا فى حذف المبتدأ : « قد يحسن حذف المبتدأ حيث يكون الغرض أنه قد بلغ فى استحقاق الوصف بما جعل وصفاً له حيث يعلم بالضرورة أن ذلك الوصف ليس إلا له . . . » (٣) .

كما تحدث أيضاً عن الإضمار ، وأتى بأمثلة من القرآن الكريم ، وببعض الأشعار التى قيلت فى هذا الشأن كقول البحترى :

قد طلبنا فلم نجدْ لك فى السُّؤْ ددِ ، والمجدِ والمكارمِ مثَلَا

مباحث إن وإنما :

وهو يشير إلى فوائد وجود « إن » فى الجمل ، منها : أنها تربط الجملة الأولى بالثانية ، وأن وجود ضمير الشأن فى الجملة الشرطية مع إن يضيف إليها حسناً ورونقاً لا يرى إذا لم تدخل عليها ، وأنها تهيىء النكرة وتصلحها لأن يحدث عنها ، كما أنها قد تغنى عن الخبر .

ويستحسن النويرى بعض المواقع التى تقع فيها إن ، وهو الظن فيقول : « ومن لطيف مواقعها أن يدعى على المخاطب ظن لم يظنه ، ولكن صدر

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٧٧ .

(٢) انظر ، نهاية الأرب ٧١ : ٧٥ .

(٣) أيضـــا .

منه فعل يقتضى ذلك الظن ، فيقال له : « حالك تقتضى أن تكون قد ظننت ذلك كقول الشاعر :

جاء شقيقٌ عارضًا رمحَـه   أنَّ بنى عمِّك فيهم رماحُ »(١)

أما إنما : فتارة تجىء للحصر ، بمعنى أن هذا الحكم لا يوجد فى غير المذكور ، وهى بمنزلة ليس إلا . وتارة أخرى تجىء لبيان أن هذا الأمر ظاهر عند كل حد كقول الشاعر :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ   تجلتْ عن وجههِ الظلماءُ

أى أن هذا مما لا ينكره أحد .

النظم : ويعلق المصنف أهمية كبيرة على النظم ، بمعنى اتباع معانى النحو وقواعده ، ومراعاة وضع الحروف فى مواضعها ، يقول : «وأما النظم ، فهو عبارة عن توخى معانى النحو فيما بين الكلم ، وذلك أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو » (٢) . كما يجب مراعاة مواضع التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والعطف وغير ذلك .

والذى يسبب فساد النظم هو البعد عن قواعد النحو ، واستعمال الأشياء فى غير موضعها « وقد أطبق العلماء على تعظيم شأن النظم ، وأن لا فضل مع عدمه ، ولو بلغ الكلام فى غرابة معناه ما بلغ ، وأن سبب فساده ترك العمل بقوانين النحو ، واستعمال الشىء فى غير موضعه » (٣) .

إذن « صحة الأسلوب ووضوحه ودقته (٤) أساس جودة الكلام ،

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ٨٢ .

(٢) نهاية الأرب ٧ : ٨٧ وانظر عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز : ص ٦٤ ، يقول: « ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو »، وفى نظرية النظم عند عبد القاهر خاصة ، انظر كتاب : أثر النحاة فى البحث البلاغى، للدكتور عبد القادر حسين ، ص ٣٦٦ وما بعدها .

(٣) أيضا نفس المصدر والصفحة .

(٤) انظر تفصيل ذلك: الدكتور غنيمى هلال: النقد الأدبى الحديث : ص ١١٨ : ١٢١ .

فصحة الأسلوب تستلزم أموراً ، منها صحة استعمال الكلمات التي تربط الكلام بعضه ببعض . ووضوح الأسلوب شرط لجودته ، لأن الكلام يعجز عن أداء معناه فى وضوح يفوت الغرض منه » (١) .

كما أنه يجب عدم استعمال الألفاظ الدارجة أو المبتذلة له وإنما يجب تخير الألفاظ المناسبة، « فاللغة تكون واضحة كل الوضوح إذا تألفت من ألفاظ دارجة ، لكنها حينئذ تكون مبتذلة . . . فيجب القصد فى استعمال هذه الكلمات غير المبتذلة . . . فالإفراط فى استخدام الكلمات الغريبة ، وفى استخدام المجازات ينتج أثراً هزلياً » (٢)

ويبين النويرى أن هذا الباب ، وهو النظم ، ليس له قانون محدد ، ولكنه يجىء على وجوه متعددة منها : الإيجاز ، والتكرار والتأكيد .

وتعتبر نظرية النظم من أهم النظريات فى الفكر اللغوى العربى ، وتنسب هذه النظرية إلى الإمام عبد القاهر الجرجانى ، والواقع أن هذه الكلمة قد ترددت على ألسنة النحاة قبل عبد القاهر بمئات السنين ، ولكن عبد القاهر جعل من مفهوم النظم إطاراً عاماً تدور حوله كل أبواب البلاغة وأقسامها وفصولها ، والبلاغة عنده هى النظم قبل كل شىء وبعد كل شىء ، سواء ازدان هذا النظم بالمجازات أو خلا منها ، لأن مردّ الحسن والقبح ليس إلى ذلك وإنما مرده إلى النظم وتركيب الكلام وائتلاف بعضه ببعض أو مرجعه على حد تعبير عبد القاهر نفسه فى توخى معانى النحو .

وللجاحظ كتاب مفقود باسم نظم القرآن ، وهو إنما يكون عنده فى تلاحم الأجزاء وحسن السبك (٣) .

ولقد استقرت نظرية النظم على يد عبد القاهر ، ونجح فى تطبيقها على

---

(١) أرسطو : الخطابة ، نقلا عن غنيمى هلال : النقد الأدبى ، ص ١١٦ .
(٢) أرسطو : فن الشعر ، نقلا عن المصدر السابق .
(٤) انظر : الباقلانى، إعجاز القرآن ، طبع مصر ، ص ٦ .

كافة أبواب البلاغة من معان وبيان وبديع ، وقبله كان النظم نتفاً وكلمات متفرقة هنا وهناك دون رابط يجمعها أو سلك ينظمها .

أما علم البديع : وهو العلم الذى يبحث فى خصائص الألفاظ من حيث تناسقها سواء أكان هذا التناسق صوتياً أم معنوياً ، فإن النويرى قد بدأ بالحديث عن : التجنيس ، فذكر أنه يتشعب إلى شعب كثيرة منه المستوفى التام ، والمختلف أى التجنيس الناقص ، والمذيل ، والمركب إلى غير ذلك من الأنواع التى ذكرها مستشهداً بالآيات القرآنية ، والأبيات الشعرية .

وعلى العموم فإن التجنيس يحسن « إذا قل ، وأتى فى الكلام عفواً من غير كد ولا بعد ، ولا ميل ، ولا يكون كقول الشاعر :

سلَّتْ وسلَّتْ ثم سلَّ سليلُها   فأتى سَليلُ سليلِها مسلولَا

ولا قول المتنبي :

فَقَلْقَلْتُ بالهَمِّ الذى قَلقَلَ الحشا   قلاقَلَ عيشٍ كلّهن قَلاقلُ (١)

الطبـــاق :

وهو الجمع بين ضدّين مختلفين ، كالليل ، والنهار ، والسواد والبياض .

والنويرى يورد آراء بعض علماء البلاغة فى هذا الشأن ، أمثال الأخفش ، وابن أبى الإصبع . فالأخفش يقول : « أجد قوماً يختلفون فيه (الطباق) ، فطائفة — وهم الأكثر — يزعمون أنه الشىء وضده ، وطائفة تزعم أنه اشتراك المعنيين فى لفظ واحد » (٢) . وهو يعد هذا من التجنيس لا من الطباق .

---

(١) انظر نهاية الأرب ٧ : ٩٨ .

(٢) نهاية الأرب ٧ : ٩٨–٩٩ .

أما الطباق – فى رأيه – فهو المطابقة والطباق والتضاد والتكافؤ : وهو أن تجمع بين المتضادين مع مراعاة التقابل ، فلا تجىء باسم مع فعل ، ولا بفعل مع اسم كما فى قوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً ، وليبكوا كثيراً » وكقول البحترى :

وأمةٌ كان قبحُ الجورِ يُسخطُها   حينًا فأصبحَ حُسنُ العدلِ يُرضيها(١)

المقابلة :

وهى أن تضع معانى تريد الموافقة بينها وبين غيرها أو المخالفة ، وتأتى فى الموافق بما وافق ، وفى المخالف بما خالف ، أو تشرط شروطاً ، وتعد أحوالا فى أحد المعنيين فيجب أن تأتى فى الثانى بمثل ما شرطت وعددت فى الأول مثل قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

وفى رأى المؤلف أن المقابلة أعم من الطباق إلا أن بعضهم قد ذكر أنها أخص (٢) .

ومن رأيه أيضاً أن الشىء إذا قوبل بما لا يوافقه أو لا يخالفه ، فإن ذلك يكون من فساد المقابلة ، ويستشهد على ذلك بقول الشاعر :

«يا ابن خيرِ الأخبارِ من عبدِ شمسٍ   أنت زينُ الدنيا وغيثٌ لجودِ

فيعلق على هذا البيت بقوله : « فليس قوله : غيث لجود موافقاً لقوله زين الدنيا ولا مخالفاً له » (٣) .

---

(١) أيضا ٧ : ٩٩ ، ويمكن الرجوع فى باب الطباق أيضاً إلى العمدة لابن رشيق ٢ : ٥ ، والبديع لابن المعتز ، ص ٤٧ ، وأسرار البلاغة لعبد القاهر ، ص ١٤ .

(٢) راجع فى ذلك : ابن قدامة : نقد الشعر ، ص ٧٩ ، أبا هلال : الصناعتين ، ص ٣٣٧ ، ابن سنان الخفاجى : سر الفصاحة ، ص ٣٥١ .

(٣) نهاية الأرب ٧ : ١٠٢ .

ثم نقل ما ذكره الحلبي من مواضع المقابلة مستشهداً بالآيات القرآنية والأبيات الشعرية .

السجــع : وهو أن تكون الكلمات المسجوعة ساكنة الأعجاز موقوفاً عليها « لأن الغرض أن يجانس بين قرائن ، ويزاوج بينها ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف مثل قولهم : « ما أبعد ما فات ، وما أقرب ما هو آت » (١) .

والسجع على أربعة أنواع : الترصيع ، المتوازى ، المطرف ، المتوازن. وقد تعرض النويرى لبيان هذه الأنواع وشرحها بالتفصيل (٢) .

رد العجز على الصدور : وهو كل كلام منثور أو منظوم يلاقى آخره أوله بوجه من الوجوه (٣) ، كقوله تعالى « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » . وهو يقع فى النظم على أربعة أنواع :

(١) أن يقعا طرفين : إما متفقين صورة ومعنى . أو متفقين صورة لا معنى ، أو متفقين معنى لا صورة .

والطرف الثانى — وهو اتفاق الطرفين صورة لا معنى — قد استحسنه النويرى ، فيقول بعد ذكره له « هو أحسن من الأول » (٤) .

(٢) النوع الثانى : أن يقعا فى حشو المصراع الأول وعجز الثانى .

(٣) النوع الثالث : أن يقعا فى آخر المصراع الأول وعجز الثانى .

(٤) النوع الرابع : أن يقعا فى أول المصراع الثانى والعجز .

الالتفات : ويعتمد فى إيراد هذا الباب على آراء لقدامة وابن المعتز خاصة (٥) ، ويورد تعريف كل منهما للالتفات .

---

(١) نهاية الأرب ٧ : ١٠٣ .

(٢) انظر نهاية الأرب ٧ : ١٠٤ وما بعدها .

(٣) راجع فى هذا الباب : ابن المعتز : البديع ، طبع مصر ١٩٤٥ م ، ص ٩٣، وابن رشيق ويسميه التصدير : العمدة ص ٢ .

(٤) نهاية الأرب ٧ : ١٠٩ .

(٥) راجع كتاب البديع لابن المعتز ص ١٠٦ ، وانظر أيضا الكامل للمبرد ٢ : ٣ .

الاستطراد : وهو أن يكون المتكلم فى معنى ، فيخرج منه بطريق التشبيه أو الشرط أو الإخبار إلى غير ذلك ، إلى معنى يتضمن مدحاً أو قدحاً أو وصفاً . . . وقد سماه ابن المعتز « الخروج من معنى إلى معنى » (١) .

المبالغة : وتسمى التبليغ والإفراط فى الصنعة ، وهناك من المبالغة ما هو مقبول وما هو غير مقبول . فمن أمثلة المبالغة المقبولة – كما يقول النويرى – قول امرىء القيس فى وصف فرس :

فعادى عداءً بين ثَوْرٍ ونعجةٍ   دِرَاكًا ولم ينضحْ بماءٍ فيُغسلِ

كما تعرض المصنف للحديث عن تأكيد المدح بما يشبه الذم ، والذم بما يشبه المدح . وعن عتاب المرء نفسه ، وذكر أنه من إفراد ابن المعتز .

كما تناول بالتفصيل: التلميح ، وإرسال المثل ، والتفسير ، والإيهام، أى التورية ، وحسن الابتداءات ، والتوشيح ، والطاعة والعصيان ، وغير ذلك من مباحث علم البديع(٢) .

ورغم أن النويرى قد ذكر ، فى بداية حديثه عن علوم البلاغة، أنه قد اعتمد فى ذلك على كتاب « حسن التوسل » وجعله المصدر الرئيسى له ، فإنه قد رجع إلى مراجع أخرى ، استعان بها فى توضيح بعض الأبواب ، ككتاب « تحرير التحبير » لابن أبى الإصبع وغيره .

* * *

---

(١) أورده ابن المعتز فى كتاب البديع تحت اسم حسن الخروج ص ١٠٩ ، وانظر أيضا بديع القرآن لابن أبى الاصبع ، ص ٤٩ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى نهاية الأرب ٧ : ٩٠ – ١٨١ .

خاتمـــة

أصبحت لمصر الزعامتان السياسية والروحية ، بعد سقوط بغداد (٦٥٦ ﻫ) ووفد إليها كثير من العلماء ، الذين رحبت بهم الحكومة والناس على السواء ، فنشطت الحياة الثقافية والفكرية ، وانتشرت المدارس فى أرجاء البلاد . وكان نتيجة لازدهار هذه الحياة الفكرية الزاخرة والتى عايشها النويرى أن أثـّرت على شخصيته ، تلك الشخصية التى انعكست على موسوعته نهاية الأرب .

وعند بحثنا عن حياة المصنف فى الأجزاء المطبوعة من الكتاب وفى التراجم التى تحدثت عن حياته ، لم نحصل إلا على معلومات ضيئلة ومكررة ، مما اضطرنا إلى الرجوع إلى بقية أجزاء الكتاب المخطوطة بدار الكتب المصرية علّنا نستطيع أن نضيف شيئاً إلى حياته ، وبالفعل فقد وجدناه ابتداء من الجزء الثامن والعشرين يورد بعض المعلومات عن نفسه فى حوادث سنة ٦٦٧ ﻫ ، وهى السنة التى ولد فيها ، وعن مشاركته فى بعض الحوادث وعن الأساتذه الذين تتلمذ على أيديهم .

وقد أثبت البحث أن ما ذهب إليه كتّاب التراجم والمؤرخون ، وتابعهم فيه محققو الأجزاء المنشورة من « نهاية الأرب » خطأ كبير حين سجلوا أن مؤلفه شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى قد ولد سنة ٦٧٧ ﻫ ، ولم ينتبه هؤلاء الكتاب والمؤرخون إلى أن المؤلف كتب بنفسه تاريخ ولادته ٦٦٧ ﻫ . كما أثبت البحث أن أبا المصنف هو الذى كان يلقب بالنويرى ، وأن الابن قد أخذ هذا اللقب عن أبيه ، دون أن يكون للابن أية صلة بقرية « نويرة » — وهى إحدى قرى بنى سويف — مما يدحض الزعم بأنه قد ولد فى تلك القرية .

ولقد نشأ النويرى وتربى فى الصعيد ، الذى كان يزخر بحركة علمية وثقافية هائلة تركزت فى إقليم « قوص » ، حيث استطاع أن يغترف من هذه البيئة العلوم والآداب، وبدأ منذ وقت مبكر من حياته يسجل ملاحظات خاصة بهذه المنطقة ، مما كان له أكبر الأثر فى تكوين شخصيته . ويمكن القول بأنه قد تكونت لديه ملكة الملاحظة فى فترة وجوده بالصعيد .

وبعد أن ترك النويرى قوص ، وباشر عمله بالديوان الخاص بالقاهرة والشام أيضاً ، اندمج فى الحياة العلمية والفكرية وخالط الفقهاء والقضاة وأهل العلم ، ولم تستطع مباشرته الديوانية — على خطرها — أن تصرفه عن اندماجه فى تلك الحياة .

ولقد كان لإقامة النويرى بالمدرسة الناصرية أكبر الأثر فى تكوينه الثقافى ، فقد كان متوائماً مع الجو العلمى الذى وجد نفسه محاطاً به ، وكان حريصاً على حضور المجالس العلمية التى كانت تزخز بها مدارس القاهرة ، فقد حضر مجالس السماع على كبار المحدثين والاتصال المستمر بأساتذة المدرسة ، كما أتيحت له فرصة الإفادة بمكتبتها العامرة ، الأمر الذى انعكس بوضوح على كتابه .

وقد حدث تحول فى حياة النويرى ، جعله يزهد فى الوظائف كلية ويعزف عن حياة الدواوين ، ويبدو أنه تفرغ للعلم وانفصل عن مباشرة الوظائف الديوانية ، فقد نشط فى الكتابة والنسخ نشاطاً استولى على وقته ، ولم يدع له فراغاً لمباشرة أعمال أخرى .

كما اتضح من البحث أنه عندما بدأ فى تأليف موسوعته كان قد ابتعد كلية عن ميدان الوظائف الحكومية وتفرغ للتأليف والأدب ، وبعد سنة ٧١٢ هـ أى بعد عودته من طرابلس واستقراره بالقاهرة أتم أجزاءها الثلاثين فى سنة ٧٢٥ هـ ، ثم استكمل سياقة الأحداث التاريخية فى عصره حتى سنة ٧٣٠ هـ،بعد أن أضاف إلى تلك الأجزاء جزءاً جديداً هو الجزء الحادى والثلاثين .

ولقد دلت القرائن على أن النويرى بدأ فى تأليف « نهاية الأرب » منذ عام ٧١٢ هـ على الأرجح ، وكان من أسباب تأليفه للكتاب هو الاعتماد على ما يورده فيه من معلومات والرجوع إليها إذا كلف هو أو غيره بمهمة من المهام ، وحصول الأنس والمتعة بمطالعة ما أورده فى كتابه كلما عنّ له ذلك ، وقد أراد المصنف أن يستفيد الناس من كتابه بقدر ما يأنسون به ويستمتعون بقراءته .

ومن أبرز مميزات نهاية الأرب أنه موسوعة شاملة للمعارف الإنسانية ، احتوت على ما انتهت إليه العلوم حتى عصر المصنف . ورغم ذلك فإن المصنف قد قسم كتابه تقسيماً واضحاً ، كما حاول أن يبعد به عن الحشو والتكرار قدر الإمكان .

كما أن من أهم مميزات الكتاب وفرة المعلومات وتنوعها ، فقد اعتمد المؤلف فى استقاء معلوماته على مصادر متنوعة ، ومع ذلك فإن شخصية المؤلف تبدو واضحة من خلال انتقائه لما يعرضه من مختلف المصادر .

ولقد استولت على النويرى فكرة التزم بها ولم يحد عنها ، ألا وهى وحدة المعرفة الإنسانية ، حيث تتداخل الآداب والفنون جميعاً لتكون نسقاً واحداً متمايزاً يعبر عن تأثر الإنسان بما حوله وتأثيره فيه .

وتزداد القيمة الأدبية للكتاب حين نعلم أنه يأتى بأخبار نادرة لا تتوفر فى غيره من المصادر ، ومما يزيد من قيمة الكتّاب الأدبية والنقدية أيضاً تلك الرسائل الأدبية الرائعة التى سمعها النويرى أو قرأها بنفسه لكتّاب عصره .

وإلى جانب حسن استخدامه للمصادر المعروفة اعتمد النويرى على مصادر فريدة فى بابها لا تزال مفقودة إلى الآن ، كما استخدم مصادره وفقاً لعدد من الأسس ، من أهمها : اعتماده على مصدر رئيسى فى استقاء مادته العلمية ، واختياره لمصادره بدقة متناهية ، فلقد كان يرجع إلى المصادر الموثوق في صحتها ونزاهتها ، فإن لم يجد فضّل عدم التعرض للموضوع أصلا .

وقد استطاع أن يمزج العلم بالأدب ويقدمهما لنا فى باقة متناسقة اشتملت على المعلومات العلمية الدقيقة إلى جانب الاهتمام بالأغراض الأدبية ، وإبراز الخصائص الفنية التى تميزها .

ولقد كانت الكتابة من أهم الأشياء التى أولاها النويرى عناية فائقة ، فقد استطاع أن يقدم للكتاب على اختلاف تخصصاتهم مجموعة من الإرشادات والوصايا التى يمكنهم الاستعانة بها ، والرجوع إليها عند الحاجة .

والتاريخ فن من الفنون فى رأى النويرى ، وليس علماً من العلوم ، وقد لاحظنا أنه لا يعرض لحدث من الأحداث التاريخية إلا ويمزج تلك الأحداث بالشعر حيناً وبالرسالة الفنية حيناً آخر ، مثلما فعل فى سائر الفنون .

أما الجزء الخاص بتاريخ الأنبياء فيعد — فى رأينا — من أضعف أقسام نهاية الأرب ، والسبب فى تهافته هو اعتماد النويرى على مصدرين عدّهما رئيسين فى تاريخ الأنبياء وهما : كتاب «يواقيت البيان فى قصص القرآن» للثعلبى ، وكتاب « المبتدأ » للكسائى ، وكلا الكتابين يعتمد على الإسرائيليات غالباً . فنجد النويرى يتوسع فى استخدام المادة الخرافية والأسطورية لشرح آيات القرآن الكريم ، الذى يرفض الخرافة والأسطورة أصلاً بحكم أنه وحى إلهى يلتزم الصدق والحق .

وهو يأتى أحياناً بتفسيرات وشروح لا يقبلها منطق أو عقل دون أى تعقيب .

وبقدر ما أخفق النويرى فى كتابته لتاريخ الأنبياء ، أجاد فى تناوله لتاريخ الإسلام . وربما كان أفضل ما كتبه النويرى فى تاريخ الإسلام يتمثل فى القسم الخاص بالسيرة النبوية ، فقد اعتمد فيه على المحدّثين فى تصحيح أخطاء المؤرخين .

كما عني عناية بالغة بأخبار مصر وتاريخها .

ولقد شاعت روح الالتزام الدينى والخلقى فى نظرة النويرى النقدية إلى المادة الأدبية التى أوردها فى كتابه ؛ وقد استنبط من خلال التزامه هذا مجموعة من المعايير الخاصة بالجمال والقبح فى نظرته النقدية ، لكنه لم يستطع أن يخضع كل المادة التى أوردها لمعاييره ، وغلبه ذوقه الشعرى على هذا الالتزام الذى ألزم نفسه به حين أقحم نفسه فى الحديث عن فنون أدبية هى بطبيعتها لا تتفق أصلاً مع مفهومه الملتزم للأدب كالخمر ، والمجون ، وغيرهما .

على أن مذهبه النقدى قد تلخص — فى رأينا — فيما يلى :

- الاهتمام بوحدة الموضوع .
- الاعتماد على الذكاء وسلامة القريحة أكثر من الاعتماد على القوالب الجامدة للتعبير عما يعتمل فى وجدان الشاعر :
- الاهتمام بالتوازن بين اللفظ والمعنى ؛
- تحمد المبالغة عنده إن لم تصل إلى حد الاستحالة ، ولم تخرج عن حد الإمكان .
- أن أصدق الشعر هو ما نبع من إحساس صادق ، وتجربة حقيقية .

أما فى البلاغة ، فإن النويرى قد اعتمد بصفة أساسية على كتاب لشهاب الدين محمود بن سليمان الحلبى ، هو كتاب « حسن التوسل » فحاول تنقيح واختصار ما أورده الحلبى فى كتابه .

واعتمد فى ذلك على آراء علماء آخرين . ولم تكن له آراء فى هذا المجال تضعه فى مصاف علماء البلاغة ، لأنه نظر إلى البلاغة على أنها من الأمور المكملة لفن الكتابة ، وأن الكاتب الحاذق ليس بحاجة إلى تعلمها .

* * *

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

أولا – المراجع العربية

الآمـــــــدى :

(١) الموازنة بين أبي تمام والبحترى – طبع دار المعارف بمصر ١٩٥٤م .

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على :

(٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة – المكتبة الإسلامية – بيروت .

(٣) الكامل فى التاريخ – طبع بيروت ١٣٨٦ (١٩٦٦ م) .

ابن الأثير ، ضياء الدين :

(٤) المثل السائر – طبع مصر سنة ١٢٨٢ هـ (سنة ١٩٥٩ م) .

إبراهيم عبد الرحمن (دكتور) :

(٥) شعر عبد الله بن قيس الرقيات – جزء أول، طبع مصر ١٩٧٧ م .

إبراهيم عبد الرحمن محمد ، وعفت الشرقاوى (دكتوران) :

(٦) دراسات عربية – طبع مصر ، سنة ١٩٧٧ م .

إحسان عباس (دكتور) :

(٧) تاريخ النقد الأدبى عند العرب – طبع بيروت .

أحمد كمال زكى (دكتور) :

(٨) الأساطير – (سلسلة المكتبة الثقافية)، طبع مصر ١٩٦٧ م ؛

الإدفــوى ، كمال الدين أبو الفضل :

(٩) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد ، طبع مصر ١٩٢٤ م .

ابن أبى الإصبع المصرى :

(١٠) بديع القــرآن

بتحقيق حفنى شرف (دكتور)، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر .

أنــور الجندى :

(١١) أضواء على الفكر العربى الإسلامى — طبع مصر ١٩٦٦ م .

الباقــــلانى :

(١٢) إعجاز القــرآن — طبع مصر ١٩٦٣ م .

البخــــارى ، الإمام أبو محمد بن إسماعيل :

(١٣) الجامع الصحيح — أربعة مجلدات — طبع دار الشعب بمصر .

بــدوى طبانة (دكتور) :

(١٤) قضايا النقد الأدبى — طبع مصر ١٩٧١ م .

البيهقى ، أبو بكر أحمد بن الحسن :

(١٥) دلائل النبوة — تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان — طبع المدينة المنورة ١٣٨٩ هـ .

ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف :

(١٦) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بدار الكتب المصرية (تيمور ، تاريخ ١٢٠٩) .

(١٧) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — طبع دار الكتب المصرية ١٩٤٠ م .

الجاحـــظ ، أبو عمرو عثمان بن بحـــر :

(١٨) البيان والتبيين — بتحقيق عبد السلام هارون ، طبع مصر ١٩٤٨ م .

(١٩) كتاب الحيوان — طبع مصر ١٩٣٨ م .

الجرجـــانى ، على بن عبد العزيز :

(٢٠) الوساطـــة — طبع مصر ١٩٥١ م .

حاجـــى خليفـــة :

(٢١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون — طبع دار المثنى ببغداد .

ابن حبيب ، الحسن بن عمر :

(٢٢) درة الأسلاك فى دولة الأتراك ،
مخطوط بدار الكتب المصرية ، برقم ح ٦١٧٣ .

ابن حجر العسقلانى :

(٢٣) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ،
تحقيق سيد جاد الحق ، مصر ١٣٨٥ هـ (١٩٦٦ م) .

(٢٤) الإصابة فى تمييز الصحابة
طبع كلكتا ١٨٥٣ — ١٨٦٤ م ، وطبع مصر تحقيق الدكتور محمد طه الزينى ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦ م)

(٢٥) تهذيب التهذيب — طبع دار صادر ببيروت .

أبو الحسن النـــدوى :

(٢٦) رجال الفكر والدعوة فى الإسلام ،
طبع الكويت ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) .

حسين نصـــار (دكتور) :

(٢٧) نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى — طبع مصر ١٩٦٦ م .

الحلبي ، شهاب الدين أبو الثناء :

(٢٨) حسن التوسل - طبع مصر ١٩٢٨ م .

أبو حيان التوحيدى :

(٢٩) المقابسات - طبع المطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٩ م .

الخفاجي ، ابن سنان :

(٣٠) سر الفصاحة - طبع مصر ١٩٣٢ م .

ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد :

(٣١) العبر وديوان المبتدأ والخبر - طبع بيروت ١٣٩١ هـ .

(٣٢) مقدمة ابن خلدون - طبع دار الشعب بمصر .

ابن الدواداري ، أبو بكر عبد الله بن أيبك :

(٣٣) كنز الدرر وجامع الغرر ،
الجزء التاسع ، بتحقيق هانز روبرت رويمر ، طبع مصر ١٩٦٩م.
الجزء الثامن ، بتحقيق أولرخ هارمان ، طبع مصر ١٩٧١ م .
الجزء الثالث ، بتحقيق محمد السعيد جمال الدين ، طبع مصر ١٩٨٢ م .

الرازى :

(٣٤) نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز - طبع مصر ١٣٢٧ هـ .

ابن رشيق القيروانى :

(٣٥) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ،
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - بيروت ١٩٧٢ م .

الزبيدى ، السيد مرتضى :

(٣٦) تاج العروس - مصر ١٣٠٦ هـ .

السبكى ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين :

(٣٧) طبقات الشافعية الكبرى (٥ أجزاء) مصر ١٣٢٤ هـ .

ستيفن رنسيان :

(٣٨) تاريخ الحروب الصليبية — الترجمة العربية — الجزء الثالث ، طبع بيروت ١٩٦٩ م .

السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :

(٣٩) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ — بيروت ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م)

السكاكى :

(٤٠) مفتاح العلوم — طبع مطبعة الحلبى بمصر .

السهيلى :

(٤١) الروض الأنف — تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، طبع مصر .

السيد أحمد الهاشمى :

(٤٢) جواهر الأدب فى أدبيات وإنشاء لغة العرب ، طبع بيروت .

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

(٤٣) طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى — طبع مصر ١٩٦٧ م :

السيوطى ، جلال الدين :

(٤٤) الجامع الصغير — مطبعة المشهد الحسينى بالقاهرة .

(٤٥) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة — طبع مصر ١٣٨٧ هـ .

شاكر مصطفى (دكتور) :

(٤٦) التاريخ هل هو علم ؟
مقال نشر بمجلة عالم الفكر ، المجلد الخامس ، العدد الأول ، الكويت ١٩٧٤ .

أبو شامة المقدسى ، عبد الرحمن بن إسماعيل :

(٤٧) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، طبع مصر ١٢٨٧ هـ .

الشهرستانى ، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم :

(٤٨) الملل والنحل — طبع مصر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م) .

شوقى ضيف (دكتور) :

(٤٩) الفن ومذاهبه فى النثر العربى — طبع مصر ١٩٦٥ م .

(٥٠) فى النقد الأدبى — طبع مصر ١٩٧٦ م .

الطبرى ، محمد بن جرير :

(٥١) تاريخ الطبرى — طبع دار العلم ، بيروت .

ابن ظفر ، حجة الدين أبو هاشم محمد :

(٥٢) خير البشر — مصر ١٢٨٠ هـ .

عباس إقبال :

(٥٣) تاريخ مغول (باللغة الفارسية) — طبع طهران ١٣٤٧ هـ. ش .

ابن عبد البر ، القاضى عمر :

(٥٤) الاستيعاب فى معرفة الصحاب ،
طبع على هامش كتاب الإصابة فى تميز الصحابة لابن حجر ، مصر ١٣٢٨ هـ .

ابن عبد الحكم :

(٥٥) فتوح مصر وأخبارها — طبع ليدن ١٩٢٠ م .

ابن عبد ربه :

(٥٦) العقد الفريد — طبع مصر ١٩٤٠ م .

عبد القادر حسين (دكتور) :

(٥٧) أثر النحاة فى البحث البلاغى – طبع مصر ١٩٧٥ م .

عبد القاهــر الجرجانى :

(٥٨) أسرار البلاغة ، تصحيح السيد محمد رشيد رضا،طبع بيروت ١٣٩٨ هـ (١٩٧٨م) .

(٥٩) دلائل الإعجــاز – طبع مصر ١٣٦٧ هـ .

عبد اللطيف حمزة :

(٦٠) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ، طبع مصر ١٩٦٨ م .

ابن العماد الكاتب ، أبو الفتوح عبد الحى :

(٦١) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب – طبع بيروت ١٣٥٠ هـ .

العلــوى ، يحيى بن حمزة :

(٦٢) الطــراز – طبع مصر ١٩١٤ م .

على إبراهيم حسن (دكتور) :

(٦٣) دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، وفى عصر الناصر محمد بوجه خاص – الطبعة الثانية ، مصر ١٩٤٨ م .

على عشرى زايد (دكتور) :

(٦٤) استدعاء الشخصيات التراثية فى الشعر العربى المعاصر ، طبع طرابلس ١٩٧٨ م .

الغزالى ، أبو حامد محمد :

(٦٥) المنقذ من الضلال ، تحقيق محمد مصطفى أبى العلا ، وآخر طبع مصر ١٩٧٣ م .

فرانز روزنتال :

(٦٩) مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، ترجمة الدكتور أنيس فريحة – طبع بيروت ١٩٨٠ م .

أبو الفــرج الإصفهانى :

(٦٧) كتاب الأغانى ،
طبع بيروت ١٣٩٠ هـ (عن طبعة بولاق الأصلية) .

فؤاد سزكين (دكتور) :

(٦٨) تاريخ التراث العربى ، ترجمة محمود فهمى حجازى ، وفهمى أبى الفضل — طبع مصر ١٩٧٧ م .
(٦٩) محاضرات فى تاريخ العلوم عند العرب ،
طبع الرياض ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

فؤاد عبد المعطى الصياد (دكتور) :

(٧٠) مؤرخ المغول الكبير ، رشيد الدين فضل الله الهمدانى ،
طبع مصر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٧ م) .

الفيروز آبادى ، مجد الدين :

(٧١) القاموس المحيط — طبع مصر ١٣٥٧ هـ (١٩٣٨ م) .

قاسم غنى (دكتور) :

(٧٢) تاريخ التصوف فى الإسلام (بالفارسية) ،
طبع طهران ١٣٢١ هـ. ش

ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم :

(٧٢) كتاب المعارف — طبع مصر ١٩٦٩ م .

قـــدامة :

(٧٤) نقــد الشعر — طبع مصر ١٩٣٤ م .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد :

(٧٥) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا — طبع مصر ١٣٣٣ هـ.

ابن القيم الجوزية ، الإمام شمس الدين :

(٧٦) زاد المعاد فى هدى خير العباد ،
تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ،
طبع بيروت ١٣٩٩ هـ (١٩٧٩ م) .

كارل بروكلمان :

(٧٧) تاريخ الأدب العربى — ترجمه إلى العربية عبد الحليم النجار ،
طبع دار المعارف بمصر .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفـدا :

(٧٨) البداية والنهاية فى التاريخ — طبع مصر ١٣٥١ — ١٣٥٨ هـ .

كراتشكوفسكى :

(٧٩) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين هاشم ،
طبع جامعة الدول العربية ، مصر ١٩٦٣ م .

الكلاعى ، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعى الأندلسى :

(٨٠) الاكتفاء فى مغازى رسول الله والثلاثة الخلفاء ،
تحقيق مصطفى عبد الواحد — مصر ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨ م) :

المبرد ، أبو العباس :

(٨١) الـكامل — طبع المطبعة التجارية بمصر .

محمد جمال الدين سرور (دكتور) :

(٨٢) دولة بنى قلاوون فى مصر ، الحالة السياسية والاقتصادية فى
عهدها بوجه خاص — طبع مصر ١٩٤٧ م .

محمد خلف الله :

(٨٣) من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ،
لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ١٩٤٧ م .

محمد زغلول سلام (دكتور)

(٨٤) الأدب فى العصر المملوكى (جزءان) - طبع مصر ١٩٧١ م .

(٨٥) تاريخ النقد الأدبى والبلاغى حتى القرن الرابع الهجرى ، طبع منشأة المعارف بالإسكندرية .

محمد بن سعد ، كاتب الواقـدى :

(٨٦) الطبقات الكبرى ، تحقيق إحسان عباس - طبع بيروت .

محمد على أبو ريان (دكتور) :

(٨٧) تصنيف العلوم بين الفارابى وابن خلدون ، مجلة عالم الفكر ، المجلد التاسع ، العدد الأول ، ١٩٧٨ م - الكويت .

محمد غنيمى هلال (دكتور) :

(٨٨) النقد الأدبى الحديث - طبع مصر ١٩٧٩ م .

مصطفى الشكعة (دكتور) :

(٨٩) مناهج التأليف عند العلماء العرب - قسم الأدب ، طبع بيروت ١٩٧٤ م .

ابن المعتز ، عبد الله :

(٩٠) كتاب البديع ، بتحقيق كراتشكوفسكى - طبع مصر ١٩٤٥ م.

المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على :

(٩١) الخطط المقريزية المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبع مصر ١٩٦٧ - ١٩٦٨ م .

(٩٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ .

ابن منظور ، محمد بن مكرم بن على :

(٩٣) لسان العرب - طبع بولاق .

الميـــدانى :

(٩٤) مجمع الأمثال – طبع مصر ١٣٤٢ هـ .

نقولا زيادة (دكتور) :

(٩٥) الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ١٩٨٠ م .

النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب :

(٩٦) كتاب نهاية الأرب فى فنون الأدب ، طبع منه واحد وعشرون جزءا، تصوير وزارة الثقافة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٣ – ١٩٧٦ م .

ابن هشام ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله :

(٩٧) السيرة النبوية ، أربعة أجزاء ، طبع مطبعة الحلبى بمصر .

أبو هلال العسكرى :

(٩٨) كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر ، تحقيق على البجاوى ، ومحمد أبى الفضل إبراهيم – طبع مصر ١٣٧١ هـ (١٩٥٢ م)

ابن الوردى ، زين الدين عمر :

(٩٩) تتمة المختصر فى أخبار البشر ، تحقيق أحمد رفعت البدراوى ، طبع بيروت ١٣٨٩ هـ (١٩٧٠ م) .

ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموى :

(١٠٠) معجم البلدان ، نشر وستنفلد – ليبزج ١٨٦٦ – ١٨٧٠ م .

المراجع الإفرنجية

(101) Ahmad Zeky, Memoire sur Les moyens propres à determiner en Egypte une reniassance de Lettres, Le Caire 1910.

(102) de Goeje, Catalouges Codicum Arabicorum, Vol. I, Lieden 1907.

(103) Howorth, H. H.
History of the Mongols, London 1876.

(104) Kratchkofesky, A.
AL—Nowayrey.
Encyclocpedia of Islam,
1st. Edition.

(105) Paul Casanova,
La Doctrine secrète de Fatimides d, Egypte,
Le Caire 1920—1921.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

* * *

تقــديم

الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد
أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب
جامعة عين شمس

هذه دراسة مفصّلة حصلت بها الدكتورة « أمينة محمد جمال الدين » على درجة الدكتوراه فى الآداب بمرتبة الشرف الأولى ، وأدارتها حول أثر من الآثار الهامة فى تاريخ الثقافة العربية ، هو كتاب : « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى .

وقد اتبعت المؤلفة فى دراسة هذا الكتاب منهجاً يتألف من عنصرين متلازمين : أحدهما تاريخى ، قصدت منه إلى دراسة الظروف التاريخية المختلفة ، وما يتصل بها من أحداث سياسية واجتماعية وفكرية فى عصر النويرى ، وصلة تلك الأحداث بحياة المؤلف وأثرها فى تأليفه كتابه . كما قصدت بهذا العنصر التاريخى أن تكشف عن تطور فن تأليف الموسوعات فى الثقافة العربيــة ، حتى أخذ شكله النهــائى على يدى النويرى بحيث أصبح عمله فى هذا الكتاب نموذجاً لمؤلفى الموسوعات الآخرين .

والعنصر الآخر تحليـلى ، قصدت به إلى تحليل مادة الكتاب فى موضوعاتها المختلفة ، باحثة فى هذه المادة عن الأصول القديمة التى انحدرت منها إلى المؤلف ؛ أو بعبارة أخرى ، إنها فى تحليلها لمادة الكتاب قد قامت بتحقيق شيئين :

الأول : تصنيف هذه المادة العلمية والأدبية فى موضوعات عامة .

ثم ردها إلى أصولها التى انحدرت منها ، وتقويم منهج المؤلف فى جمعها وتنظيمها ، والإضافة إليها ؛ أى فى شكلها النهائى الذى تحولت إليه على يديه .

وهى ترى، بحق، أن كتاب : « **نهاية الأرب فى فنون الأدب** » ، ثمرة ثقافة عربية امتدت لثمانية قرون قبل حياة المؤلف ؛ وأن هذه الثقافة قد وجدت بيئة صالحة للنمو والتطور هى البيئة المصرية ، فى عصر ظلمه مؤرخو الثقافــة العربيــة ، حين اعتبروه عصر اضطراب سياسى وتخلف ثقافى مع أنه أثمر كثيراً من المؤلفات الموسوعية التى حفظت أصول الثقافة العربية على امتداد القرون السابقة عليه ؛ وهى مؤلفات على الرغم من أنها ليست فى شكلها الذى أثمره هذا العصر جديدة، فإنها جاءت فى مؤلفاته متكاملة وفى صورة لم تعرفها العربية من قبل .

وقد حشدت الباحثة فى تعليل نشأة هذه الظاهرة ، ظاهرة الموسوعات فى التأليف ونضوجها بصفة خاصة فى العصر المملوكى ، كثيراً من الأسباب التى يكمل بعضها بعضاً ؛ منها ما يتصل بالبيئة المصرية نفسها من حيث أنها بيئة لها تاريخ قديم فى هذا النوع من التأليف الذى يمكن القول بأنه مزاج تأليفى مألوف فى البيئة المصرية ؛ ومنها ما هو سياسى يتصل بالأحداث التى ألمت بالخلافة الإسلامية على يدى المغول ، وما أصيبت به بغداد ومكتباتها من تخريب وتشريد ، حمل العلماء المسلمين على الهرب إلى مصر احتماء بها من الغزو المغولى ، مما كان سبباً فى نشأة بيئة تموج بالعلماء فى شتى التخصصات موجاً ؛ وهو ما أنتج كثيراً من المؤلفات من بينها الموسوعات العربية فى التاريخ والأدب واللغة إلى غير ذلك من الأسباب ، وهى كما قلت أسباب يكمل بعضها بعضاً ، وتعلل فى مجموعها لتطور ظاهرة التأليف الموسوعى على نحو ما تشخصها موسوعات العصر المملوكى .

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الأسباب العامة سبباً آخر هو أن هذه الموسوعات المنسوبة إلى العصر المملوكى يعود تاريخ تأليفها إلى ثمانية قرون بعد الإسلام ؛ ولهذا التحديد الزمنى أهميته البالغة فى تعليل نشأة الموسوعات ؛

إذ يعنى ذلك أن كماً كبيراً من المعارف الثقافية العربية القديمة كان قد تراكم وبلغ درجة عالية من التطور فى العصر المملوكى بعد هذه القرون الطويلة . وتراكم المعرفة العربية وتنوعها بهذه الصورة من شأنه أن يمهد لنشأة فن التأليف الموسوعى حتى يتمكن القارئ من الإلمام بهذه الثقافات المتراكمة فى أشكالها المختلفة بطريقة أكثر يسراً مما هو متاح فى الظروف العادية ؛ فضلا عن تلك الحقيقة ، وهى أن تعرض هذه الثقافة القديمة ، التى قلنا إنها ثمرة قرون طويلة ، للضياع على أيدى الغزاة من المغول قد أزكى فى نفوس كثير من العلماء فى مصر الرغبة فى حفظها عن هذا الطريق الموسوعى من التأليف .

ومهما تكن أسباب نشأة فن الموسوعات وتطورها على هذا النحو فى العصر المملوكى بخاصة ، فإن الذى يهمنا تأكيده هنا هو قيمة هذا الكتاب الذى ألفه النويرى ، ومكانته فى عالم الموسوعات العربية .

وقارىء الكتاب يلاحظ أن المؤلف قد التزم فى تأليفه بمنهج معين يقوم على تصنيف المعارف العربية القديمة التى ورثها هذا العصر إلى خمسة فنون رئيسية ، ينطوى كل فن منها بدوره على فنون أخرى :

الأول : فى السماء وما يتصل بها من الأيام والليالى والشهور والأرض والجبال والبحار . . وصلة ذلك بطبائع البلاد وخصائصها وأخلاق سكانها .

والثانى : فى الإنسان . وقد حشد المؤلف فى هذا الفن مادة وفيرة للكائن البشرى وسلوكه وآدابه ونظم حياته وغير ذلك مما يتصل بحياه الإنسان على الأرض .

أما الفن الثالث : فقد خصصه لوصف الحيوان الصامت ويقصد به الكائنات الأخرى المقابلة للإنسان على الأرض من الوحوش والظباء والخيل والبغال والطيور والزواحف وغيرها .

كما يقف فى الفن الرابع عند النبات وما يتصل به من أنواع وأصناف .

وأخيراً يدير الفن الخامس حول فكرة التاريخ وهو يبدأ الحديث فيه على عادة المؤرخين العرب لمبدأ الخلق وتدرجه حتى يصل به إلى ظهور الإسلام .

ونلاحظ على هذا التقسيم أنه يكاد يستوعب سائر المعارف العربية الموروثة فى أشكالها المختلفة استيعاباً لا يترك شيئاً خارج هذه الفنون ، مما يجعل من هذا الكتاب بحق موسوعة للثقافة العربية منذ نشأتها حتى وقت تأليف الكتاب . ولكن ليس ذلك وحده ما يشكله الكتاب من أهمية ، فهناك كثير من الكتب التى تشترك مع نهاية الأرب فى هذه الخاصية الموسوعية ، من جمع المادة العربية وتصنيفها ، ولكن أهميته الكبرى تكمن فى هذه الحقيقة التى تتمثل فى أن المؤلف جمع مادة الكتاب من مصادر ضاع أكثرها ولم يعد بين أيدينا من مادتها العلمية إلا ما دوّنه النويرى من مقتطفات أخذها منه ، ويكون الكتاب بذلك ، فضلا عن موسوعيته فى تدوين الثقافة العربية ، قد حفظ لنا قدراً من الثقافة الموروثة التى كان من الممكن أن تضيع لولا أن جمعها النويرى فى كتابه هذا .

فإذا ما تركنا هذا الجانب التاريخى من عمل الباحثة فى دراسة الكتاب إلى الجانب التحليلى الذى قامت به فى فصول الرسالة الأخرى ، ألفيناها تعتمد على منهج يتألف من عنصرين :

الأول : جمع العناصر المتفرقة فى الكتاب تحت فكرة واحدة ، ثم تفسيرها وتقويمها فى صورها التى جمعها فيها النويرى .

والثانى : مقارنة هذه المادة بما بقى لدينا من مثيلاتها فى المصادر الأخرى.

وقد أنتجت هذه المزاوجة بين التحليل والتقويم فصولا خصبة فى دراسة مادة الكتاب العلمية ، منها المادة الأدبية التى فرقها المؤلف فى الفنون الخمسة التى أقام على أساسها هيكل كتابه ؛ فدرست الكتابة والرسائل والخرافة والأسطورة وفن التاريخ ، دراسة تفسيرية وتقويمية كما قلنا . ومنها الثقافة النقدية التى رصدتها من خلال تتبعها للنقول المختلفة فى فنون

الكتاب فى أشكالها البلاغية والجمالية ، ومقارنة هذه المادة النقدية بما جاء فى الكتب العربية الأخرى التى بين أيدينا من التراث النقدى والبلاغى .

وهكذا التزمت الباحثة بالمزاوجة بين النظرة التاريخية والنظرة التحليلية مزاوجة كان من آثارها هذه الدراسة الخصبة لكتاب نهاية الأرب ، التى أصّلت فيها آراء النويرى وفسرتها وقوّمتها .

ولا يسعنى أخيراً إلا أن أهنىء الباحثة بكتابها ، الذى يعد أول دراسة علمية موثقة لموسوعة لها أهميتها فى الثقافة العربية القديمة .

* * *

مقـــدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد — رسول الله — وعلى آله وصحبه أجمعين .

يحتل كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى مكانة بارزة فى المكتبة العربية ، الأمر الذى جعله يحظى باهتمام واسع فى الدوائر الأدبية والعلمية منذ تأليفه فى أوائل القرن الثامن الهجرى وحتى عصر النهضة العربية والإسلامية الحديثة . ولم يقتصر هذا الاهتمام بالكتاب على المثقفين العرب ، بل امتد إلى المستشرقين الأوربيين الذين وضعوا الكتاب أمامهم — منذ فجر النهضة الأوربية — فهالهم فيه هذا الكم الوافر من المعلومات والأخبار والروايات ، كما راعهم تنوّع مادته العلمية ، تلك المادة التى فتحت أمامهم آفاقاً لم يكونوا — عند ذاك — على دراية بها . وظل « نهاية الأرب » مصدراً رئيسياً لهم فى أكثر الفنون والآداب حتى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، عندما عثر على المصادر التى استقى منها النويرى مادته فى بعض الفنون كالتاريخ القديم . غير أن الكتاب لم يفقد أهميته فى فنون أخرى كالأدب ، والتاريخ الإسلامى ، والأحداث التاريخية التى عاصرها المصنف ودوّنها فى كتابه ، وكان شاهد عيان على كثير منها فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين .

ولقد كانت مصر — ممثلة فى مفكريها ومثقفيها الأعلام — هى السباقة إلى الأخذ بزمام المبادرة فى نشر هذا الكتاب الجامع ، وهذه الموسوعة

الشاملة ، نشرة موثقة ومحققة ؛ فبعد أن تم الحصول على نسخة كاملة من الكتاب ــ تتضمن واحداً وثلاثين جزءاً كانت متفرقة فى مكتبات الشرق والغرب ــ بدأت دار الكتب المصرية فى نشره على أجزاء متتالية منذ سنة ١٩٢٣ م ، فطبع منه إلى الآن (١٩٨٣ م) واحد وعشرون جزءاً وبقيت عشرة أجزاء نرجو أن ترى النور فى وقت قريب .

ولعل هذا التباطؤ فى طبع الكتاب هو الذى أدى إلى تريث معظم الباحثين فى الشرق والغرب وإحجامهم عن دراسته دراسة نقدية متكاملة انتظاراً لصدور باقى الأجزاء محققة . بيد أن واحداً من المستشرقين الروس ــ وهو كراتشكوفسكى ــ عكف فى الثلاثينيات من هذا القرن العشرين على كتابة كتيب باللغة الروسية عن « النويرى » أفاد فيه بالأجزاء التى طبعت والأخرى التى ما زالت مخطوطة ، ثم ما لبث أن لخص نتائج دراساته ونشرها فى مقال كتبه لدائرة المعارف الإسلامية ، ثم نشر النتائج نفسها ــ مع بعض الإضافات ــ فى كتابه المعروف « تاريخ الأدب الجغرافى » . لكننا إذا نظرنا إلى هذه النتائج نجدها ــ رغم أهميتها ــ تعتمد على أحكام عامة فى تاريخ الأدب ، دون التعمق فى دراسة الكتاب دراسة تحليلية نقدية .

والحق أن « نهاية الأرب » لم يحظ من جانب الباحثين العرب فى العصر الحديث ــ إلا بالتفاتة يسيرة ، حين حشروا هذه الموسوعة الهائلة ــ ونعنى بها نهاية الأرب ــ فى زمرة سائر الموسوعات التى ألفت فى العصر المملوكى ، ولم يتوقفوا عند « نهاية الأرب » بالقدر الذى يكفى للتمعن فى خصائصها والمميزات التى تفصلها عن غيرها ، مما جعل هذه الموسوعة الكبيرة التى تحتل فى كل مكتبة من مكتبات العالم موضعاً بارزاً ومكاناً متميزاً ــ تكاد تكون مجهولة الهوية لقارئها .

وانضاف إلى ذلك أن هؤلاء الباحثين اكتفوا ــ حين كتبوا عن مؤلف هذه الموسوعة الكبيرة ــ بالإشارات الواردة فى كتب التاريخ والتراجم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة الرجوع إلى الأجزاء الأخيرة ــ التى ما زالت مخطوطة من الكتاب ــ علهم يظفروا بشىء كتبه المصنف فيها عن نفسه ،

الأمر الذى جعل مجال الحديث عن حياة النويرى وثقافته يضيق أمامهم ، لضآلة المعلومات التى أوردها عنه المؤرخون وكتاب التراجم ، كما جعلهم ينساقون إلى تكرار نفس الأخطاء والهنات التى وقع فيها هؤلاء المؤرخون والكتاب . ومن ثم لم يتمتع « النويرى » بالقدر الواجب من الاهتمام والتعريف بشخصيته البارزة التى أنتجت هذا العمل الموسوعى الضخم .

وهكذا ، وجدتُ أنه برغم الفائدة الجمة التى يجنيها الباحثون والمثقفون من هذه الموسوعة الهائلة فى شتى الفنون من آداب وعلوم ، بقى أمر الموسوعة ومؤلفها سراً مغلقاً ، وشيئاً غامضاً مبهماً يحتاج إلى عمل دؤوب مستمر حتى ينفتح ما أغلق فيه ويتضح ما أبهم منه .

لكل هذا صح عزمى على القيام بهذه الدراسة ، على أن يكون محورها مركزاً حول المؤلف والكتاب معاً ، مع العناية بمادته الأدبية وإرجاعها إلى مصادرها الحقيقية وتحليلها ، وعرض دوافع الكاتب من إيرادها ما أمكن ، ثم استخلاص الآراء والاتجاهات النقدية عنده .

* * *

ولما كانت الأجزاء المطبوعة من موسوعة « نهاية الأرب » — والتى تركزت دراستى حولها — تبلغ واحداً وعشرين جزءاً وتزيد فى مجموعها على الثمانية آلاف ورقة ، كان من الطبيعى أن أجمع مادة علمية ضخمة ومتنوعة تمهيدا لكتابة هذه الدراسة ، غير أنى حرصت على الإيجاز ما أمكن ، مكتفية باستخلاص الاتجاهات الأدبية وبلورة الأحكام النقدية ، وضربت صفحا عن الإتيان بشواهد من الشعر والنثر — إلا فيما ندر — وأحلت فى كل ذلك إلى مواضع تلك الشواهد فى « نهاية الأرب » .

ولقد كان اهتمامى منصباً بادىء ذى بدء على الموسوعة ومؤلفها ، فعايشت النص أطول مدة ممكنة ، ولم ألجأ إلى استشارة غيره من المصادر إلا من خلال المقارنة التى من شأنها أن توضح اتجاهات المؤلف الأدبية وثقافته النقدية .

* * *

وتنقسم هذه الدراسة إلى أربعة أقسام رئيسية ، أطلقنا على كل قسم منها اسم « باب » تندرج تحته مجموعة من الفصول ، تعالج موضوع الباب نفسه من زوايا متعددة .

فقد تناول **الباب الأول** محاولة للتعرف على النويرى – فى بيئته العامة والخاصة على السواء – من خلال استعراض أهم الملامح السياسية والاجتماعية والفكرية لعصره ، ومما كتبه هو عن نفسه وشيوخه .

واختص **الباب الثانى** بدراسة كتاب نهاية الأرب نفسه . ولما كان الكتاب بحد ذاته يعد موسوعة من أهم موسوعات الأدب العربى ، كان لابد من دراسة نشأة الموسوعات العربية وتطورها ووصولها إلى درجة النضج فى عصر المماليك ، وهو العصر الذى ينتمى إليه كتاب « نهاية الأرب » . واشتمل هذا الباب على دراسة لمميزات الكتاب من الوجهة الأدبية والنقدية ، وعلى استعراض – يكاد يكون شاملاً – لمصادره الأدبية ، وطريقة استخدامه لتلك المصادر .

واختص **الباب الثالث** بدراسة المادة الأدبية للكتاب والخصائص الفنية لكل فروع هذه المادة ، وقد تم تصنيف هذه المادة إلى خمسة أفرع رئيسية هى : الموضوعات الأدبية ، الكتابة ، الرسائل الأدبية ، الخرافة والأسطورة ، والتاريخ .

وتناول **الباب الرابع** والأخير الثقافة النقدية والبلاغية فى نهاية الأرب ، واشتمل على موضوعات ثلاثة : مفهوم النقد عند النويرى ، آراؤه النقدية ، البلاغة فى نهاية الأرب .

* * *

ولم يكن بوسعى أن أنهض بأعباء هذا العمل دون أن أحظى بمعاونة أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور إبراهيم عبد الرحمن محمد ، أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس ، الذى قدم لى من عوامل التشجيع والتوجيه والمؤازرة ما كان خير معين لى على إنجاز هذا العمل فى صورته

النهائية ، فجزاه الله عنى — وعن سائر تلاميذه وأبنائه — خيرا . كما أتقدم بواجب الشكر إلى أستاذىّ الفاضلين : الأستاذ الدكتور أحمد كمال زكى والأستاذ الدكتور عفت الشرقاوى، لما قدّماه لى من إرشادات وتوجيهات قيمة فى الموضوع .

كما أقدم خالص شكرى وعرفانى إلى زوجى الأستاذ الدكتور محمد السعيد جمال الدين ، فقد قدم لى يد العون والمساعدة ، وأفادنى بإرشاداته القيمة ، وتحمل الكثير من الأعباء حتى خرج هذا العمل على هذا النحو ، فجزاه الله عنى خير الجزاء .

والله ولى التوفيق .

أمينة محمد جمال الدين